
١٩٩٣
٢٠١٣
مكتبة
بغداد
أحمد سعداوي
بابُ الطباشير
منشورات الجمل
رواية

أحمد سعداوي

بَابُ الطَّبَاشِير

«سَبْعُ تَعَاوِيذَ سومَرِيَّةٍ للخَلاصِ مِن هَذَا العَالَم»

رواية

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحمد سعداوي: روائي وشاعر عراقي. مواليد بغداد ١٩٧٣. صدر له: **عيد الأغنيات السيئة**، شعر، مدريد ٢٠٠١؛ **البلد الجميل**، رواية، بغداد ٢٠٠٤، حازت الجائزة الأولى للرواية العربية في دبي ٢٠٠٥؛ **إنه يحلم أو يلعب أو يموت**، رواية، دمشق ٢٠٠٨، حازت جائزة هاي فاستيفال ٢٠١٠، بيروت ٣٩. حازت روايته **فرانكشتاين في بغداد** جائزة البوكر للرواية العربية ٢٠١٤.

أحمد سعداوي: **بَابُ الطَّبَاشِير**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2017
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

حَيْنَ سَمَعَهُ الآلِهَةُ ارْتَبَكُوا،
اسْتَوْلَى عَلِيْهِم الصَّمْتُ، فَجَلَسُوا وَاجِمِين.
ذو الْفَهْمِ الثَّاقِب، الحَكِيم، الحَاذِق،
«أيا» المُلِمُّ بِكُلِّ شيءٍ، أَدْرَكَ خُطَّتَهَم.
أَعَدَّ دَائِرَةً سِحْرِيَّةً مُضَادَةً لَهَا
أَلَّفَ بِمَهَارَةٍ رُقْيَّةً مُقَدَّسَةً لا عَاصِمَ مِنْهَا.
أَنْشَدَهَا، وَجَعَلَهَا تَطْفُو فَوْقَ الْمَاء.

* قِصَّة الْخَلِيْقَة البَابِلِيَّة؛ إينوماعليش

أَتَمَنَّى لَو كُنَّا فِي سَيَارَتي
وَأَنْتِ مَنْ بَدَّلَ نَاقِلَ الْحَرَكَة
كُنَّا سَنَجِدَ أَنْفُسَنا فِي مَكَانٍ آخَر
عَلَى شَاطِئٍ مَهْجُور
أَو رُبَّمَا عُدْنَا إِلَى حَيْثُ كُنَّا مِنْ قَبْل.

* جوزيف برودسكي

«قَدْ يَكُونُ هَذَا الْعَالَمُ جَحِيْمَ عَالَمٍ آخَر.»

* ألدوس هكسلي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

الميّت الحيّ

ـ ١ ـ

حين ألقوني في هذه الزنزانة العَفِنَة، رأيتُ، على أضواء النّهار الشّحيحة، باباً مرسوماً بالطّباشير على الحائط. كان قد رسمه، كما بدا لي، سجينٌ سابقٌ مرَّ من هنا. ربَّما مات قبل أن ينجح في فتحه، أو فرَّ منه. لا أدري! لم أَمْحُ الباب المستحيل حتى لا أُضيِّق الخيارات التي عندي. وحتى لا أشعر بالعزلة.

ـ ٢ ـ

كان ذلك قبل أن تأتوا وتتكدَّسوا هنا يا زملاء هذه الزنزانة العَفِنَة، يا أصدقائي النّشّالين والمزوِّرين والقتلة وسارقي اسطوانات الغاز المنزليّة، وشاتمي الرئيس في غفلة وسَوْرَةِ انفعال، أو المروِّجين للنُّكات البذيئة عنه وعن عائلته وقيادته القُطريّة. أيُّها المنتظرون، معي، مصيراً أسود، يُصارع بعتمته خيوط الفجر الأولى.

أنتم محظوظون لأنني هنا معكم في هذه الزنزانة القبيحة الغارقة في الظلام. تستمعون لي وأنا أعطيكم درساً أخيراً في الحياة لن تستفيدوا منه على ما يبدو، لأنكم لا تعرفون مقدار الحياة المتبقِّية لديكم أصلاً. تتشمّمون داخل هذا العمى الشامل روائح أجسادكم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مثل ضوارٍ وحيوانات محبوسة تبحث بأنفها عن الطريق، ولا تلتقط أنوفكم المرهفة، في نهاية المطاف، إلا رائحة الوقت الشحيح الذي ينفد بسرعة، ويقترب بكم وبي حثيثاً نحو حائط الرصاص أو منصّات الاعدام.

لا تُبَحْلِقُوا بي بهذه الطريقة، وكأنني قلت شيئاً عجباً. وكأنكم لا تعرفون ما ينتظرنا هنا. ثم ما فائدة البَحْلقة في الظلام؟ أنا لا أعرف حتى، أصدقكم القول، إن كنتم تنظرون باتّجاهي أم باتّجاه الكوّة أعلى الحائط المرسومة بلطخة نور باهت.

لا أعرف إن كنتم تنظرون إلى شيءٍ محدّد، أو هل غطس نصفكم في النوم منذ وقتٍ من دون علمي؟ إني أتحسس وجودكم من خلال تنفُّس بعض الصدور المخَرْخِشَة، أو بعض الهمْهَمَات والتأوُّهات التي تصدر دون إرادة من أولئك الذين تلقوا ضرباً شنيعاً خلال الأيام الماضية، فتورَّمت أجسادهم، وانْرَضَّتْ عظامهم وصار الهدوء أفضل ما يمكن أن يقومو به، أما محاولة تحريك اليد او الساق المتخدِّرة من ثقل الجسم عليها، كما أتخيَّل، فهو إيذان بتدفّق موجة ألم كأسْيَاخٍ حامية تنغرز عميقاً.

هل أنتم نائمون؟ لماذا لا يردّ عليَّ أحد؟ لقد شتمتكم في بداية كلامي ولم أتلقَ اعتراضاً؟ هل بلغ بكم الاستسلام حدوده القصوى؟ قد يقول قائلكم عنّي؛ أنه رجلٌ مسكين، شبه مخبول، من كثرة التعذيب والصدمات الكهربائيّة على خصيتيه، دعونا منه، فلْنَتْركه يثرثر كما يشاء. إنه ميتٌ على أيّة حال، ونحن ميّتون.

ولكني لا أتمنى أن تستسلموا، من العبث أن تستغرقوا مع أنفسكم. انصتوا لي وانسوا أنفسكم.

سيكون لديكم في القبر وقتٌ كافٍ للقيام باسترجاعات شاملة،

ومن الأفضل أن تستثمروا هذه الفرصة النادرة لوجودي معكم بالاستماع لكلماتي، فأنتم لا تملكون داخل هذه العتمة خيارات أخرى. أنظروا لي كما لو أنني كاهنٌ أو قسٌّ يقوم بغسل أرواحكم قبل مغادرتها هذا العالم. يغسلكم بيده من أدران الحياة الطينيّة الثقيلة، حتى تذهبوا أنقياء خفيفي الأرواح. وتستطيعوا بعدها التحليق بسرعة أكبر.

في الحقيقة أنا أريد الاستمرار في الكلام معكم حتى اللحظة الأخيرة، اللحظة التي سيقرِّرون فيها تصفية هذه الزّنازين السريّة، من دون تقديمنا إلى أيٍّ محاكمة، ومن دون أن يعرف أهلونا عن مصائرنا شيئاً. أريد الاستمرار بالكلام، وإلا فإني سأصابُ بالجنون حقّاً، وأفقد قدرتي على الخلاص من حفرة العَفَن هذه، والخلاص من أصوات الاشباح التي تثرثر داخل رأسي بنبرتها الخافتة المخيفة وتطالبني بالاستسلام.

ـ ٣ ـ

في وضع مُزْرٍ كالذي نحن فيه الآن، فإن أرواحنا ستذوي وتتآكل، إن لم نتزوّد بمصادر طاقة بديلة. كتعويضٍ عن تلك الطاقة التي نستمدُّها من الخارج، من الأكل والشرب وتنفّس الهواء الجيّد، والشعور بالحريّة والقدرة على الحركة والركض، والشعور بالأمان والطمأنينة، والحصول على لمسة حبٍّ ومشاركة إنسانيّة مع آخرين، وهذه كلّها أشياء نفتقدها هنا بشدّة. علينا التّنْجِيم والحفر في أرواحنا وذاكراتنا لاستخراج اللحظات الجيّدة. مهما كانت حياتنا خربةً فلا بدّ أنها تحوي لحظات جيّدة. علينا أن نسترجع صورها بصبر ونجلوها لتكون لامعةً وبرّاقة، ثمّ نحاول إقناع أنفسنا بأننا حصلنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على حصّتنا من الحياة. ولا نفكّر بالعدالة أو ننظر بعين الحسد للآخرين. التجربة الجميلة ليست هي المهمّة بحدٍّ ذاتها بقدر شعورنا بها نحن. إن كانت مجسّاتنا مرهفةً فسنحصل من الوعاء على كامل ما يحتويه.

وما دُمْتُم تمتنعون عن الكلام، أو حتى الاعتراض على أفكاري، أو إعطاء إشارات للقبول أو الرفض فأنا مضطرٌ للحديث عن نفسي.

كلّ شيءٍ يتكثّف عندي بالبدايات. اللمسة الأولى للأشياء تختصر الاشياء كلّها. ما زلت أتذكّر وردة الجوري الحمراء التي وضعها والدي على الصندوق الخشبي للتلفزيون العتيق، بعد عودته من عمله ذات ظهيرة. خطفتُ الوردة وبقيت أتأمّل التفافات أوراقها، ولونها المميّز، ثم دسست أنفي في وسطها، وسحبت شهيقاً بطيئاً. تشبّعت برائحتها، وكانت شيئاً مبهراً. شممت خلال حياتي اللاحقة، وفي مناسبات متفرّقة أنواعاً مختلفةً من الورود، ولكنّ هذه التجربة البكوريَّة هي الأكثر التصاقاً في ذاكرتي. يمكنني الآن أن أغمض عينيّ داخل هذا الظلام وروائح العَفَن، وأتذكّر الرائحة الجميلة بيسرٍ، وكأنها تتسلّل إلى أنفي الآن.

كنت أعود من المدرسة، ولأن أمّي كانت متعبةً أو مريضةً أحياناً، أو لأنني كنت متحمّساً لتجربة الأشياء والحصول على المديح بسبب اتقاني لها، كنت أركض إلى المطبخ لأقشر حبّات البطاطا الكبيرة وأعد طعام الغداء لنفسي. كنت أقطّعها لاحقاً بمهارة على شكل أقراص نحيفة، وأقليها بالزيت. ومع رشَّة ملح بسيطة تكتمل وجبة الغداء. للآن أتذكّر طعم أقراص البطاطا المقليّة هذه، وبالذات تلك التي يتغيّر لونها فيغدو داكناً من الاطراف وتتيبَّس.

أتذكّر أيضاً بسهولةٍ طعم البطاطا النيئة التي أقضمها أثناء انشغالي بإعداد البطاطا المقليّة. أعبث بها بلساني وأدوّرها في فمي وأتحسس برودتها.

حِلاقة الوجه الأولى المليئة بالجروح. الكتاب السميك الأوّل محتشد الأسطر، خارج كراريس وقصص الطفولة. أوّل مرّة أنزل فيها إلى النهر، وكيف أن شعوري كان بالمقلوب، فأنا أنزل وأغطس جسمي ببطءٍ في النهر، ولكنني أشعر وكأن النهرَ هو من يرتفع إلى جسمي ويطوِّقني بمياهه على شكل حلقة. فعلت ذلك مع صديق الاعدادية، وهو من حرَّضني على النزول إلى ضفّة نهر دجلة من جهة جسر السنك ذات صيفٍ مليءٍ بالتسكُّع وتسوّق الكتب.

أوّل مرّة أسمع فيها صوت ببغاء يتحدّث بكلماتٍ غير مفهومة. كان قد هبطَ في السادسة صباحاً على سعفة نخلة في باحة بيتنا العتيق في حيّ الفحّامة. وكنت صحوت بسبب ضغط مثانتي الممتلئة رغم أن موعد نهوضي المعتاد استعداداً للمدرسة لم يَحِنْ بعد. رأيته هناك وقد أثقل إحدى سعفات نخلتنا الوحيدة.فنزلت للأسفل. كان متعدد الألوان بذيلٍ أحمر مُشَطَّب بالأصفر والبنّي. ذعرت من المفاجأة السعيدة. وكأن الطائر خرج من كتب المصوّرات التي كنت أقتنيها وتشرح أنواع الطيور وأسماءها. كان هناك ثلاثة عشر طيراً ملوّناً بأشكال مختلفة تحت اسم واحد «ببغاء»، ولم يكن هذا يُقنعني. علمت لاحقاً أن هذا الببغاء تحديداً يُسمّى «طائر المكاو»، ويبدو أنه فرّ من قفص صاحبه في أحد البيوت المجاورة.

تسلقت الحائط المجاور للنخلة، واقتربت بلهفة كي أمسك بهذا الطائر، وحين رأى يدي الحذرة تقترب منه نقر أصابعي محذِّراً ثم صار يَلْغَطُ بكلامه غير المفهوم. يا اللّه.. من المستحيل أن أنسى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك اللحظة. لا أعرف إن كان شتمني أو أعطاني نصيحةً معينة. أستطعت الإمساك بريش ذيله لكنه تحرّك وأفلت منّي، ثم أفرد جناحيه العريضين وطار، وتركني أقاوم رغبة حرّاقة بالبكاء بسبب الشعور بالخسارة.

لاحقاً، وفي سوق الغزل، تعرّفت على طيور شبيهة به، ولكنها لم تكنْ تتكلّم، وبسبب أسعارها العالية لم أفكِّر حتى بشراء واحد، فما الذي سأفعله مع طائر مماثل، كيف يأكل ويشرب، وهل سأرتاح لوضعه مقيّداً من دون أن يمنحني ذلك متعةً واضحة؟

لن أنسى أيضاً ملمس الأوراق الصفراء الناصعة لزهرة عبّاد الشمس التي زرعتها لأوّل مرّة. وغصنها الاخضر الداكن المكسوٌ بدبابيس بيضاء ناعمة صغيرة، سرعان ما تنهار تحت لمسة اليد مع منحها شعوراً بملمسٍ خشنٍ أو وخزاتٍ خفيفةٍ على الأنامل.

- ٤ -

أتذكَّر القُبْلَة الأولى. كانت من فتاةٍ أكبر منِّي ببضع سنوات. كنت على حافَّة المراهقة، ولكن هيأتي تشير إلى أنني ما زلت طفلاً، وكان يفترض بتلك الفتاة أنها تُدرّسني كتاب الرياضيات. وضعتني في حجرها ذات نهار، ونحن في الطابق الثاني في بيت أهلي بمحلَّة الفحّامة، نجلس عند فتحة باب الغرفة وصارت تُقَبِّلُني قُبُلات عميقة. لم أكن أعرف أنها تُهيّج نفسها بهذه الطريقة. لم أقمْ بردّة فعل واضحة. لكني بقيت النهار كلَّه منتصباً. وصرت أنتظر أن تأتي من بيت الجيران المجاور لإعطائي درس الرياضيات، وأيضاً قبلها المحمومة المفاجئة، والتي كانت مثل فاصل إعلاني بين فقرات التدريس المملَّة.

بقيت أتذكَّرها فترةً طويلة، أتذكَّر أنفها الكبير ووجهها المرقّط بحبّ الشباب، شعرها الاحمر الملتفّ وفمها المنفرج بشفتين نافرتين تشتهيان التقبيل. وحين عرفت بعد زمنٍ ما هي الاستجابات المناسبة من قبلي في تجربة من هذا النوع، كانت هي قد اختفت تماماً وكنت قد صرت على حافَّة الشباب.

أمّا المرّة الأولى التي ألمس فيها جسد امرأة عاريةٍ وأتحسّسها بيديّ، فجاءتْ متأخِّرة، بعد انتهاء امتحانات البكلوريا، برفقة أحد أصدقاء المدرسة. ربَّما تسخرون منِّي حين أقول إن اندفاعي لهذه التجربة لم يكن بسبب ضغط الغريزة وإنما لدوافع فلسفيّة!

نعم، كنت بسبب عزلة القراءة والتأمُّلات بعيداً عن فرص الحصول على تجربة مماثلة، كما هو الحال مع أقراني. وظلَّت المعرفة الناتجة عن الخبرة المباشرة في هذا الموضوع تحديداً لُغْزَاً بالنسبة لي.

قادت الأحاديث في هذا الموضوع مع صديق لي إلى استعراضه لأماكن المتعة في بغداد، ثم اعترف لي بأنه يعرف مكاناً شبه سرّيٍّ وغير معروف بالنسبة للكثيرين، وقد قصده أكثر من مرّة لأنه أنظف وأكثر أماناً وراحة من غيره، رغم أن أجوره مرتفعة قليلاً.

ظلَّ الموضوع يدور في ذهني، حتى صادفت هذا الصديق ذات ظهيرة حامية وهو يلوّح لي بيده من بعيد. حين وصلت إليه قال لي بأنه ذاهب إلى هذا المكان، ولم أفكِّر كثيراً حين اتّخذت قرار مرافقته.

كان فندقاً منزويّاً بدون رقعة تعريف يشغل الطوابق العليا في عمارة عتيقة بشارع الرشيد. يُواجهك باب صغير من فردتين يُطِلُّ على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشارع، ويُؤدي إلى سُلّم يقودك إلى استعلامات الفندق في الطابق الأوّل. تؤجّر غرفةً في الفندق، ثم حين تدخل إليها يأتيك السمسار بعد لحظات ويقدِّم لك عروضه، فإن كنت تطلب مواصفاتٍ عامّة سيأتي بطلبك على وفق مزاجه. كأن تطلب فتاةً سمينةً، أو بيضاءَ، أو نحيفةً، صغيرةً، كبيرةً، وما إلى ذلك. أو؛ تطلب منه أن يعرض الفتيات اللائي عنده وتختار منهنّ. أمّا في الحالات التي تأتي فيها بصديقتك معك ولا تحتاج إلى فتاةٍ منهم، فإن الفندق يأخذ منك الأجرة كاملة أيضاً.

كانت تجربتي الأولى مع الجنس الكامل، ولم أعد إلى هذا الفندق ثانيةً. كنت أرغب بالمعرفة والتعرّف وحصلت عليهما، ربما بطريقة غير مناسبة أو وافية، ولكني مع هذه التجربة علمت شيئاً من نفسي؛ لا أرغب بجسد امرأة إلا إذا كانت حبيبتي. لن أشعر بالشبع والمتعة بالطريقة التي كان يتبعها صديقي.

بالنسبة لتجربة أولى من هذا النوع، فإن نصيحتي لكم يا زملاء الزنزانة العفنة، إن لم يكن بعضكم قد عايشها، وإن كان لنا أن نخرج من هنا يوماً، هو أن تختاروا بعناية من تفقدون معها عذريتكم، لأن هذه الذكرى ستبقى حاضرةً معكم على مدى الحياة.

ما زلت حتى الآن قادراً على استحضار الملمس الناعم للأثداء الرخوة الصغيرة شاحبة البياض للبنت التي استلقت على السرير أمامي، مع شعر عانة نابت، ومكياج كثيف على الوجه. أتذكّر ملمس شعرها المتيبّس بتسريحة على شكل كُرَةٍ أعلى الرأس بسبب مثبت الشعر. أتذكَّر كلَّ شيءٍ فيها، وأتذكَّر ما فعلت أنا، ولكنني للأسف لا أستطيع أن أتذكَّر طعم اللذّة وقتها.

أحببتُ ممثلاتٍ مثل المصريّة شريهان في فوازيرها الرمضانيّة، وصابرين في أولى إطلالاتها، أجنبيّات مثل بروك شيلدز. لم يكن الجسد يجذب انتباهي أوَّل وهلةٍ وإنما تقاطيع الوجه. أحببت طالبات يقطعن الشارع أمام باب منزلي، فتاة رأيتها في متحف الفنون، أثناء زيارة مع أصدقاء. بنت جيران مراهقة، كُنَّا نلتقي وجهاً لوجه للحظة وجيزة أثناء قدومها من السوق الشعبيّة، وأنا أسير باتّجاه معاكس، نتبادل النظرات والابتسامات، من دون أن نتوقّف ونُكمل مسيرنا، حتى نعبر مسافة عدّة أمتار فنقوم كلانا بالتفاتة واحدة. ونتبادل الابتسام للمرّة الثانية. كرّرت معها هذا العمل الساذج الأخرق عشرات المرّات. وكان انتظاري لحدوثه وكأنني أتوقَّع حصول معجزة. كانت هذه المصادفات التي تشبه تجاور قطارين على سكَّتين باتّجاهين متعاكسين، كافيةً جدّاً لدفعي نحو سماع الأغاني والغطس بخيال شاسع معها.

تبادلنا لاحقاً رسائل ورقيّة، وساعدنا نزار قبّاني كثيراً، ثم اختفت فجأةً من دون أسباب. لم تعد تخرج من البيت، ولم أكن شجاعاً بما يكفي للمرور أمام بيتها مثلاً، أو محاولة السؤال عنها.

لكنَّ هذا كلّه لا يمكن أن يكون حبّاً، إنها أشبه بالتمارين الضروريّة لاستشعار الحبِّ لاحقاً، بعد أن يكبر قلبك ويصبح الحبّ الطفولي والساذج والتعلُّق بأشباح الفنانات غير كافٍ لملئه.

الحبُّ الذي يمكن أن أصفه بأنه حبّي الأوّل الحقيقي، عشته هناك، في أروقة قسم السمعيّة والمرئيّة في كليّة الفنون، في صيف ١٩٩٣ بالسنة الثالثة من الدراسة، مع «ليلى حميد» قبل تسع سنوات تقريباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٦ -

لَّمْ تَكُنِ المشاعر واضحة في البداية، كُنّا زملاء دراسة، وكنت وقتها قد طوّرت شخصيتي كفيلسوفٍ وحكيمٍ ونبيٍّ لمجموعة أصدقاء مقرّبين. كنت الأكثر ثقافةً بينهم، وكنتُ هادئاً ولطيفاً واستمتع بسلطتي الرمزيّة على أصدقائي، حتى دخلتْ ليلى حميد بيننا.

كانتْ تحاول منافستي على موقعي، وتتبجَّح بالكتب التي تقرؤها والتي تأخذها من مكتبة أبيها الكبيرة، وأدّعت أن والدها يكتب رواية طويلة تدور أحداثها في العهد الملكي، وأنه يحتفظ بسجلات سريَّة عن تلك الفترة.

كنت غير مرتاحٍ لشخصيتها المدَّعيّة، ولأنها أحرجتني أكثر من مرّة. لم تكنْ تقبل التنازل عن آرائها ووجهات نظرها. لم تعجبني هذه الصفة فيها، ولكني شيئاً فشيئاً وجدت نفسي أبحث عنها، وأرغب بهذا العراك والتنافس الخفي.

أقف في الأيام الشتائيَّة بحجة البحث عن حرارة الشمس عند حائط كافتريا الاساتذة، منضمّاً إلى آخرين يُفضلون هذا المكان لكونه مكاناً جيداً للمراقبة، وأبقى مثلهم، أبحث بعينيّ عن حبيبتي المفترضة، هل ستخرج من قسم السمعيّة والمرئيّة، أم تدخل إلى كافتريا الطلبة.

أنظر إليها بتنُّورتها الْكِيْلُوت وهي الموضة الرائجة في تلك السنة، وهي تحمل قدحها، مثل بقيّة البنات. لشرب الماء أو المشروبات الساخنة. نسخر من هذا القدح، وربما نسرقه، في لحظات غفلة. نصنع منه موضوعاً للمشاكسة. نتشارك في الْلَمْزِ والْغَمْزِ تجاه بعض الاساتذة الذين يرتدون الزيتوني ويقفون بأسلحة خفيفة أمام باب الكُليَّة لإقامة سيطرات تفتيش عن الهاربين من الخدمة

العسكريّة، وكأنها من مهمّات أساتذة الفنون! ونتحاشى الوجوه المريبة التي تجلس في الكافتريا، ونخمّن أنهم طلبة مزيَّفون، ضباط أمن تمَّ إقحامهم في الكليّة من أجل المراقبة الأمنيّة. أحرص أن أكون بجوار ليلى حين يدفعنا الاساتذة دفعاً للذهاب سيراً حتى بناية اتحاد الطلبة في الوزيريّة للمشاركة في تظاهرة حزبيّة ضد «العدوان الاميركي».

كُنَّا نجد الوقت أحياناً للذهاب مع مجموعة الأصدقاء إلى حفلات موسيقيّة في المعهد الثقافي الفرنسي، أو عروض خاصّة لأفلام في مركز الفنون. نقضي ساعاتٍ بثرثراتٍ طويلة حول مسرحيّات يقدمها الأساتذة في الكليّة، وأتذكَّر منها مسرحيّة «خطوةٌ من ألف خطوةٍ وخطوة» لأستاذنا بدري حسون فريد، أو نتدرَّب على مسرحيّات نمثلها سويةً. وحين اقترب موعد تسليم أطروحتي الجامعيّة، أقنعت ليلى بالتمثيل أمام كاميرتي البدائيّة. جعلتها بطلة فيلمي القصير.

كُنَّا نتصوّر أننا سنغدو فنانين وممثلين بعد التخرّج. وبعضنا أصبح كذلك بالفعل. لكن حياتي أنا ذهبت بمسارات أخرى مختلفة.

كنت مشوّش الذهن، مثل أيِّ شابٍ بعمري، بفتيات أخريّات، وأرى نفسي معهنَّ في خيالاتي الجنسيّة، ولكنّ ليلى صارت تُزيحهنَّ بهدوء، ودون قصدٍ منها ربما، حتى صرت أتخيّل نفسي معها دائماً بشعرها الأسود الملتفِّ، الذي تسرّحه على شكل حلقاتٍ متموِّجة، والذي يُذكّر بشعر الممثلة هند كامل، وبشرتها الحنطيّة الصافية. استخدامها الغريب للماكياج، ضربات خفيفة هنا وهناك ربما تنجزها أمام المرآة في ظرف دقيقة لا أكثر، مع سهمين صغيرين باللون الازرق الداكن على حافّتي العينين، يجعلان عينيها الناعستين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكأنهما أطول. كنت ألاحظ كلَّ ذلك بسهولة، غير أنني وعلى مدى سنتين، لم أشعر أنها توليني اهتماماً خاصّاً. كانت ترافق الجميع، والصديقة الأقرب للجميع، وكان من الصعب أن ألاحقها لأعرفَ من هو حبيبها بين هؤلاء الزملاء، وهل لديها حبيب فعلاً أم لا. كما أن كبريائي السخيف كان يصنع حاجزاً تجاه الآخرين. لم أكنْ أرغب أن أبدو ضعيفاً، أو محتاجاً للآخرين. أنا الذي يأتون إليَّ لأمنحهم نصائح عاطفيّة، أو ملاحظات على سلوكهم، وفي بعض الأحيان أستغرب كيف أنهم كانوا يصمتون ويطرقون إلى الأرض وأنا أوبخهم وأُبهذل أحوالهم.

لَمْ يَكُنْ سهلاً عندي أن تجلس ليلى بينهم وتخبرهم بأن «علي ناجي» قد اعترف لها بحبّه وأنها صدّته. سينهار عرشي الافتراضي وأغدو أضحوكةً ومصدر سخريّة للجميع. أنا الملائكي الذي لا يتحدّث عن حيوانه الشخصي الراقد فيه أبداً، ويَقمعه دائماً ويُروّضه، ويَحسده رفاقه من الذكور على هذه القوَّة والجلادة. إنْ لَمْ تأتِ ليلى بنفسها وتعترف لي بحبّها، على العكس من السلوك الشائع، فلن أقدم على أيِّ خطوة تجاهها.

وبما أن هذا خيارٌ شبه مستحيل فقد استمرَّ وضعي السخيف على جموده حتى انتهاء الامتحانات في السنة الأخيرة ثم انتظارنا للتخرّج. كنت مع ليلى في صيف عام ١٩٩٤ في مهرجان الأفلام القصيرة التي أنجزناها كطلبةٍ ضمن متطلّبات التخرُّج. وكنت معها ونحن نستعدُّ للامتحان بالمواد النظريّة، ولو كان هناك من يراقبنا لأحسَّ أن هناك شيئاً خاصّاً يجمعنا. ورغم يأسي من نفسي، إلا أنه في تلك الفترة تحديداً حصلتْ انعطافةُ مثيرة.

كان صديقي عبد العظيم، الذي تركنا في السنة الثالثة من

الدراسة وتحوّل إلى الكُليَّة العسكريّة قد زارنا في يوم الامتحانات الأخير وهو من اقترح على مجموعة الأصدقاء أن نحتفل بهذا اليوم المميّز بالذهاب إلى مدينة الالعاب في حديقة الزوراء. وافق الجميع بحماسة على مقترحه مع شعورهم بالتحرُّر من ضغط الامتحانات، وكنت متحمِّساً أيضاً.

حين وصلنا كانت مدينة الألعاب شبه فارغة في ذلك اليوم، وليست كما تبدو في أيام الأعياد أو المناسبات. بقينا نتحرَّك بين الالعاب المختلفة. دفعت ليلى على الارجوحة مع انقباضٍ شديدٍ في قلبي، وكانتْ تضحك بسعادةٍ طفوليّة. قضينا ساعةً في التجوال العشوائيّ حتى وصلنا إلى لعبة الاخطبوط الحديديّة الكبيرة، لم أكنْ متحمّساً للركوب فيها مثلما اندفع الجميع، ورغبت لو أبقى أراقبهم، ولكن ليلى نادت عليّ لأركب معها في كابينة واحدة. نظرت إلى الآخرين لعلّهم انتبهوا إلى إشارة الخصوصيّة في دعوتها، ولكنهم كانوا منشغلين بأنفسهم وهم يركبون في الكابينات ويغلقون الأبواب الحديديّة الصغيرة خلفهم ويضحكون ويطلقون التعليقات الساخرة على بعضهم البعض الآخر.

صعدت إلى الكابينة وأغلقت ليلى الباب الحديدي، وقبل أن يضغط مشغّل اللعبة على زِرِّ التشغيل تحسّست هذه «الأول مرّة» جيداً، التي أحدثكم عنها، فهذه أوّل مرّة تكون ليلى على هذه المسافة من القرب منّي. كان جسدانا يكادان يتماسان ويتلاصقان في أكثر من مكان، أثناء محاولتنا اتخاذ وضع ثابت وآمن قبل دوران اللُعبة، التي ستتحرّك على الأرجح بطريقةٍ مدوّخة، فأوّلاً ستدور الكابينة حول نفسها، ثم تدور الكابينات كلّها على شكل دائرة، ثم يتغيّر محور اللُعبة يميناً وشمالاً. الأمر كلّه يشبه حركة المجموعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشمسيّة، مجموعة دورانات متراكبة مع بعضها البعض الآخر، فضلاً عن دوراني الشخصي الذي تحسّسته قبل أن يبدأ أيُّ شيء. دوران الدماء في صدري الذي يبعث الرهبة والخدر مع مشاعر أتحسّسها لأول مرّة بسبب القرب الشديد لليلى. حتى أنها لم تمانع حين أمسكتها من زندها لتثبيتها على جانب من جوانب الكابينة الضيقة، ونحن نضحك وأحاول أنا إبعاد نظري عنها باتّجاه ما يفعله أصدقائي في تلك اللحظة.

لم يركب عبد العظيم وإنما وقف بجوار مشغّل اللُعبة، وطلب منه، بخبث، ألا يلتزم بوقت الدقيقة والنصف الصحّي، ويدع اللُعبة تدور لوقتٍ أطول حول نفسها. هذا ما عرفناه لاحقاً حين أجبرنا عبد العظيم على الاعتراف.

أتذكّر أنني جئت مع أخي الصغير «عمّار» إلى مدينة الألعاب قبل عقد من السنوات، وربما ركبنا في الالعاب كلّها، ولكني لا أحتفظ بذكرى مميزة عن هذه اللُعبة تحديداً، وربما ما حدث هو التالي؛ لقد محت ذكرى اللعبة مع ليلى أيَّ ذكرى خاصّة باللُعبة سابقاً.

دارت اللُعبة ببطءٍ وأصدرت أصوات صرير حادّة، ثم بدأت الاذرع الاخطبوطية للُّعبة ترتفع عن الارض، قبل أن تبدأ الكابينات بالدوران على نفسها. تزايدت سرعة اللعبة، وصار قطر الدائرة التي صنعتها مروحة الحركة بالكابينات يميل شمالاً ويميناً ليضاعف من الدورانات المتعدّدة.

كنت أسمع صراخ زملائي من البنات والشباب وهو يأتي متموِّجاً مع حركة الكابينات التي صارت تزيد من سرعتها وتكتمل بكل دوراناتها المتعددة، وأترك نفسي تستسلم لقوّة الطرد المركزي، حتى صرت غير قادر على تحريك نفسي إلا بصعوبة، ثم شعرت بأني أنزل

إلى الاسفل، ورأيت ليلى كيف تهوي إليّ لتلتصق بجسدي وتصيح، لم يكن التصاقاً وإنما التحاماً، وبعد دقيقة كانت كافية لإصابتنا بدوارٍ شديد، وجدتُها تمسك بي من كتفيّ ثم تعدّل من وضعيّة الالتصاق العشوائي لتغدو احتضاناً مقصوداً.

كان وجهها أمامي حين تبادلنا القُبَل. لم أعرف بالضبط من تجرَّأَ أولاً لفعل ذلك. أنا الذي إنهارتْ دفاعاتي السابقة بسبب الوضع الطارئ الخاص داخل كابينة الأخطبوط الحديدي، أم هي لسببٍ ما، أو ربما اندفاعات اللُعبة وتحريكها لجسدينا هي التي أغرتنا. بقيت أدور شفتيّ على شفتيها، واحتضنها، منفصلاً عن العالم كلّه في قُبْلَة عميقة. وكأني أدخل مع ليلى في دورانا الخاص الذي أوقف الدورانات كلَّها.

- ٧ -

هل تعرفون ماذا حصل بعد ذلك؟ أنتم لا تردّون عليَّ يا أصدقائي النّشّالين والقتلة وشاتمي الرئيس، لذلك لا أجد دافعاً ما لإكمال القصّة. لا يردّ أحدٌ منكم حتى ولو بِتَنْهِيْدَةٍ بسيطة. هل نِمْتُم جميعاً، أم أنكم تسلّلتم دون أن أشعر إلى خارج هذه الزنزانة العفنة والمعْتِمَة؟

لا أعرف كم مضى لي من الوقت هنا، ولكني سمعت سجّانين يتحدّثان من بعيد. سمعت صوتيهما بوضوحٍ بسبب الهدوء المطْبِق هنا، كانا يذكران شيئاً عن احتشاد الجيوش وقرب بدء الحرب، وأن الأوضاع لا تُبشّر بخير.

أتمنى أن تحدث أيُّ كارثة، حتى ينتهي هذا الكابوس الذي نعيش فيه. على الأقل بالنسبة لكم يا أصدقائي، تعودون إلى عوائلكم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتتحدّثون معهم عن فظاعة «الأشياء الأولى» التي مررتم بها هنا. تباركون نعمة الحياة التي تعيشونها، حتى لو كانت بسيطة وشحيحة بمصادر الفرح والأمل. تتشبّثون بأسنانكم وأظافركم بأيٍّ نسمة هواء نظيفة.

بالنسبة لي أنا «الْمَيْتُ الْحَي» والذي لا يضيره إن كانت الحياة أم الموت هو ما سيأتي إليه، لن يغيّر عندي من شيء أن آمل أو أيأس.

هل تفهمون ذلك يا أصدقائي المجرمين؟

آه.. ربما عليَّ أن أفهم أنا ألا أحدَ هنا معي في الزنزانة، وأنكم ربما سبقتموني إلى إطلاق السراح، أو منصّة الإعدام.

الفصل الثاني

الدَّفتَرُ الأسوَد

- ١ -

كَانَتْ أيام السجن القصيرة لعلي ناجي - من منتصف ٢٠٠٢ حتى إعلان العفو العام في ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٢ - تمر عليه أحياناً مثل كابوس ثقيل، ولكن بعد سنوات صار تذكُّرها لا يستثير عنده مشاعر خاصّة، وكأن الاستدعاء المتكرّر لما عايشه من أحداث فظيعة غدا يشبه عصرَ ليمونةٍ تمَّ عصرها عشرات المرّات سابقاً، وما عاد فيها أيُّ «رحيق» انفعالي خاصّ، حتى صار وكأنه يشاهد شريطاً لفيلم يتحدّث عمّا جرى للآخرين وليس له، وبالذات مع عملية العصر واسعة النطاق التي قام بها الشعب كلّه خلال عقد كامل، من ٢٠٠٣ وحتى ٢٠١٣.

لم تعد هذيانات علي عن فترة حبسه القصيرة ذات وزن أزاء القصص العجيبة المرعبة التي سمعها لاحقاً، وتدفّقت بقوّة في حفلة العصر الوطنية الكبرى. إن قصّته، في أفضل الأحوال، مجرد قطرة حمضيَّة صغيرة في بحيرة الليمون الوطني المتلاطمة.

خلال عشر سنوات شاهد علي أن «مِعْصَرة» الآلام الوطنيّة لم تتوقّف وكانت تستمرُّ بعملها بكفاءة. صارت هناك أنواعٌ من الليمون، تتوزّع بين كلِّ طائفةٍ وعرقٍ وجماعةٍ عراقيّة. والكلُّ صار يتراشق بحمض الآلام، ويحرقون أعين بعضهم البعض الآخر خلال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التراشق. وبعضهم يرفع وعاءه الشخصي من العصير كي يقدم الدليل على أنه أكبر وأغزر من ليمون الآخرين.

انتقل عَلي خلال ذلك، في عمله الصحفي والاذاعي، من محاولة صناعة كوكتيل من العصائر الوطنية، والاستدلال على أنه هو العصير الوحيد الاكثر شرعيّة، وأن قطرات الجميع تسهم في صناعة «المذاق» الوطني، لينتهي إلى تبرُّمه من هذا العصير الخيالي المقرف، ثم انتقل بعدها إلى شرب القهوة!

يضع علي، قُبيل بدء ساعة البثّ المباشر، قدح النسكافيه المُرَّة قليلةَ السُّكّر، بجوار مايكرفونه في غرفة الصوت، رغم تحذير مخرج البثِّ من مخاطر إدخال المشروبات إلى هنا، ويبدأ بأخذ رشفات قصيرة، قبل أن يرفع المخرج يده له للاشارة إلى بدء البثّ.

يعرف المخرج أن عَلي صار يشرب القهوة قبيل بدء ساعة العمل الليلي لأنه يظنُّ أن القهوة تطرد قليلاً من خدر المشروبات المسكِّرة، التي إعتاد عَلي على تناولها يومياً منذ الظهيرة، على شكل دفعات صغيرة، ثم يزداد الأمر خلال ساعات الليل، إلى الحد الذي ما عاد فيه قادراً على التركيز، أو السيطرة على ما يقول.

في ليلة من ليالي البثِّ الحيّ المميّزة، لم يكن هناك نسكافيه ولا أيّ شيء، وانفتح عَلي بالكلام، وهو في أغلبه تعليقات سياسيّة على أحداث جارية، إلى حدِّ الشتائم المقْذِعة.

أوقف المخرج البثَّ المباشر، وحوّله إلى أغنيات، ثم خرج من الاستوديو غاضباً وصار عَلي يلاحقه لكي يعتذر، ولكن الأمر صار يتكرَّر أكثر من مرّة، ولأن مخرج البثّ شعر بأن مدير الاذاعة لم يكترث لهذا الأمر، وكذلك مالكها المقيم في ديترويت، فقد غض النظر، وترك عَلي يهذي ويهذر بما يشاء.

يعرف علي وزميله مخرج البثّ وكلُّ العاملين معهم في إذاعة «الموقف» أن هذه الاذاعة ليست سوى واجهة لنشاطات أخرى لمالكها، وأنه ربما أخذ بسببها أموالاً وتبرُّعات من منظمات أميركيّة ودوليّة تدعم مشاريع التثقيف بالديمقراطية وما إلى ذلك من هُراء سائد. ومن الصعب التصديق أن هناك جمهوراً واسعاً يتابع ما تبثّه هذه الإذاعة، وسط نشاط عشرات القنوات الفضائيّة وبهرجة الصورة، ومواقع التواصل الاجتماعي. كما أن هناك تعبيراً شعبياً يُفسِّر جانباً من الصورة العامّة؛ «يربط مغذّي»، بمعنى أن جمهور إذاعة أو قناة فضائيّة معينة، يرتبط معها كما يرتبط مريض ما بأنبوب المغذّي. ولن يتحوّل عنها إلى خيارات أخرى بالآلاف، إلا بالمصادفات، أو للفضول لا أكثر.

ما هو حجم الجمهور الذي يربط مغذّي مع إذاعة «الموقف» إذن؟ ومن يستمع إلى هراء علي ناجي الليلي؟ إنهم شيءٌ ضائعٌ يزحف بصعوبةٍ مبتعداً عن نسبة الصفر بالمئة. هكذا يؤمن علي ناجي، وهكذا ظلَّ يحاجج زميله مخرج البثّ مع بداية إنطلاق شتائمه المقذعة.

- حتى لو غنّينا «بَلِي يَا بَلْبُول» لن يكترث أحدٌ.. بصحّتك.

- إسْكَرْ أنت وحدك، لانني لو فعلت ذلك لن يكون هناك بثّ.

تغيّر برنامجه الليلي تدريجياً ليكون مجرد فُوّهة مدفع لشتائم جديدة ومنوّعة تجاه كلِّ السياسيين ومن يقف خلفهم. ثم مع دهشته، صار يتلقى ملفات على بريد البرنامج، تضمُّ فضائحَ لسياسيين، ثم انتبه لاحقاً أن هناك من يتابعه فعلاً. امتدح مالك الاذاعة الاسلوب الجديد الذي اتبعه علي، فهو يجلب متابعين أكثر على ما يبدو، وهناك مقاطع مسجّلة من هذر علي تنزل على اليوتيوب أو مواقع التواصل الاخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن مدير الاذاعة المقيم في بغداد كان قلقاً. أن علي بذلك يضع الاذاعة وسط لُجّة الخصومات السياسيّة، وأساليب حلّها المعتادة، التي تكون أحياناً بالتصفيات الجسديّة، ولم يكن يرغب بأن يكون مع إذاعته في حفلة الرصاص الاعمى مجهول المصدر.

لم يتقبَّل زملاء وأصدقاء علي ما يقوم به. إنه يتجاوز المعايير الصحفيّة، ولا يُقدّم خدمةً لنفسه. ثم من الممكن أن يظنَّ طرفٌ سياسيٌّ ما أن كلامه مؤثرٌ ومزعجٌ حقاً، ما يستدعي إيقافه بالقوَّة، بإطلاق النار على من يثرثر به مثلاً.

كان علي يرى أن البذاءة هي الشيء المناسب للتعليق على ما وصل إليه حال البلد، أمّا التهديدات تجاه سلامته فبعد بضعة أشهر من تحوّل لهجته في برنامجه الليلي صار يستشعرها، من خلال الاتصالات المجهولة التي يتلقاها أحياناً على هاتفه والتحذيرات اللطيفة التي يرسلها إليه أشخاص محترمون في الوسط الاعلامي. وقد سَبَّهُ أحدُ المارَّة ذات يوم لأنه تجاوز بالالفاظ القبيحة على فصيله السياسي الذي يؤيّده. كما أنه تعرّض للكمات في تظاهرة بساحة التحرير.

حتى أكثر الاشخاص احتراماً في حياته وتأثيراً عليه؛ الدكتور واصف عبد المحيي، عالم الآثار والسومريَّات المتقاعد، حينما كان يتصل به وينصحه، لم يكنْ ليؤثرَ عليه. كان يقول له بأنها وسيلتي الوحيدة لعمل شيء. فيردُّ الدكتور واصف بأسفٍ بأنه كان يعوّل عليه كثيراً، والآن صار إنساناً مختلفاً تماماً. وربما بسبب هذه المساجلات الاخيرة على الهاتف والتي لم تكن مريحة لعلي، انقطع عن زيارة صديقه العجوز حتى مع علمه بأنه يعيش تحت وطأة المرض والعزلة والاقتراب البطيء من الموت.

ولكن، إلى أين يريد أن ينتهي؟ كم من الزمن يستطيع أن يصمد بهذه الطريقة، وهل يتحمَّل الآخرون صياحه الليلي من دون ردَّة فعلٍ ما؟

اشتكتْ بعض الاطراف لدى الإذاعة، ورغم الموقف المعارض لمدير الاذاعة لكلِّ ما يقوم به علي، إلا أنه لم يستطع القيام بشيء. مالك الاذاعة المقيم في ديترويت يؤيد علي ويدعمه. ويخشى المدير المقيم في بغداد أن يتمَّ استبداله بعلي في يوم ما. لذلك حاول إقناع نفسه ومن يتصل به للاعتراض إنها مجرد ساعة صراخ لا معنى له قبل انتصاف الليل، ساعة واحدة لا أكثر، يستطيع أن يبلعها، ويفترض مع نفسه عدم وجودها.

حتى جاء ذلك اليوم الذي تدخل به بعض الرجال النافذين لدى هيئة الاتصالات ووجهوا إنذاراً للاذاعة، الامر الذي دفع المدير للاتصال بمالك الاذاعة ومحاولة الوصول إلى تسويةٍ ما مع علي.

ومثل من يستيقظ فجأةً من سُكْرَة طويلة، وجد علي نفسه مكروهاً من قبل الجميع، يتعرّض لانتقادات من كلِّ الناس الذين يحبّونه. صار مشهوراً نوعاً ما باعتباره علي ناجي القبيح والبذيء. وهي صورة لم يَرَ نفسه فيها سابقاً. إنه شخصٌ مرهفٌ وفليسوفٌ بطريقةٍ ما. هكذا كان يصفه أصدقاؤه قبل أكثر من عقد. ما الذي حصل له وما الذي دفعه لهذا التغيّر العميق؟

بعد تفكير طويل شعر أنه أصيب بالتعب. لم يعد يجد دهشة ما في الموضوع، لقد استنفد كلَّ طاقته. كان يريد أن يُحدث أثراً ما. حتى اللكمات التي تلقاها في ساحة التحرير والشتائم التي وجهها الرجل المتحمِّس لفصيله السياسي، كانت في الحقيقة تُبْهِجُهُ، وتمنّى لو أنه جرى اعتقاله، أو وجه له حزبٌ أو رجلُ دينٍ تهديداً صريحاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالاسم. كان يندفع إلى نتيجة من هذا النوع بقوّة، حتى من دون أن يعلن ذلك صراحة أو يفهم المغزى العميق من ورائه.

ـ ٢ ـ

ذات ظهيرة دافئة حدث شيءٌ مثير. كان علي خارجاً من مطعم راوندوز في شارع السعدون، حين لحقه من عمق المطعم شابٌ سمينٌ وصاحَ عليه. استوقفه وسَلَّم عليه بحرارة، قال بأنه يعرفه، ويتابع برنامجه الإذاعي. كان الشاب السمين ذو اللحية الخفيفة المحدَّدة يضحك، ولا يبدو أنه ينوي ضرب علي مثلاً.

ـ بسبب هذا البرنامج أنا غيَّرت رأيي بك. كنت أكرهك بصراحة، ولكني الآن أحببتك. عرفت كيف تأثَّر أخي بك.

ـ ومن أخوك؟

ـ أمير داغر.

قال الشاب السمين، من دون أن يبدو على عليّ أنه عرف الاسم، فشرح الشاب السمين:

ـ لقد شنق أخي أمير نفسه في سنة ٢٠٠٠، بعد ليلة رأس السنة بيومين، وكان ذلك بسببك. أنت كنت تدير جمعية منتحرين أو شيئاً من هذا القبيل، وكان هو يلتقي بك، وتأثَّر كثيراً بكلامك. ومن الغريب أنك لم تنتحرْ وتركته يموت.

قال الشاب السمين ذو اللحية المحدَّدة، وتسمّر عليٌّ في مكانه مسترجعاً التفاصيل التي صارت تنبثق من ذاكرته الآن.

ـ حين علمت بحقيقة ما جرى بعد موت أخي، وعرفت بشأن جمعيتك، صرت أتتبعك وأبحث عنك، وكم غضبت لأني وجدتك حيّاً. لم يكن لديَّ سلاحٌ وقتها، ولم أرغب بأن تتعرَّف على وجهي

فتتجنَّبني في أيِّ مصادفةٍ أخرى. لقد خدعت أخي وجعلته يخسر حياته من دون سببٍ معقول، لذلك قرَّرت وقتها أنني سأقتلك.

قال الشاب السمين ذلك وكأنه يُلقي بقنبلة على علي الذي داهمه الخوف بسبب سماعه لمفردة القتل.

ـ بحثت عنك طويلاً. كنت أذهب إلى كاليري حوار في الوزيريّة، وأذهب إلى جامعة بغداد، والى كلِّ الاماكن التي كنت تلتقي فيها بأخي وأصدقائك الآخرين، ولم أعثر عليك، ثم في أواخر عام ٢٠٠٢ قيل لي إنه جرى اعتقالك من قبل الأمن العامّة. توقفت حينها، وعدت للبحث عنك بعد السقوط، وفشلت في العثور عليك، ثم أهملت الموضوع، حتى ظهرت باسمك وصوتك في البرنامج الاذاعي، وهنا تغيّر كلُّ شيءٍ عندي. لقد تأثَّرت بكلامك. أشكر المصادفة التي جعلتني أراك اليوم، واعذرني لأني ثرثرت كثيراً، ولكني لم أستطع منع نفسي من كشف كلِّ هذه القصّة، ربما تفيدك أو تحكي عنها في برنامجك. أنا أؤيدك في كلامك، لازم يصير انقلاب عسكري ويخلِّصنا من هاي الملّة.

غادر الشاب السمين، والذي لم تكنْ هيأته تدلُّ على رجلٍ يستطيع القتل واستخدام السلاح، بدا لطيفاً وساذجاً نوعاً ما، ولكن هل هناك صورةٌ نمطيَّةٌ للقاتل، ثابتةٌ ومكرَّرة؟ لماذا لا يكون القاتل لطيف الملامح هادئاً؟!

أثارتْ هذه الصورة علي كثيراً؛ هناك قاتلٌ ما مجهول، كان يبحث عنه ويريد قتله. قاتل لم يتوقّعه أبداً. وساعد برنامجه الاذاعي السخيف في تغيير دفّة مصيره تماماً. لم يتأثّر السّاسة، ولا المجتمع، ولم يحدث أيُّ تغيير ولو طفيف، وكأن كلامه كان صراخاً في صحراء مقفرة، ولكن، على الاقل، منع صراخه شخصاً ما من قتله.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان هناك معنى إذن وراء كلٍّ ما فعله. كان يدافع عن حياته إذن، حتى وإن لم يعرف هذا بشكل واضح. ولم ينتبه للتناقض في النتيجة التي وصل إليها، فهو كان ينتظر الموت ويُرحّب به كما يدعي أمام أصدقائه، فلماذا فرح إذن بإفلاته من قبضة موت مجهول؟!

عاد في الليلة نفسها، وعلى الرغم من اتفاقه السابق مع مدير الاذاعة، الذي يقضي بالهدوء والتزام المعايير المهنية الصحفية، إلا أنه بدأ يشتم من جديد. صار يشتم بشكلٍ أكثرَ بذاءَة، ويستخدم الاعضاء الجنسيّة بشكلٍ صريح.

ـ يا أخي هذا شيءٌ غير معقول!.. لن أشترك بهذا البرنامج بعد اليوم. أنا آتي من بيتي وأسهر هنا من أجل شيء محترم مو هذا الخرط.

قال مهندس الصوت ومخرج البرنامج بعد انتهاء ساعة الشتائم. مغادراً حسَّ الفكاهة والدعابة الذي يُعرف به. كان متضايقاً جداً، ما أربك علي قليلاً. إنه يريد إزعاج من هم فوق، في بانثيون السلطة، وليس أصدقاءه. إعتذر منه، وقال له بأنه لن يكرِّر ما حصل الليلة مرّة ثانية.

لم يكن هناك من داعٍ لما فعل، ولكن عقله الخرافي يخبره بأنه أثر الليلة على شيء ما. ربما يتغيّر أمرٌ معينٌ في حياته غداً إلى الأحسن. ولم يُفكِّر بردَّة فعل مدير الاذاعة صباح اليوم التالي حين يسمع التفاصيل، أو تتصل به هيئة الاتصالات لتبلغه بقرار إيقاف الاذاعة عن العمل مثلاً.

كان، في واقع الحال، مملوءاً بتلك النوعيّة من الثقة بالنفس المدمِّرة. التي تجعله لا يرى الآخرين بوضوح. وحين يدقِّق مع نفسه

قليلاً، لا يراها أصلاً نوعاً من الثقة بالنفس، وإنما حاجزاً صلداً يحاول تَسْوِيْرَ نَفْسَهُ به، حتى يبدو قويًّاً وصلباً أمام الآخرين، وهو يعرف مع نفسه بطلان هذه الصورة.

إنه يتداعى من الداخل، مثل من يتزحْلَق ببطءٍ منذ سنوات على سفح باتّجاه هاويةٍ سحيقة. إن قرَّر مالك الاذاعة طردَه من هنا، فلن يحصل على عملٍ ما بسهولةٍ في أيِّ مكانٍ آخر. إن لم تؤثِّر شتائمه الصاخبة بعمل السّاسة، ومن السذاجة أن يفكِّر علي بذلك، فهو على الاقل دفع زملاء المهنة إلى عدم احترامه. إنه ليس صحفياً، أنه بائع خضرة، أو سائق باص عتيق يعمل على الخطوط الداخليّة في المدينة، كما يمكن ان يصفه أي صديق يعرفه جيداً. لقد اندفع بقوَّة باتّجاه الهاوية، بعيون مفتوحة وإرادة واعية، ومن العبث أن يدعي أن أحداً ما دفعه لذلك. إنه في العمق، ما زال في «جمعية المنتحرين» تلك، التي تحدّث عنها الشاب السمين وذكّره بها. وإذ لم يقم بإلقاء نفسه في مياه دجلة ليلة رأس السنة في الالفيَّة الجديدة، كما كان يُخطط مع أعضاء جمعيته، فهو استمر يقوم بذلك بالتقسيط، يندفع إلى الموت الاختياري بإرادة واعية، وإن كان ذلك ببطءٍ وعلى دفعات خلال مدى زمني طويل.

تلفون واحد يرفعه مالك الاذاعة ليتصل بالمدير هنا، سيكون كافياً لإطلاق تلك الرصاصة التي وفّرها الشاب السمين ولم يُطلقها أبداً.

طرده من عمله سيجعله يعود إلى شقّته في الكرَّادة قرب مستشفى الراهبات، ويدفن نفسه هناك حتى يموت. لن يتبرّع أخوه عمّار بمساعدته هذه المرّة. لقد تعارك معه قبل بضعة أشهر وانقطعت علاقتهما. أيضاً هو سمح أن تتركه زوجته بسبب مشكلة يمكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معالجتها، ضمن سياق المشاكل الزوجيّة المألوفة والمتوقّعة هنا. لم يبذل أيَّ جهدٍ ليكذب ويعالج المشكلة. وكانت زوجته تتوقّع أن يزورها في بيت أهلها في أيِّ لحظة.

لقد تخلّى، بقصد ووعي منه أو من دون ذلك، عن الجميع، فتخلّى الجميع عنه.

ـ ٣ ـ

كان سبب المشكلة مع زوجته هو اكتشافها لعلاقة غراميّة يقيمها علي مع «بان» الموظّفة في البنك المركزي، وبدل أن يحاول الاعتذار أو الانكار، اندفع في هذه العلاقة أكثر. ثم بعد زعل زوجته وذهابها إلى بيت أهلها، صارت شقّته التي ظلَّ يقيم فيها وحده عُشّاً غراميّاً. كانت هناك بنتٌ ما دائماً خلال الاسبوع، وربما التقى باثنتين أو ثلاثة خلال أسبوع واحد. وحصل في مرَّة أنه نام مع عشيقته من البنك المركزي صباحاً، ثم قبل أن يغادر بعد الظهر إلى عمله المعتاد، اتصلت به عشيقة أخرى، وأعطاها العنوان كي تأتي إليه.

كان يعرف بأنه عمل غير آمن. لا توجد بنت حرّة هنا. هناك مفهوم محدَّد عن الشرف، وهناك رجل ما في العائلة يرعى شرف البنت. لا أحد يعترف بالحبِّ. ممارسةُ الجنس خارج إطار الزواج جريمةٌ اجتماعية. الحبُّ العراقيُّ الآمن غالباً هو تبادلٌ للكلمات لا أكثر. وحتى لو اكتشف الرجل الراعي لشرف البنت أن هذه البنت تتبادل كلمات الحبِّ مع رجلٍ غريبٍ فإن ذلك يمكن أن يؤدي إلى مشكلة، أو تتعرَّض البنت إلى الاهانة والضرب، ويتعرَّض عشيقها إلى الملاحقة، أو يدخل الموضوع في إطار المعالجة العشائريّة.

إنها أرض ملغومة ومحفوفة بالمخاطر غالباً، أرض الحبِّ

العراقي، ورغم أن الكثيرين يجازفون باجتيازها، لكنهم يعرفون في قرارة أنفسهم، أنها أرض غير آمنة، واجتيازها مكلف.

يعرف علي ذلك، ويتجاهله بإصرار. حتى بعض التفاصيل البسيطة التي يمكن اتباعها للأمان والطمأنينة كان يتجاهلها، ومنها أن البنت التي تصدّق أنه يحبّها ثم تكتشف أنه يخونها مع امرأةٍ أخرى، يمكن أن تتحوَّل إلى وحش كاسر، ويمكن أن تخرّب عليه حياته. كما أن البنات اللائي يتقاطرن على شقّته، يمكن أن تغفل إحداهن ولا تنتبه لرجل العائلة الذي يتابعها، ويصعد خلفها إلى شقة علي ويرفس الباب ثم يقتل العاشقين معاً، وسيؤيّد المجتمع هذه الفعلة، ولن تقوم الدولة بأيِّ ردَّة فعل لحماية الحبِّ، أو الحق الاصيل للفرد في استخدام جسده، فهذا هراء وكلام لا وزن له هنا.

إنه تفصيلٌ آخر يتعلَّق بالدوافع الانتحاريّة لدى علي. وكأنه يتوقّع هذه الاطلاقة من الرجل حامي شرف العائلة في لحظةٍ ما قادمة، لهذا هو لم يفكِّر بترميم علاقته مع زوجته، ولم يفكِّر بحماية مصدر رزقه، ولا مصالحة أخيه، ولا كسب ودِّ أصدقائه واحترامهم. كان يهوي وحده إلى عزلة عمق سحيق ومظلم.

في آخر لقاء له مع عشيقة البنك المركزي، التي تسبّبت أصلاً بانفصاله عن زوجته، أخبرته بأنها حامل، وظلّت تصرّ أن الطفل منه وليس من زوجها الذي لم يعد يمارس الجنس معها منذ فترة طويلة.

قالت إنها مستعدة للطلاق من زوجها للزواج من علي، ولكن هذا أبعد ما يكون عن تفكير علي. لا الزواج منها ولا من أيِّ امرأة أخرى. لقد مرّ بهذه التجربة ولن يكرّرها تحت أيِّ ظرف.

صار يتهرّب من عشيقته خلال الأسابيع اللاحقة. لم يلتقِ بها مرّة ثانية، رغم أنها تتصل به. كانت تحافظ على اتفاقهما بأن تتصل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل أن تقرر المجيء إلى شقّته. لم تتجرأ لتأتي إليه دون موعد مسبّق، خشية أن يكون مع امرأة أخرى. كانت تريده مستعداً وراغباً. فهذا فرق علاقتهما عن الزواج، الذي يمكن أن يمارس الزوج أو الزوجة الجنس تحت مظلّته، كنوعٍ من المجاملة، أو تأدية واجب روتيني في أوقات معلومة، أو كنوعٍ من القول للشريك الجنسي بأنه ما زال يرغب به ويشتهيه. هناك ألاعيب وخدع كثيرة تجري على سرير الزوجيّة، ولا مبرر للقيام بها في سرير العشق والغرام.

ثم ذات مساء، بعد عودته من برنامجه الإذاعي، اتصلت به. كانت تبكي. قالت له بأنها تحبُّه، تموت عليه، تعشقه حتى النخاع، ترغب به كلَّ ساعة ودقيقة وثانية. تريده. كانت تتحدّث بنبرةٍ غير معهودة عنها. ففي كلِّ لقاءاتهما، كانت تتصرَّف بحسٍّ عمليٍّ، وبأقل ما يمكن من العواطف والمشاعر. الآن هي تبدو مختلفة، يائسة ومنهارة، وكأنها طفلة مراهقة. وهذا ما أخاف علي.

طلب علي منها أن تهدأ، وظلَّ يسايرها. سيتصل بها صباح الغد كي يتحدّثا. هو الآن سكران ولن يستطيع اتخاذ قرارات أو إعطاء وعود بهذا الوضع، وعليها أن تقدر ذلك.

- ٤ -

صباح اليوم التالي لم يتصل بها، فقد تلقى اتصالاً من صديقه العجوز الدكتور واصف عبد المحيي، عالم الآثار والسومريَّات المتقاعد، قال له بأنه يمكن أن يكون اللقاء الأخير معه، فهو سيموت.

أخافته النبرة الدراميّة في صوت صديقه العجوز، فعلى الرغم من الجفوة التي حصلت بينهما مؤخراً بسبب شتائمه الليليّة على الهواء،

إلا أنه يعرف تماماً أن العجوز واصف هو أقرب أصدقائه، وأكثر شخص أثر فيه، على الاقل خلال السنوات الخمس عشرة الماضية.

ذهب اليه في بيته الواسع في حي المنصور. جلسا على كرسيين مصنوعين من الخوص في الحديقة لساعتين. وكما توقّع، وجد أن صديقه العجوز قد وصل إلى درجات متقدمة من الخرف والحديث غير المنطقي أو المفهوم. تأسَّف للحال الذي انتهى إليه هذا الرجل الذي كان في فترةٍ ما أشبه بالمعلم له، والصديق العقلاني الذي يفهم أدقَّ الاشياء التي يفكِّر أو يشعر بها علي.

سرح دكتور واصف بنظره إلى البعيد، وقال وكأنه يُكلّم نفسه:

ـ تظنُّ بأنك في مهمّة كونيّة، سعياً وراء الحقيقة. تنفق ثلاثة أرباع عمرك باحثاً، في غابة الأساطير والأكاذيب والأوهام الجمعيّة، عن الحقيقة، ولا تريد غيرها. تتعذَّب، ويتمُّ نبذك وطردك، تشعر بقسوة العزلة مبكراً، وتفقد شيئاً فشيئاً قاموس الكلمات المشتركة مع الآخرين. حتى حين تروي نكتةً أو تروي حادثةً مرّت بك، يصمت الآخرون ولا يفهمون ما تقول.

ثم حين تصل، مضرَّجاً بدماء الرحلة، إلى الحقيقة التي ليس غيرها، تعرف يقيناً، أنها مثل منشفتك الخاصة داخل الحمام، لا يصلح أن يستخدمها إثنان.

ظلَّ علي منصتاً، مقدِّراً مع نفسه حاجة العجوز للثرثرة، وكأنه يخلّص نفسه من عبء أشياء لم يجد الشخص المناسب للنطق بها أمامه سابقاً. وشعر بأن أسئلته عن وضعه الصحي وإمكانية أن يساعده بشيءٍ لم تعد مهمّة الآن. الرجل يُحضّر نفسه للموت، حتى وإن كان هذا الموت ما زال بعيداً.

عرض عليه أن يأخذه بجولة في شوارع بغداد. يخرج معه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليتناولا الغداء في مطعم مثلاً. لكن العجوز واصف كان لا ينصت، وكأنه يشعر بأن علي ليس جادّاً بما يقول.

قبل أن يغادر، وضع الدكتور واصف دفتراً صغيراً بجلد أسود في يد علي وقال له:

ـ في هذا الدفتر أشياء مهمّة أريدك أن تهتم بها جيداً. هذا دفتر الأبواب السومريّة. هذا هو الكتاب المقدّس لخلاصك.

هزّ علي رأسه حتى يطمئن العجوز أنه يأخذ كلامه بجديّة، ووضع الدفتر الأسود الصغير في حقيبته، ثم غادر مع شعور يملأه بأنها ربما تكون المرّة الأخيرة فعلاً التي يرى فيها صديقه العجوز. في الطريق عائداً إلى الإذاعة ظلَّ يُقَلِّب في الدفتر الصغير بحزن وأسف. عرف أن ما مسطورٌ في هذا الدفتر له علاقة بكلام تحدّث به الدكتور واصف على مدى الساعتين الماضيتين. لم يكنْ فضوله قويّاً للتدقيق في المكتوب. لا يوجد خلاصٌ في أيِّ كتاب أو كلمات، وهذا الأمر ينطبق على الكلام المنطقي والعقلاني الذي قيل خلال السنوات العشر الماضية في محاولة للمساعدة بإيقاف الانهيار العام، وينطبق أيضاً على أيِّ كلام شعري أو سحري كما هو هذا الدفتر المسطور بقلم جاف أزرق. كانت أشياء أخرى تشغل ذهن علي. أهمّها ما يتعلَّق بمصدر رزقه الوحيد. وما يمكن أن يقوله هذه الليلة في برنامجه الإذاعي.

قال له مدير الاذاعة، وهو يصادفه في الممر باتّجاه السُّلّم المؤدي إلى الطابق الثاني، إنه تفاهم مع مالك الاذاعة، وتوصلا إلى قرار:

ـ لن تتحدّث بأيِّ شيءٍ مما كنت تقوم به في الليالي السابقة. إن

كان الامر لا يناسبك فسنوقف البرنامج. واذهب لتبحث لنفسك عن عمل آخر.

كان يتوقع هذا الكلام، وشعر بأنه تمَّ تجريده من أسلحته. سيدخل إلى ستوديو البثّ المباشر عارياً وأعزل. غادر غاضباً مبنى الاذاعة المطلّ على شارع أبي نواس، بالقرب من فندقي الشيراتون والميرديان، وظلَّ يمشي وقتاً طويلاً حتى وصل إلى كافتريا زيتونة في شارع السعدون. صعد إلى الطابق الثاني، وعلى طاولة بجوار النافذة المطلّة على الشارع جلس، وصار يُقَلّب في هاتفه المحمول. شرب القهوة ثم فتح حقيبته وأخرج الدفتر الاسود الصغير الذي أعطاه إيَّاه الدكتور واصف. وتحت وطأة شعوره بفقدان البوصلة والتشويش صار يقرأ. قرأ الدفتر الصغير كلَّه بإمعان. لم يغيّر رأيه بما قرأه، ولكن خطرت في ذهنه فكرةٌ ما.

ـ ٥ ـ

في الليل، وبدل قائمة الشتائم المعتادة، كان علي هادئاً أمام الميكرفون، ثم طلب من المستمعين ممن يريدون الاتصال بالبرنامج أن يوفّروا شتائمهم ضده هذه الليلة، ويكتفوا بالانصات إلى ما سيقوله.

فتح الدفتر ذا الغلاف الجلدي الأسود وبدأ يقرأ لهم. فهذا هو الحل الأخير. هروب جماعي من هذا العالم، ليس من البلد وما فيه من مصائب، وإنما من العالم بأسره، وحسب مقترح صديقه الدكتور واصف عبد المحيي، عالم الآثار، فمن يقرأ هذه التعاويذ يستطيع العبور، خلال النوم، من بوابة افتراضيّة، إلى نسخ أخرى معدّلة من حياتنا نفسها. وربما نعثر هناك على عالم أفضل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سخرت اتصالات المستمعين من كلامه، وقال له أحدهم؛ أنت حوّلت البرنامج السياسي إلى برنامج للسحر والتنجيم. وفي اتصال آخر قالت سيدة ما بأنها مهتمة بهذه التعاويذ السحريّة وتريد تجربتها، فوعدها علي بتكرار التعاويذ مرّة ومرتين خلال الوقت المتبقي من البرنامج.

كانت الفكرة طريفة ومسليّة، ولم تواجه اعتراضاً من أحد. بل إن مدير الاذاعة رحّب بها، على الاقل هي ابتعاد من حافّة خطرة كانت تتجه إليها الاذعة مع شتائم علي.

بعد ليلتين من بدء قراءة تعاويذ الدكتور واصف وقبل أن ينتهي وقت البثّ، اتصل صوتٌ نسائيٌّ وقال له بنبرة هادئة ومألوفة:

ـ صرت تبحث عنَ أبواب للعبور من هذا العالم. لماذا لا تحصل على فيزا وتفض السالفة؟ أترك هذا البلد وسافر.

أربكه الصوت، وشعر بأنه يعرف صاحبته. ربما هي من عشيقاته. لم تكن زوجته بكلِّ تأكيد. وحتى يتأكَّد أكثر، نَسِيَ أنه في برنامج يبثُّ على الهواء مباشرةً وظلَّ يتجاذب الكلام مع المتصلة. استمرت الحواريّة نصف دقيقة قبل أن تختمها السيدة الغامضة:

ـ لا موجب أن تنتحر هنا لأنك تبحث عن دور في هذه المعْمَعَة. كان عليك أن تهاجر من سنوات يا علي.

ـ عفواً من المتصلة إذا أمكن؟

ـ أنا ليلى حميد يا علي.

أغلقت الهاتف، ولم يعرف علي كيف استطاع تمضية الدقائق المتبقية قبل نهاية البرنامج. شعر وكأنه تعرَّض لصفعةٍ أو رَجّةٍ من تيار كهربائي مفاجئ. حاول العثور على هاتفها من مركز الكونترول بالاذاعة. وفي اليوم التالي اتصل بكلِّ معارفه وأصدقائه ممن يعلم أن

لهم صلة مع ليلى. وفي النهاية اتصل بصديقه عبد العظيم، الذي تفاجأ أن صديقه القديم والمقرّب تذكَّره أخيراً. اضطر إلى الاستطراد بأحاديث متفرِّقة لدقيقتين قبل أن يسأله عن ليلى، لكن عبد العظيم أنكر أنه يعرف شيئاً عنها.

ظلَّت الصور تتدفَّق من ذاكرته من دون إرادة منه، وكأنه بحاجة إلى تشويش مضاف على الدوران الذي يعيش فيه. تذكَّر لُعبة المجموعة الشمسيّة في مدينة الألعاب. إنه يدور الآن داخل حفلة دورانات متعدَّدة، وتماماً مثلما فعلتْ ليلى حين فجَّرت داخل حفلة الدورانات قنبلتها الصغيرة قبل تسع عشرة سنة، ها هي تعود لتفعل الشيء نفسه.

تعود؟! وهل عادت؟ وجد تلفونها مغلقاً أو خارج نطاق التغطية. وانتهى سريعاً إلى حصيلة تقارب الصفر. أخبره زميلٌ قديمٌ من أيام الكُليَّة بأنه شاهد سيدة تشبهها في دائرة الضريبة قبل بضعة أشهر. كما أن تقريراً تلفزيونياً عن تظاهرة ما في ساحة التحرير أظهر صورتها. ذات السيدة التي تشبه ليلى. هذا كلُّ شيء.

ظلَّ يفتِّش عن التقرير التلفزيوني، ولم يعثر عليها، ثم ذهب إلى ساحة التحرير خلال تظاهرة تمَّ الاعلان عنها ضد الحكومة، وفتَّش بين وجوه النساء المتواجدات، ثم تجرأ وسألَ إحداهنَّ عن ليلى حميد، ولكنه لم يصل إلى أيِّ نتيجة. بعدها بيومين تذكَّر صديقه العجوز واصف، وشعر بأنه يحتاج لابلاغه بما فعل. لقد نشر تعويذات الأبواب السومريّة على الهواء مباشرة، كنوعٍ من التسليّة والإثارة، وربما كان الأمر فيه إهانة وسخرية من النصيحة الجادّة التي قدّمها له الدكتور واصف، ولكن هذه التعاويذ جلبت له ليلى، كما أن صديقه العجوز هو الشخص الوحيد المتبقي الذي لم يسأله عنها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اتصل به ولم يحصل على ردٍّ. كان الهاتف يرنُّ ولا أحدَ يجيب. وبعد ساعتين عاود الاتصال ليردَّ عليه صوت شاب خشن ويبلّغه بأن الدكتور واصف في الانعاش.

- ٦ -

لم يذهب إلى المستشفى مباشرةً. خَشِيَ أن يجد «رافد» الأخ الاصغر للدكتور واصف، والذي يكرهه علي، وهو بالتأكيد صاحب الصوت الخشن على الهاتف. اتصل بهاتف دكتور واصف في اليوم التالي، ولكنه كان خارج التغطية، الأمر الذي ضاعف قلقه فعزم على الذهاب إلى المستشفى. أخذ معه أحد أصدقائه، كنوعٍ من الدرع النفسيَّة لمواجهة رافد. ظلَّ يطرق في الممرات ويسأل عن الغرفة التي ينام فيها الدكتور واصف، ويدخل إلى الغرف يتفقدها. لم يعثر عليه، وفي النهاية واجهه أحد الموظّفين بالخبر المحزن؛ فالرجل الذي يسأل عنه توفي مساء البارحة وجاء أهله وأخذوا جثّته من المستشفى.

شعر علي بِغَمٍّ شديد. وكأن شيئاً ما كان معه على الدوام قد إنهار فجأةً. شعر بالذنب لأنه لم يكنْ صديقاً جيداً خلال السنوات الأخيرة، رغم أنه كان يشعر بوجود دكتور واصف حوله دائماً. حتى حين ينثر شتائمه على أثير الاذاعة، كان شيءٌ ما في أعماقه يخبره بأن الدكتور واصف ينصت ويستمع، حتى وإن كان في واقع الحال لا يملك مذياعاً أو لا يملك وقتاً وطاقةً لمتابعة أيِّ شيء.

ها هو يخسر صديقه الأساسي، حتى من دون فرصة لإلقاء كلمة وداع، أو الاستماع إلى نصائحه الأخيرة. ظلَّ طوال الطريق مستغرقاً مع نفسه، ثم انبثق في ذهنه شيءٌ ما؛ لقد قال الدكتور واصف ما يريد قوله في اللقاء الأخير بينهما. لقد سلَّمه شيئاً يراه الدكتور واصف

مهمّاً، بينما ينظر إليه علي على أنه مجرد هُراء كتبه رجلٌ دخل مرحلة الخرف. وربما عليه الآن أن ينظر بعينٍ أخرى ويبحث بين الكلمات المكتوبة بخطّ الدكتور واصف عن معنى أو شيءٍ آخر لم ينتبه له سابقاً.

- ٧ -

بسبب تعاويذ الدكتور واصف، أو لأسباب أخرى، عثرت ليلى عليه، بعد أن فشل هو في العثور عليها. بعد أسبوعين من مكالمتها له في البثّ المباشر دخلت على صفحته على الفيسبوك وكتبت له قائلةً: إن التعويذة الأولى من بينِ ما كان يردِّده في برنامجه الليلي تنطبق عليه تماماً: «إن المحظوظ فقط من يصل للهوّة السّحيقة في ذاته، ولكن الحكيم من يطيل النظر إليها، لا أن يسقط فيها.»

ثم ختمت تعليقها بالقول:

- لقد سقطت يا علي في هوّتك السحيقة على ما يبدو. حكمتك القديمة لم تنفعك كثيراً.

كان كلامها مستفزّاً. وبدت من نبرتها في الرسالة وكأنها ما زالت على هيأتها الأولى التي يعرفها عنها، حين كانت تتبارى معه في الكلام أيام الدراسة في الكُليّة، ولا تقبل إلا بهزيمته.

استجاب لتحديها، هو يعرف أنه اليوم أكثر عدوانيةً مما كان عليه سابقاً ويستطيع المجازفة بإزعاجها. ظلّا يتحدّثان عبر الرسائل لمدّة من الزمن، وأنتقدها في كلِّ المواقف التي حصلت بينهما خلال التسعة عشر سنة الماضية. لم يُخفِ أن الأمر بدا مثيراً أن تنبثق أمامه الآن من العدم، ولكنه لم يكنْ يعوّل على شيءٍ أكثر. وعلى غير ما افترض، تطوّرت الرسائل سريعاً إلى مكالمات هاتفيّة، ثم لقاءات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مباشرة في عدّة أماكن، منها بيت عائلتها في الزعفرانيّة الذي لم تعدْ تسكن فيه سوى والدتها العجوز.

كان هناك تفسير آخر للتعويذة الأولى لم تفكّر به ليلى، فدخولها المفاجئ على حياته التي تقف بكلّها على حافّة الهاوية، سارع في سقوطه المدوّيّ. لم يكنْ حكيماً لينتبه أنه ينزلق من الحافّة الخطرة، ولم يكن لديه وقتٌ كافٍ لعمل أيِّ شيءٍ لتفادي ذلك.

كان عائداً من لقاءٍ معها، يسير مغموماً مع صديق له في شارع السعدون حين تلقّى اتصالاً من مخرج البثّ الذي يرافقه في برنامجه الليلي المعتاد، ليبلّغه بصوت مرتبك أن مدير الاذاعة أوقف برنامجه نهائيّاً. لا شتائم ولا تعاويذ بعد اليوم، وكلُّ هذا جرى بالاتفاق مع مالك الإذاعة، ما يعني أن علي صار بدون عمل الآن.

ـ عليك أن تأتي لتتفاهم مع المدير قبل أن يغادر الإذاعة يمعوّد.

قال مخرج البثّ عبر الهاتف بنبرةٍ تحاول إخفاء الشعور بالذنب.

ظلَّ علي حائراً. لقد تخلّى عن الشتائم منذ فترة فلماذا أوقفوا البرنامج؟!

ـ يمعوّد.. لقد كانت الشتائم السياسيّة منطقيّة على أيِّ حال، أما حكايات السحر والتنجيم والتعاويذ فهي سخيفة جداً يا علي.

قال مخرج البثّ قبل إنهاء الاتصال.

ظلَّ يسير شاعراً بالضيق ورغبة بإطلاق شتائم جديدة لم يخترعها أحدٌ بعد، وأخبره صديقه الذي يرافقه بضرورة الإسراع للعودة إلى الإذاعة، عليه أن يقاتل من أجل قضيته.

ـ أيّ قضية يا رجل؟

ردَّ علي ساخراً وهو يشعر بمرارة الموقف. أدخل يديه في جيبي قمصلته، وظلَّ يسير بخطوات متثاقلة، وخلال دقائق الصمت التالية

كانت صورة ليلى تطفو في ذهنه من دون إرادة منه. لم يكن مستعداً لتلقي الخبر السيئ الجديد، فهو مشغول أصلاً بليلى، فضلا عن الأشياء المئة الأخرى الأقل حجماً التي تدور في ذهنه على مدار الوقت مثل دوّامة.

وصل مع صديقه إلى ركن شارع فرعي يقوده إلى بناية الإذاعة المطلّة على شارع أبي نواس. توقفا، لأن الصديق سيذهب في طريق آخر. صافحه وطلب منه أن يهدأ ويحاول إنقاذ عمله.

كان مرهقاً ويستعيد دون إرادة منه أجزاءً من كلامه الكثير مع ليلى. لقد التقيا ظهر اليوم بعد افتراق عشرة أيام. بدت مصرّة على إنهاء هذه العلاقة المتجدّدة، حرصاً على سلامته كما قالت. لكنه أقنعها باللقاء هذا اليوم، ولم تنسَ أن تخبره بأنه لقاؤهما الأخير. في الحقيقة كلُّ لقاءٍ بينهما كان أخيراً، لذلك لم يعد يأخذ نبرة الإصرار والتصميم في كلامها على محمل الجدِّ. أخبرها بأنه كلّما التفت في السرير رأى وجهها أمامه، وخلال النهار، في بعض الأحيان، يتحسّس مثل الممسوس شفتيه بأصابعه وكأنه يحاول تهدئتهما وهما تبحثان بلهفةٍ عن شفتيها. هو يحتاج في كلِّ ساعةٍ إلى هاتين الشفتين. لقد أدمن عليهما. يتذكّر الأشياء البسيطة التي كانا يفعلانها معاً. التدخين في السرير، أكل المكسّرات، أو المشاركة في شرب كأس ويسكي مخفّف بالصودا. الأحاديث المتشعّبة عن حياتيهما التي تشعّبت خلال تسعة عشر عاماً في طرقات ودروب مختلفة، وغيرها من الأشياء التافهة التي لا قيمة لها، سوى أنها حشو ضروري لوقتهما معاً، مادة أثيريّة للمرور من خلالها عبر الزمن الذي يقضيانه وهما ينظران أحدهما في وجه الآخر، أو يتحسّس يديها الصغيرتين وأظافرها الطويلة المشغولة بمهارة، أو وهي تعبث بشعر صدره،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمرِّر يدها عليه ثم تمسك بقبضة منه وتسحبها برفق، وكأنها تريد الإحساس بكثافة هذا الشعر أكثر مما تهدف لإيلامه. احتضانها المفاجئ له بين حين وآخر، وكأنها تريد تذكيره بحاجتها له. أو حين ترفع نظرها إليه أثناء ما يحرِّك يديه دون هدف على وجهها وأنفها ورقبتها. بسبب هذه الأوقات الثمينة صار يُصدّق جسدَها والإشارات التي تنبعث منه، من ملامح وجهها وعينيها وانفراجة شفتيها، أكثر مما يُصدّق كلامَها. هي تحاول دفعه بعيداً، لكن جسدها يكذّب ذلك في كلِّ مرَّة.

إن كانت روحه غرفة أنيقة مؤثّثة بشكل جيد في سرداب خفيٍّ، قال لها ذات مرّة، فإن غيابها ولو لنهار واحد، صار يشبه فأساً مجهولة تقتطع بوحشيّة أرجل الكراسي والأرائك وتشوّه اللوحات على الجدران، وتكسِّر الآنيات الزجاجيّة داخل هذه الغرفة الأنيقة. وكلما زاد غيابها تحوّلت روحه إلى مكبٍّ نفايات تصول فوقها فأسٌ مجنونة.

سخرت من كلامه المنمّق وقالت له إنه لقاؤهما الأخير، وليس كما في كلِّ مرّة. عليه أن ينظر إلى عينيها جيداً حين تقول له إنها المرّة الأخيرة، حتى يعرف من عينيها، وليس لسانها، أنها مرّة أخيرة فعلاً. ظلَّ مشغولاً بدوامة ليلى حتى سمع، عبر الهاتف، خبر فصله من عمله.

غادره الصديق بخطوات بطيئة وصار على مبعدة عدّة أمتار، حين توقّفت فجأةً سيارة موهافي بيضاء وأخرج الراكب بجوار السائق ذراعه شاهراً مسدساً، وجهه بسرعةٍ إلى علي الذي يبعد عنه نحو عشرين متراً وأطلق رصاصة اخترقت رأس علي، وسقط في إثرها فوراً. انتبه الصديق الذي استدار إلى الخلف أن علي سقط على

الأرض بينما أطلقت عجلات سيارة الموهافي المتحرِّكة بسرعة صريراً حادّاً واجتازت الصديق وكادتْ تصدمه.

كان الدم يتدفَّق على وجه علي ورقبته وملابسه بسبب الجرح الذي أحدثته الرصاصة في مقدمة رأسه عند حافّة الشعر أعلى الجبهة. ظلَّ الصديق يصرخ بدون وعي منه وهو يتحسّس بيده مفزوعاً تهشم مؤخرة رأس علي وامتلاء يديه بالدم، مثيراً فزع المارة القليلين في هذا الوقت مع اقتراب مغيب الشمس. وربما بسبب كلام علي السابق عن التهديدات بقتله، فإن صديقه المفجوع كان على يقين أن تهديداً ما قد تمّ تنفيذه.

ها هو بريد الموت الذي ظلّ علي، بقصد أو دون قصد، ينتظره ويناديه عليه خلال ثلاثة عشر عاماً يصل إليه الآن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث

جَمعِيَّةُ الْمُنْتَحِرِين

- ١ -

إنها ليلة الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٩٩، والهواء البارد يجمّد أنف علي أثناء خطوه بتثاقلٍ حتى منتصف جسر الجمهوريّة. وقف عند السياج الحديدي من الجهة التي تودع مياه النّهر المندفعة بثباتٍ وليونةٍ إلى الجنوب. كانت أضواءٌ متفرِّقة تأتي من البنايات القريبة تعكس وهجاً متراقصَاً على الجسد المعتم للنّهر. استغرق علي في تخيّل كيف سيكون أثر السقطة في المياه القارصة في هذه اللحظة. هل سيندفع الماء إلى رئتيه بسرعة، أم أن غرائزه ستقاوم؟ هل ستكون الشرطة النهريّة قريبة وحاضرة في هذه الساعة من الليل، قبيل نصف ساعةٍ من منتصف رأس السنة ورأس القرن؟ أم أنهم الآن يركنون زوارقهم الرشيقة في مكانٍ ما، ويحتفلون بهذه الليلة المميّزة على طريقتهم الخاصة، بقناني البيرة وترديد الأغاني الشعبية. أنصتَ ولكنه لم يسمع شيئاً، سوى أصوات حركة السيارات القليلة، بين حين وآخر على اسفلت الجسر خلفه.

لم يتوقّف أحدٌ ما ليسأله ماذا يفعل في هذه الساعة في هذا المكان وحده. لماذا يقف شابٌ يرتعدُ من البرد أو القلق ها هنا وينظر إلى النهر؟ هل أضاع شيئاً؟ هل هو سكران؟ لا بدَّ أن تمرَّ

سيارة شرطة بعد قليل وينزل رجال الشرطة ليسألوه هذه الأسئلة، وإن ارتابوا بأمره فلربما يقتادونه معهم.

هو يتوقَّع كلَّ هذه الأشياء، ولكنه الليلة عبر الحاجز الوهمي الذي يفصل بين الحياة والموت، نفسيَّاً على الأقل، وما عاد أيُّ شيءٍ يهمّه. ليست سوى دقائق تفصله عن الْغَطْسَة الأخيرة في المياه الباردة المعتمة. فحتى لو وقفت سيارة شرطة الآن، فإنهم لن يلحقوا به وهو يقوم بقفزته المفاجئة إلى مياه النّهر، واستناداً إلى حوادث سابقة، لن يكترث رجال الشرطة كثيراً، ولن يهتمُّوا بإنقاذه أو الاتصال بالشرطة النّهرية لمحاولة ذلك، أو على الأقل لانتشال الجثّة الهامدة فيما بعد. «إنه شخصٌ يريد أن يموت، ونحن نقاتل من أجل أن نعيش وما نجد هذا العيش، ما الذي نفعله له يا ترى، فلْيمت.. موتة الكلاب السود» هكذا سيقولون ربما.

كان يفترض، وحسب الموعد الذي ضربه مع أصدقائه السبعة عشر في جمعية المنتحرين، أن يحضروا ها هنا في هذه الساعة تحديداً. سيكونون معه ثمانية عشر منتحراً يُنفِّذون غطسةً جماعيّة وأخيرة مع ضربات الساعة الأولى في القرن الجديد. هذا هو الموت المميّز الذي يستحق أن نموته. موتاً شاعريّاً لم يقم به أحدٌ سابقاً. موتاً شجاعاً لا يجرؤ الكثيرون على القيام به. أما الثمانية عشر رجلاً وامرأة، فهم اؤلئك الذين أنهوا جميع مشاغلهم مع هذه الحياة، وأخرجوها من الرأس، وصارت في الخلف تماماً. لقد قضوا ثمانية أشهر في حوارات عميقة ومتصلة حول هذه القضايا، والأسباب التي تدفعهم للإيمان بفكرة الموت الاختياري. لم تعد هناك تفاصيل تستحق النقاش، كلُّ شيءٍ حُسم وانتهى الأمر، ولكن، لماذا لم يأتِ أحدٌ منهم حتى الآن؟!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هو لم يجبر أحداً. كان قد قرَّر هذا التاريخ لانتحاره منذ سنة تقريباً. كان يريد إيقاف الألم، فعند كلِّ صباح يستيقظ فيه يشعر بفداحة ما يرتكبه بحقِّ نفسه. إنه يتشبَّث مثل جرذ بحياة الجرذان ولا يملك الشجاعة لمغادرتها، مغادرة هذه التفاهة المتصلة التي يسميها الآخرون حياةً. شعر بالقرف من الشاعريّة التي تضفيها نصوص الأدب على حياةٍ شاحبةٍ يجب أن نعاملها مثل جائزة. كَرِهَ انعدام الحلول، ومن كونه يفكِّر بالمصائر الكبرى أكثر مما يُفكِّر بمصيره الشخصي. حاول القيام بأشياء كثيرة تُحطم قفص الجرذان الذي يعيش فيه، ولكنه فشل فيها كلّها.

فشل في التصالح مع الأوضاع العامة، وفشل في مسك لسانه من التعليق والكلام بأشياء تمسُّ القضايا السياسيّة المحرّمة، وما كان يمنعه من التمادي في ذلك هو خشيته على عائلته؛ أخيه الأصغر بالذات. ربما سيسبب لهم مشاكل وآلاماً من دون داعٍ. ولكنه لم يستطع الصمت بشكل كامل. وظلَّ يلعب على هذا الحبل الممدود ما بين حياة الجرذان الآمنة في مجاريرها المعتمة، ومسِّ مناطق الخطر القادم من الدولة والحكومة والحزب الحاكم.

مَلَّ في النهاية من هذا اللعب على الحبل الخطر. حاول استخراج جواز سفر، واستطاع توفير مبلغ الأربعمئة ألف دينار، الضريبة التي وضعتها الحكومة على طالبي جواز السفر، إلا أن دائرة الجوازات رفضت طلبه، بسبب قيودٍ ما غامضة وتشابه أسماء مع شخصيّات ممنوعة من السفر وما إلى ذلك. فشلت حتى الرشاوى وحصلت له مشاكل كثيرة مع الوسطاء الذين تبرَّعوا بحلِّ المشكلة. لم يَرَ جواز سفره النور أبداً.

إتفق في أواخر عام ١٩٩٨، ومن خلال علاقةٍ ما مع صديق

لأخيه عمّار، مع مهرّب محترف. وخرج معه برفقة أربعة شباب آخرين، واستطاعوا عبور الحدود ما بين العراق وسوريا. غير أنهم وسط الظلام الدامس فقدوا أثر المهرِّب، أو ربما هو من تركهم وفرّ، بعد أن تمكَّنت دوريّة حدود من كشفهم وملاحقتهم. أطلقت النيران باتّجاههم، ووجد علي حفرةً عميقةً اختبأ فيها، وسمع أصوات زملائه وهم يتوسَّلون ألا يقتلهم حرس الحدود. ألقي القبض على الجميع، وما بين شعوره بأنه أفلت والقلق مما سيفعله لاحقاً وكيف يجد طريقه وسط هذه العتمة والأراضي الجرداء المترامية، وجد سبطانات البنادق وهي تنزل إليه في الحفرة، بعد أن وشى به أحد رفاق الهجرة غير الشرعيّة.

قضى ستة أشهر في سجن بادوش في الموصل، قبل أن يُطلق سراحه. ليعود إلى النقطة نفسها التي انطلق منها، إلى الحبل الممدود ما بين حياة الجرذان وحائط السلطة المخيفة. حاول الاتصال بالمهرِّب القديم من أجل استعادة أمواله أو للتخطيط لرحلة أخرى، ولكنه لم يسمع عنه خبراً، ولم يعثر على مهرِّب آخر. وصار أخوه عمّار يتعارك معه كلّما تحدّث أمامه بشأن الهجرة غير الشرعيّة مرّة أخرى. طلب منه أن يتكيّف مع حياته ها هنا، حاله حال ملايين البشر الذين يخرجون من الفجر ويكدحون ويقاسون الظروف من أجل لُقْمَة العيش؟ «ما مشكلتُك؟ أنا لا أفهم بصراحة؟ لماذا لا ترجع للعمل معي في محل السجائر؟ لماذا لا تتزوج؟ غرفتك في الطابق الثاني موجودة. جِدْ فتاةً وتزوّجها، ستتغيّر نظرتك كثيراً. أنا أصغر منك صحيح بس أعرف أن العضو الذكري له صلة بالدماغ، والأفكار السيئة أحياناً تأتي من عضو ذكري معطّل وليس الدماغ». قال عمّار ذات مرّة، ولم يرد عليه علي بشيءٍ، لأنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يدرك صعوبة الحوار مع أخيه، فلا شيء يجمعهما سوى اسم الأب.

كان من المستحيل أن يفكِّر بإخبار أخيه أشياءً سيسخر منها ويضحك عليها. لم يجرّب سابقاً فتح قلبه والتحدُّث معه مثل صديق. لم يستطع إخباره مثلاً بأنه يرى عضوه الذكري مرتبطاً بقلبه، وعضوه معطّل لأنه يائسٌ من العثور على الحبِّ. كلُّ الفتيات التي تعرّف عليهن، وهذه ربما مصادفة وليست قدراً مقفلاً، كُنَّ يبحثنَ فيه عن صورة زوج مستقبلي، بينما هو كان يريد التأكّد أولاً من صورته في أذهانهن، صورة حقيقيّة وغير مشروطة بشيءٍ أبعد من وجود هذه الصورة المستقل. لم تكنْ هناك فتيات كثيرات أصلاً لفهم هذا الكلام، فضلاً عن حقيقة العلاقة غير المشروطة، التي قد تؤدي إلى الحبِّ العميق، ومن ثم إلى مستويات أبعد من هذه العلاقة، منها الزواج طبعاً.

كلُّ من تعرّف عليهن، كُنَّ يسبحن بتعبٍ في محيط واسع من عدم الأمان، وكُنَّ يرين فيه وفي غيره أطواقاً محتملة للنجاة. وهو لم يَرَ نفسه طوقاً لنجاة أحد، هو غارق أصلاً ويبحث عن طوق. لذلك وبعد تكرار طويل لهذه المقدمات، صار يصنع مصدّات أمام أيِّ امرأةٍ تجلس بجواره، أو تستمر بالحديث معه وقتاً أطول من المعتاد. إنه يشعر بثقل ذاته الشديد، يشعر بالورطة مع هذه الذات، ولا يريد أثقالاً إضافية اسمها؛ تلبية توقّعات إنسان آخر ومحاولة العمل على إسعاده.

«أنت تتوهّم يا علي.. هناك أشياء تعرفها بلمسِّ اليد وليس الخيالات مثل حالتك. حين تنام مع امرأة وتقوم بذلك بشكل جيد وتضحكان وتستمتعان ستحبها وتحبك وخلص، نقطة راس الشارع»

«راس السطر قصدك».

«أيّاً كان.. نَمْ مع امرأة، ولكن في سرير الزوجيّة، وتعوّد على رائحة امرأة في سريرك لوقت طويل، وسترى أن العالم كلَّه يتغيّر، ستكون هناك أشياء ثمينة تستحق أن نعيش من أجلها. صدقني.. رأس عضوك الخائب الآن هو من يفكِّر بمكان رأسك»

هكذا ينتهي الحوار ما بينه وأخيه عمّار. ماذا لو أنه حاول نزع جلده واندفع في «حياة الآخرين» كما يطلب منه عمّار؟ جرّب ذلك لبضعة أشهر بعد تسريحه من الجيش، بالعمل مع أخيه في بيع السجائر في سوق الأرضروملي الشعبي بمنطقة كراج العلاوي خلف المتحف العراقي، غير أنه لم يستطع الصمود طويلاً. كان يسرح، دون إرادته، ويفشل في التكيّف، ويجد نفسه في مواقف مضحكة وشاذّة، وتسبّب بالحرج لنفسه وأخيه في بعض الأحيان، ما أنهى هذه التجربة سريعاً.

كَمْ يحتاج المرء من تأكيدات في العالم الخارجي كي يصل إلى قناعاته القاطعة؟ يعرف أنه تحت وطأة مزاجٍ واحدٍ منذ بضعة أشهر، ويعرف أن تفاعله مع المحيط ومع إمكانات هذا المحيط هو ما يخلق هذا المزاج السيئ. يعرف أنه غير حرّ ولا يمكن أن يكون حرّاً في يوم من الأيام ما دامت هناك صلة مشروطة بينه، ككائن، وهذا العالم الخارجي. وكلُّ شخصٍ يصرخ بأنه حرٌّ فهو مجنون أو أحمق. نحن نتاج العلاقة الشائكة بين كينونتنا الخاصة وإمكانات هذا العالم. الشارع والحي السكني والطقس والنظام الاجتماعي والسلطة السياسيّة، والمطبخ الشعبي والأغاني وطرق التفكير بالحياة والكون ومغزى كلِّ شيءٍ، هي أمور قدريّة تحاصرنا من كلِّ اتّجاه، وما ذاتنا إلا منطقة فارغة لا معنى لها، تكون بلون وشكل محددين، حسب الموقع الذي تشغله داخل هذه الخلطة المعقَّدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين نختفي من هذا العالم، فإننا لا نفعل شيئاً سوى تأكيد اختفائنا الأصلي، فلا وجود لنا، وإنما لكيان ضخم اسمه المجتمع والتاريخ، وإنعكاس أضوائهما على شريحة الزجاج الشفّاف التي نسميها؛ وجودنا الإكراهي الذي لم نختره، ولم يستشرنا أحدٌ من أجل إيجاده.

إنه بارعٌ تماماً في سرد هذه القناعات التي توصل إليها، وهو ما جذب انتباه أصدقائه دائماً، الذين سمَّوه بالفيلسوف، وهم يقصدون أنه يتكلَّم بكلام عميق، ويقصدون أيضاً معنى ساخراً خفيّاً؛ فهو يتكلَّم بكلامٍ مرتبٍ وأنيقٍ ولكنه غامضٌ وغير مفهوم ولا يجدون طاقة ولا رغبة لمحاولة فهمه، لذلك يبدو اندفاعه بالشرح والتفصيل أحياناً نوعاً من الفاصل الترفيهي، الذي لا يستدعي المقاطعة أو التعليقات الساخرة لأنهم سيحرمون أنفسهم من تكراره لاحقاً.

لم يُدرك هذه الظروف المحيطة بتفاعله مع الآخرين من أصدقائه ومعارفه إلا في وقتٍ متأخِّر، في الوقت الذي صار يميل فيه إلى الصمت أكثر من الكلام. وشعر فيه باليأس التام من موقعه داخل هذا العالم، وفشله في استبدال العالم الذي مَلَّ منه بعالمٍ آخر ربما يكون أفضل. صار يعيش في لحظة صفريّة تماماً، وبدا له التفكير بالموت أمراً مريحاً ومحرِّراً.

لا موجب لتبرير وجوده، أو محاولة التفاهم مع الآخرين من أجل إفساح مجال له كي «يوجد» بينهم. لا مبرِّر للبحث عن شرعيّة وجودٍ في عالم غير شرعي أصلاً، أو لا يراه شرعيّاً. لا مبرِّر لأيِّ شيءٍ. لقد سقط المعنى من العالم، وسقطت محاولاته في إسباغ معنى ما من صنعه على هذا العالم، ولم يتبقَ سوى الدفق الشعري

الذي يمكن أن ينفلق في الهواء مثل صعَّادة ناريّة جميلة ثم يختفي بعدها مباشرة.

دفق يشبه القُبْلَة اليتيمة التي أعطتها له «ليلى» في كابينة لعبة الأخطبوط الحديدي في مدينة الألعاب قبل ست سنوات تقريباً. لو تكرّرت القُبْلَة في المكان ذاته لاحقاً، لفقدت طاقتها الشعريّة. لو كان هناك انتظار وتخطيط واعٍ لها لما بدت قُبْلَة مهمّة. لو أن كلّ شيءٍ تطوّر لاحقاً كي تتعمَّق علاقته مع ليلى، وربما أحبَّا بعضهما الآخر فعلاً، وتزوَّجا، لما كانت القُبْلَة مثيرة وموحية. إنها مهمّة لأنها يتيمة ومن دون معنى مسبّق، شيءٌ خاطفٌ ولا علاقة له بهذه الحياة رغم أنه مصنوعٌ من مادتها.

ولأنها قصيرة وهشّة وشحيحة باللحظات الشعريّة، ولأنه صار يفتقد الحيلة في محاولات التعديل أو فتح الأبواب المستحيلة، لأنه سَئِمَ من رائحة براز الجرذان التي تواجهه في قفصه الضيّق، شعر بأنه من الشجاعة أن يقرِّر المغادرة الآن. تحياتي لكم جميعاً أنا مغادرٌ إلى غير رجعة، هوووووب قفزة في الهواء البارد ثم غطسة عميقة في الماء الأشدّ برودة تفقده الشعور بأجزاء جسده أولاً، ثم تبثُّ شللاً كاملاً فيه شيئاً فشيئاً، ثم غيبوبة متصلة بالأبد.

كان للآخرين أسبابهم وقصصهم المختلفة التي انتهت إلى النتيجة ذاتها التي توصّل إليها علي، أو هكذا توهّم. جاءه شابٌ من أصدقائه غير المقرَّبين وأخبره بأنه سمع بنيّته الانتحار في ليلة رأس القرن وأنه سيشاركه هذا الانتحار، ولم يمانع علي بذلك، ثم شيئاً فشيئاً انضمَّ آخرون، وأطلق أحدهم تسمية «جمعيّة المنتحرين» على جلساتهم الأسبوعية في كافتريا كُليّة الآداب بجامعة بغداد.

صارت «جمعيّة المنتحرين» أشبه بالفقاعة الزجاجيّة التي دخل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيها علي مع الآخرين بإرادتهم، فقاعة عزلتهم عن عوادم السيارات وأتربة الشوارع، وتنفَّسوا فيها هواءً نقيّاً مضمّخاً برائحة الشعر، رغم أنه في الوقت ذاته، هواء الموت أو نوايا الموت.

لم يكن الأمر يتعلَّق بمجرد الانتحار وقتل النفس بأيٍّ طريقة، وإنما أن يجري ذلك بطريقة شاعريّة، وفي وقتٍ مميّز. لم يُدرك علي جيداً الأهمية الحاسمة لجعل موعد الانتحار بعيداً. لقد كانوا منتحرين مع وقف التنفيذ. كلّهم، وعلى مدى الأشهر الثمانية، كانوا يتنفَّسون شجاعة الموت الاختياري رغم أنهم لم ينتحروا بعد. كانوا يعيشون في وضع نفسي ما بعد الانتحار، وربما خلال الأشهر الماضية استنفدو بطارية الموت الاختياري تماماً. لقد انتحروا ثم عادوا إلى الحياة، انتحروا نفسيّاً من خلال كلِّ الكلام الغاضب الذي أطلقوه في الهواء، من خلال الدموع، والشرب بإفراط والبكاء الهستيري، والتضامن الجماعي، وشتم الحياة بأقذع الألفاظ، والشعور بالشجاعة المفرطة والمجنونة التي كانت تدور في حيّز ضيّق، ربما هو شقّة أحد الأصدقاء في راغبة خاتون. شجاعة كانت محبوسةً طويلاً بسبب الهدنة المرهقة مع العالم الخارجي، ومحاولة استرضاء العائلة والسلطة الاجتماعيّة والسياسيّة وغيرها.

خلال هذا الوقت الطويل استفرغوا كلَّ الطاقة الشعريّة في نيَّة الانتحار الجماعي ليلة رأس السنة والقرن من خلال القفز من على جسر الجمهوريّة إلى المياه الباردة. هذا ما توصّل إليه علي سريعاً، وهو يدخِّن «سيجارته الأخيرة». تبخّرت كلُّ الشجاعة وتسرّبت من خلال الأحاديث والأعمال المشتركة التي قاموا بها في جمعيّة المنتحرين، ولم يوفّروا ما يكفي من هذه الشجاعة للقيام بالحدث الأساسي الذي جمعهم أصلاً.

رمى علي عقب السيجارة على الأرض وتنفَّس الهواء البارد مغمضاً عينيه. حاول أن يمتصَّ كلَّ شيءٍ في تلك اللحظة؛ الأصوات المتعدّدة الضعيفة التي تختلط في هذا الليل وفي هذا المكان تحديداً، الروائح والأضوية والألوان. حاول أن يفتح فم روحه الافتراضي ويأخذ أكبر قضمة أخيرة من هذه الحياة التافهة. ثم ارتقى على السياج الحديدي بمساعدة عمود الضوء. صار واقفاً على السياج، ناظراً إلى الأسفل، متوقِّعاً أن يثير منظره الغريب أولئك القلة المارّين في منتصف الليل على الجسر هنا، وربما كانت الشرطة منهم، ولكن هذا غير مهم أبداً الآن. رمق ساعته اليدويّة، ورأى أن هناك دقيقة أو دقيقة ونصف، قبل أن يُعلن العالم، وحسب توقيت بغداد، الدخول في القرن الجديد.

كان يحفِّز نفسه لتقبُّل صدمة المياه الباردة بعد ثوانٍ، حين سمع لغطاً خلفه، حركة سيارة ثم صوتاً ينادي عليه. كان يتوقّع هذا، وهو أمر غير مهم، إنه شيءٌ يحدث ما وراء جدار فقاعته الزجاجيّة، التي صارت فقاعة صلدة جداً الآن، ليس فيها من أحدٍ غيره.

ـ ٢ ـ

في تلك اللحظات بالذات، كان «أمير داغر»، الشاب النكرة المجهول، الذي انضمَّ إلى جمعيّة المنتحرين منذ شهرين تقريباً، ولم ينتبه له علي كثيراً، مكبَّلاً على كرسي حديد في بيته، بعد أن علمت أمه بنيّته أن ينتحر هذه الليلة فاستدعت الجيران لربطه. كان ثرثاراً بما يكفي أن تصدق أمه وأخته التوأم بنواياه المجنونة. مرّت الليلة صعبةً عليه وعلى عائلته التي لم تكنْ تعرف كيف تتصرَّف بحكمةٍ مع ابنها المجنون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في هذه الأثناء كان الدكتور واصف عبد المحيي، العضو العجوز الوحيد في جمعيّة المنتحرين، يُحكم إغلاق معطفه الصوفي الأسود، متحاملاً مع نفسه ضد الهواء البارد، ومندفعاً باتّجاه جسد علي المتصالب بجوار عمود النور فوق السياج الحديدي لجسر الجمهوريّة. كان قد صرخ عليه عدّة مرّات وهو ينزل من سيارته السوبر صالون البيضاء إلى الرصيف مباشرةً. ولكن لم يبدُ أن علي قد سمعه، أو كان يتجاهل النداء الواضح باسمه. لماذا لم يفترض أنهم أصدقاؤه وقد قدموا في اللحظة الأخيرة من أجل موعدهم المقرَّر؟

نزلت السيارة من الجسر، بسائقها الشاب، حسب أوامر الدكتور. سيبقى هناك عند الرصيف بعد نَزْلَة الجسر بانتظار قدوم الدكتور واصف بعد الانتهاء من مهمته الغامضة. هو عضو في جمعيّة المنتحرين، ويفترض أن يكون مع بقية الثمانية عشر عضواً ها هنا، ولكنه لم يُخطط لمغادرة الحياة هذه الليلة على ما يبدو.

إلتفت علي وشاهد الدكتور واصف يقف عند قدميه محاذياً السياج. «لماذا تأخَّرت؟» هتف به. فصمت الدكتور واصف، كانت الدقيقة الأخيرة قبل دخول القرن الجديد. «هيا.. اصعد معي.. والى اللعنة هؤلاء البقية الجبناء». قال علي وهو يلقي نظرة أخيرة إلى ساعته اليدويّة.

«عمليّاً عبرنا منتصف الليل منذ نصف ساعة»

«كيف هذا؟!»

«هناك ثلاثون دقيقة زائفة»

«ما الذي تقوله؟!»

ردَّ علي وهو يشعر بالاضطراب.

«ثم أنها ليست ليلة رأس القرن. حساباتي الرياضيّة الدقيقة تشير إلى ذلك، وقد أخبرت البقيّة بالموضوع. ليلة رأس السنة الفعليّة بعد ثلاثة أيام، لهذا هم لم يحضروا»

كانت تلك هي الكلمات القاضية، التي جعلت علي ساكناً وصامتاً لعدّة لحظات. كانت نفسه تحدّثه بيقين أن الأمر كلّه مجرد خدعة، وهذا العجوز يريد إنزاله من حافّة الجسر بأيّ طريقة. مرّ وقت وهو يصارع مع نفسه أفكاره المتناقضة، ثم ألقى نظرة إلى ساعته وانتبه أنه دخل العام والقرن الجديد منذ دقيقتين. انتهت اللحظة الشعريّة إذن من دون أن يستثمرها، ومن المؤسف أن هذه اللحظة لن تتكرَّر مرّة أخرى إلا بعد مئة عام. وحينها لن يكون علي موجوداً. لقد شوّش الدكتور واصف ذهنه وخرَّب عليه لحظته المميّزة إلى الأبد.

سحبه الدكتور واصف من يده فنزل معه. ثم دفعه برفقٍ كي يسيرا معاً. نزلا على الجسر بخطوات بطيئة، وأعطاه الدكتور واصف سيجارةً وصارا يدخِّنان. شعر وهو يقترب من نهاية الجسر بالبرد الشديد. لقد عَبَّ ما يكفي من البرد خلال نصف الساعة الماضية، وها هو ينتبه ويفرك ذراعيه بانفعال.

«حين نصل إلى البيت سنأخذ كأسي ويسكي وتشعر بالدفء»

قال الدكتور واصف، ولم يرد علي بشيء. لم يكنْ يشعر بمعنى لما يجري. كان أشبه بالمخدّر أو بمن دخل إلى غيبوبة أو حالة سُكر عميقة. ليس هناك شيءٌ واضحٌ في ذهنه في تلك اللحظات. هل كان حقّاً يريد إلقاء نفسه في المياه الباردة؟ أم أنه كان يريد التشجيع من الآخرين للقيام بشيء لا يستطيع عمله بمفرده؟ لقد كانت جوقة المنتحرين الافتراضيين من حوله مبرِّراً كافياً لجدية الأمر، أما بغيابهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهو يجد نفسه عارياً بمواجهة حججه المتناقضة. لم يكنْ قادراً على الانتحار، ولكنه خَشِيَ من السخريّة في اليوم التالي.

«لماذا لم يأتِ أحدٌ منكم؟»

«ولماذا لم تنتحر أنت؟ هل كان وجودنا ضروريّاً؟ لماذا ضيّعت اللحظة المميّزة ولم تنتحر؟»

«أليس انتحاراً جماعيّاً»

«لقد جبنا، لسنا شجعاناً لمغادرة هذه الحياة التافهة، ولكنك أنت النبي والقائد لمجموعتنا، لو انتحرت لكنت أشعرتنا جميعاً بالذنب ولربما لحقناك للتكفير عن خيانتنا لك، ولكنك القائد ومع هذا لم تنتحر، فلا تَلُمْ أرواحنا الصغيرة وعقولنا التافهة التي لم تتجرَّأ على مشاركتك في عملك العظيم».

خاض هذه الحواريّة الافتراضيّة في ذهنه خلال الطريق إلى بيت الدكتور واصف في حي المنصور. ولأنه يعرف أن أيَّ حواريّة مع أصدقائه في الجمعيّة ستجري بهذا الشكل فقد شطب على الأمر كلِّه. لقد انتهت جمعيّة المنتحرين، والى الأبد، مع استدارة علي بجسده من على الجسر ونزوله منه بناءً على طلب الدكتور واصف.

- ٣ -

كان الدكتور واصف قد سمع بـ«جمعيّة المنتحرين» من جاره العجوز وصديقه «فتّاح»، لأن ابنه سنان قد انضمَّ إليها.

تصوّر واصف حين سمع بهذا الاسم أنها جمعيّة فعليّة، لها مكتب وأعضاء وربما بطاقات هويّة، ولم يفهم في البداية معنى الاسم الغريب. فما هي الخدمات التي تقدمها جمعيّة من هذا النوع يا ترى؟!

لم يمهله العجوز فتّاح كثيراً وشرح له أن ابنه طالب معهد الدراسات الموسيقيّة إلتقى بهذه المجموعة الغريبة في كافتريا كُليّة الفنون بالوزيريّة، ثم صار يرافقهم حتى صدَّق تماماً الفكرة التي يتداولونها؛ الانتحار في ليلة رأس السنة المقبلة. ولم تنفع حجج العجوز مع ابنه الوحيد. لم يفهم لماذا يفكِّر شاب مثله بالانتحار.

«انهم في عمر رومانسي، والانتحار فكرة رومانسيّة»

«يعني.. هو ليس جادّاً؟ سيترك الموضوع، هل تريد قول ذلك؟»

سأل فتّاح بقلق، فردَّ دكتور واصف:

«لا أعرف. ولكن البشر لا يقومون غالباً بالأعمال الحكيمة. ثلاثة أرباع أفعال البشر إمّا غير واعية ومتهورة، أو أعمال رومانسيّة في جوهرها».

«لا تتفلسف علي دكتور اللّه يخليك. آني خايف من الموضوع. هذا الولد بس هو عندي، وإذا مات ما اعرف شراح أسوي».

«لن يموت. أنا أعدك بذلك»

قال الدكتور واصف ذلك بثقة، في محاولة لتهدئة صديقه المليء بأمراض الشيخوخة، ولم يُدرك أنه تورّط بالموضوع ابتداءً من هذا الوعد.

كان دكتور واصف متقاعداً، في الخامسة والستين من عمره، يسكن وحده في بيت واسع وفخم منذ بضع سنوات، بعد مغادرة أخيه رافد وعائلته إلى عَمَّان، ورفضه الذهاب معهم. ولم يكنْ يعجز عن ملء وقته الكثير بمشاغل وتفاصيل عديدة، أغلبها تتعلَّق بالقراءة والاستغراق بتخصصه الآثاري، وربما تلقى اتصالاً هاتفياً من زملائه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الموظّفين القدامى، والتقى بهم على وجبةٍ في مطعمٍ أو مقهى. وكانت امرأة عجوز تسكن في بيت مجاور تأتي إليه كلَّ صباح لتقضي ساعتين أو ثلاثاً في التنظيف وتهيئة الطعام له إن رغب بذلك. وفي أوقات الصيف الدافئة يكون كرسيه البلاستيكي في وسط حديقته هو مكانه الأثير، بجوار طاولة عليها جهاز تسجيل وكأس مشروب ما، وبضعة جرائد ومجلات وكتب. وقد يقضي في هذه الجلسة ساعات طويلة من دون أن يشعر بذلك، وغالباً ما كان العجوز فتّاح يقاطع خلوته داخل الحديقة ويأتي إليه ويجلس بجواره من دون استئذان، ولم يكنْ هذا يزعج الدكتور واصف، فعلاقتهما طويلة، على الرغم من أنه لا توجد مشتركات كثيرة بين الرجلين، ولكنها صداقة الشيخوخة ربما، التي تجعلهما متقاربين في هموم الجسد والشعور بالعزلة عن مجريات الحياة السريعة، وأفعال الأناس الأكثر شباباً التي تبدو غامضةً أكثر فأكثر بالنسبة للعجوز فتّاح.

كان الوعد الذي قطعه الدكتور واصف لمساعدة صديقه العجوز فتّاح، قد أربكه في البداية، فهو لا يعرف بالضبط ما سيفعل، ولكنه في الأيام اللاحقة اعتبرها فرصةً لتحريك البركة الساكنة في يومياته.

صار يذهب إلى كُليّة الفنون، والى قاعة حوار والكافتريات المجاورة. صار عملاً شبه يومي، حتى تصادف ذات يوم مع ابن العجوز فتّاح، وصارا يجلسان ويتحدّثان، ثم تبرع بايصاله للبيت ذات مرّة بسيارته الخاصة. كان الدكتور واصف يسايره، ولا يعترض على وجهات نظره العدميّة، ثم شيئاً فشيئاً دخل في جمعيّة المنتحرين وتعرّف على علي وبقيّة أصدقائه، وأعلن أمامهم بأنه عضوٌ جديدٌ في المجموعة.

«إنهم مجموعة مسكينة من الشباب، تعاطفت معهم كثيراً، ولا

أستطيع الادّعاء بأنهم يقصدون فعلاً الانتحار، أم يثرثرون ليس إلا» قال الدكتور واصف وكأنه يُقدِّم تقريراً ما لصديقه العجوز فتّاح.

«وماذا يعني؟ ألن ينتحروا؟ هل تطلب مني القيام بشيء ما تجاه ولدي سنان؟»

«لا تقم بأي شيء. دع الأمر لي. وانا أؤكد لك؛ لن ينتحر أحد».

قال الدكتور واصف، من أجل تهدئة خاطر صديقه العجوز، رغم أنه غير متأكِّد من أيِّ شيء. لم يخبر فتّاح بالتفاصيل التي سمعها من أفراد الجمعيّة حتى لا يُخيفه أكثر، ولكن ما كان يجعله مطمئناً أن هذا الموعد ما زال بعيداً.

صار يساير المجموعة ويُمضي على النتائج التي يتوصلون لها، خصوصاً ما ينطقه هذا الشاب السليط ذي الكلام المنمّق، علي، والذي يبدو فعلاً قائداً لمجموعة المنتحرين الذين لم ينتحروا بعد.

كان يعوّل على تأثير الزمن الطويل واستنفاد الطاقة بالكلام وتكرار الأفكار ذاتها كلَّ يوم. ثم أغرى المجموعة الصغيرة بالقدوم إلى حديقة بيته. وكم كان العجوز فتّاح سعيداً حين شاهد ابنه سنان يدخل مع الشباب إلى حديقة الدكتور واصف. ومن أجل اتقان خطَّة الدكتور واصف توارى العجوز فتّاح نهائيّاً، وادّعى انشغاله بأمراضه المتعددة.

صار يُقدِّم لهم المشروبات ووجبات الطعام الخفيفة، ويسحبهم معه لسماع الأغاني القديمة، ويشرح لهم الانتقالات التي حصلت في الموسيقى الشعبيّة العراقيّة، ثم يدفعهم لقراءة بعض الكتب المهمّة التي ألهمته في شبابه. كان يريدهم أن يستمتعوا بالوقت المتبقّي حتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موعد موتهم المؤكّد. وخلال ذلك سيترك التغيّرات الجديّة تحدث في العمق.

تخلّى ابن العجوز فتّاح عن فكرة الانتحار في النهاية، بعد أن عاودت الفتاةُ التي يُحبّها الاتصال به. ولكن الدكتور واصف ظلّ على صداقته بالشباب الآخرين. صار يشعر بتغيّرٍ في مشاعره. صار يحبّهم، وتعوّد على زياراتهم الأسبوعيّة لبيته، رغم أنهم في كلٍّ ذلك لم يكونوا قد تخلّوا عن فكرتهم الأساسيّة.

إلتقى الدكتور قبل يومين من ليلة رأس السنة بأربعة من أعضاء الجمعية الشبان وأخبروه بأنهم غيّروا أفكارهم. ليسوا هم فقط وإنما آخرون في الجمعيّة الافتراضيّة. ولكن المؤكّد أن علي لن يغيّر تفكيره. هم لا يملكون الشجاعة لإخباره بتخليهم عن فكرة الانتحار. يشعرون بالحرج منه وهم يريدون البقاء كأصدقاء. يشعرون بالبهجة والراحة في هذه اللقاءات، التي يُضفي عليها علي نَكْهَةً خاصة، ومن السخف أن تنتهي هذه العلاقة المميّزة بالانتحار. عليهم ان يستمرُّوا في قضاء هذا الوقت الجميل أطول فترة ممكنة.

طلب الدكتور منهم عدم معارضة علي. فلو أخبروه بتخليهم عن فكرة الانتحار فهذا سيجعله في مزاجٍ سيئٍ جداً ليلة رأس السنة وسينتحر بسبب ذلك من دون شك. كما أن الدكتور واصف لم يعرف رأي جميع الأعضاء الثمانية عشر في الجمعيّة، ولا يريد المجازفة باستجوابهم كلّهم، فلربما ذهب أحدهم وأخبر علي بالمؤامرة الداخليّة الانقلابيّة.

مضت الأمور مثلما تخيّلها الدكتور واصف، وذهب رأس القرن الخطر إلى غير رجعة، غير أنه بعد أسبوع سمع من ابن العجوز فتّاح

أن عضواً في الجمعيّة، اسمه أمير داغر، انتحر شانقاً نفسه في غرفته بالبيت.

- ٤ -

على ركام جمعيّة المنتحرين، ظهر شيءٌ آخر. قال الدكتور واصف في تلك الليلة التي عادّا فيها مِن الجسر، وبنبرة مختلفة لم يسمع بها علي سابقاً؛ إن الحياة والموت هما أمران نسبيان. ما الذي يمكن أن نقوله عن شخص يقضي ربع قرن في السجن. أو امرأة مجبرة على التزام علاقة زوجيّة حتى الممات رغم أنها لا تُطيق هذه العلاقة، ولا تستطيع فعلَ شيءٍ لتغييرها بسبب العادات والتقاليد الاجتماعيّة. ماذا نقول عن أشخاصٍ عديدين يقولون لك إنهم لا يشعرون بطعم الحياة. هل الحياة هي مجرَّد التنفُّس والقيام بشكل إجباري بالعمليات الأيضيّة من أكل وتبرّز وتبوّل ومعها نوم واستيقاظ وما إلى ذلك. ثم ماذا بشأن من يلتهم الحياة بكلِّ مباهجها ثم لا يجد بعدها شيئاً مثيراً، وتصبح مباهج الحياة التي يطمح إليها الآخرون أمراً رتيباً ومملاً بالنسبة له. ماذا عن المعاقين، أو أولئك الذين فقدوا بصرهم في الحرب. ماذا عمّن فقد عضوه الذكري بسبب حادث. هناك نسبة كبيرة من الرجال تربط حياتها بحياة عضوها الذكري. إن لم يَرَ عضوه ينتصب فهو خارج الحياة تماماً.

هناك أشكال متعدّدة من الحياة تشبه الموت تماماً وربما أقسى، لأننا لا نملك خبرةً عن الموت، إنه يحدث فحسب. وربما كان الموت أفضل بالنسبة لكثير من الأشخاص الذين يتحسّسون عذاباً هائلاً في هذه الحياة، وهذا ما يقف وراء حالات الانتحار للنساء في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأحياء الشعبيّة، فالضغط النفسي على المرأة هناك لا يُطاق. ثم يلومونها لأنها قتلت نفسها.

«افترض منذ الليلة أن علي ألقى نفسه من الجسر، وعش منذ الليلة وكأنك ميت حي»

«ميت حي؟!، وماذا يفترض بالميت الحي أن يعمل»

«يعيش بالمجان، يعيش في الوقت الإضافي ما بعد الموت، ينسى القصص الكبيرة ويتحول إلى مجرد شيءٍ في الحياة. يعيش ما وراء منظومته الأخلاقيّة والقيميّة، يعيش مثل شخصٍ آخر تماماً، وينسى كلَّ شيء يتعلّق بالكائن المُكْرَه على الموت، فهذا قد غدا خلفه، هناك، يطفو على سطح الماء ذاهباً إلى المدائن أو الكوت ربما».

كان كلاماً غامضاً وجديداً، ولكنه أثّر في علي، كما أن مغادرته اللحظة الشعريّة الثمينة جعلته يعيش في حالة من الفراغ الذهني، فهو لم يُخطط كثيراً لما بعد فشل خُطَّة الموت.

«الميّت الحي» صارت لحظته الشعريّة الجديدة.

ظلَّ يأتي بانتظام إلى حديقة الدكتور واصف، ليأخذ جرعات أخرى من مخدر «الميت الحي». يلتقي ببضعة أصدقاء، واحد منهم فقط من جمعيّة المنتحرين المنحلة، فضلاً عن صديقه القديم، من أيام كُليّة الفنون، عبد العظيم حامد، الذي ترك دراسة المسرح في السنة الثالثة وذهب ليتطوّع في الكُليّة العسكريّة. كان وقتها يخدم، كملازم أول، في وحدة عسكريّة قريبة جنوبي بغداد.

استمرت الجلسات تلك على مدى عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠١. لم يكنْ هناك شيءٌ مهمٌّ قد تغيّر في يوميّات علي. كان يعمل في وظائف

مؤقتة سرعان ما يتركها، ويذهب في كثيرٍ من الأحيان لأخذ المال من أخيه عمّار. يقرأ ويستمع إلى الموسيقى ويشاهد الأفلام على أقراص ليزريّة مع أصدقائه. يحضرون عروضاً مسرحيّة. وقد يرتّبون لحفلات ماجنة، في شقّة الصديق المقيم براغبة خاتون. نفّذ خلال ذلك كلّه وصفة «الميت الحي»، أو ما فهمه من هذه الوصفة. ظلَّ يُوهم نفسه بأنه يعيش ما وراء لحظة الجسر القياميّة. لقد مات وانبعث من الموت من جديد. وهو كائنٌ آخر. ولم يعدْ يعبأ بالآخرين أو صورته في أذهانهم.

ـ ٥ ـ

ظلَّ يمضي على هذه الحالة حتى ذلك النهار الشتائي الذي دخلت فيه ليلى حميد مع عبد العظيم إلى حديقة الدكتور واصف. قال عبد العظيم إنه صادفها في إحدى المكتبات، وحين سمعت بأن أصدقاء من الكُليّة يلتقون هنا ألحّت بطلب المجيء. نظر عبد العظيم إلى دكتور واصف وقال له بأنه فعل ذلك من دون استئذانه ويتمنّى ألا يمانع بمجيءِ صديقٍ جديد.

كان وجود بنت في المجموعة فكرة لطيفة بالنسبة للدكتور واصف، رغم أنه لم يكنْ يعرف شيئاً عن خلفيّة الشخصيّة الجديدة في حديقته ثم في صالة الضيوف، التي انتقلوا للجلوس فيها مع اشتداد البرد في الخارج.

تغيّر مُزاح علي فجأةً، وفقد المرح الذي كان يرتديه كقناعٍ يُغطي وجه المنتحر السابق. ورجع بالذاكرة، من دون إرادته، إلى ما قبل ثماني سنوات، إلى كابينة اللعبة الحديديّة، والقُبْلَة المفاجئة العميقة التي طبعتها ليلى على شفتيه من دون سابق إنذار. إلى الدهشة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المخلوطة بمشاعر غامضة لم يختبرها سابقاً، والى الشعور بالمرارة والخيبة لاحقاً بسبب اختفاء ليلى المفاجئ.

اختفت لثماني سنوات وها هي تحضر فجأةً. ظلَّ علي متسمِّراً في دهشته الجديدة بعض الوقت، وكان من المفيد أن هناك أشخاصاً كثيرين من حوله، صاروا يتجاذبون الكلام، وانشغلت ليلى بهم قليلاً، قبل أن تقترب منه وتحاول التعرُّف على زميلها القديم وما الذي جرى له خلال السنوات الماضية.

حاول علي جاهداً أن يبدو طبيعيّاً، وأن يحذف من دماغه أيَّ شيءٍ يتعلَّق بالقُبْلَة القديمة وأيام التسكُّعات والنقاشات الحامية. من المخزي بالنسبة له أن يعود إلى لحظةٍ مضت منذ ثماني سنوات من أجل استئنافها مجدَّداً، ومحاولة طرح أسئلة من قبيل؛ لماذا اختفيت، لماذا قبلتني في ذلك اليوم؟ حاول أن يبدو منشغلاً وغائصاً في تفاصيل حياة صاخبة، وما ليلى وعالمها كلُّه إلا صورة شاحبة لا يتذكَّر تفاصيلها جيداً، أو هكذا حاول أن يُوحي لليلى.

إطمأنَّ إلى أنه التزم بشكلٍ جيدٍ هذا القناع، وأن ليلى صدّقت به، ومنع نفسه من استجواب البنت. فهل تزوّجت مثلاً؟ لا بدّ أنها تزوّجت. ما الذي يشغلها، هل تعمل في وظيفةٍ ما؟ أما زالت في بيت عائلتها القديم. من بقي من الصديقات والأصدقاء القدامى قريباً منها وتلتقي به خلال السنوات الماضية؟

كان يتوقَّع أنها زيارة يتيمة ولن تتكرَّر، وهذا ما سيريحه من عبءِ وجودها غير المريح بالنسبة له. ولكنها صارت تظهر كلَّ أسبوع في صالة بيت الدكتور واصف، وفي المرّات الأخيرة كانت تأتي من دون عبد العظيم الذي لم تكنْ واجباته العسكريّة تعطيه حرية الحركة والمجيء إلى بغداد في أيِّ وقت يشاء.

في بعض الأحيان، وبسبب أنها لا تعرف الآخرين جيداً، كان يضطر لمرافقتها حتى تأخذ سيارة أجرة من رأس الشارع العام. وقد تقترح أن يمضيا سيراً لمسافة معينة. يتوقّفان عند محل مرطبات. أو تطلب منه أن يدخل معها إلى محل للملابس النسائيّة لأنها تذكّرت فجأةً حاجتها لحذاء أو قميص، وخلال ذلك وجدت نفسها تسرد تفاصيل من يومياتها ووضعها الخاص. كان علي يشعر بدفق الأسئلة الكثيرة في ذهنه وهي تزدحم ويلجمها بصعوبة. دَعِ البنت تحكي بما تريد وعلى وفق مزاجها. ثم ما هذا الذي يجري الآن. إنه عَوْمٌ في بقعةٍ من المحيط لا يعرف علي موقعها بالضبط، وأيُّ شاطئ قريب منها، فلا شيء حوله سوى المياه الزرقاء المتصلة بزرقة السماء. هل سيستمر هذا العوم طويلاً أم ماذا؟

أمسك بيدها وهما يسيران قريباً من معرض بغداد الدولي، ولم تمانع. صار ينزلق معها، ويشعر بدوار طفيف كلّما نظرت إليه، وكأنهما يسترجعان لحظة ما من كابينة اللعبة الأخطبوطيّة. قال لها أخيراً بأنه يحبّها، فردّت من دون أن تتفاجأ بأنها تعرف.

ـ وأنتِ؟!

أفلت منه هذا السؤال، وكأنه يريد التأكُّد بسرعة. فنظرت إليه مع ابتسامة ذات مغزى من طرف الفم:

ـ لماذا أقضي هذا الوقت الطويل معك يا علي، يعني كلك نظر!

كانت تحبّ كعادتها الأجوبة غير المباشرة، واللف والدوران. وألا تنطق بشيءٍ يشبه لغة الاعترافات، وكأنها في مركز شرطة، وعلي يفهم هذا الشيء، وما هذه الجولات سوى تأكيدٍ لما يعرفه عنها. لم تتغيّر البنت كثيراً.

استمرّا على هذه الحال عدّة أسابيع، وغادر علي تحفّظه السابق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وخوفه من إزعاج ليلى، وصار يمطرها بالأسئلة عن أدقِّ التفاصيل التي تخصّها، وكانت تصدّه وتمتنع عن إجابة نصف الأسئلة، أو تُقدِّم أجوبة غامضة. وهذا كان يزيد من توتّر علي، وفي الوقت نفسه يزيد من خوفه أن يسبب إلحاحه في ابتعادها وفرارها مجدَّداً. كان يعرف أنه في هيأته الحالية متراجع كثيراً عن صورته أيام الجامعة. لم يعد ذلك الفيلسوف والقديس الهادئ. إنه مضطرب ومرتبك على الدوام، وفاقدٌ للبوصلة التي تشير عنده إلى جهة محدَّدة. على العكس من ليلى التي تبدو منضبطة، وتنظر إلى ساعتها الذهبيّة الصغيرة بين حين وآخر، وقد تقرِّر المغادرة فجأةً وأنها لا تستطيع التأخُّر عن البيت أكثر، حتى لو كان قرارها المفاجئ يفتت بقسوة غيمة من الكلام الشاعري.

كان صوت في رأس علي يُخبره أنه يندفع معها مثل فراشة العثِّ التي تقترب من مصباح حارق. لا بدَّ أن تأتي تلك اللحظة التي سيحترق فيها. ثم يعزِّز هذه الصورة الناريّة، في هذيانه حول ليلى، باستعادة للصورة المائية السابقة عن العوم داخل محيط لا ضفاف له. فيقول مع نفسه؛ لا بدَّ أن تظهر في الأفق ضفّة صخريّة، وسترفعني الأمواج فجأةً ومن دون سابق إنذار لتلطمني على الساحل وتُكسّر عظامي.

في لقائهما الأخير جاءت ليلى، في فترة بعد الظهيرة المعتادة، إلى صالة بيت الدكتور واصف. كان هناك ستة شباب وجاء علي متأخِّراً، ولاحظ من دون عناية كبيرة أن ليلى لم تكنْ في وضع مريح. جلس بجوارها، وحينما لاحظ انشغال الآخرين دنا منها وسألها، فردَّت بالنفي. لا شيء. حاولت خلال الساعتين اللاحقتين أن تبدو مسترخية وهادئة كعادتها، ولكنها كانت تسرح بذهنها. ثم

قبل أن يشغل الدكتور واصف فيلماً إيطالياً قديماً على جهاز السي دي ليريه لأصدقائه الشباب إلتفتت ليلى إلى علي وطلبت منه أن يغادرا.

ظلا يسيران على رصيف الشارع العام، وعلي يُمطر ليلى كعادته بالأسئلة عمّا بها وهي تتهرَّب من الأجوبة الواضحة. وبعد دقائق توقَّفت وقالت له إنها تريد منه أن يرافقها إلى بيت أختها، كي تعيد له مجموعة شعريّة قديمة لجوزيف برودسكي، كان علي قد أعارها لها في يوم من أيام دراستهما الجامعيّة الأخيرة.

رافقها حتى شقّة أختها، التي رحَّبت بهما وقدَّمت مشروبات الضيافة، ثم سرعان ما تركتهما لانشغالها بموعد ما. كانت فراشة العثّ تقترب من المصباح، والموجة تتكثّف تحت علي لترفعه إلى الأعلى، إلى مستوى يمكّنه من رؤية الضفة الصخريّة الخطرة التي سينقذف إليها بشدّة. ولكنه لم يمانع ذلك. تذكَّر وهو يمسك يد ليلى ويرى إلتماعة عينيها وكأنها تكبت دموعاً غامضة لا تريد سفحها في هذا اللقاء، أنه كان أحمقَ حين فكّر بالانتحار، وأن الدكتور واصف أنقذه وهو من قدّم له، بشكل غريب، هذه اللحظة المميّزة. اللحظة التي يشعر معها، دون حاجة لأدلة من التفكير المنطقي، أن هناك ما يستحق في هذه الحياة أن يعاش. حتى لو كان مجرد ومضة كاشفة على بهجة الحياة في عينيّ حبيبته، ومضة سريعة لم يعرف بعد أنها زائلة.

استيقظ على الضفة الصخريّة. كانت عظامه محطّمة، واستطاع بصعوبة النهوض ورؤية الجزيرة الموحشة التي وجد نفسه وحيداً فيها. احترقت أجنحة الفراشة وسقطت إلى الأرض. غادرت بهجة السماء، وظلَّ المصباح الناري يسطع في الأعلى، من دون أملٍ بمحاولة مسّه مرّة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظلَّ علي ليومين وهو يشمّ في يديه وجسمه رائحة ليلى. لم يغتسل، لم يمس الماء أصلاً. كانت هناك تحت أظافره رائحة لو شمّها في مكان آخر لبدت له قبيحة، لا يتذكّر إلى أين ذهبت أصابعه، ولكنها رائحة مهيّجة، كانت تؤدي إلى انتصاب سريع لديه، إنها رائحة إفرازات جسد ليلى. كان مؤمناً أن رائحة تعرّقها ما زالت عالقة في تجويف أنفه. مارسا الجنس لثلاث ساعات أو أكثر، وأحسَّ داخل بخار الشهوة الذي غلّفهما أن ليلى بكت في حضنه، ولم يسألها عن السبب، ثم وجد أن عينيه تدمعان أيضاً من دون سبب، ربما تمثّل مع نفسه وبشكلٍ هذياني الاحتراق المستقبلي لجناحي الفراشة، وتحطم أضلاعه على صخر الجزيرة المهجورة.

كان يتوقّع أن تظهر ليلى خلال اليومين التاليين، ولكنها اختفت. جاء إلى بيت الدكتور واصف، وسأل إن كانت قد مرّت. ظلّ يتجول في الطرقات ذاتها. ثم سريعاً ومن دون انتظار لوقت أطول صار علي مثل الممسوس، يتحسّس النيران تأكل جسده. تقطّعت أقدامه من السير على غير هدى في شوارع حي الزعفرانيّة. يدقّق النظر في وجوه فتيات يبدين من بعيد بهيئة ليلى؛ قامتها المتوسطة وجسدها ذي الامتلاء البسيط وشعرها الأسود الملتفّ على شكل حلقات على جانبي وجهها، الذي يُذكّر بشعر هند كامل.

عاد عبد العظيم بإجازة من وحدته العسكريّة في خانقين، وحين التقاه علي سأله فوراً عن ليلى، فكرّر عبد العظيم، مع شعوره بالاستغراب، أنه لا يعرف معلومات أكثر من التي قالها سابقاً؛ لقد شاهدها صدفةً عند مكتبات شارع السعدون ذات نهار.

تحطم علي تماماً، رغم أن صوت المنطق في عقله يخبره بإلحاح أن الارتفاع الشديد يؤدي إلى سقطة مؤلمة أكثر، ولم يكن امتزاج

جسده مع جسد ليلى العاري لحظة عبور إلى هضبة أعلى، يتبعه استقرار وطمأنينة وإنما مجرد ارتفاع شاهق في الهواء الطلق، يفقد زخمه لاحقاً ثم يهوي به إلى الأسفل.

نَسِيَ تماماً حكاية «الميّت الحي» التي أقنعه بها دكتور واصف. صار يشرب كثيراً، ويذهب ليلاً وحده إلى المكان نفسه على الجسر الذي شهد محاولة انتحاره الفاشلة. يبقى هناك لساعة من دون قرار واضح في ذهنه، ثم وجد نفسه ذات ليلة بعد ساعات طويلة من الشرب، أمام باب بيت الدكتور واصف. وحين انفتح الباب ورأى علامات الاستغراب على وجه صديقه العجوز سارع للقول دون تفكير:

ـ أنت من قلت لي، تصرّف مثل ميّت حيّ ما وراء منظومة القيم. إنه وقت غير مناسب للزيارة، وأبدو في أسوأ حال، أعرف هذا، ولكني أفكّر بك منذ الظهيرة، سأنفجر إن لم أتحدّث مع أحد، ولا ملجأ لي غيرك.

أخبره علي بكلِّ القصّة مع ليلى. وظلَّ الدكتور واصف واجماً يحاول أن يفهم.

ـ هذه التجارب الغريبة ثمينةٌ أيضاً. أشكر اللّه أنك استطعت أن تحظى بحصتك منها، إنها ثمينة.

ـ يا ثمينة!! إنها مؤلمة. أشعر بأني ألعوبة. أعرف بأنها ستظهر ذات يوم، مثلما اختفت وظهرت سابقاً. ستظهر حين أكون قد نسيتها تماماً، لتضرم النار المنطفئة من جديد، من أجل دورة عذاب أخرى.

ـ لا تبالغ، لا يوجد إحساس لا يمكن مَحْوُهُ بإحساس آخر، من النوع ذاته، يأتي بدرجة أعمق أو يتكرّر لوقت أطول.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فَرَكَ علي وجهه في محاولة للتركيز، حاول إجبار نفسه على تصديق كلام صديقه العجوز لكنه فشل في ذلك، وربما شعر الدكتور واصف بهذا حين علّق بعد لحظات صمت بما يشبه الاعتراف:

ـ إن كان يريحك سأقول إنني أحسدك يا علي.. أنا لم أحظ في حياتي بشيء مماثل، ولم يتبقَ لدي الكثير لتجربة من هذا النوع. أنت محظوظ لأنك استطعت تجربة هذه المشاعر. أما أنا فحياتي ناشفة وجافّة مثل يديَّ هاتين.

ظلا يثرثران ويشربان حتى ساعة متأخِّرة، ثم غفا علي على الأريكة داخل الصالة، وبقي نائماً هناك حتى الصباح.

ـ ٦ ـ

في مزاجه الجديد لم يجد علي في كلام الدكتور واصف أيّ ترياقٍ أو تعزية. غرق في أفكاره السوداويّة من جديد. لم تعد القُبْلَة القديمة ذات معنى إلا بارتباطها بتسلسل أحداث قاد إلى اللقاء المدمِّر في شقّة أخت ليلى التي عرف لاحقاً أنها مجرد صديقة لها وليست أختاً. وبسبب عدم فاعلية كلام الدكتور واصف، فما عاد يحضر كثيراً إلى بيته وحديقته، كما أن الأخ الأصغر للدكتور واصف، ذلك الشاب السمين ذو الشاربين السميكين الذي اسمه رافد، عاد من عمّان، ولم يكن مرتاحاً لوجود هؤلاء الشباب في حديقة بيت العائلة. وشعر علي بسهولة بالنظرات النارية غير المريحة التي كان يرميها رافد تجاههم كلما دخل أو خرج من البيت.

كان رافد قد احتدَّ في النقاش أكثر من مرّة مع أخيه الدكتور، في محاولة إقناعه ببيع بيت العائلة والانتقال نهائياً إلى عمّان وربما السفر من هناك إلى بلد آخر. وحين لاحظ الحضور المنتظم لهؤلاء الشباب

المجهولين أخبره من دون تحفُّظٍ أو خجل، بأن هؤلاء هم من سيسرقه.

«لا أحد يسرق بيتاً إن لم يكنْ يعرفه، وهؤلاء يبدون مثل الجرذان، وبالتأكيد واحدٌ منهم أو كلّهم سيقومون بمسح هذا البيت من أغراضه ذات يوم».

تعارك الدكتور معه، بسبب هذا الكلام، وبسبب فكرة بيع البيت كلّها. وظلّ يؤكد لأخيه الأصغر بأنه لا توجد مشكلة تستدعي الحلّ في كلّ هذا الوضع الذي يعيشونه، فرافد يقيم بشكل مريح مع عائلته الصغيرة خارج العراق، والدكتور واصف مرتاح ليومياته هنا، ولا موجب لأي تغيير.

ذهب علي لشهرين في خدمة الاحتياط العسكريّة الثانية، وحين عاد كان أكثر مرارةً وظلاماً، بسبب البؤس الذي عايشه كجندي والإهانات التي تلقاها. وكان قد منع نفسه بصعوبة من صَفْعِ الضباط الذين كان يأتمر بأمرهم. وفي الفترة التي تلتها، لم يتوقّف عن أمرين؛ البحث عن ليلى، واستعادة الأفكار السوداويّة لجمعيّة المنتحرين. كان قد قرَّر شيئاً مع نفسه، فإن كان القدر يلعب معه لعبة ما، فعليه أن يُظهر ليلى أمامه ثانيةً كي يمنعه من الموت هذه المرّة.

لن يتمكّن الدكتور واصف من استخدام حيله القديمة من جديد. لن يكون أيّ شيء مما مرَّ به سابقاً مفيداً لإيقافه عن نواياه هذه المرّة. وفي شقّة الصديق براغبة خاتون، وجد أن ثلاثة من أصدقائه يمضون على كلامه، وأنه من الضروري القيام بعمل ما، ولكن ليس بالقفز من الجسر ليلاً إلى مياه النهر الباردة. إنه عمل سخيف، والأفضل شراء أسلحة ومتفجرات إن أمكن، والقيام بعمل انتحاري في باب القصر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجمهوري، أو باب دائرة الاستخبارات العامة بالكاظمية. أو إن كان هناك مزاج للتخطيط الدقيق والعميق، الذهاب إلى شيءٍ أبعد، الدخول إلى جسد السلطة الحاكمة بالحيلة ثم تنفيذ عمل انتحاري سيتذكَّره الجميع لاحقاً ولن يستطيعوا نسيانه. هكذا يستثمرون طاقة الموت والعدمية في عمل أمر جديدٍ تماماً ربما يُغري الآخرين ويكسر حاجز الجبن لديهم.

لم تكن الفكرة مثيرة جداً لعلي في البداية، هو لا يريد الخلود كبطل، لا يريد القيام بعمل يتعرَّض لاحقاً للتفسيرات والقراءات المختلفة. إنه يُفضِّل وببساطة فتح الباب والخروج من هذا العالم بصمت. الاحتجاج على كلّ الحياة، وليس على نظام سلطة فقط.

استمرُّوا بالجدال عدّة أسابيع من دون الوصول إلى نتيجة واضحة، فضلاً عن كون هؤلاء الأصدقاء شبه السكارى لا يملكون خبرةً فعليةً بتنفيذ أعمالٍ من هذا النوع، واستحالة التحرّك بأعمال عدائية ضد السلطة من دون أن يلاحظ أحدٌ ما شيئاً.

كانت مجرد ثرثرات لإزجاء الوقت حتى يصلوا إلى فكرة أخرى أكثر جدوى وفاعلية، أو لا يصلوا. ثرثرات مفيدة لحشو بطانة الزمن وجعلها ثقيلة قليلاً وليست تافهة تماماً.

- ٧ -

يحاول علي استحضار وجوه أصدقائه، للتعرُّف على جدية ولائهم له، وكونهم لم يكونوا وشاةً من دون قصد. لا يتذكّر أنه ثرثر بهذه الأفكار الخطرة عن التخطيط لعمل ما ضد الدولة والنظام، خارج الصالة الحقيرة في شقّة صديقه براغبة خاتون.

يحاول أن يتذكّر أيّ مقدمات منطقية لما جرى لاحقاً، ولكنه

يفشل في العثور على شيءٍ مفيد. كان يسير على رصيف الشارع الرئيس بالوزيرية مع صديق له ويثرثران، حين توقفت سيارة لاندكروز بيضاء ونزل منها شابان يرتديان ملابس مدنيّة. سألوه «هل أنت علي ناجي؟» وحين ردَّ عليهم بالايجاب سحبوه معهم، وأهملوا صديقه. أخذوه بالسيارة إلى مكان لم يكن يعرف ما هو، وابتداءً من ليلة القبض عليه تعرّف على عالم آخر، وشعر مصدوماً بسذاجة كلِّ أفكاره السابقة عن معنى الحياة، وموقفه منها، ومجمل أفكاره الرومانسيّة عن قيمة مساره الشخصي ونظرته العدميّة. كلُّ شيءٍ تهاوى مع الضربات الحادّة على جسده بالكيبلات السوداء.

«أنت رئيس منظمة انتحارية. اخبرنا بأعضاء منظمتك، وما الأهداف التي كنتم تريدون تفجيرها»

«جمعية منتحرين، وليس انتحاريين»

«أها.. أنت تعترف إذن. جيد.. أكمل. من هم أعضاء منظمتك؟»

«لن اخبرك بشيء. أنا أريد الموت، صارلي ثلاث سنوات أريد الموت وأخاف منه. اعملوا فضل معي واقتلوني رجاءً».

«ستموت، ولكن ليس الآن. ستعترف بأسماء أعضاء منظمتك الارهابية، وإن لم تفعل سنريك أشياء أفظع من الموت، حتى تعترف».

لم يعترف بأي شيء. اكتشف علي جانباً آخر خفيًّاً في نفسه. كان قويًّاً وصُلْبَاً. وتمنّى الموت أكثر من مرّة ولكن هذا الموت لم يأتِ. لم يكنْ يعرف أن المصادفات أو القدر الخفي كان يدفعه كلَّ مرّة بعيداً عن الموت. لقد أنقذته سيارة اللاندكروز البيضاء لرجال الأمن من موت محقّق آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان الأخ الأكبر للشاب أمير داغر قد عاد من الأردن بشكل نهائي. عاد في المرة الأولى كي يحضر جنازة أخيه في كانون الثاني عام ٢٠٠٠، ثم رجع بعد انتهاء مجلس العزاء إلى عمله في ورشة لصناعة المرمر في عمّان، وحين انتهى عقد عمله عاد إلى عائلته في بغداد في صيف ٢٠٠٢، وهناك فهم من أمه القصة الحقيقيّة لموت أخيه الصغير. في البداية أخبروه بأنه مات بسبب انكسار رقبته بعد سقوطه من السلّم الحجري ذي الدرجات المتكسّرة. أخبروا الجميع بذلك، فخبر انتحار الولد الشاب سيغدو أشبه بالفضيحة، ولم يكشفوا له الحقيقة لأنهم لا يريدون تشويشه أكثر، خصوصاً مع حاجتهم لبقائه في عمّان للعمل وتأمين وضع العائلة.

شعر هذا الأخ الأكبر بالصدمة، وبعد أيام طرأت فكرة في ذهنه. كان يريد التعرُّف أكثر على المسبّبين بمقتل أخيه الصغير، أولئك الذين أغروه بفكرة الانتحار الغبيّة. كان يريد أن يفهم أكثر الأسباب والدوافع، وقاده السؤال والبحث في النهاية إلى علي ناجي. وحين تعرّف على يوميات هذا الرجل، شعر بالغضب وقرّر قتله ثأراً لأخيه. كان يعدُّ العُدّة للقيام بهذا الأمر في اليوم التالي لاعتقال علي.

اختفى علي من أمامه بشكلٍ حاسم، وعرف بعد مضي بضعة أشهر أنه جرى اعتقاله في ظروف غامضة. ظلَّ ينتظر أن يخرج حتى بهتت الفكرة في رأسه، وغادرته انفعالات الثأر، ثم انشغل بشؤون حياته ونَسِيَ علي ونوايا القتل الانتقامية.

كانت الأحداث في الخارج تأخذ مساراً متصاعداً. تبيّن أن إقرار قانون «حرية العراق» في الكونغرس الأميركي هو أمرٌ جِدِّيّ، والأجواء مشحونة بالترُّقب. بينما علي يرقد في قاعة باردة مع معتقلين آخرين في مكان ما تابع للأمن العامة، مقطوعاً عن الزمن

وعن مجريات الحياة في الخارج. يعرف مع نفسه أنه تلقى، أكثر من مرّة، ضربات مؤلمة من هذه التي تُسمّى «حياته» ولكنه في الأشهر الماضية تعرَّض لرفسات قويّة في أعماق روحه جعلت كلَّ ألم تعرّف عليه سابقاً مجرد تجربة تافهة.

بسبب ثرثراته المزعجة قضى أيامه الأخيرة في زنزانة حبس انفرادي، ثم في أوائل شهر تشرين الاول عام ٢٠٠٢ سمع من حرس فتح عليه الزنزانة خبر «مكرمة» الرئيس بالعفو العام عن السجناء. لم يصدق في البداية حتى خرج مع بقيّة المعتقلين بشكل جماعي لاحقاً، وبدا السجّانون وكأنهم يستعجلون خروجهم بأسرع وقت ممكن.

خرج علي ووجد البلد تستعد للحرب. لم يكن الدكتور واصف في بيته. أخبره الجار العجوز فتّاح أنه سافر مع أخيه الأصغر رافد إلى عمّان قبل بضعة أشهر. كان الزمن الجيلاتيني البطيء وشبه الساكن لعقد التسعينيات قد انتهى وصارت الأحداث تتلاحق بسرعة. لقد تغيّر العالم من حول علي. عالم الفقاعة الزجاجيّة لجمعيّة المنتحرين التسعينية صار في الخلف، وهو مع الآخرين الآن أمام بوابة عالم جديد، أو فقاعة زجاجيّة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع

المُتَجَوِّلُ بَينَ الْعَوَالِم

- ١ -

الإطلاقة النارية التي تلقيتَها يا علي عصر ذلك اليوم البعيد لم تقتلك. يجب أن تعترف أنك محظوظ. ما جرى لك لا يحدث للكثيرين. هناك إرادة سماويّة، كما أؤمن أنا، تريدك أن تبقى حيّاً. إن كنت تُصدّق بهذا أو لا تُصدّق، ولكن ليس كلّ شخص يُصاب بطلق ناري بشكل مباشر يخترق رأسه ويخرج من الناحية الأخرى من على مسافة بضعة أمتار، ويبقى حيّاً. إنها معجزة كما أفهمها. أنت في غيبوبة الآن، ولكن إن لم يكنْ ما جرى لك معجزة فهو حظٌّ نادرٌ وغريبٌ يستدعي التأمّل والتفكّر.

أتمنّى أن تنظر إلى الأمر على أنه هِبَةٌ ونعمةٌ إلهيتان، فأنت حصلت على شيء يشبه ما تذكره التعويذة الخامسة: «ذوّب الموت في الحياة، والحياة في الموت. حينها ستعرف الطعم الحقيقي لكليهما».

أنت الآن تتذوق بشكل جيد الطعم الحقيقي للموت والحياة، لأنك أصلاً تقيم في مسافة ما بينهما. عليك أن تفكّر بهذا الأمر مليّاً، طبعاً إنْ كان لك أن تستيقظ من هذه الغيبوبة في يوم من الأيام، وتكون قادراً على التفكير فعلاً. ولا يمكنني أن أجزم بذلك. أنا أمرّ

عليك هنا كلّ ليلة، وأبقى معك حتى الصباح، كي أتيح لأخيك عمّار الذهاب إلى بيته والمبيت مع عائلته. إنه مسكين واللّه، عليك أن ترى حاله منذ تعرّضك للإصابة، إنه منهكٌ ومرهقٌ بسببك، وترك عمله وأهمل كلَّ شيء في سبيلك.

لا نستطيع أنا وعمار فعل الكثير، لم يتبق لدينا سوى الدعاء والصلاة، فالأطباء هنا والممرِّضون يقومون بواجبهم بشكلٍ حسن. أجلس بجوارك وأنظر إلى جسدك المسجّى على السرير، وأسأل الممرِّضين الذين يُكرِّرون الإجابة ذاتها. أسألهم وأنا أعرف بماذا سيردُّون عليّ، ولكنني أفعل ذلك وفاءً لرغبة أخيك ليس إلا. هو يخمّن أنني مقرّب منك أو صديق.

أنت قد لا تعرف هذا الأمر. فأنت ثمين عندي. أنا مدينٌ لك مدى العمر. لقد أنقذتني من دون أن تقصد. هل تتذكّر ما كنت تبثّه في برنامجك الإذاعي؟ كنت أنا في غرفة الأشعة في هذا المستشفى مع راديو صغير أضعه كيفما اتفق على إذاعات عراقيّة، أسمع الأغاني أو برامج الشعر الشعبي، وأحياناً أسمع صوتك وأنت تشتم. كنت مرتاحاً لشتائمك، حتى تغيّر هذا الأمر لاحقاً، حين بدأت تبثّ تعاويذ غريبة، وتطالب المستمعين بتطبيقها. شعرت بأنك صادقٌ ولا تضحك علينا. كان الأمر مسليّاً.

لماذا أحدّثك بهذا الآن يا ترى؟

لقد أخبرني الطبيب المشرف على حالتك أن التفاعل الإنساني معك سيحفِّز عقلك الباطن من أجل المساعدة في الشفاء. لقد عالجوا الجروح التي سببتها الرصاصة في رأسك منذ فترة طويلة، ولكن هناك أضراراً في القشرة الداخلية للدماغ أو شيئاً من هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القبيل، ضرر يمنعك من الإفاقة. العلاجات تفعل فعلها، رغم أنها لا تضمن انتهاء الغيبوبة. والتفاعل الإنساني معك، كما هو الكلام والحديث الموجه لك الآن، قد يساعد في تسريع العلاج.

سمعت أيضاً شيئاً غريباً؛ مداعبة أعضائك الذكريّة يمكن أن تصنع شيئاً محفّزاً، ولكنك لا تتوقّع مني فعل ذلك. ربما أتجرّأُ ذات يوم وأطلب هذا من إحدى الممرضات هنا. أنا شبه مجنون ولن يؤثر عندي الأمر كثيراً.

الكثيرون هنا يظنُّون أنني فردٌ من عائلتك. أنهي عملي النهاري وأصعدُ إليك في هذه الغرفة وأجلس وأبقى أثرثر لساعةٍ ربما، محاولاً أن أجعل صوتي خفيضاً قدر الإمكان حتى لا أزعج المرضى بجوارك أو مرافقيهم. أهمسُ بالقرب من أذنك بدرجة افترض أنك قادرٌ على سماعها.

لقد ساعدتني على التحرُّر من سجني الخاص، ولكن ماذا عن هذه الآلاف ومئات الآلاف من البشر المسجونين في قَدَرٍ لا يستطيعون معالجته أو تصحيحه؟ بالتأكيد الأمر يتطلَّب أكثر من كلمات تطلقها على أثير إذاعة قبل انتصاف الليل بساعة. وماذا عن سجنك أنت؟ ها أنت محبوسٌ في جسدٍ هامد، ورغم أني أشكّ في قدرتك على سماعي، إلا أني أملك من الجنون الممزوج بالأمل ما يساعدني على تصديق حدوث المعجزات.

- ٢ -

لقد رويت لك في الليالي السابقة ما جرى هنا، في عالمنا هذا، خلال فترة غيبوبتك. وأنفقت الوقت الكثير للحديث عن الرحلة العجيبة التي قمت بها أنا بين العوالم. وكيف أني تعثرت بعوالم

عديدة قبل أن أرجع إليك. وها أنذا أكمل لك آخر قصّتين من قصص العوالم التي مرَّرتُ بها.

أنا متأكّد أنك لن تعجب كثيراً بنفسك الموجودة في «العالم الثاني»، فهناك ونحن في هذه السنة تحديداً، أي ٢٠١٣، لا يبدو أن شيئاً ما قد تغيّر بشكل جذري. الناس تمتدح الأمان والهدوء، وتستمرُّ في الوقت ذاته بشتم السلطة سِرّاً. إلا إن موقفك أنت تغيّر كليّاً.

في «العالم الثاني» كان مشروع غزو العراق قد واجه عراقيل في الكونغرس الاميركي، ولم يتم إقرار مشروع «حرية العراق» في عام ٢٠٠٢. قدّم العراق في وقتها معلومات مهمّة عن غزوة ثانية لأميركا غير غزوة منهاتن السابقة. وجرى تحجيم الإدارة الجمهوريّة عن القيام بأي مغامرات جديدة، بسبب الخسائر وتكاليف الحرب في أفغانستان.

كانت هناك حركة دبلوماسيّة قويّة من قبل الفرنسيين والروس، بجوار حركة رشاوى هائلة أغدقها النظام العراقي على حلفائه الدوليين، الأمر الذي ساعد على تخفيفٍ جزئي للعقوبات الدوليّة، ثم بدا وكأن الأمور استقرّتْ على حالة من الهدوء مع العالم.

في عام ٢٠١٠ تنحّى صدام حسين عن السلطة، وتمَّ انتخاب قصي صدام حسين بإجماع شعبي واسع، مشكوك بأمره دون شك. ولكن الناس نظرت إلى هذا التحول على أنه تغيير على أيّ حال. تراجع حضور الرئيس السابق من واجهة الأحداث ليكون مجرّد «الأب القائد»، غير أن صوره الشخصيّة ظلّت موجودةً في الشوارع والساحات، وهذه المرّة بجوار صورة الرئيس الجديد الشاب. الصور الثنائية انتشرت في كلٍّ مكان، واختفت بالتدريج الصورة الأحادية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للقائد البطل الأوحد. ثم صارت صور الرئيس الجديد تتكاثر، صور مفردة له هو فحسب من دون «الأب القائد».

الشيء الذي لَمَسَهُ الناس أن الرئيس الجديد كان ينوي إجراء تغييرات شاملة، تعيدُ تجديد الدولة العراقيّة وصورتها أمام العالم، وطِي صفحة الحروب السابقة والمعارك المصيريّة والمبادئ القوميّة العليا وما إلى ذلك.

كان العراق منهكاً بسبب الحصار، وأعطت نوايا التغيير والإصلاح للرئيس الجديد ذريعة للقوى الدوليّة بإعادة حساباتها تجاه العراق، لا لشيءٍ إلا لما يتضمنه التعامل مع العراق من وعود بأرباح اقتصاديّة كبيرة.

أعاد الرئيس الجديد هيكلة مؤسسات الدولة الإعلاميّة والثقافيّة بشكل كامل، وانفتح على التقنيات الجديدة في العالم. أجاز خدمة الانترنت تجاريّاً، وسمح بمدِّ شبكات الهاتف المحمول، والأطباق اللاقطة للقنوات الفضائيّة، وصار يتحدّث بخطابات مقتضبة عن ضرورة اللحاق بركب العالم، مع محافظته على ثوابت عامة كانت تتردّد سابقاً في خطابات «الأب القائد».

بسبب إعادة الهيكلة الشاملة تمَّ طرد أو تنحية الكثير من الأسماء المعروفة والتي رَبَضَتْ لعقودٍ في المؤسسات الإعلاميّة، وإحلال شباب محلهم. أنت يا علي كنت من ضمن الشباب الذين شعروا بالأمل في التغيير الجديد، وصار لديهم يقينٌ بأنه من المستحيل تغيير الأوضاع في العراق إلا بهذه الطريقة.

لقد تسلّمت أنت منصب مدير إذاعة بغداد، وسحبت بجوارك طاقماً من الأصدقاء القدامى، أغلبهم كان معارضاً بشدّة لنظام صدام. لكنكم جميعاً صرتم جزءاً من جهاز الدولة الإعلامي الجديد.

هل يعجبك هذا التحوّل؟ بالنسبة لي لم يتغيّر وضعي كثيراً، بقيت مجرد عجوز أنفق ربع قرن من عمره في الأسر في إيران، يعيش في عزلة محشوراً في وظيفة صغيرة تافهة، منسيّاً وخارج سياق الأحداث العامة.

ـ ٣ ـ

أمّا في «العالم الثالث» فالأمر ربما أسوأ بالنسبة لك. لقد قُتلتَ في منتصف العام ١٩٩٦، أثناء محاولتك القيام بأمر مفيد في أجواء الحرب الأهليّة الطاحنة. كُنْتَ محايداً لكن الجميع نظر إليك بوصفك مهادناً للعدو. ولا أحد يعرف من الذي أطلقَ عليك النار في الشارع وأرداك قتيلاً.

حين صحوتُ في «العالم الثالث» علمتُ أننا كنا نقف على أعتاب السنة العاشرة من الاتفاق التاريخي الذي سجّل نجاحاً للأمم المتحدة وممثلها سيرجيو دي ميلو، قلّما حدث في ظلٍّ ظروف دوليّة مماثلة. وعلى الرغم من ذلك لم تكن الأوضاع جيدة.

وبالنسبة للاتفاق التاريخي فقد حضر في ذهني بسبب نسختي التي حلَّلت فيها هناك، تفاصيل عمّا جرى حينها. لقد أخليت بغداد في ذلك اليوم التاريخي، حتى القطط لم تكنْ لتتجرَّأ وتعبر الشارع، وكانت طائرات الهليكوبتر تحوم حول أحياء بغداد على مدار الساعة. وخشينا، بين لحظةٍ وأخرى، أن يفتح أحد الشباب المجازفين سلاحه عليها فتردّ بنيرانٍ حاميّةٍ تُحرقنا ونحن في بيوتنا. كانت تحوم بشكلٍ منخفضٍ وكأنّها تريد التلصّص علينا وترى ما نفعل، لذلك اكتفيت أنا بالابتسام. رفعتُ وجهي إلى الأعلى ورسمت ابتسامة عريضة، ثم وبختني زوجتي وطلبتْ مني العودة إلى داخل الغرفة، والكفِّ عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه التصرُّفات الصبيانيّة. فهؤلاء لا يريدون تصويرنا أو رؤية موقفنا من الاتفاقات السياسيّة الجارية، إنها مجرد قوة جوية تابعة للأمم المتحدة تقوم بدورية روتينية، لمتابعة ورصد أيِّ تحرُّكات معادية في هذا اليوم الحسَّاس.

كان العمل قبلها قد بدأ منذ أشهر في إعادة تأهيل القصر الجمهوري، الذي امتلأ بالأزبال والنفايات منذ العام ١٩٩٣، ثم أغلقت المنطقة المحيطة بالقصر بشكلٍ كامل، وبُنيتْ أسوار كونكريتية حوله، ولم يعد أحدٌ ما قادراً على مشاهدة ما يحدث هناك خلف الأسوار. وأخبرنا أحد الأصدقاء ممن عمل في فرش المَرْمَر ببعض صالات القصر، أنه صار تحفة فنية، وأن أموالاً طائلة صرفت من أجل ذلك. فها هنا ستتم إعادة تشكيل الدولة من جديد. ويتم عقد الاجتماع الحسَّاس.

جاؤوا بطائرات هيلكوبتر من مختلف المحافظات، لا تشبه هذه الطائرات التي تحوم فوق بيوتنا. إنها أكبر حجماً وتحمل شارات وأعلام الدول المجاورة، طائرات إيرانية وسعودية وأردنية وتركية وسورية وكويتية. هذا ما أكده الكثيرون لاحقاً.

فتحنا التلفزيون، مع مجيءِ التيار الكهربائي، وشاهدنا مختلف القنوات وهي تبثُّ وقائع المؤتمر الخطير، فلأول مرّة منذ ١٢ سنة سيكون لدينا إعلان رسمي عن نهاية الحرب، ولأول مرّة هناك كلام عن حكومة في بغداد، يُفترض أن تكون أكبر من حكومات كويسنجق والحِلَّة وتكريت.

صافح سيرجيو دي ميلو الجميع وأخذ صوراً ضاحكة معهم، وانشغلت القنوات التلفزيونية بعدها لساعات طويلة، حتى وقتٍ

متأخّرٍ من الليل في تحليل فوائد وأهمية الاتفاقات التي حصلت اليوم في بغداد.

لقد تمَّ تنصيب فالح عبد اللّه مزيعل رئيساً للوزراء، وهو منصب جديد لم نعهده سابقاً، وفالح هذا كان نائب ضابط في جيش صدام، أصيب بعوق أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وبدل أن يعود مع سيارات الجرحى إلى الخلفيّات، ترك ذراعه مع أشلاء جنود آخرين، وعبر الحدود إلى إيران.

لديه الآن ذراع بلاستيكية جيدة المظهر، حتى أنه يستطيع مصافحةَ الآخرين بها، شرط ألا يُصدِّقوا أنها مصافحةً فعليةً ويشدُّون على يده المزيَّفة بقوة، فلربما أخذوها معهم أمام إحراج الكاميرات الصحفية.

تحدث «مزيعل» لثلاث ساعات ونصف أمام الكاميرات عن برنامجه الحكومي، ولكني لم أفهم شيئاً.

أحسستُ به وكأنّه صدام. أنا أتضايقُ كثيراً من هذا اللغو الكثير. كلُّ ذلك بسبب صدام. وما أن انتهى حتى جاء الدور لرئيس الجمهورية ليتحدث ويُلقي خطابه. وكان اسمه شاهر حمد اللّه فرحان، واستغرق مني الأمر طويلاً حتى استطعت حفظ اسمه. وهذا أيضاً كان ضابطاً كبيراً في جيش صدام، ربما كان الآمرَ المباشرَ لفالح، وهو الذي أمره بالاندفاع نحو العدو الإيراني وحصل ما حصل بعدها. ربما.. أنا لا أقول ذلك، ولكن ربما.

فرحان رجلٌ عشائريٌّ وتاجرٌ ولديه علاقات واسعة في المناطق من شمالي بغداد حتى الحدود العراقية التركية السورية. لديه أربع زوجات هُنَّ بنات قبائل كبيرة، وأولاده تزوَّجوا من بنات قبائل كبيرة أخرى، وبناته تحت رجال من قبائل أخرى. إنه بالإجمال، يقف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على رأس حلف قبائلي تمَّ عقده بالدم والمَنِي، ولا ينفعُ أحدٌ غيره لهذا المنصب الحسَّاس. ولكن أيَّ حسَّاس هذا؟ إنه لا يُقيم في العراق أصلاً، ويتابع أعماله التجارية من هناك من بَرَّه. لا يثق بأحدٍ، ويُوقِّع على كلِّ الأوراق ويعقد كلَّ الصفقات بنفسه. وضع شخصاً من أقاربه في منصب رئيس الديوان، وأمره بمهمّة محدَّدة؛ إرسال البريد الرئاسي له أينما يكون.

انتصف الليلُ حين رأينا رئيس البرلمان واسمه خاوا يتحدَّث عن المهام الجسام والمرحلة الخطيرة وما إلى ذلك. كان وسيماً كأنه ممثلٌ أميركيٌّ معروفٌ، ولكن كلامه كانَ مملاً أيضاً.

- ٤ -

ما عدا فالح مزيعل الغبي، فإنَّ الجميع، غادروا وانقشعوا صباح اليوم التالي. بقيتْ قوة مليشياويّة كبيرة يديرها أحد أعمام فالح، وصارت قوة عسكرية رسمية في ظرف نصف ساعةٍ وتمَّ صرف رواتب لها من ديوان مجلس الوزراء. ولكن الطائرات غادرتْ. عاد خاوا إلى كويسنجق، وذهب الرئيس إلى عمّان لحفل زواج ابنة أخته. حتى سيرجيو دي ميلو اختفى، ولم يعد يظهر بالأخبار. وظلَّ فالح وحده يظهر في الفضائيات كلَّ ليلةٍ ليتحدّث ثلاث ساعات متواصلة عن برنامجه الحكومي. حتى مللنا وما عاد أحدٌ يُطيق رؤية وجهه. كنا بالبداية نتعاطف مع ذراعه البلاستيكية. ثم صرنا نُقَدِّرُ هذه الذراع المزيفة أكثر مما نُقَدِّرهُ هو. تمنينا لو أنهم يضعون صورةً فوتوغرافيةً على ملء الشاشة لهذه الذراع على مدى وقت البثِّ بدلاً من الخطاب العجيب المملِّ. حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلن فيه صاحب الذراع قراراً غريباً. سيجري رفع الحواجز والجدران الكونكريتية من أحياء

وشوارع بغداد فوراً. سيتم رفعها كلّها. ستكون بغداد مدينةً موحدةً واحدةً من جديد. لم يتلقَ سكان المدينة هذا الخبر بحماس. إنها مؤامرة إيرانية... لا مؤامرة سعودية تركية.. هناك خطأ ما في الموضوع. لماذا يرفع الحواجز الآن. ما الذي استجد يا ترى؟!

فيما بعد تحدّث أحد أقاربه في مقهى بكراج النهضة، وكان يعمل جندياً في سريّة الحمايات الخاصة، قبل أن يُطرد بسبب سُكْرِه الدائم. قال إن رئيس الوزراء ظلَّ لأشهر طويلة لا يعرف ماذا يفعل لأنه لم يجد ما يفعل أصلاً. لقد ألبسوه كلاواً كبيراً وذهبوا، المطلوب منه أن يُضفي شرعيةً على ما تفعله الحكومات الحقيقية الثلاث لا أكثر ولا أقل. هم من يُنَصِّبُون سفراء العراق، وهم من يعقدون الاتفاقات وكلَّ شيء، هو مجرد الرجل الذي يُوقع. ولا يفعل شيئاً فعلاً. وحين أَمَرَ بهذا القرار الغريب، لم يكن أحدٌ يعرف، ولم يحضَ القرار بموافقة حكومات تكريت والحلة وكويسنجق. أنت تقتطع دون سبب واضح ومعلوم جزءاً من كيان هذه الحكومات لتضعه في منطقة عائمة وغائمة. أنت تقطع جزءاً شيعياً مهمّاً لتضعه في الفراغ، وتقتطع جزءاً سنياً مهمّاً وتضعه في الفراغ، هكذا قال مندوبا الحلة وتكريت. أما كويسنجق فترى أن عودة بغداد الموحدة أمرٌ مخيفٌ، يُذَكِّر بما فعله صدام حين كان يحكم عاصمة موحدة.

وحين اشتدَّ النقاش من حوله ذات مرّة شعر بضيق كبير، ولا أحد يعرف كيف حمل بذراعه البلاستيكية قنينة مياه معدنية ورماها بوجوه مستشاريه، وقال صارخاً، إن أمَّه ولدته أصلاً لكي يقوم بهذا العمل.

في كلِّ الأحوال الأمر المفيد الوحيد أننا صرنا نتابع شيئاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مختلفاً، غير الخطابات المملّة لرئيس الوزراء، أمّا على الأرض فلم يتغير الكثير. رفعت الجدران الكونكريتية كلّها. وبدت المدينة عاريةً وموحشةً وقذرةً بسبب ما ظهر خلف هذه الجدران المنزوعة. وصرنا نرى آثار سنوات من ثقل هذه الجدران مرسومة على الأرض، حتى بعد تنظيفها وغسلها، ظلّت واضحةً، كالأصباغ التي كان يرسم بها على الجدران وتبقى نقاطٌ أو بقعٌ وآثارٌ منها على الأرض أسفل الجدار. ذهب الجدار وظلّ جدارٌ وهميٌّ ترسمه هذه البقع على مسافات طويلة.

كانت القطط والكلاب تمرُّ بجوار الجدار الوهميّ ولا تعبره، وهكذا كان يفعل الجميع. لقد كيّف الجميع أنفسهم على حياة لا تحتاج ما هو خلف الجدار. نعم، هذا الحلّاق هو أمامي عبر الشارع، ولكني صرتُ صديقاً حميماً لحلّاقٍ آخر في منطقتي، بعيد قليلاً، وسيزعل حين يراني صدفةً بشعر مقصوص وأنيق فيعرف بمجرد النظر أنني ذهبت إلى حلّاقٍ غيره. لن يُفيدني التحجُّج بأن شعريَّ لا يطول أصلاً أو أن زوجتي تعلَّمت في الحُلْمِ فنَّ الحلاقة.

ظلَّت الحياة تسير في المدينة من دون الحاجة إلى التأكُّد من أن الجدران رُفعت أصلاً. لا يحتاج هذا الجزء ذاك الجزء أبداً. ثم أن هناك قضية أعقد؛ فما فعله هذا الرئيس الذي لا يُذَكِّر شكله أبداً بأيِّ ملمح يمت للرئاسة، هو قرار غامض وهشّ، صدام نفسه لم يحافظ على هذه الدولة، فهل يفعلها فالح مزيعل؟!

لا أحد يريد المجازفة بالتعايش وخلق عادات جديدة مع أماكن وأشخاص لم يكنْ يعرفهم طوال أكثر من عقد، ثم ترجع الجدران فجأةً ذات نهار، لنشعر جميعاً بالصدمة والأسف. الصدمة من أنفسنا التي صدقتْ كذبةً كذبها شخصٌ يدَّعي أنه رئيس وزراء، والأسف

لأننا نكرِّر دائماً أمام أنفسنا بأننا تعلَّمنا من دروس الماضي، ومع ذلك نعود مرّة أخرى لنكرِّر ذات الخطأ: الثقة بما سيأتي.

بعد أشهر مريبة مليئة بالترقُّب، أصدر الرجل الذي اسمه فالح قرارات غريبة أخرى؛ قطع الطحين عن أفران الصمون في الجزء الشِّيعي من بغداد، ومنع توريد الخضار والفواكه إلى الجزء السُّنِّي من المدينة.

صار الفرّانون يشترون الطحين من المنازل، وارتفع سعر الصمون قليلاً، ولكن الأمور ظلَّت تسير بشكلٍ حسن، ثم أن أغلب النساء يخبزن في المنازل.

ثم شاهد السكان قوارب صغيرة محمَّلة بالخضار والفواكه تأتي من شمالي بغداد وترصف عند ضفة النهر في الأعظمية. وكأنها نجدة وإغاثة لمواطنين منكوبين.

أصدر فالح قرارات بنقل الموظفين كي يعملوا في دوائر خلف الجدار الوهمي، ولكن أحداً لم ينفذ هذه القرارات. وجلس موظفو بغداد، الذين لا يعملون شيئاً أصلاً، في بيوتهم، وظلّت الهيئات الخيرية السُّنيّة والشِّيعيّة تزوّدهم برواتب موازية لما يقبضونه من الدولة، والتقطوا معهم صوراً، وصار البعض أبطالاً بسبب التنفيذ التعسُّفي لقرارات فالح. لقد تحطَّم وجه موظف في دائرة بلدية بعد أن تمَّ دفعه من قبل القوة المليشياوية الرئاسية حتى يعبر الجدار الوهمي، وهو يرفض بشدَّة. كانت الفضائيات تصوّر الحدث، حتى يتأكّد العالم بأن الشائعات عن وجود الجدار الوهمي لا أساس لها. وأن موظفي الدولة يُنفذون قرارات الدولة، ولا أحدَ يَعْفُطُ في وجه رئيس الوزراء، كما تقول الشائعات. لكن الخدمة الإعلامية والدعاية التي أرادها فالح تحوّلت لاحقاً إلى فضيحة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دفع الرجال المسلّحون الموظف المسكين وصار قريباً من الحائط الوهمي، وهنا توقَّفَ وثَبَّتَ قدميه على الأرض بشدّة وتقلَّصت ملامح وجهه وبدا وكأنه على شفا البكاء، محتضناً حقيبته الجلدية، وينظر بفزعٍ إلى ما يراه أمامه، ولا يراه أحدٌ غيره، وكأن أسداً مخيفاً يفتح شدقيه أمامه ويهمُّ بابتلاعه. دفعه رجلٌ ضخمٌ دفعةً قويةً، فارتطم وجه الموظف المرعوب بالحائط الوهمي وتكسر عظم وجنته وسَالَ دمهُ على صدره وحقيبته وتلوَّثت ملابسه، وتقطَّر الدم منه فوق بقع الصبغ وقطرات الدهان التي كانت أسفل الجدار الوهمي، وتعزَّزت حدود هذا الجدار بصورةٍ أوضح.

تقول إنني كاذبٌ؟! ها؟ صدّقني كأن جداراً زجاجياً صلباً وقف بوجه الموظف المسكين. لم يكن خائفاً من العبور إلى الجهة الثانية من الجدار لولا ذلك، ألا يُفترض أن يكون هناك بابٌ في هذا الجدار حتى يعبره؟ لم يكن أحمق أو غبياً، كان يبحث عن سلوك منطقي، وما فعله الجنود في ذلك النهار هو العمل الغبي والأحمق والشرير.

لم يترك فالح هذا الحدث يمرُّ دون ثلاث ساعات تلفزيونية، تحدّث فيها عن كلِّ شيء، حتى عن مقتل أفراد من القوة الاممية في الكونغو المعنية بإغاثة النازحين. وفي الوقت الذي كنا نضحك فيه على هذا الرجل المخبول، كان يستمرُّ هو في اتخاذ المزيد من القرارات التي تُحرِّك ماكنة الصحافة وتُعطي معنى لتتابع الأيام في الجرائد والإذاعات.

ما الذي يريده هذا الرجل، ولماذا لا يريد أن يكون وفياً لأولياء نعمته الذين وضعوه في هذا المنصب؟ هل يريد تخريب السلام الذي حصلنا عليه بشقِّ الأنفس؟ نعم إنه سلامٌ من نوع خاص، ببصمة

عراقية، ولكنه السلام الوحيد الذي حصلنا عليه بعد ١٢ سنة من الاقتتال.

يأتي فالح هذا ليغيّر الحدود ويُخرِّب الاتفاقيات، يرمينا جميعاً في هُوَّة غامضة، لا نعرف هل تؤدي إلى المستقبل أم تعود بنا إلى الماضي.

استمرَّت السُّخريّة من فالح وقراراته الغريبة في الفضائيات وبرامجها الحوارية والفكاهية، ولم يستطع الردّ عليهم لأنه لا يملك أيَّ وسيلة إعلامية ما عدا ألسنة فوج الحماية المليشياوي الضخم، الذي يتكوَّن في مجمله من أبناء عشيرته وعمومته.

ثم ذات صباح، انقطع البثُّ في هذه الفضائيات الساخرة، لتبثَّ بشكل عاجل مؤتمراً صحفياً عقده رئيس الوزراء في القصر الجمهوري. وما إن ظهر على الشاشات حتى شعرنا بأن أمراً خطيراً سيحدث، لأن الرجل كان يرتدي بزَّة عسكرية برتبة عقيد رُكن. لم يكن خطابه هذه المرّة طويلاً ولا مكرَّراً ولا مملّاً. لقد جاءنا بحدث جديد، سلس وقصير وصادم. أخيراً استطاع رجل الذراع البلاستيكية أن يقوم بأمرٍ مُسَلٍّ.

أعلن فالح مزيعل، بصفته الشخصية، لا بالمنصب الذي يشغله، أنه قام بانقلاب عسكري، نعم. لقد حدث الانقلاب صبيحةَ هذا اليوم. لماذا يقولون بالكلام عن الانقلابات «صبيحة» ولا يقولون «صباح»؟

على أيِّ حال.. في هذه الصبيحة حدث الانقلاب، وانتهى الأمر، وأعلنت الأحكام العُرفية. وعُطِّل الدستور والبرلمان، وعُطِّلت الحكومة. ولكن هناك أمراً غريباً، هل قام فالح بانقلاب على نفسه أم ماذا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نعم، تفلسف أحد المعلِّقين بعد إذاعة البيان رقم واحد، بأن فالح المواطن قام بانقلاب على فالح رئيس الوزراء، فالح الذي يُمثِّل حالة الرفض الشعبي انقلب على الاتفاقات السياسية التي قادت فالح إلى منصب رئيس الوزراء. ولكن لماذا يرتدي بِذْلَة عسكريّة؟ لقد قام الفوج الرئاسي المليشياوي بهذا الانقلاب، وبعد نجاحه نصَّبوا فالح زعيماً عليهم بهذه الرتبة العسكريّة. ولكن الفوج الرئاسي هم من أبناء عمومته؟

كان الأمر مثيراً وغريباً ومليئاً بالمفارقات، وهذا ما حرَّك الصحف والفضائيات لعدّة أسابيع لاحقة.

خلال ذلك كان فالح قد اتخذ عدّة قرارات تتعلَّق بالتحضير لغزو باقي مناطق العراق لإعادتها إلى حكومة بغداد، وإسقاط حكومات تكريت والحلّة وكويسنجق. ولكن الغريب أن رؤساء وأعضاء هذه الحكومات الثلاث لم يُحرِّكوا ساكناً ولم يُعلِّقوا على ما يجري. وتعاملوا وكأن شيئاً لم يحدث. لا انقلاب ولا بطيخ.

وحينما عثرت الصحافة العالميّة على رئيس الجمهورية في بيته الفَارِه بمدينة نيس الفرنسيّة، قال غاضباً إن هذه مؤامرة تستهدفه شخصياً وإنه مُصِرٌّ على ضمان حقوق الطائفة والعرق والزقاق الذي ولد فيه. وإلا فإنه لن يتعشَّى هذه الليلة.

لا واللّه أنا لا أسخرُ منكَ. ايقظ هذا الرجل النائم في السرير المجاور واسأله وتأكَّد بنفسك. إنه نائمٌ ها هنا منذ فترة طويلة وربما لا يعرف نعم، إذن اسأل المريض النائم في الجهة الثانية، إنه يفتح عينيه ويغلقهما كلَّ خمس دقائق، لا بدَّ أنه يملك معلومات أكثر مني عن هذه الحوادث. على راحتك. أنت تُصدِّق أو لا تُصدِّق، ما بيدي حيلة.

أصرَّ الجميع أنها مجرد لُعبة بين فالح وأولاد عمِّهِ، مثل لعبة المحيبس الرمضانية التي تتطلَّب مشاركين كثيرين. لعب مزيعل اللعبة مع أبناء عمِّهِ داخل القصر ثم صدَّق أنها حدث وطني. ظلَّ الجميع يُراسلونه بصفته رئيس الوزراء. وظلَّ هو يقوم بالمهام الخاصة بالمنصب، فلا شيءَ تغيّر.

ثم أخبرنا أحد الجنود المطرودين من فوج حمايته أنه قام بثورة تصحيحية على الانقلاب الأول، ونصّب نفسه زعيم الثورة التصحيحة، ولكن، ولا فضائية واحدة قبلت أن تبثَّ بيان الثورة التصحيحية.

في النهاية تراجعت الأخبار المجانية الصادرة من القصر الجمهوري، وغرق فالح في صمت غامض، ولم يعد يتحدَّث في وسائل الإعلام إلا نادراً. وترك كلَّ شيءٍ على حاله. ربما بسبب تهديدات جديّة بتصفيته أو ما يشبه ذلك. ربما بسبب شكوى جماعية تمَّ توجيهها إلى زعيم عشيرته هناك في الجنوب.

ـ ٥ ـ

اعذرني ولكن خاطراً سيئاً كان يمرُّ في ذهني أحياناً، ولا أنفكُّ عن معاودة التفكير به مراراً، وها هو ينبثق في ذهني الآن، مفاده؛ ماذا لو أن ذلك المساعد الغامض لم يَغْتَلْ رئيسه صدام؟

ماذا لو أنه لم يمت في شتاء العام ١٩٩٨، واستمرَّ رئيساً، واستطاع تجميع شتات نفسه وجيشه من مقره في تكريت، ثم العودة أدراجه إلى بغداد واستعادة كلِّ شيء.

ماذا لو أنه أصلاً لم يدخل إلى الكويت. كان من الممكن أن ينسى الناس مآسي الحرب مع إيران. هي حربٌ، على أيِّ حال،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تجري على الجبهات، ولا يمكن أن تقارن بما حصل لاحقاً. كان الجنود يذهبون ليموتوا أو ينتظروا الموت، ثم يعود منهم من يعود، إمّاً سالماً يسير على قدميه، أو جُثّة على تابوت في سيارة. لا تبقى الجُثث طويلاً داخل أحياء المدينة، وسرعان ما يرسلونها إلى المقابر. ولكني الآن أعرف مقبرتين أو ثلاثاً وسط مدينة بغداد، بين أحيائها السكنية. جرى دفن جثث كثيرة في ساحة مدرسة، بسبب العزلة في أواخر التسعينيات. هناك قبورٌ يعرفها الكثيرون قائمة دون شواهد أو أسماء في حدائق عامة، أو خلف جدران مستشفيات احتفظت بجثث القتلى فترات طويلة حتى تعفَّنت.

لقد إنهار الجيش العراقي بقطعاته المختلفة تحت ضربات قوات التحالف، أنتَ تتذكَّر هذا. ثم تبخَّر جزءٌ كبيرٌ من قطعات الجيش مع الانسحاب من الكويت، رمى الكثيرون أسلحتهم وغادروا سيراً على الأقدام إلى بيوتهم في قراهم ومدنهم المختلفة، أو ربما انضمُّوا إلى الانتفاضة التي كانت تشتعل في الجنوب. كانت قوات التحالف قد قصفت المدرَّجات ومهابط الطائرات العموديّة كلَّها حتى تلك المعطَّلة أو قيد التصليح، لذلك لم يجد الرئيس في نهاية المطاف، وهو يرى المحافظات تتساقط من يديه، سوى الاستعانة بالخُلّص من منتسبي تشكيلاته العسكرية. وبالذات الحرس الجمهوري الخاص، الذي يتكوَّن بغالبيته من أبناء المدن والمحافظات التي تُدين بالولاء له. فهؤلاء يرون، رغم انتقاداتهم لسياسة صدام، أن مصيرهم مرتبطٌ به، مع التقدُّم الحماسي المخيف لميليشيات الشيعة المنتفضين بشكل جماعي لأوَّل مرَّة منذ بدايات القرن العشرين.

أشياء بسيطة ومواقف صغيرة يمكن أن تغيّر مسارات بلد كامل. كانت أطرافٌ في التحالف الدولي تتداول فكرة رفع المنع عن

طائرات صدام كي يضرب التمرُّد الذي نشب ضده. لكن الطلب جاء متأخِّراً يوماً أو يومين، بسبب نسف طيران التحالف لكامل سلاح الجو العراقي، وأتمَّ مهمَّة كانت تحلُم بها إيران من قبل على مدى عقد تقريباً.

نصف الأسلحة الثقيلة إمّا تركها الجيش المنسحب من حفر الباطن والكويت، أو سقطت بأيدي المنتفضين، ولا توجد أسلحة كثيرة أصلاً ابتداءً من بغداد وصعوداً إلى الشمال، كما أن الجبهة التي انفتحت مع دخول قوات البيشمركة الكردية إلى كركوك، قسَّمت الجهد الحكومي العسكري. ثم استيقظ الناس على صورة لم يكن يحلُم بحدوثها أحد، جيشان متكافئان بالقوّة يقتتلان على أعتاب بغداد، جيش المنتفضين الشيعة، يتصارع لوضع اليد على المناطق والأحياء السكنية مع جيش وطني غدا الآن، بحكم الأمر الواقع، جيشاً سُنيّاً. ثم جيشٌ سُنِّيٌّ يتقاتل في الشمال مع جيش كردي.

لم تعد المعركة معركة العراق أو صدام، صار هذان الاسمان في الخلف، إنها معركة وجود طائفي وعرقي، خشية الطائفة من الإبادة والتصفية والانتقام على يد الطائفة المعادية، وخلال نمو مشاعر الخشية هذه، كان يسقط العديد من الضحايا، الذين يتحوَّلون فوراً إلى وقود لنيران الخشية والغضب والرغبة بالثأر، وأمام هذه الصورة لم يعد تبجح صدام بشعاراته وكلامه عن العراق العظيم نافعاً في تفسير أو تهدئة أيِّ شيء. كانت الأحداث تتصاعد معلنةً نهاية العراق الذي نعرفه، ونهاية صدام نفسه، رغم أنه ما زال رسميّاً على رأس السلطة في العراق.

ومع ضعف الموارد في يد صدام، وشعور السُّنَّة بأنهم يُقاتلون ليس دفاعاً عن البعث أو صدام، وإنما عن أنفسهم، لم يعد صدام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قادراً على مسك زمام الأمور، وحصلت مُشادات بين زعامات عشائرية وضباط في الحرس الرئاسي الخاص، غير أن صدام لم يرد على هذه الأحداث بأيٍّ إجراء عنيف. وفضّل المصالحة والمساومة، وكانت هذه لفتة ذكاء. ثم تشكَّلت بأمر منه تشكيلات مساندة من الأهالي لحماية مناطقهم بأنفسهم، وسرعان ما تعاظم دور هذه التشكيلات شبه النظاميّة، وصارت تفرض الأتاوات على السكان في المناطق التي تسيطر عليها. كنوعٍ من التمويل الذاتي، واستخدم القادة المحليون لهذا التنظيم شعارات مشابهة لتلك التي كان يُطلقها صدام، فالناس هنا تبرَّعوا للمجهود الحربي، وهم يتعاونون، كلٌّ بطريقته وأسلوبه، لصدِّ الهجمة الفارسيّة الصفويّة التي تريد احتلال بغداد.

استمرَّ الصراع على أسوار بغداد عاماً كاملاً. وصار من المعلوم أن إيران تورِّد بأشكال مختلفة، السلاح والعتاد للفصائل الشيعيّة المقاتلة، بينما لم يعد في يد صدام وحرسه الرئاسي الخاص الشيء الكثير، وسط مقاطعة دولية واسعة. كان من الواضح أنه يخسر ولا ينتصر.

ثم حدث في أواخر العام ١٩٩٥ أمرٌ مفاجئٌ. لقد تقدَّمت القوات الشعبية السُّنِّية بسرعة حتى وصلت إلى أعتاب كربلاء، محرِّرة القرى السُّنِّية في بابل، واكتشف بعض المخبرين الشيعة أسلحة جديدة في أيدي هذه القوات، وسرعان ما اتضح أن دولاً عربيّة اجتمعت في عمّان بشكل عاجل، لتقرِّر دعم الميليشيات السُّنِّية بالسلاح، من دون الإشارة إلى صدام وحرسه الرئاسي.

في أواخر العام ١٩٩٦ حدث احتكاكٌ آخر داخل المعسكر الصدامي المفترض، أدى إلى انفصال قوة قتالية كبيرة في الموصل عن الادارة المباشرة لصدام، ثم أذاعت إذاعةٌ خاصةٌ بالمحافظة بياناً

انتقادياً شديد اللهجة، اتهم صدام بأنه رمى البلد في الهاوية، وان الانتصار الذي حقّقه على ايران قدمه الآن على طبق من ذهب إليها. ثم تصاعدت اللهجة في الأسابيع اللاحقة، واتهمهم صدام بأنهم فئة منحرفة وقعت تحت تأثير وابتزاز قوى العدوان الثلاثيني.

في الأسبوع نفسه ذكر بيان صادر عن الجامعة العربية أن صدام لم يعد مؤهلاً لقيادة بلد موحّد، وأن عليه أن يفسح المجال لقيادات أكثر حرصاً وشعوراً بالمسؤولية. وجوهر البيان كان يشير إلى اتجاه محدّد؛ فسح المجال أمام قائد عربي سُنِّي يُعالج المشكلة الشيعيّة بالجنوب.

الذي لم يكن واضحاً وقتها أن القرار العربي كان قد اتخذ في دعم البديل عن صدام، ولكن هذا البديل لم يكن قادراً على الظهور بسبب الكاريزما الخاصة بصدام، حتى نضجت الفاكهة وسقطت في اليد في ذلك اليوم من شتاء ١٩٩٨ حين قام أحد مساعدي الرئيس بإفراغ مسدسه في رأسه، ولحق ذلك اغتيال ولديه. وكان هذا المساعد يظنُّ في نفسه أنه هو البديل المفترض، ولكن سرعان ما وقع في كمين نُصِبَ له من قبل عشيرة صدام، وتمَّ قتله بطريقة بشعة.

وبدل أن يظهر البديل هنا أو هناك فجأةً ليسدَّ الفراغ الذي خلَّفه غياب صدام، إنهارت الجبهة السُّنِّية ودخلت في احتراب داخلي، وأيّاً كانت الجهة الداعمة والمخطِّطة والمموِّلة لهذا القرار فإنه لم يكن قراراً حكيماً، وأدى إلى حدث غير مسبوق، فبسبب التراجع والانقسام في الجبهة السُّنِّية، تقدَّمت القوات الشيعيّة واحتلت أكثر من نصف بغداد. وما جرى بعد ذلك لم يكنْ يحوي تفاصيل كثيرة، حتى مجيء القوات الأممية ووقوفها عند جدران الفصل بين المعسكرين داخل بغداد وبابل وديالى وصلاح الدين ومنطقة النخيب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نتائج هذه الدراما مُخَيّبة للآمال. صرنا مسلَّحين، من الصبي إلى الشيخ، وحوادث القتل لم تكنْ تثير حفيظة أحد، وفي حوادث قليلة، حين يتمُّ التعرُّف على القتلة، تتمُّ تسوية الأمر عشائريّاً، وهذا ما تطرق إليه فالح في أحد تعليقاته الصحفية، باعتباره مشكلةً يجب علاجُها بتقوية القانون.

بعد فترة من الهدوء عاد فالح إلى خطاباته الطويلة، كان منفعلاً ومنزعجاً ويلوم الجميع على تركه دون حيلة ولا قدرة على التغيير الفعلي. ظلّت القنوات الفضائية تأخذ مقتطفات من خطاباته فقط ولا تنقلها كاملةً، وتتجاهلُ بعضها، كما فعلت قنوات كردية، رأت في كلامه عن «العراق العظيم» بوادر كيمياوي.

وأرسلت القوى الشيعيّة المتنفِّذة في الجنوب مندوبين عنها لتذكير فالح بمن وضعه في هذا المنصب، وأنه في الدورة الانتخابية المقبلة لن يبقى رئيساً للوزراء، ولا حتى نائباً في البرلمان الاتحادي، ويبدو أن الكرسي أطار عقله ونسي نفسه، وربما ضرب شبح صدام مخيلته بقوّة ويريد أن يستنسخه.

أما التيار القومي العروبي والجبهة الإسلامية الموحّدة اللذان يقتسمان الأراضي السُّنِّية بما فيها أجزاء من بغداد، فلم ينظروا إلى فالح إلّا بكونه محافظاً إيرانياً، وكلامه الوطني لن ينفعه.

إن فالح رجلٌ ساذجٌ وحالمٌ بكلِّ تأكيد، ولكنه رجلٌ وطنيٌّ فعلاً، أمّا الناس فهي تتبع سادتها، حتى كتيبة الحماية الرئاسية المكوَّنة من أبناء عشيرة فالح، فهم يتبعون سادتهم، ولا يُمثِّل لهم فالح سوى مصدر الرزق المؤقت، الذين يعرفون أنه زائلٌ لا محالة، لهذا كانوا يستخدمون نفوذهم من أجل تحصيل أموال خارج المرتَّبات الرسميّة. مثل تخليص معاملات، أو إخراج مطلوبين من السجن، أو حتى

تشكيل عصابات صغيرة تقوم بعمليات سطو مسلَّح على صاغة أو تجار أو حتى بيوت، وحين يتمُّ اتهام كتيبة الحمايات بأنها هي من نفذت هذه الأعمال يأتي الردُّ المعتاد بأن عصابةً ما قامت بهذا الأمر واستخدمت ملابس وبطاقات تعريف مزوَّرة تنسبهم إلى كتيبة الحمايات.

- ٦ -

إنه رجلٌ شريفٌ، فالح مزيعل هذا، والشريفُ لا يولد فجأةً، وإنما تكوِّنه التجارب. ربما كانت لديه ميول سابقة تجعله متطرفاً أو عقائديّاً متحمِّساً، ربما قام ببعض التجاوزات أو الجرائم في مراحل ما من حياته، ولكنه الآن شخصٌ مختلف. لا يتعلَّق الأمر بالمنصب والسطوة أو اتهامات الآخرين له بأنه يحاول تقليد صدام وما إلى ذلك. لقد شعر في لحظة بأنه يمكن أن يستثمر السلطة التي في يده بالاتّجاه الصحيح، بما يخدم العراق ككلٍّ وليس فئة محدّدة منه، ولكن المفارقة أنه اكتشف وهم هذه السلطة، وأنه مجرد فزَّاعة وضعت في بغداد، على هرم حكومة لا تقوم سوى بالإمضاء على قرارات حكومات الحلّة وتكريت وكويسنجق. إنّه يُضفي الشرعيّة على نظام سياسي غريب وعجيب، يمنح العراق حضوراً في المحافل الدولية كبلدٍ موحّدٍ لا وجود له على الأرض فعلاً. إنه مجرد خادم لمصالح القوى الفعلية في العراق، ولا يملك قوّة مستقلة، ولا يستطيع أن يخدم العراق بأيِّ شيء. لذلك، وقبل أن يحين موعد الانتخابات البرلمانية، تفاجأ الجميع ببيانٍ جديدٍ من فالح، تمَّ نقل مقتطفات منه في البداية، ولكن القنوات الفضائية عادت، في مساء اليوم نفسه، لتبثُّه كاملاً، خصوصاً وأنه لم يكنْ طويلاً.

طرح فالح في بيانه الختامي تصوّره عن المشكلة العميقة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العراق، ثم موقعه من هذه المشكلة. اعترف بأنه فشل في تقديم ما يفيد البلد، وأنه رغم كلِّ الجهود التي بذلها، وآخرها التمرُّد التام على القرارات الأممية التي وضعته في منصبه، وإعلانه الثورة مرَّتين، إلّا أنه لم يغيّر شيئاً، ولا يريد أن يخرج من السلطة مع انتهاء دورته الانتخابية، ليُقال عنه لاحقاً؛ أنه بقي في منصبه رغم كلِّ العيوب التي شاهدها بعينيه، لا لشيء إلا للاستفادة من منافع السلطة.

إنه يستقيل الآن، أمام متفرِّجي التلفزيون، ولن يُرشِّح نفسه لأيِّ منصب، ولن يشترك في أيِّ عمل سياسي لاحق. هذه هي ثورته التصحيحة الثانية، التي لا يملك غيرها.

حزم فالح حقيبته وخرج مع ثلاثة من أبناء عمومته المقرَّبين، الذين رافقوه بسيارتين مصفَّحتين حتى منزل عائلته في قطاع ٢٦ في مدينة الثورة. لم ينتظر أحداً، لا مداولات الحكومات الثلاث حول قراره، ولا مقترحاتهم بشأن البديل. كان يريد إحراجهم وإرباكهم، وكان يشعر بأن خروجه أو بقاءَهُ في المنصب لن يغيّر من واقع الحال كثيراً. لن ينهار البلد أو تحدث فوضى أو ما شابه. وهذا ما جرى فعلاً. كانت الأمور طبيعية في صباح اليوم التالي، وشاهد على التلفزيون رجلاً جديداً يقوم بمهام رئيس الوزراء بشكلٍ مؤقتٍ حتى موعد الانتخابات المقبلة.

الطريف بالأمر أن الناس كانت تتقاطر على بيت فالح في البداية، يأخذون معه الصور، وهناك من كان يلومه من أعمامه الكبار، لأنه ترك منصباً كان يجلُب لهم الوجاهة والرفعة بين العشائر، ثم سرعان ما تراجعت هذه النبرة، وبدأ فالح يشغل نفسه بأشياء أخرى. طلب منه صحفيون أن يكتب مذكراته. انشغل بها

لفترة ولكنه لم يستطيع الكتابة بيده اليسرى إلا بصعوبة. ثم صار يملي على صبي من أبناء أخوته ليكتب. وبعد مرور سنة توقّف عن هذا الأمر وتجاهلته الصحافة، ثم أصبح يجلس في المقاهي ولا ينتبه له أحد. حتى حين يقول شخصٌ ما إن هذا الرجل كان رئيساً لوزراء العراق، فإن المقابل يَصْفن للحظات ثم يُولي بصره إلى جهة أخرى، وكأنَّه لا يُصدق، أو لأن الناس لم تعد تهزُّها هذه التسميات الفخمة؛ رئيس وزراء، رئيس الجمهورية، وزير الدفاع.. إلخ إلخ.

كان الشعور بأنه يرجع إلى صورته كشخصٍ عاديٍّ مريحاً بالنسبة له، ولكنه شعور غير واقعي، فلا أحد يدخل من باب ليعود ويخرج منه مرّة ثانية، إننا نعبر مراحل وتجارب ونتغيّر خلال ذلك ولا نغدو أنفسنا التي رأينا صورتها في المرآة ذات مرّة. إننا نتحوّل، وصورتنا الجديدة لا يمكن تحطيمها أو الانسحاب منها والعودة إلى صورة قديمة. إنه ليس أمراً اختياريّاً، ولا يتعلّق بالمزاج والرغبة، وأبسط مثال على ذلك هو الهرم والشيخوخة.

وبسبب وهم العودة إلى ما قبل التغيُّرات الكُبرى في حياته، كان فالح يذهب أحياناً في الصباح لشراء الصمون من الفرن وقيمر العرب لافطار العائلة، أو يذهب لجلب عبوات الماء الصافي من الدكان في رأس الزقاق، وفي مرّة من هذه المرّات استهدفه أشخاص ببنادقهم وزَخُّوهُ بالرصاص من أعلى إلى أسفل في لمح البصر ثم اختفوا.

أَلَمْ تتفاجأ من هذه النهاية؟ أَلَمْ يتحرَّك فيكَ شيءٌ؟ على أيِّ حال أنا أمزح معك. لا أعرف بدقَّة ما جرى له. لأنني عُدتُ من ذلك العالم الموازي إلى هنا، ربما تعرَّض لمحاولة اغتيال فعلاً، أو ربما رجع وندم وانضمَّ إلى فصيله السياسي السابق، ثم أخذ منصباً ما هنا أو هناك، أو ربما سيعود، بسبب مذاق السلطة اللعين، ليرشِّح نفسَهُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من جديد في الانتخابات المقبلة، التي لم يتبقَ على موعد إجرائها سوى بضعة أشهر. أو ربما سافر، من يدري.

ـ ٧ ـ

لقد سمعتك يا علي. أعرف أن الكثير من المستمعين في تلك الساعة من الليل، كانوا يضحكون ربما على ما تقول، أو يستمعون لبرنامجك المسائي بدهشةٍ ويرون الأمر مجرد فاصلٍ ليليٍّ ممتعٍ وغريب، ثم سرعان ما يذهبون للنوم أو لينشغلوا بشؤون أخرى. أنت نفسك كنت تكرِّر القول دائماً أن البرامج السياسية الحوارية، مهما تضمَّنت من كلام قيّم فهي ليست سوى برامج موضوعة للمتعة لا لتغيير شيء. حين يكون البرنامج ممتعاً فإنه يحقِّق هدفه الحقيقي، ولهذا تكون البرامج التي تتضمَّن تصريحات نارية أو عِراكاً بين الضيوف بالأيدي هي البرامج المفضّلة لدى المشاهدين والمستمعين. إنهم يبحثون عن الأكشن وليس عن مفاتيح تغيير الواقع. وأيُّ إعلاميٍّ يصدِّق حكاية تغيير الواقع فسيصاب لاحقاً بالأمراض المزمنة بوقتٍ مبكر.

أنا الممرِّض العجوز محمد سدخان كنتُ مستعدّاً لتصديق حكاية تغيير الواقع. ولكن ليس واقع البلد، وإنما واقع حياتي أنا فحسب. كنت مجرّد شخصٍ ضيّع نصف عمره في الحروب والأسر، من دون عائلة. يرمي بصره أحيانا إلى البعيد فيرى أنه ضحية مَقْلَبٍ كبير، ولا يستطيع اتهام أحدٍ بوجوده في هذا المَقْلَب. هل هو القدر أم القرارات السياسية للزعماء أم خياراتي الشخصية؟!

كنت مريضاً وكئيباً وشبه مجنون. لذلك حين سمعتك تردِّد التعويذات السُّومريَّة السَّبعة. دوّنتها، ثم بإيمان شديد قرأتها قبل

النوم، وارتحلت فعلاً عبر باب الطباشير. لقد ساعدتني وأنقذتني. ذهبت إلى «حياة مثاليّة» كنت أحلُم بها. ثم من أجل إنقاذك، ولردِّ الدين لك، ها إني أعود إلى عالمي الأول الذي هربتُ منه. للأسف، وبعد هذا الوقت العصيب الذي مررتَ به مع عائلتك لا يبدو أنك ستنهض من رقدتك قريباً. أنا يائسٌ من استيقاظك الآن، وكانت الخُطَّة البديلة التي كُلّفت بها، أن أصنع حلّاً في كلِّ الأحوال. لا يجب أن تبقى هكذا. بقاؤك في هذا الوضع هو فشلٌ شخصيٌّ لي. والخُطَّة البديلة تقضي أن أرفع هذه الأجهزة عنك، أقطع مصادر بقائك على قيد الحياة. أقتلك وأخلّصك من هذا الوضع العائم ما بين الموت والحياة. ولكني بهذه الثرثرة الطويلة وهذا الاعتراف وكأني أقرّ بفشلي، وعدم قدرتي على ارتكاب جريمةٍ مماثلة. أحدثك بذلك وأنا أعرفُ أن روحَك ربما أثناء غيبوبتك المتصلة تتجوّل الآن بين العوالم، ومهمّتي أصلاً أن أوقف هذا التجوال وأنهيه بشكلٍ حاسم.

آه.. قبل أن أغادر سأذكُرُ لك شيئاً أخيراً ربما يحفِّز لديك عِرْقاً ميتاً؛ زارتك امرأةٌ مرَّتين في الأسابيع الماضية، كانت تجلس واجمةً وهي تنظرُ إلى وجهك، وفي زيارتها الأخيرة رفعت يدك الهامدة ووضعت تحتها مجموعة شعرية متهرِّئة الصفحات وقديمة. قرأتُ في المجموعة بعض الصفحات، وكرّرتُ اسم الشاعر أكثر من مرّة مع نفسي حتى أحفظه وأتعوَّد على لفظه، وأنطقه بشكل صحيح أمامك؛ جوزيف برودسكي. كانت امرأة حسناء وبدت حزينة لأجلك، وقبل أن تغادر، وعلى مرأى من جميع المرضى ومرافقيهم في هذه الغرفة، ومن دون أن تتحرَّج طبعتْ قُبْلَةً مديدةَ على شفتيك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس

حَيَاةٌ أُخْرَى

- ١ -

كان أول ما سأل عنه علي بعد أن فتح عينيه ورأى أخاه عمّار واقفاً بجوار سريره في المستشفى، هو كتاب جوزيف برودسكي الصغير. لم يجبه عمّار على سؤاله لأنه لم يسمع بوضوح، وكان هناك لغطٌ في ردهة المستشفى. ثم سرعان ما عاد علي إلى إغفاءته.

استيقظ لاحقاً ووجد أن عمّار وشخصاً آخر لا يعرفه يحاولان مساعدته على النهوض والمغادرة. كانت هناك مشكلة في المستشفى، بسبب الحاجة إلى أسرّة المرضى الأحسن حالاً من أجل جرحى جدد، أو شيء من هذا. وكان عمّار يشتُمُ بانفعال.

«في البيت نعتني بك بشكل أفضل»

قال وهو يدفع علي إلى المقعد الخلفي في سيارته. فَهِمَ علي خلال الطريق، أن إصابته كانت مجرد خدش. الإطلاقة مزَّقت الجلد بجوار صدغه ونزعت شريطاً من الشعر لن ينبت ثانيةً، ولكن صدمة الإطلاقة الناريّة وحرارتها هو ما تسبَّب في إغماءته لأسبوعين. من الذي أطلق النار عليه، وهل سيكرِّر محاولته مرّة ثانية. لماذا نجا علي من الموت؟ هل هناك تدبيرٌ خفيٌّ أم مجرد مصادفة حظٍّ عاثر؟

ها هو يعود إلى غرفته القديمة بالطابق الثاني في بيت العائلة

بمحلّة الفحّامة. لن يتركه عمّار هذه المرّة ليعود إلى شقّته. لن يسمح له أصلاً بالخروج، ريثما يعرف من وراء استهداف أخيه الأكبر بالقتل. كان مُنْهَكاً ولا يشعر أنه بخير، لذلك استسلم لخُطط أخيه. إن لم تسبِّب الإطلاقة الناريّة في مقتله فإنها خرَّبت شيئاً ما فيه بشكل مؤكد. هكذا كان يشعر.

في اليوم التالي جلب عمّار كتباً وبعض الملابس والأغراض من شقة علي، رمى كتاب جوزيف برودسكي في حجره. رتَّب الأغراض كلَّها في الغرفة على عجل، ووضع شاشة تلفزيون مسطَّحة على الحائط أمامه، جعل عمّار الأجواء مناسبةً في هذه الغرفة لإقامة طويلة. ومجرد إحساس علي بذلك كان يبعث فيه شعوراً غير مريح. ليس لأنه لا يُرحِّب بحماسة أخيه الأصغر، وإنما لشعوره بالانتكاسة، وعودته إلى حال تفرض عليه الحاجة إلى الآخرين، ومن ثم ضرورة أن يكون ممتنّاً لهم. وغالباً ما يؤدي شعور الامتنان، كما يُؤمن علي، إلى نوع من التنازُل لصالح هؤلاء الآخرين. فأن تكون مديناً، هذا يُسهّل ابتزازك ودفعك لتقديم تنازُلات، حتى وإن لم يقصد أحدٌ الابتزاز بشكل صريح وواضح. هكذا تعمل القوانين الاجتماعية الخفيّة هنا.

سَيَعْمَدُ عمّار، بحسن نيّة غالباً، إلى حصر علي في زاوية ضيقة، فهو يطعمه ويدفئه ويحرص على راحته، ومقابل ذلك عليه أنْ يُنصت الآن جيداً إلى كلامه، ولا يتصنَّع الإنصات ويتجاهل ما يسمع، كما كان يحدث في زياراته القليلة السابقة إلى شقته. الآن عليه أن يفهم أن عمّار يعيش حياة منضبطة وواضحة، ولأنّ حياته كذلك فإنه في وضع يُمكِّنه من مساعدة أخيه لعيش حياة جيدة قدر الإمكان.

ظلَّ علي يتذكَّر، وهو يحاول التكيُّف مع وضعه الجديد، خليطاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من أحلام داهمته أثناء غيبوبته التي استمرّت اثني عشر يوماً. عبورٌ إلى عوالم، وأحاديث عن تأهيل القصر الجمهوري لإعادة تشكيل الحكومة، وصديقه العجوز واصف عبد المحيي. تعاويذ وكلام سحري كان يردِّده أسلافٌ غابرون، ثم صار علي يردِّده على الراديو.

زاره زملاء من العمل، وأكدوا له أن قرار فصله كان مجرد انفعال من مدير الإذاعة، سرعان ما تراجع عنه، فأنت موهوبٌ وذكيٌّ ولا يستطيع بسهولةٍ تعويضك بمذيع آخر بمثل كفاءتك.

ـ ماذا عن هؤلاء الذين حاولوا قتلي. هل جرى التعرُّف عليهم؟

ـ أين أنت عايش يا علي؟! إنسَ أحسن.

ـ ذكر مدير الاذاعة شيئاً من هذا القبيل في اتصاله الهاتفي.

ـ لا نعلم شيئاً. . المهم، صير زين حتى ترجع لشغلك.

قال مهندس الصوت الذي يرافقه عادةً في حلقاته الإذاعية الليليّة، وهو يُربتُ على كتفه، وكأنه يحاول تسفيهَ كلّ المخاطر التي تُحيط بعلي.

لم يساعده هذا الأمر كثيراً، وهو يعرف أن شفاءه التام وخروجه من جديد إلى الشارع سيُعيده تماماً إلى لحظة الإطلاقة الناريّة على الرصيف مرّة أخرى. لا شيء يمنع من تكرارها، كما أنه يعرف، في الوقت ذاته، أن لا شيء يمنعه من عيش حياته نفسها، بكلِّ مجازفاتها وأخطائها ومتعها الصغيرة التي تُمثّل عنده نوعاً من الترياق المساعد على الاستمرار.

قلَّب في كتاب جوزيف برودسكي، وعلى الغلاف الثاني من الداخل، وبقلم سوفت أحمر، لاحظ وجود رقم هاتف نقّال، مع كلمتين؛ إتصل بي.

لم يشك للحظة واحدة أنها «ليلى». اتصل بالرقم ووجده خارج

الخدمة. ظلَّ يفعل ذلك للأيام اللاحقة وكانت النتيجة نفسها. لقد مرّت فترة طويلة منذ أن تَسَلّم هذا الكتاب داخل المستشفى. ربما سافرتْ، ربما كانتْ تريد أن تراه لمرّة أخيرة قبل سفرها. أو كانت هذه العبارة مع الرقم مكتوبة هنا منذ سنوات، وليست موجّهة له.

حين عاد عمّار ليجلس معه في الغرفة، أراد أن يطلب منه أن يذهب ليشتري له مشروباً. سينفعه هذا كثيراً، غير أنه يعلم أن أخاه المواظب على الطقوس الدينيّة سينزعج من هذا الطلب. وهذه واحدة من الضرائب الذي يضطر علي لدفعها ما دام مقيماً هنا.

ـ بشأن الدفتر الصغير بغلاف جلدي أسود.. قَلَّبتُ الشقة كلَّها عاليها سافلها ولم أعثر عليه. حتى في التواليت بحثت.

ـ أيّ دفتر أسود؟!

ـ أنت طلبتَ منّي العثور على هذا الدفتر في اليوم الأول لخروجك من المستشفى.

ـ ٢ ـ

تذكّر فجأةً، مثل من يعيد تركيب القطع المتناثرة، دفتر التعاويذ الذي أخذه من الدكتور واصف قبل وفاته. تذكّر القراءات المجنونة على أثير الإذاعة، قبل أن يؤدي هذا الأمر إلى فصله من عمله.

شعر بأنه اندفع في جنونه إلى الحدود القصوى، وربما كانت الإطلاقة الناريّة المخطئة، مثل نقطة ختام حادة وحاسمة ما بين حياتين وعالمين. بدا وكأن المطلوب منه الآن، بالاستعانة بهذه الراحة الإجبارية في السرير، وانتظار التئام جروح الرأس، أن يستعيد رُشْدَهُ، وشعر بأنه بات يخضع جزئياً لوجهة نظر أخيه. فما الذي جناهُ خلال العشرين سنة الأخيرة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أَلَمْ يكنْ من الواجب عليه المحافظة على عائلته الصغيرة؟ ألا يَحِنُّ أحياناً لاستدارة زوجته في السرير خلال الليل ثم تطويقها له بذراعها ومحاولتها دَفْنَ وجهها في رقبته قبل أن تسترخي في نوم عميق.

لماذا ظلَّ يهرب من الوظائف التي عُرِضَتْ عليه؟ لو كان صدام حيّاً ودولة صدام باقية، أَلَمْ يكنْ سيضطر للعمل فيها. لماذا لا يريد الآن أن يعمل تحت يد الاحزاب السياسية الماسكة للسلطة ودوائر الدولة والمؤسسات الإعلامية؟ أَليسَ التفكيرُ بنظام سياسي ملائكي نطمئنُ إلى خدمته هو ضرباً من الجنون، أو بأهون الأحوال تفكيراً طفوليّاً وغير واقعي؟ لماذا رَضِيَ أن يحشُرَ نفسه في وظائف تافهة منزوية؟

ثم من أين تأتي أموال إذاعة الموقف التي يعمل فيها. لماذا يفترض أن صاحب ومالك الاذاعة المقيم في ديترويت بأميركا هو رجل نزيه وأمواله سليمة؟

ثم ما المشكلة في العمل التجاري؟ لماذا يفترض أنه أرقى وأعلى مرتبةً من أخيه عمّار الذي يملك محال تجارية قرب سوق شعبيّة. هل لأنه قرأ بضعة كتب لم يتسنَ لعمار قراءتها؟ أَلِأنّه يظن في نفسه الفهم والمعرفة والدراية، أَلِأنَّ ذوقه مرهف، ويتطلّع إلى طعم أعلى مرتبةً للحياة؟

لماذا يبدو، بعد أكثر من عقد على «جمعيّة المنتحرين» وكأنه ما زال هناك، في فقاعة الحسِّ العدمي التي صنعها هو وأصدقاؤه وعاشوا فيها سنوات طويلة، كانت مبرَّرة بسبب انغلاق الأفق وندرة إمكانيات التغيير المتاحة أمامهم، وأيضاً بسبب ضعف التجربة وصغر سنِّهم.

إلا أن عقد جماعته الأولى انفرط، وكلٌّ انشغل بنفسه مع التيار

الجارف والصاخب للاحداث ما بعد ٢٠٠٣. صارت تحدث في شهرٍ واحدٍ أشياءٌ أكثر مما في سنة من سنوات الحصار.

كان عمّار يعمل على ميز لبيع السجائر في الشُّورجة قبل ٢٠٠٣، ثم تطور عمله بشكل متسارع، ليفتتح محلاً للبيع بالجملة في بورصة السجائر في هذا السوق، ووقف علي معه في العمل، وصارا شريكين تقريباً، إلا أن علي كان يغيب لساعات طويلة خلال النهار، بسبب انشغاله مع أصدقائه من فنانين ومثقّفين، حتى حصل أول احتكاك بين الأخوين بسبب ترك المحل مُغلقاً لنهار كامل، والسبب أن علي كان يرافق صديقاً أصيب بأزمة قلبيّة مفاجئة، واضطر للبقاء معه في المستشفى، ورغم أنه حدثٌ طارئٌ إلا أن عمّار لم يتقبَّل هذه الحُجّة، خصوصاً وأن علي لديه سوابق كثيرة بدون حُجج مقنعة. صارت العلاقة باردة بين الأخوين، ومع اشتداد الحرب الأهليّة في ٢٠٠٦ وجد علي عملاً كمحرِّر في إذاعة كرديّة ببغداد ناطقة بالعربيّة، ثم ارتقى شيئاً فشيئاً حتى صار مقدم برامج في الاذاعة ثم مذيعاً للنشرة الرئيسة، وصار مرتبه يُغطِّي نفقاته، من دون الحاجة إلى أخيه الصغير، وفي أروقة هذه الإذاعة التقى «شاناز» الفتاة التي أصبحت زوجته لاحقاً.

خلال هذه السنوات كلّها، لم يفكّر كثيراً بمصير صديقه العجوز السابق. لقد مات على ما يبدو. وحتى لو ظلَّ حيّاً لبضع سنين، فهو مريض ومن الصعب التصديق بأنه سيبقى لعقد إضافي كامل. لم يَمُت الدكتور واصف عبد المحيي طبعاً. وإن لم يبدُ هذا لعلي أمراً جيداً تماماً. لقد فقد صديقه العجوز عقله. هذا ما صار يتذكره علي الآن بشكل جيد، خصوصاً في اللقاء الأخير الحاسم، في حديقة بيت الدكتور، عندما تسلّم علي الدفتر الصغير ذا الغلاف الجلدي الأسود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٣ -

كانت الحالةُ الصحية للدكتور واصف سيئةً، مع سبعة أمراض، صار يتغنّى بها، ويتحدّث عنها بشاعريّة وكأنه قَبِلَ التعايشَ معها ومصادقتها، وقبل دخول الأميركان لبغداد، حزم أخوه رافد أغراضه، وأجبر أخاه العجوز على المغادرة مع عائلته إلى عمّان مجدَّداً. وأدخله هناك إلى مستشفى أشرف على علاج امراضه السبعة بعناية حتى انخفضت إلى مجرد ثلاثة أمراض مزمنة يمكن السيطرة عليها. ولكنه ظلَّ واهناً يفتقد طاقته السابقة وقدرته على الحركة بحريّة، ولولا وهنَهُ وضعفه لما استطاع رافد السيطرة عليه وجره معه خارج بيت العائلة الذي لم يتركه خلال سنوات عمره إلا لفترات محدودة بسفريات هنا أو هناك.

في تلك الفترة شعر بأن رحلته كلّها تنتهي. لقد وصل إلى النهاية الدراميّة المناسبة لحياته الرتيبة، التي ابتدأت ذات يوم شتائي من ١٩٣٣ في إحدى محلات بغداد القديمة، قبل انتقال العائلة ما بين عدّة بيوت وأحياء بغداديّة لينتهي المطاف بهم في السبعينيات في حي المنصور.

خلال ذلك كلّه كان الدكتور واصف يفخر بأنه من الدفعة الاولى من خريجي قسم الآثار بجامعة بغداد والتي تخرَّجت في ١٩٥٧، وأنه زامل نجوماً وأعلاماً في علم التنقيب والآثار العراقيين، ومنهم طه باقر وفؤاد سفر وبهنام ابو الصوف وعبد القادر الشيخلي، وقيس الوائلي وخالد الاعظمي. وحين يجد فرصة مناسبة مع مجالسيه فإنه لا يملُّ من الحديث عمّا شاهده خلال البعثة الآثاريّة إلى دولة الامارات العربيّة في السبعينيات، برفقة محمود القيسي، مثل تلك الجرار السُّومريّة التي كانت تُستعمل لدفع الموتى

في هذا المكان القصي عن العراق، كي لا يعودوا حسبما يُفسِّر الدكتور واصف.

كان العنوان الوظيفي الأول الذي عيّن فيه هو مُنَقِّبُ آثار، وظلَّ يتدرَّج بالمناصب حتى صار خبير آثار. ثم قبل تقاعده ببضعة سنوات رُقِّيَ إلى منصب خبير أقدم. إنها سيرة لامعة دون شكٍّ، ولكن الكثيرين لا يعرفونها، ما لم يتطوَّع هو لسردها، ولم يحصل على هذه السيرة لولا سنوات العمل الميداني، وكتابته لبحوث آثاريّة رصينة، نُشِرَتْ تباعاً في مجلة سومر، وهي المجلة العريقة التي كانت تصدرها دائرة الآثار. هذه الدائرة التي تعدُّ مع دائرة الري أقدم مؤسستين حكوميتين في العراق وسبقتا حتى تأسيس الدولة العراقية نفسها.

كان يرافق بعض البعثات التنقيبيّة الاجنبيّة، وبالذات الألمانيّة والاميركيّة، بالاضافة إلى المواسم التنقيبيّة التي تعمل فيها فرق عراقيّة من الجامعات أو من دائرة الآثار.

تعفَّرت يداهُ بكلِّ أنواع التراب والطين، ولمس تلك الدهشة الغريبة حين ينبثقُ من بين الركام والتراب وجهٌ بملامح حادة وعينين واسعتين، وكأنه كائنٌ حيٌّ ينتظر هذه المقابلة مع البشر منذ آلاف السنين.

لم يكن يبخل بملاحظاته الشعريّة التي يصف بها انطباعاته وهو يواجه اللُقى والآثار التي تعود من جديد إلى فضاء العالم والى نور المشاهدة والرؤية من قبل الآخرين بعد انطمارها في التراب لدهور طويلة.

كان يتمنَّى أن يبقى جوّالاً بين المواقع الأثريّة، ولكن حكم العمر، وكذلك محدِّدات الوظيفة، ثم غروب شمس الأعمال التنقيبيّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في التسعينيات، بسبب العقوبات الدوليّة وتراخي مؤسسات الدولة، جعله مرتبطاً بكرسي وطاولة الوظيفة، خبيراً بالسُّومريَّات، فاكَّاً لطلاسمها، ومقدّراً لمعنى الكلمة المطموسة داخل السطر. ووجد في هذا العمل شاغلاً عن أيِّ شيء آخر، حتى كأنه يغطُسُ مع الكلمات المسماريّة التي لم يعد يتحدّث بها أحد، هارباً من الحياة نفسها.

استيقظ فجأةً ليجد نفسه في الشوط الأخير، من دون زوجة وأولاد، يعيش نصف حياته داخل عالم غير حقيقي، تكوّنه الكتب والمخطوطات واللُقى، واسطوانات الموسيقى الشرقيّة والغربيّة، ومجموعة من العادات والروتين المحبّب، وكأنه في فقاعة زجاجيّة ضخمة تحجزه عمّا يجري في الحياة الفعليّة في الخارج. وها هي الرحلة تصلُ إلى نهايتها، مع اقفال أبواب البيت الكبير والهروب إلى عمّان.

بعد ثلاث سنوات ونصف من الإقامة في العاصمة الأردنيّة كان الدكتور واصف بحالة صحيّة مستقرّة، ويستطيع الخروج إلى مشاوير قريبة، وقد يجلس مع أخيه وثُلَّة أصدقائه الجدد من عراقيين هربوا من العراق مؤخّراً، ويستمع منهم إلى وجهات نظر حول ما يجري في البلد، وموقفهم من الأحداث هناك. لا يبدو أن حكايته قد انتهت حقاً.

كان قادراً على تجاهل كلّ التحذيرات، وكلّ الكراهية المبثوثة في أحاديث أصدقاء أخيه للوضع السياسي القائم وقوة الاحتلال الأجنبي الرابضة في أرض العراق، والعودة مجدَّداً إلى بيته الحبيب، وأفصح أكثر من مرّة عن رغبته تلك أمام أخيه، لكن رافد ظلَّ يرفض هذه الفكرة التي أسماها بالمجنونة.

ـ نحن مطلوبون بثأر هناك. هل تريد أن ترجع كي ينتقموا منك؟

قال رافد في مرّة، فردَّ عليه أخوه العجوز:

ـ ينتقمون منّي؟ وماذا فعلتُ أنا؟ لا تبالغ.. قُلْ إنك تريد مبرِّراً للبقاء هنا وعدم العودة، ولكن هذا شأنك في النهاية، مالي أنا وموقفك؟ أريد العودة لبيتي وكتبي وأغراضي.

ـ من لك هناك؟ ماذا سيحدث لو تدهورت صحتك؟ من الذي يساعدك؟ أنت تتخيَّل أن بغداد ما زالت على حالها السابق؟ خليك مرتاح هنا وأمام عيوننا أحسن.

خاض الأخوان بضع حوارات مشابهة في أوقات أخرى، وانتهت إلى النتيجة نفسها. إنه يرى بعض المنطق في كلام أخيه، رغم أنه يفرضُ خياراته عليه بتسلُّطٍ غير مقبول. فإن كانت بغداد مثلما كانت سابقاً أو صارت أسوأ، هذا ليس لُبُّ الموضوع، وإنما هو، دكتور واصف، لم يعد مثلما كان سابقاً.

صار مجبراً على متابعة الأحداث الجارية في بلده وكأنها عرضٌ تلفزيوني. أشياء تحدث لشعب آخر بعيد، يراه في صورة مختزلة من على شاشة تلفزيون، في نشرات الأخبار وبرامج العراك الحواري التي تسبِّب له الصداع أكثر مما تعطيه معلومةً جديدةً تساعده على الفهم.

استمرَّ أخوه رافد بالتنديد بما يجري، وأن البلد ضاع إلى الأبد. وهذه «الى الابد» هي أكثر ما كان يُخيف الدكتور واصف، إنَّ فيها حسماً غريباً. وكأنهم نزحوا إلى قارة بعيدة، خلف بحار وجبال وأسوار عالية، وحتى لو قرروا العودة في وقتٍ ما، فإن الإمكانيات لذلك لن تكون متوفرة. أشبه بمن تتعلَّق عودته إلى بلده بثمن تذكرة طائرة باهظة لا يقوى على شرائها.

استمرَّ الحالُ في ايقاع رتيب، خصوصاً بالنسبة لدكتور واصف،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيومياته معدودة ولا تغيير فيها، أما أخوه رافد فهو يخرج ويلتقي بأصدقائه ويسافر، يقوم بصفقات تجارية ويقضي بعض الأعمال، ولديه لقاءات خاصة مع معارضين للنظام السياسي الجديد، ولكنه لا يُفصحُ عنها.

ذاتَ ليلةٍ صحا واصف على مشادَّة بين رافد وزوجته التي تشكُّ في أن لديه عشيقة يقضي معها وقتاً طويلاً، يتزامن مع أوقات إطفائه لتلفونه المحمول، كما تدَّعي زوجته.

لم يكن يتدخَّل في كلِّ هذه الأحداث، ولم يتحدّث مع أخيه رافد إلا بالمواضيع والقضايا التي يطرحها رافد نفسه.

وفي يومٍ من أواخر عام ٢٠٠٧ جاء رافد إلى البيت مبتهجاً، وهو يحمل خبراً مفاجئاً، فقد قرَّر العودة مع عائلته إلى بغداد. ظلَّ دكتور واصف مستغرباً ولم يُعلِّق في البداية بأيِّ شيء، ثم حاول بعدها أن يفهم التغيير المفاجئ في مواقف أخيه.

ـ هذا بلدنا دكتور، واذا ما كنا نتكاتف ونضع ايدينا بايدين بعض منو اللي يبنيه ويعمره ومنو يصلح حاله. اذا كلنا هربنا وعفناه أكيد الناس السيئة والخبيثة هي اللي تسيطر عليه.

قال رافد ذلك بحماسة وبوجه مبتهج، ولم يُصدِّق دكتور واصف ما يسمعه، وبدا كلام أخيه بالنسبة له وكأنه فاصلٌ إعلاني من تلك الاعلانات التي تروِّجها القنوات الفضائيّة العراقيّة لدحر الارهاب والدعوة إلى السلام والمحبَّة بين العراقيين.

كلامٌ فارغٌ ولا معنى له، ومن المستحيل أن يكون هو السبب الحقيقي في التغيير الشامل بوجهة نظر رافد.

ـ قل شيئاً آخر يا رافد. هل أنا طفل أمامك؟ يا ناس سيئة وخبيثة ويا بناء واعمار؟ شنو اللي صار؟ اجاك تهديد هنا؟ اكو شي

يخوفك هنا؟ لو خلصت فلوسك لو زوج عشيقتك اللي هنا كشفك لو شنو؟

ـ يا عشيقة؟ شنو هالكلام دكتور؟

صارا يتجادلان، ثم مع دخول زوجة رافد وبناته، انقطع الجدال ثم عبرا بالكلام إلى موضوع آخر لا علاقة له بالوطن والسلام والوئام.

ومع مطلع عام ٢٠٠٨ اتضح كلُّ شيء، وها هم يحزمون أغراضهم للعودة من جديد إلى بغداد. لقد حصل رافد على وظيفة حسَّاسة في الدولة. تمَّ استدعاؤه من قبل النظام السياسي الذي كان يشتمه، وقَبِلَ الدعوة فوراً، حتى من دون أن يأخذ رأي أفراد عائلته، ورأي أخيه الأكبر الذي لم ينتبه أنه يتعامل معه بشيءٍ من الاستخفاف.

عاد دكتور واصف إلى مكتبته وأشرطة الموسيقى الخاصة به، وتَقَبَّلَ وجود عائلة بأربعة أطفال بنوا لهم بيتاً صغيراً على جزء من حديقته الواسعة. إنها عائلة الحارس الذي عيّنه رافد لحراسة البيت على مدى السنوات الماضية، ولا يبدو أنه من الضروري أن يطرده الآن، خصوصاً وأن هذا البيت الصغير لا يشترك بأيِّ مداخل مع بيت العائلة الكبير. ولكن الحديقة لم تعد مثلما كانت، ففضلاً عن نصفها تقريباً الذي ضاع مع بيت الحارس، فإن النصف الثاني كان في حال مزرية، ويحتاج إلى عناية وإعادة تأهيل، وهذا ما بدا المهمّة الاولى التي سيشغل دكتور واصف نفسه بها.

بعد أقل من سنةٍ عاد رافد إلى مزاجه السلبي السابق، فصار حين يجلس في مرّات قليلة إلى أخيه، يشتم وينتقد الحكومة والوضع القائم، ويبدو ناقماً بشدّة، غير أنه لم يُصرِّح برغبة واضحة لمغادرة عمله الجديد، بل إنه بدا مستمتعاً به، مع حمايات وسيارة مصفّحة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم جاء خبرٌ مفاجئٌ جديد. لقد تمَّ تخصيص منزل لرافد داخل المنطقة الخضراء. وبسبب ذلك سيغادر مع زوجته وبنتيه إلى هناك.

ـ عليك أن تأتي معنا يا دكتور. كيف ستعتني بنفسك وأنت هنا؟

قال رافد ذلك وحين لم يتلقَ ردَّاً سريعاً من أخيه، جلس على كرسي أمام المكتب الخشبي الفخم لأخيه العجوز. وضع دكتور واصف كتاباً سميكاً كان بيده ونظر إلى أخيه من وراء زجاج نظارته السميكة، ولم يعرف لحظتها من أين تجمّعت لديه مشاعر الكراهية تجاه أخيه. شعر بأنه يكرههُ ويحتقره. أراد أن يردَّ عليه بانفعال شديد. يشتمه، أو ينهض ليقذفه بالكتاب أو منفضة السجائر النحاسيّة الموضوعة كأنْتِيْكا على طرف الطاولة الخشبيّة. أراد أن يُوبّخه ويجره من أذنه إلى أعلى كما كان يفعل أحياناً في سنوات طفولته البعيدة. ولكن جسده خانه، حتى أنه بسبب هذا الانفعال الذي اعتراه لم يستطع النهوض من كرسيه.

ـ أنا لستُ طفلاً صغيراً تُجرجرني معك أينما تذهب. أنت نسيت أن لي حياتي الخاصة، وعشت سنوات طويلة بدون الحاجة إليك أو إلى أي أحد آخر. إذهب وافعل ما تشاء. تسكن في بيت آخر تسافر تهاجر. هذا شأنك.

هذا ما استطاع نطقه وتمنّى ألا يجادله رافد كما هي هوايته المعتادة.

ـ أخشى أن يحصل لك مكروهٌ هنا.

ـ هناك عائلة الحارس، وسأعيِّن أحداً للتنظيف وإعداد الطعام لي. ليست مسألة صعبة.

ـ لا . . أقصد إنْ عرفوا أنك أخيَ. . ربما يعرضونك للخطر. يستخدمونك ضدي.

قال رافد بنبرة جادة، وكأنه مطاردٌ من جهةٍ ما، وكأنَّ هناك خطراً جديّاً يُهدِّد العائلة بمن فيهم الدكتور واصف.

ـ لا تخشى شيئاً، إن حدث لي شيء لن أحمّلك المسؤولية. فكّر بنفسك وعائلتك، أنا كبير بما يكفي لأعرف كيف أتصرف.

انتهى الجدال القصير، وفهم دكتور واصف بأن أيَّ شيءٍ لم يكن ليغيّر قرارات أخيه. لم يكن رافد يحسب لأخيه أيَّ حساب، وما هذه الحواريّة إلا نوعٌ من إسقاط الفرض، أو لتهدئة شعور ما بالذنب.

غادر رافد وعائلته إلى بيته الجديد وبَقِيَ دكتور واصف وحده مجدَّداً. وصار مع تأهيل ما تبقى من حديقته قادراً على استعادة أجواء سابقة. ولكن بدون زيارات منتظمة من أصدقاء أو معارف، ما عدا زيارات متقطِّعة من زملاء عمل قدماء عرفوا أنه عاد إلى بغداد، وهي زيارات شحيحة لم تغيّر شيئاً في عزلته التي يعرفها. يتذكّر أحياناً أولئك الشباب الذين غيّروا مزاجه في السنوات الأخيرة ما قبل الاحتلال، ولكنه لا يعرف أين هم الآن، وكيف يتصل بهم، حتى سمع مرّة عن طريق الصدفة، نشرة أخبار يقرؤها مذيع باسم علي ناجي. كانت إذاعة كرديّة ناطقة بالعربيّة. الاسم مألوفٌ ولكن الصوت مصطنع وكأن صاحبه يحاول تقليد مذيع مشهور في البي بي سي. هل يكون هو نفسه علي ناجي؟ هل يستحق الأمر أن يتصل بالإذاعة ليتأكّد؟

ـ ٤ ـ

كان ذلك قبل اللحظة الحاسمة التي انعطفت بحياته. يتوقَّع الإنسان أن تتغيّر حياته وهو في عنفوان شبابه. يُكافح ويُركز جهده على إنجاز أمر ما، ثم ينجح فيه فتتغيّر حياته. يَضْفَنُ مع نفسه قليلاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويُحاول أن يكون صادقاً معها قدر الامكان ثم يقرِّر قرارات حاسمة، كما هو الحال مع الزواج والسفر أو تحديد الولاءات السياسيّة. لكن أن يجد شخصٌ ما يقترب من الثالثة والسبعين فرصة لتغيير حياته فهذا أمرٌ نادر الحدوث، وإن كنت في هذه السن المتقدِّمة فما الذي تبقى من الحياة حتى نتغيّر من أجلها يا ترى؟ إن كانت مجسَّات التمتع بالحياة ضعيفة، فحتى لو وضعت في الجنة فإنك لن تكون قادراً على تحسُّس مباهجها بالشكل الأمثل.

ولكن، في أنفس الكثيرين يبقى عرقٌ نابضٌ يهفو للشعور بشيء مختلف، الحصول على فرصة لرؤية الذات ضمن سياق آخر لم تَعْتَدْهُ. وإلا لماذا يُكافح متقاعدون غربيون، على عُكَّازاتهم أحياناً لرؤية تاج محل وإهرامات الجيزة وشرب القهوة قرب برج إيفل. لماذا يريدون الاحتفال بحياة ليسوا قادرين على قضمها بملء أفواههم، بسبب أطقم الأسنان الصناعيّة. ولا رؤية ألوان مبهجة بوضوح كافٍ بسبب تَهَدُل الشبكيّة أو تأثيرات السُّكّري. لا يتذوَّقون ما يشتهون من الأطعمة بسبب تحذيرات الأطباء. لا يسكرون ولا يُمارسون الجنس بكفاءة عالية وقتما يشاؤون. ما هو طعم الحياة حين تفتح مائدتها أمامك وأنت غير قادر على مدِّ يدك إلى أطباقها، ولا حتى رؤيتها بشكل جيد أو شمِّ روائحها بوضوح. إنه وضعٌ لا يُمكن افتراضه وتخيُّل الإجابة عنه، ولن يقدّره حقّ قدره إلا من كان فيه فعلاً، وهو الحال الذي يعيشه الدكتور واصف ويعرفه جيداً. إنه رغم استسلامه الظاهري، ورتابة استجابته للحياة من حوله، مستعدٌ في أعماقه لأيِّ تغيير يفتح له طريقاً لخيارات جديدة ومختلفة. قد لا يكون قوياً بما يكفي للسعي خلف هذا الباب المجهول، ولكن، إن صار أمامه وشعر بأنه قادر على فتحه، فلن يتردَّد أبداً، حتى لو سَخَرَ

منه الآخرون ووصفوه بالجنون لمحاولته هذه. خصوصاً مع يقينه بأن «الآخرين» مجرد وجود غائم وغير واضح المعالم في حياته.

جاء الحارسُ الأربعيني يَغِذُ بخطوات واسعة وأخبره، وهو جالس في الحديقة يقرأ، أن رجلاً بسيارة قديمة وقف في وسط الزقاق وصار يسأل عن بيت الدكتور واصف عبد المحيي.

كان الجو ربيعيّاً دافئاً، ومزاج الدكتور واصف رائقاً. أخبر الحارس أن يطلب من هذا السائل الغريب أن يأتي، ولكن ليسأله أولاً عمّا يريد.

كان السائل موظفاً قديماً في المتحف العراقي، يعرفه دكتور واصف، وإن لم يكونا صديقين. صافحه بحرارة، وجلس على كرسيٍّ بجواره. صارا يتحدّثان، ثم شربا الشاي، وطلب منه دكتور واصف أن يبقى ليتغديا معاً، ولكن هذا الزميل القديم اعتذر متعلِّلاً بأن لديه أشغالاً والتزامات.

ظلَّ يتحدَّث عن أحوال المتحف المغلق هذه الفترة، ثم استرجع الأحداث المحزنة لعمليات النهب التي حصلت للمتحف في يوم التاسع من نيسان ٢٠٠٣. لم يكن الدكتور واصف شاهداً على هذه الاحداث، وكان أمراً مثيراً للفضول أن يستمع لشهادة عَيَانِيَّة من شخص حضر هذه الأحداث المؤسفة.

ـ كنت أكثر شخص أحترمه في المتحف. أنتَ أستاذنا كلّنا دكتور. وكنتَ حريصاً على العمل، حتى تقاعدت، ووقتها كنتُ أرغب بزيارتك، ولكني خجلت، فنحن لسنا أصدقاء، وأنت لم تكن تختلط كثيراً معنا.

قال الزميل القديم، وهو يرشُف من الشاي الذي أعدّته زوجة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحارس. كان يبدو عجوزاً بهندام متعب، ولكنه أصغر من دكتور واصف بعقدين على الأقل.

ـ لقد قمت بشيء ما. أعتقدت وقتها بأنه أمر حسن، ولكنه صار سيئاً فيما بعد، ولم أعرف كيف أتصرَّف.

ظلَّ الزميل يتحدَّث، وكأنه يعترف أمام كاهنٍ أو قسٍّ. لقد عرف بوجود دكتور واصف من بعض الزملاء الذين يلتقي بهم أحياناً، وشعر بأنه الرجل المناسب الذي يمكن أن يحلَّ مشكلته. والتي تبدأ تحديداً من يوم اقتحام المتحف من قبل جماعات مجهولة سرقتْ جزءاً من محتويات المتحف. كان هذا الزميل قريباً من المتحف، وشعر بإمكانية حدوث مكروه لذلك توجه إليه بسيارة أحد أولاده. وكم كانت صدمة أن يجده مفتوحاً على مصراعيه، ومحتوياته في متناول أيدي السارقين.

ـ كانت هناك جَرَّة سُومريّة من الفخار أحبَّها، تلك التي استخرجت من تل أبو صلابيخ جنوبي بغداد في العام ١٩٨٩. أنتَ تعرفها دكتور لأنك كنت مع الدكتور دونالد هادسن الذي استخرجها. شعرت حينها بأنَّ عليَّ أن أفعل شيئاً. كنت مرتبكاً وخائفاً أيضاً من العصابات واللصوص، حملت الجَرَّة معي دون تفكير كثير وأخذتها بسيارة ابني إلى البيت، وبقيتْ عندي سنوات طويلة.

ـ وماذا فعلت بها. هل أعدتها إلى المتحف لاحقاً؟

سأل الدكتور واصف. فصمت ضيفه عدّة لحظات قبل أن يجيب:

ـ هذه هي المشكلة دكتور. أنا خفتُ أن أرجعها بالبداية، لأن الحديث كان وقتها عن عصابات سرقة، وامتلأت الصحافة والتلفزيون بالحديث عن سرقة الآثار، خشيت أن أتهم بأني أنا من

سرقت المتحف أو شاركت في سرقته. خفتُ يا دكتور. ثم حين شعرت بضرورة إعادة هذه الجَرَّة، مهما كانت النتائج، سقطت منِّي وتحطَّمتْ.

ـ تحطَّمت؟ كيف حدث هذا؟

ـ لا أعرف دكتور، مجرد مصادفة سيئة حصلت. الجَرَّة انقسمت إلى قسمين. فكَّرت أكثر من مرّة بإعادة لحمها، ولكني موظف آثار وأعرف بأن هذا الأمر لا يجري كما مع مزهريّة أو طبق مكسور في المطبخ. يجب أن يتمَّ داخل ورشة الصيانة والترميم، أو تبقى على حالها مكسورةً.

ـ المهم. . هل أعدت الجَرَّة إلى المتحف؟

ـ لا دكتور. . الجَرَّة لديَّ في السيارة الآن. ملفوفة بالقماش في صندوق ورقي. وأريد أن أعطيها لك. لا أثق بأيٍّ شخص آخر. وأخاف أن تحدث لي مشكلة جديّة لأني كسرتُها. أنتَ يحترمونك ويقدرونك. أنت أرجعها إلى المتحف.

انعقد لسان دكتور واصف من الدهشة. وحاول إقناع زائره الطارئ بأن يذهبا معاً إلى المتحف وهو من يتحدّث مع المدراء الجديد هناك ويعيدان القطعة الاثرية إلى مكانها، ولكن هذا الضيف المذعور رفض. ثم خشيةً من أن يفرَّ مع القطعة الاثرية، رضخ الدكتور واصف، فغادر الضيف مسرعاً لجلب الصندوق الورقي من السيارة، ثم عاد بعد نصف دقيقة ووضعه على الحشائش أمام دكتور واصف.

أعاد منظر الجَرَّة الفخاريّة المكسورة شريط الذكريات عند الدكتور واصف، إلى تلك الفترة حين اكتشف مع الفريق الأجنبي من معهد الآثار البريطاني تلك القرية بكلٍّ ما فيها من بيوت وبنايات تعود إلى عصر الأسرة السُّومريَّة الأولى، إلى رُكام الجِرار والألواح الطينيّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي لم تكنْ نافعة بشيء، وكانت هذه الجَرَّة من بين اللُقى التي ظلَّت على حالها وتمَّ استنقاذها بسلامة. وها هي مكسورة الآن مثل أشياء كثيرة أخرى حدثت في البلد.

- ٥ -

وجد الدكتور واصف بهذه الجرّة المحطمة ما يغيّر مزاجه، ويسحبه من الاستغراق العميق وغير المجدي مع نفسه. قرَّر أن يحتفظ بالجَرَّة لعدَّة أيام، يتأمَّلها ويتحسّس من خلالها، ولو لبعض الوقت، علاقة ما قديمة مع العمل الميداني في النَّبْشِ عن الاثار واستخراجها، ثم يحاول الاتصال بمعارفه في المتحف لإعادتها إلى مكانها بشكلٍ لا يثير مشاكل أو تبعات على الرجل الذي استنقذها أصلاً من أيدي اللصوص.

كانت الجَرَّة ملساء من الخارج، ولكن باطنها بدا مختلفاً. لا يتذكَّر دكتور واصف أنه شاهد باطن جَرَّة مماثلاً. هناك كتابةٌ بنقوش مسماريّة وبعض الخطوط والرسوم. كيف فعلوا ذلك؟ ظلَّ يتأمَّل هذه الخريطة من الكتابات والرسوم الرمزيّة، وانتهى إلى الظنِّ بأن الجَرَّة بعد أن صُنعت من الطين تمَّ قطعها إلى قسمين، وكُتبتْ هذه النقوش والعبارات عليها من الداخل ثم أعيد لصقها مجدَّداً قبل إدخالها إلى فرن الشّواء.

أفرغ طاولة مكتبه وغطَّاها بقطعة قماش كبيرة، ثم وضع قطعتي الجَرَّة عليها، واستغرق في نقل النقوش والكلمات من الجَرَّة إلى الورق. لكنه لم يستطع اتمام هذا العمل بالسرعة التي توقَّعها. فتأخّر لثلاثة أيام قبل أن ينقل كامل الرموز والكلمات، ثم ليقرِّر بعدها الاتصال بأحد زملائه القدماء لإعادة الجَرَّة إلى المتحف.

لم تحدث مشكلة كبيرة، وكان ذلك الزميل الذي احتفظ بالجَرَّة يبالغ. كانوا ممتنين، وذكرت إحدى الصحف خبراً عن إعادة الدكتور واصف عبد المحيي لقطعة آثارية لا تُقَدَّر بثمن إلى المتحف العراقي.

كان هذا الخبر متضمِّناً في النشرة الإخبارية التي قرأها المذيع علي ناجي، قبل أن يستقيل في اليوم التالي من وظيفته في الإذاعة الكرديّة، بسبب مشاكل غَيْرَة نسائيّة حصلتْ مع زوجته. كانت أول مشكلة جديّة تواجه زواجه، وكان الحلُّ السريع هو بالتراجع أمام زوجته. يستقيل ويختفي من أمام عيني زميلته العاشقة التي سبَّبت المشكلة أصلاً.

ـ إنه حيٌّ يُرزق. لم يمت إذن.

قال علي لصديقه عبد العظيم، خلال اتصال هاتفي نادر بينهما.

ـ ايه.. حي. هؤلاء الاغنياء لا يموتون بسهولة. مو مثل حالنا. نعبر الاربعين نصير شياب، ونموت بالخمسين.

ردَّ عبد العظيم بلا مبالاة. أمّا علي فظلَّ مأخوذاً بفكرة أن يبقى رجل كان على شفا الاحتضار حيّاً كلَّ هذه السنوات، وليس هذا فحسب، وإنما يعود ليمارس عمله. يستعيد قطعاً أثرية وتكتب الصحافة عنه.

كان من المنطقي أن يحاول علي العثور على دكتور واصف. ذهب إلى المتحف العراقي وسأل عنه، وقيل له بأنه لم يرجع إلى العمل وكان في زيارة إلى المتحف ليس إلا. وفي هذا الوقت تحديداً كان الدكتور واصف قد تشجّع ليسجل أحد أرقام الخدمة التي تذيعها الإذاعة الكرديّة، ثم يتصل بهم ليسأل عن المذيع علي ناجي، وجاءه الجواب بأنه «كان» يعمل في الإذاعة، وقد استقال منذ عدّة أيام. يا للخيبة. ما أن طفا إلى السطح حتى غطس في العتمة من جديد هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الولد. ولكن هذه الغطسة كانت قصيرة جداً، فبعدها بيومين طَرَقَ علي باب بيت الدكتور واصف، وكم كانت مفاجأةً سارة أن يظهر أمام صديقه العجوز بعد كلِّ هذه السنوات.

ـ تركتك تحتضر. كيف نجوت؟

ـ متشبث بالحياة أنا بأظافري وأسناني. عزرائيل انكسر خاطره عليَّ.

ردَّ الدكتور واصف وظلَّ يضحك ويقهقه. وربما هي الضحكة الأولى من هذا النوع منذ تسعة أعوام. ظلّا يثرثران لساعات، حتى أن العجوز لم يشعر بالتعب. رَمَّمَا تلك الفجوة من نقص المعلومات والأخبار التي صنعتها هذه السنوات، وبدا أنهما لا يختلفان كثيراً بوجهات النظر حول كلِّ ما جرى ويجري.

ـ ٦ ـ

يتذكّر علي الآن تلك الاوقات جيداً. بدا الدكتور واصف حينها حيويّاً، ولكنه خسر بعضاً من روحيته السابقة. كان يضحك ويثرثر معه ويُعطي آراءً بما يجري حوله، ولكن كمن يتحدّث من بئر. بدا غاطساً أكثر في ذاته، وهي مرحلة لم يكنْ علي قد وصل إليها حينها. أما الآن فيعرف طعمها جيداً. ليس هناك قعرٌ أعمقُ من الذي يُقيم فيه الآن.

يستذكر بوضوح كيف أن التفاصيل التي رواها الدكتور واصف عن علاقته بأخيه رافد تشبه حالاً يعايشها علي الآن. إنهما في خطوط عامة مرّا بها خلال حياتيهما، يبدوان متشابهين. وبالذات مع هذه الحساسيّة المبالغ فيها تجاه الأشياء.

حتى مع التفصيل المختلف المتعلِّق بالزواج والإنجاب، فإن

الشعور بالعزلة لم يختفِ تماماً عند علي. بل ربما كان العكس. لم يشعر ولا للحظة واحدة بأنه يعيش خارج عُلبة الزجاج التي يقيم فيها. كلُّ الآخرين، بمن فيهم زوجته، يقفون خارج الزجاجة الصلبة غير القابلة للكسر.

ظلّا يلتقيان بين حين وآخر، وتشجَّع الدكتور واصف ليطلب من صديقه الشاب أن يستدعي بقيّة الأصدقاء، ولكن كيف يفعل ذلك. إنه أمر شبه مستحيل. لقد صاروا بعيدين جداً، ولم يرغب عبد العظيم مثلاً برؤية العجوز مجدَّداً. قال كلاماً غير لائق عن زوال «حقبتهم». وعن مهانة الأكل والشرب المجاني في بيت الدكتور واصف وأشياء أخرى أكدت لعلي بأنَّ عبد العظيم لم يعد مثلما كان سابقاً، وانه على الاقل لا يرغب إطلاقاً برؤية العجوز واصف.

وبسبب علي ربما، عاود الدكتور بعض عاداته الصحيّة السيئة، ومنها الشرب، رغم أن علي لا يعرف هل كان الدكتور متوقِّفاً عن الشرب فعلاً أم كان وجوده بجواره من جديد حافزاً لاستعادة عادات الانتشاء بالحياة، مع تجاهل تام لأيٍّ ترتيبات صحيّة ضرورية يتبعها من هُمْ في مثل عمره.

وقد يحدث أن يتصل به تلفونياً ما بعد منتصف الليل، تحت وطأة السُّكر، ويستغرق بأحاديث متشعِّبة منقوعة بالأسى حتى ينقطع الاتصال فجأةً بسبب نفاد الرصيد في هاتف الدكتور واصف. ولا يعرف علي لماذا لم يكن متحمِّساً لمعاودة الاتصال به حتى يستمرَّ الدكتور في نشيجه الذي يشبه منولوجاً ذاتياً لا يحتاج من الآخر أن يتفاعل معه بقدر ما يحتاج إلى تأكيد الاستماع.

كانت مضامين هذه الاتصالات متشابهة، وكان دكتور واصف يتجاهل الإشارة إليها حين يلتقي مع علي في بيته، أو تأخذه الحماسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للذهاب معه إلى شارع المتنبي أو بعض الفعاليات الفنيّة، بهدف إخراج الدكتور من عُزلته وإعادة الاختلاط مع الناس.

ثم انقطعت هذه الاتصالات بسبب انقطاع دكتور واصف عن الشرب، وهو أمرٌ ربما جرى بعد تأكيدات طبيّة سلبية.

وقبل أن يصل زواج علي إلى نقطة حرجة، ويندفع إلى الطلاق بشكل جدي، كان يتحدّث عن مشاكله مع صديقه العجوز ولكن من دون أن يسمع منه نصيحة أو رأياً كاشفاً لمشكلته. وأقصى ما سمعه منه أنه لم يتزوّج ولم يُفكِّر بالزواج يوماً ولهذا فهو آخر شخص يمكن أن يقدّم له نصيحة تتعلّق بمشاكل الزواج.

ـ لقد أعفيت نفسي من هذه المشكلة، ولا تريد أن تسمع مني الآن كلاماً ألومك فيه أو أجعلك تشعر بالذنب لأنك تزوّجت. أنا قد أشعر أحياناً بالندم لأنني لم أقعْ في هذه الحماقة.

لم يكنْ كلاماً مريحاً لعلي، ولا واضحاً. ثم بعد طلاقه شعر علي بأنه يضع أول خطوة باتجاه الانزلاق إلى عزلته الخاصة، التي تجعل الاكتراث لشؤون الآخرين أمراً ثانوياً، مهما كان.

دخل علي في إيقاع حياتي رتيب، يقوده من إذاعة الموقف إلى البيت ثم إلى الإذاعة، مع تفاصيل هامشيّة ليست ذات شأن كبير، تفاصيل لم تستطع خرق زجاجته العازلة، حتى لو كانت جسداً ثريَّاً كما هو جَسَد بان. وكانت اللقاءات التي صارت متباعدةً مع صديقه العجوز تفتقر إلى الحيويّة، تطفو عليها سحابة كئيبة، وكأنها متزامنة مع سحب مشابهة تطفو على البلد كلِّه، بسبب تراكم المشاكل التي صنعها الإرهاب والاحتلال وأخطاء الطبقة السياسيّة الجديدة وصِدَام المجتمع مع نفسه على مدى عشر سنوات.

وفي تلك الفترة تلقى اتصالاً هاتفياً ما بعد منتصف الليل من دكتور واصف. لم يكنْ سكراناً، ولكن الكلام الذي تحدّث به هو كلام سكّيرين. قال له بأن البوابات الطبشوريّة المرسومة على الحيطان ستفتح. لقد وجد المفتاح السحري الذي يفتح هذه الأبواب. ثم طلب منه أن يأتي إليه في اليوم التالي كي يريه ما توصّل إليه.

كان اللقاء الأخير مع الدكتور واصف مخيِّباً للآمال. بدا مشعثاً لم يغيّر ملابسه التي ينام فيها، وكشف لعلي عن التقارير الطبيّة الأخيرة التي حدَّدت إصابته بسرطان الكبد. مَرَّ سريعاً على تطورات وضعه الصحي، واستغرق مثل ممسوس بالحديث عن الجَرَّة الفخاريّة والنقوش السُّومريَّة والكلمات المسماريّة التي استطاع فكَّ حروفها، وأخذت منه وقتاً طويلاً حتى فهم أنَّ ما فيها هو تعويذة تتعلَّق بالانتقال ما بين أبعاد حيوات موازية.

رجلٌ عقلانيٌّ، يمتدح الآخرون رجاحةَ عقله، انتهى وهو يعبر سنَّ السبعين إلى حالة جنون أكيدة. حتى أن أخاه الصغير رافد قاطعه، بعد أن قاوم دكتور واصف وبشدَّة فكرة وضعه في مستشفى أو دارٍ للعجزة في لبنان أو نيقوسيا، حيث يملك رافد عقارات هناك.

ـ هذه نسخة من التعويذات السبع. احتفظ بها. ربما تُغيِّر رأيك.

قال الدكتور واصف، وهو يدفع الدفتر الجلدي الصغير برفقٍ حتى مسَّ يد علي المسترخية على الطاولة. كان مُصرَّاً على إقناع صديقه الشاب. وشعر علي بالتعاطف معه، وهو يراه بحال مزرية، وكأنه شبح رجل ميت. نحيفاً أكثر من المعتاد ببشرة باهتة وعينين جاحظتين تغيّر لون بياضهما، وشاربه الانشتايني يتهدَّل على جانبي فمه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أعرف بأن المتبقّي من حياتي في كلّ الأحوال شحيحٌ جداً. . ربما هي في كلّ النسخ السبع من حيواتي مجرد أيام معدودة. ولكني أرغب بنهاية مختلفة.

قال الدكتور واصف بصوت مرتج، وهو يرمي بصره دون تعيين باتّجاه الأشجار في حديقته. ثم يلتفت إلى صديقه الشاب ويمسك بيده ويضغط عليها بما لديه من طاقة، وكأنه يحاول ترسيخ كلماته التالية بقوّة أكبر في مسامع علي:

ـ أنت لا تعرف أنني في عشرينياتي جرّبت الانتحار لمرّتين وفشلت، واحدة من هذه المحاولات كانت بإلقاء نفسي في نهر الفولغا في يوم جليدي. لربما لو نجحت الآن بالقيام بأمر يسعدك، سأشعر بدوري بأني نجحت. وأنني سعيد. أنت أمامك حياة كاملة لتعيشها. أن تعيش يا صديقي هو آخر أمنية حقيقيّة عندي.

ـ ٧ ـ

توقّف التدفُّق بشريط الذكريات الحزينة عن العجوز الميت حين سَمِعَ علي رنين هاتفه المحمول. كان واقفاً في الممرِّ خارج غرفته ينظر من الشّباك إلى حديقة بيت مجاور ويُدخِّن بهدوء. عاد ليرفع هاتفه فوجد على شاشته رقماً غير مسجّل عنده. فتح الإتصال وسمع صوتاً مألوفاً. تحدّث الصوت ببضع كلمات كانت كافيةً لأن يتعرَّف علي عليه بيسر وسهولة، إنه الدكتور واصف.

ـ ها يا ولد. . كنت مؤمناً بأنك ستلحق بي؟ كم أنا مسرورٌ الآن. لقد نجحتَ أخيراً بالعبور من باب الطباشير.

الفصل السادس

جَرَّةُ التَّعَاوِيذ

ـ ١ ـ

لم يحدث الكثير منذ أن أخبره الصوت الضاحك عبر الهاتف أن حياته قد تغيّرت. لقد انتقل عبر الباب الطباشيري من عالمه الأول إلى آخر جديد ومختلف. يحدث هذا الأمر تحديداً خلال النوم، بعد أن تكون قد قرأت التعويذات السُّومريَّة السبعة، وبما أن علي قرأ هذه التعويذات مراراً أمام مايكرفون برنامجه الإذاعي الليلي، وبما أنه دخل بعدها في غيبوبة عميقة، فقد تحقّق الانتقال الذي تحدّث عنه الدكتور واصف. أليس كذلك؟!

لا يبدو علي، وبعد مرور أكثر من أسبوع على خروجه من المستشفى أنه متأكّد من شيء، فما عدا حسَّ المراجعة الذي هيمن عليه، وتأنيب الضمير من أجل الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها فإنه لم يَرَ شيئاً مختلفاً في «حياته الجديدة». ولم تُتَحْ له فرصة بعد ليرى معالم الحياة في الخارج كي يتأكّد من التغيّرات المفترضة. إنه مقيّد الحركة، أولاً بسبب وهن الإصابة التي ما زالت طريّة في رأسه المغطّى بالأربطة الطبيّة، وثانياً لأن عمّار لم يكن يسمح له بالخروج من البيت. كان يجلب له السجائر، وايَّ شيء يريده، ما عدا المشروبات الكحوليّة طبعاً التي لم يُكَلِّف علي نفسه عناء طلبها أصلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان عمّار مؤرّقاً بفكرة التعرُّف على الجُناة الذين أطلقوا النيران على أخيه، ومن يقف خلفهم. أنفق وقتاً كثيراً واتصل بكلٍّ أصدقائه ومعارفهم المتنفذين في دوائر الحكومة، وجسَّ نبض أفراد نشطاء في جماعات مسلَّحة. كان أقرب من علي إلى حركة الشارع ويستطيع الغوص فيه بسهولة. ظلَّ مشغولاً بهذه القصّة وقتاً طويلاً حتى وصل إلى طريق مسدودة. هناك العشرات من العصابات التي يمكن أن تقتل لهدف عقائدي أو لأنها تتلقّى المال من طرف مجهول. والشيء الذي كان يُخيف عمّار أنْه لا ضمانات بعدم تكرُّر الحادثة، كما أنه يعرف جيداً عدم واقعيّة فكرة أن يبقى علي حبيس غرفته القديمة ببيت العائلة ولا يخرج منها أبداً.

ـ لا أريدك أن تخرج من باب البيت، وإن كان ولا بدّ فاخرج من البلد.. ألست تملك جوازاً؟ سافر وهاجر وأنا أساعدك، فقط حتى أضمن أنك حي وغير مهدد هنا.

قال عمّار وهو يشارك أخيه ذات مساء فاتر الحرارة شُرْبَ قدحين من الككاو الساخن أعدته زوجته، ويتابعان الأخبار على القنوات الفضائيّة، من دون رغبة فعلية لدى علي. فهو ما وصل سابقاً إلى مرحلة الشتائم إلا ليأسه التام من التحليلات ومتابعة المواقف والأحداث التي صارت مكرّرة وتستنسخ نفسها بشكلٍ يسبِّب آلاماً عصبية.

ـ إلى أين أذهب في الخارج؟ كيف أعيش؟

ردَّ علي بنبرة يائسة، على الرغم من أنه مع نفسه يعرف أن السفر والهرب من البلد هو حلٌّ لمن لا حلَّ له، وليس عليه أن يستبعده من ذهنه تماماً، إلا أنه يشعر بأن هذا الخيار يضعه في موقف الهزيمة، كما أن دافعيته القديمة للهجرة والسفر أيام التسعينيات تغيّرت كثيراً

وكأنه فقد حسَّ المغامرة أو شعر أن الزمن والأحداث الكثيرة التي جرت دفعته لتجاوز هذه الفكرة.

منذ أن خرج من المستشفى ظلَّ يشغل وقته بالقراءة، والاستغراق بالنوم الكثير، وكأنه يعوِّض نقصاً متراكماً. ينزل أحياناً ليجلس مع عائلة أخيه، أو يساعدهم ببعض الشؤون، ثم يتابع مع أخيه مضطراً لساعة أو ساعتين الأخبار على التلفزيون، ويشاركه التعليق على أهمِّ ما فيها.

كانت الأزمة السياسية على حالها، ولا يبدو أن هناك اتفاقاً على تحديد اسم رئيس وزراء جديد بديلاً عن المتنهية ولايته المتشبِّث بحقِّه الدستوري، كما يرى، في شغل هذا المنصب لولاية ثالثة. القصّة كلُّها لا تستحق من علي أن يتابعها، الخراب يتناسل، هكذا ظلَّ يكرِّر على مسامع أخيه، هو كان يشتم كنوعٍ من الصراخ وطلب النجدة من المجهول أو أيِّ سلطة خارج القوانين الصلبة التي تتحكَّم برقبة العالم من حولنا، والتي قادت إلى هذا الخراب المتناسل.

في النهاية تزايد الضيق عند علي. لم يتعوّد على هذا السجن، ولم يقضِ سابقاً وقتاً طويلاً كهذا وجهاً لوجه مع أخيه عمّار، إنهما مختلفان، ولا يستطيع علي أن يهادنه طويلاً. طلب من أخيه أن يشاهد الأخبار في المرّة القادمة على التلفزيون مع زوجته وأطفاله في صالة البيت، فهو يشعر بالصداع بسبب الإصابة كما ادَّعى أمامه، ووضعه النفسي لا يساعده على متابعة التلفزيون لوقت طويل. وحين رأى أن أخاه تَقَبَّلَ هذا الأمر تشجَّع ليخبره بأنه سيخرج غداً ليذهب إلى شقته. لا يوجد ما يدعوه للقلق. سيتخفَّى أو يأخذ سيارة أجرة من باب البيت هنا حتى باب العمارة التي فيها شقّته. سيعمل ما بوسعه حتى لا ينتبه لوجوده أحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢ -

لم تمرّ سوى دقائق معدودة على مغادرة عمّار وعودة علي لاستغراقه بالقراءة، حتى رجع ليخبره بالحدث الصادم:

- افتح التلفزيون واسمع. هناك خبرٌ عن اقتحام للمنطقة الخضراء.

لم يردَّ علي بشيء، فرفع عمّار الريموت وفتح التلفزيون، وصار يُقلّب بالقنوات وجلس يتابع مع علي ما تتناقله القنوات الفضائيّة. وبعد نصف ساعة من التدقيق في نشرات الأخبار وعواجلها لم يقفوا على معلومات كثيرة. هناك مواجهات، وقذائف انطلقت من مكان مجهول باتجاه المنطقة الخضراء.

- لا . . انقلاب. . الجيش يقوم بانقلاب عسكري، وقوات حفظ النظام وحمايات المنطقة الخضراء تواجههم الآن.

قال عمّار مؤكداً ما سمعه من أحد المراسلين.

نفث علي دخان سيجارته ثم أكّد بنبرة العالم الخبير:

- نعم، أياً كان سينتهي كلُّ شيء في الصباح. أيُّ أحمق يقوم بهذه الفعلة الآن؟!

- اللّه يبشرك بالخير. . ما بينا حيل تشتعل بغداد من جديد. شغلي ورزقي وديون العالم، وين انطي وجهي اذا تنسد الشوارع لو تصير مواجهات.

ردَّ عمّار مرتاحاً للثقة التي بدت في كلام أخيه. ولكن المواجهات لم تنتهِ، وأعلن في وقت قبيل الفجر، اثناء ما كان علي وعمّار نائمين، حالة الطوارئ. ويبدو أن جهات سياسية استدعت فصائلها المسلَّحة إلى بغداد على وجه السرعة، لإنقاذ «الدولة» كما قالوا.

صباح اليوم التالي بدت الشوارع شبه خالية، والدبابات تقف في الساحات وتمنع مرور السيارات. وفي مناطق أخرى كان هناك انتشار كثيف للميليشيات. ثم قبل نهاية اليوم الثاني حدثت ثلاثة انفجارات بعجلات ملغومة لم يعرف أحدٌ كيف دخلت ومن الذي يقف وراءها. ومن حسن الحظ أن أغلب الناس التزموا بيوتهم، ولم يخرجوا، فلم تحدث خسائر كبيرة.

كان عمّار يُوَلْوِل في صالة بيته. لديه أموالٌ كان يفترض أن يسحبها من المصرف اليوم. وهناك طلبيات على بضائع تدخل شاحناتها إلى بغداد في اليوم التالي. كان يثرثر بكلام كثير، ولم ترد عليه زوجته ولا أطفاله بشيء، خشية أن يتحوّل غضبه باتجاههم.

أمّا علي، فظلَّ في غرفته يتابع القنوات التلفزيونيّة، ويحاول أن يفهم ما يجري. ثم انقطع التيار الكهربائي الوطني فجأة، فساد الظلام في البيت. ولم يشغّل عامل المولدة الأهليّة الكهرباء إلا بعد نصف ساعة.

ـ ٣ ـ

قبيل منتصف ليل اليوم الثاني. نقلت الفضائيات مؤتمراً صحفياً من قلب المنطقة الخضراء، وفي المكان المعتاد الذي يقف فيه المسؤولون الكبار أمام الصحفيين، ومنهم رئيس الوزراء المنتهية ولايته. بينما يلوح في العمق علمان عراقيان على جانبي الكادر.

كانت المنصّة الخشبية خالية، ما سوى مايكرفونات الفضائيات التي تزاحمت بجوار بعض. ثم بعد أقل من دقيقة دخلت مجموعة ضبّاط برتب عسكرية متفاوتة. ووقفوا كلهم أمام المنصّة، وفي وسطهم ضابط أربعيني برتبة عقيد، بشاربين كثّين أسودين ووجه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ممتلئ. أخرج ورقة وصار يقرأ بصوت مرتجّ لا يُخفي انفعاله وارتباكه.

الشيء الذي فاجأ علي أكثر أن وجه الضابط المرتبك ذي الشارب السميك كان مألوفاً. إنه صديقه القديم عبد العظيم حامد. يبدو أكبر بهيئة متعبة وجسد ممتلئ، ولكنه هو. وصوته هذا ذو القرار والقراءة المكسّرة للنصوص العربيّة الفصحى، هي ذاتها. إنه صاحبه القديم الغاضب الممتعض، الذي لم يكن يعجبه شيءٌ، وها هو على ما يبدو يسهم في تغيير ما لا يعجبه بحركة مجنونة.

تحدّث البيان القصير عن الاختناق السياسي، وعن الاحزاب السياسية التي تحوّلت إلى عصابات نهبت البلد وسرقته، عن الطائفية وارتهان العراق إلى محاور اقليميّة. عن الحرب ضد الارهاب الذي انتزع ثلث أراضي العراق وأقام دولته فيها.

انتقد البيان الجميع تقريباً، ولكنه لم يكشف عن الخطط التي سيتبعها ذوو الرتب العسكرية لتصحيح الأوضاع. في الحقيقة حتى سائق الأجرة وبائع الخضرة والمنظِّف في الشارع والحمّال في الشورجة يستطيع الحديث بكلام مشابه وتوجيه انتقادات لاذعة. ولكن حين تسأله عن الحلِّ، سيعطيك حلولاً خياليّة أو غير واقعيّة. وهذه الحلول لو تمَّ تنفيذها فإنها، كما تخبرنا التجربة السياسية في العراق طوال قرن، ستعمّق المشاكل الموجودة، وربما تضيف إليها قائمة جديدة.

يا اللّه.. شعر علي بأن رأسه يدور، وانه بحاجة فورية لمشروب. ولكن هناك حظر تجوال، وأخوه في الطابق الأرضي يغلي الآن ويشتم، وستكون حماقة أن يطلب منه المجازفة للخروج بسيارته من اجل جلب مشروب!

إنه مجرد كابوس، آه.. سينام ويصحو غداً ليجد نفسه في سرير المستشفى، وحين يتصل تلفونياً سيخبره زملاؤه بأن قرار فصله من العمل منذ أسبوعين ما زال سارياً وعليه أن يدبِّر أموره ويجد مصدر رزق آخر سريعاً. سيتأكّد أن صديقه العجوز واصف مازال تحت التراب، ولا أحد يردُّ على هاتفه لأنِ عائلته أتلفت، بعد وفاته، شريحة الاتصال الخاصة به.

ـ ٤ ـ

أطفأ التلفزيون، وتناوم فعلاً. ظلَّ على هذه الحال عدَّة دقائق، محاولاً إفراغ رأسه من أيِّ شيء. الوصول إلى حالة من التصفير التام، ولكن اتصالاً جاء على هاتفه. رقم غريب آخر. ردّ عليه فسمع صوت الدكتور واصف يتحدث إليه:

ـ ها يا ولد.. قل لي الحمدللّه عَ السلامة. كنت معتقلاً بمطار بغداد من ليلة أمس. ما الذي يجري؟

ـ هل رجعت إلى بغداد؟

ـ انا الآن في بيتي. كانت ليلة سيئة جداً بالمطار. واليوم ظهراً أفرجوا عنّا. ووصلت بصعوبة إلى بيتي.

ـ حمدللّه ع السلامة.

ـ نحتاج أن نلتقي.. هل تقدر على السير بقدميك؟

ـ نعم.

ـ او كي.. اتصل بك غداً اذا رفعوا حظر التجوال.

عاد عمّار إليه مع صينيّة أقداح ككاو ساخن أعدته زوجته، وهذه إشارة أن عمّار يستعد لجولة حوار طويلة مع علي. والسبب الجوهري في ذلك أنه غير قادر على الخروج بسيارته للقاء أصدقائه المعتادين،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والسهر معهم لساعة أو ساعتين، وإفراغ في صدره من ثرثرات. هذه الليلة سيؤدي علي هذا الدور بالرغم منه.

استمرَّ عمّار في محاولته تحليل ما يجري، وينظر بين فينة وأخرى إلى علي كي يؤكّد له ما توصل إليه من استنتاجات أو يُعارض، ولكن علي لم يكنْ متحمّساً للغوص والتحليل. وكان يردُّ عليه بالقليل من الكلام، ويستمرُّ بالنظر إلى شاشة التلفزيون لمتابعة أيِّ جديد يطرأ.

في اليوم التالي كانت هناك مواجهات في الحي السكني بين عناصر من ميليشيا لها نفوذ واسع مع قوات الجيش، استمرَّت إلى ما بعد الظهر، ثم انقطع إطلاق الرصاص في الشوارع الفارغة.

في اليوم الثالث كان عناصر الميليشيا يُقيمون سيطرات ويُفتشون المارّة القليلين الذاهبين للتبضُّع من محال مجاورة. ويبدو أن الجيش انسحب وترك حيازة المنطقة في أيديهم، إمّا تراضياً أو بسبب أولويات أمنية أعلى في مناطق أخرى، أو لأيّ سبب آخر مجهول لا يعرفه أحد.

كانت الفعالية الأساسية التي داوم عليها علي خلال هذه الفترة هي المشي داخل الغرفة، وتمرين قدميه على السير. كانت لديه رغبة بالخروج من البيت حالما يتمُّ رفع أو تخفيف حظر التجوال، وهذا ما حصل بعد خمسة أيام.

كانت هناك تطورات كثيرة نقلتها شاشات التلفزيون، غير أن علي ظلَّ مشغول البال بشأن محدَّد. وبدا في كلامه مع أخيه عمّار وكأنّه يعرف ما سيحدث لاحقاً:

ـ إما الاميركان موافقون على هذه الخطوة. أو سيضربونه بقسوة، وترجع شلّة السفلة من جديد.

ـ ٥ ـ

خرج علي من بيت أخيه أخيراً. واستقلَّ سيارة أجرة إلى حيث شقته. وفي الطريق اخترق العديد من السيطرات التي أقامتها ميليشيات عديدة. وحتى أمام العمارة التي يقيم فيها كان هناك عناصر من الميليشيا، استوقفوه وسألوه عن اسمه ومهنته والى أين هو ذاهب.

صعد الدرج ببطء حتى شقته وفتحها. كان التراب يُغطي الأثاث والطاولات وكلَّ شيء، بسبب شُباك تُركَ مفتوحاً على ما يبدو. لم يكن يتوقَّع وهو يخرج من شقته آخر مرّة، أنه لن يعود إليها بعد أسابيع.

استغرق في البحث عن الدفتر ذي الجلد الأسود. لم يترك شبراً في الشقة لم يبحث فيه. ولكنه لم يعثر عليه. كان قد اختفى لسبب من الأسباب. لم يكن يبدو أن الشقة قد تعرَّضت لاقتحام. ولم يختفِ منها شيءٌ. كان الدفتر غير موجود، وبعد ساعة اقتنع بأنه لن يعثر عليه أبداً.

قَلَّب في أرقام تلفونه وضرب على الرقم الأخير، مرّت نصف دقيقة قبل أن يأتي الصوت من الجهة الثانية.

ـ ها يا ولد.. لازم تريد تطلع من البيت؟

ـ آني طالع أصلاً.. وين ممكن نلتقي؟

أخبره الدكتور بأنه ملزم بتقضية بعض الأعمال خلال الساعتين القادمتين، وحدّد له موعداً ومكاناً محدّداً للقاء. خرج علي من شقته، وفي ذهنه أن يعود إلى بيت أخيه قبل مغيب الشمس تحسباً لأيّ طارئ. أخذ سيارة تكسي إلى مقر الإذاعة التي يعمل بها. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكن هناك تغييرات واضحة. الأجواء نفسها والموظفون الذين حيّوه وأبدوا سعادتهم أنه قام من الإصابة بصحة جيدة. لكنه لم يعثر على المدير ولا أيٍّ من زملائه المقربين. قالوا له بأن أجواء حظر التجوال أربكت العمل في الإذاعة.

ـ أنت فيسلوفنا. أخبرنا بما سيحدث.

قال أحد زملائه بنبرة جادة، ليس فيها طيف مزاح.

ـ فيلسوفكم يعني شنو؟

ـ أها.. هذا أنت يمكن الضربة أثرت على راسك. أنت اصلاً برنامجك الليلي اسمه «الفلسفة والحياة».

ـ مو برنامج سياسي وشتائم؟

ضحك الزميل وضحك عامل الخدمة الذي وضع الشاي أمامهم. تجوّل، بعد شرب الشاي، في أرجاء الإذاعة، دخل إلى الاستوديو ولم يجد مهندس الصوت الذي يرافقه عادةً في برنامجه الليلي، وجد شاباً آخر لا يعرفه، ثم حين أراد العودة إلى الطابق الأرضي، صادفه زميل آخر، أخذه جانباً وكأنّه يُسرَّه سرّاً وقال له:

ـ أريد اقول شي قبل ما تطلع.. اكو ضباط يتصلون علينا صارلهم يومين. رادوا رقم تلفونك، واحنه ما انطيناهم. قلنا لهم.. ما نعرف رقمه.

ـ منو ذولي؟

ـ ما نعرف. بس خفنا لا يكون اكو شي مو زين. لهذا ما حبينا نتصرّف إلى ان نشوفك، واني ما حبيت اتصل بيك لأن قلت ربما مريض وتعبان. وشبكات المحمول كانت سيئة، ومن انقطوا عن الاتصالات تجاهلنا الموضوع.

صَفَنَ لعدَّة ثوانٍ، ثم نظر إلى ساعته، وشعر بأن موعده مع الدكتور واصف يقترب. لذلك غادر الاذاعة، ومن شارع السعدون استقلَّ سيارة تكسي إلى حي المنصور، إلى كافتريا صيفيّة جلس فيها مع الدكتور واصف سابقاً بضعة مرّات.

صادفه عند المدخل وهو يبدو نشطاً وبصحة جيدة. ارتقيا إلى الطابق الثاني من الكافتريا بسبب برودة الجو في الخارج. لم يكن دكتور واصف هو نفسه الذي يعرفه علي. كان مورّد الوجه ويمكن أن يبدو مائلاً إلى السمنة، حيويّاً بحسٍّ مرحٍ عالٍ. كان نسخة أخرى عن الدكتور واصف بشكل فعلي.

قال له إنه متزوّج منذ ثلاثين سنة من أميرة الحسني، زميلته السابقة في دائرة الآثار ولديه ولدان، يعيشان خارج العراق منذ زمن، وكان مع زوجته في عمّان مؤخراً بما يشبه الإجازة مع الأولاد، وحين عادا بالطائرة إلى بغداد لم يعرف أحد أن هناك انقلاباً عسكرياً يجري في ذلك النهار. الأخبار أعلنت عن الاضطرابات الأمنية بجوار المنطقة الخضراء مساءً. أما في الساعة الرابعة عصراً حين وصلت طائرة الدكتور واصف إلى مطار بغداد، كانت الاضطرابات قد بدأت فعلاً، وأغلق الجيش المطار وسبب إرباكاً في السيطرة على الرحلات القادمة إلى مطار بغداد. وتمَّ حجز الركاب بسبب قطع الشوارع كلّها التي تربط المطار ببقيّة أحياء العاصمة، وعلموا فيما بعد أن السبب هو الخشية من هروب أحد من السياسيين الكبار على متن طائراتهم الخاصة.

إنه هنا في البعد الثاني من حياته لا يُعاني من أيِّ أمراض، وما زال بصحة جيدة، ولديه مؤلفات وكتب حول الآثار وعلم التنقيب. يُدرِّس في الجامعة ويُقدِّم محاضرات في أماكن عديدة، ويحضر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مؤتمرات دوليّة عن الآثار العراقيّة. باختصار؛ حياته مملوءةٌ ومتحركة، ولا تشبه كثيراً النسخة التي تركها في ذلك العالم البائس.

ـ ولكني لا أرى أيّ تغيير كبير بما يخصّني؟!

ـ ستعرف هذا بالتدريج. الانقلاب العسكري الذي حصل أربك الأجواء، ولكنك ستعرف كيف أن حياتك هنا مختلفة، وأؤكّد لك، أنها ربما أحسن. تذكّر مضمون التعويذة السادسة «لا تصنع للمجهول إلهاً». إبقَ مع المعلومِ ولا تشغل نفسك كثيراً بما لا تعرفه ولم يحدث بعد.

ـ نعم. سأبقى كذلك، ليس لديّ شيء آخر على أيِّ حال.

وضعت نادلةٌ شابةٌ فنجاني قهوة، ثم غادرت. وظلَّ الدكتور واصف يرشف بهدوء وينظر من وراء زجاج الكافتريا إلى الشارع. كان قد رَكَنَ سيارته على الرصيف أمام الكافتريا، ويبدو أن لديه أشياءً تشغله، ربما مشاوير أو متعلِّقات. لن يطول هذا اللقاء كثيراً، وهذه ليست عادة الدكتور واصف فيما سبق.

ـ هناك مشكلة تخصُّك يا علي.

قال الدكتور واصف وهو يُنهي فنجانه.

ـ أنت في الحياة السابقة دخلت في غيبوبة، ولم تنم. التعويذات السبع، تفتح لك باباً داخل الحلُم تدخل منه لتنتقل إلى عالم آخر، وحالما تصحو في العالم الأول، فإن الباب سينغلق ثانيةً. وتنفصل الحياتان عن بعضهما، حياتك الأولى عن الثانية.

ـ نعم.

ـ أنت، كما قلت، دخلت في غيبوبة. انتقلت عبر بوابة الطباشير من ذلك العالم إلى عالمنا هذا. ولكنك لم تصحُ بعد هناك. ما زالت البوابة الطباشيريّة مفتوحةً ما بين العالمين. وأشكُّ في أنها مفتوحةً ما

بين العوالم الأخرى كلّها. أنت هنا أمامي، ولكنك في أيٍّ لحظة يمكن أن تأخذك هبّة ريح عبر بوابة غير محدَّدة وتنتقل إلى عالم ثالث أو رابع وهكذا في حالةٍ تشبه الفوضى ما بين العوالم.

ظلَّ علي واجماً وهو يحاول أن يستوعب المشكلة التي هو فيها.

ـ كلُّ ذلك بسبب الغيبوبة؟

ـ نعم. يجب أن تصحو حتى ينغلق الباب الطباشيري ثانيةً. وإذا حدث ومتّ في غيبوبتك، أو جرى فصل الأجهزة عنك بخيار القتل الرحيم، فلن تعود إلى حياتك الأولى أبداً، أو ربما ستموت كلُّ نسخ حيواتك الستة الأخرى أيضاً.

ـ يا اللّه.. شنو هالكلام دكتور؟

ـ الخطر الأكبر هو أنك ربما تعودُ بشكلٍ اعتباطيٍّ إلى حياتك الأولى وتحلُّ في جسدك المغمى عليه. ولن تملك حينها خيار قراءة التعويذات السبع من جديد. ستظلُّ مسجوناً هناك.

نهض الدكتور واصف مثلما توقّع علي، وقال له بأنه ملزم بشراء بعض الأشياء للبيت، ولكنهما سيظلّان على تواصل، وأنه سيبذل جهده لإيجاد حلٍّ لهذه المشكلة.

غادر الدكتور وبقي علي جالساً وحده في الكافتريا ما يُقارب الساعة. يُقَلّب كلام الدكتور في رأسه، ويحاول العثور على حلٍّ. لقد ظنَّ حتى الساعات القليلة الماضية أنه يعيش في عالمه الحقيقي، وكلُّ ما كان يمرُّ بذهنه عن مرض الدكتور واصف وموته والإطلاقة الناريّة وسط الشارع وكلُّ هذه التفاصيل هي مجرد أضغاث أحلام. لكن الدكتور واصف حَطَّمَ له كلَّ هذه الافتراضات في أقل من ساعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٦ ـ

عاد علي إلى بيت أخيه عمّار، وعند رأس الشارع شاهد أن نقطة التفتيش التي أقامتها الميليشيات قد غادرت، وتواجدت نقطة عسكريّة نظاميّة في محلها، ثم حين وصل إلى البيت، شاهد أخاه واقفاً بالباب والقلق بادٍ عليه.

ـ ماذا هناك؟

ـ جاؤوا يسألون عنك. وطلبوا رقم هاتفك. بصراحة أعطيتهم الرقم. لا تزعل منّي.

ـ من الذي سأل عني؟

ـ الجيش. جاء ملازم أول وسأل عن محل إقامتك.

تعشَّى مع عائلة أخيه، ثم صعد إلى غرفته، وانطرح على الفراش. شعر بأن بدنه لم يتحمّل هذا التجوال البسيط. ربما بسبب حاجته إلى وقت نقاهة أطول، أو لأنه تعوّد على الكسل.

كان قد أخذ في طريق عودته، من مخزن سرّي يعرفه، قنينة ويسكي بلاك ليبل، أخفاها في كيس أسود للتسوّق. وحينما إطمأنَّ أن أخاه لن يصعد اليه اليوم ليناقش معه الأوضاع السياسية الطارئة، أغلق باب الغرفة وظلَّ يسكب لنفسه في كأس صغيرة. شرب على مهلٍ مستعيداً جزءاً من كلام الدكتور واصف. لقد استسلم الآن تماماً إلى هذا الخيال الذي تحوّل إلى واقع يعيشه. ووثق تماماً بكلام صديقه العجوز. أمّا المشكلة التي طرحها أمامه بشأن موته المحتمل في النسخ السبع، فلم يجد في نفسه أيَّ إمكانية للعثور على حلٍّ لها الآن. ربما غداً أو بعد غد. ربما حين يسكر بشكل جيد وعلى عدّة ليالٍ يستطيع حينها أن يعثر على الحلِّ التائه في مكان ما.

لم يكن قد دخل إلى السكر بعد، حين رَنَّ هاتفه، ووجد رقماً

غريباً، وحين فتحه، سمع صوت قرار مرتجاً ومرتبكاً، مع ضحكات قصيرة مكتومة:

- شلونك ولك.

كان صوت عبد العظيم، صديقه القديم. والذي افترق عنه قرابة العشر سنوات. لم يكونا، كما في النسخة الحياتية الأولى يتواصلان. لم يكن يعرف ما الذي حدث معه، واستغرب حين شاهده على شاشة التلفزيون، كانت هناك أحداث كثيرة على ما يبدو قادت عبد العظيم، من تلك الهيئة المرتبكة الغاضبة، إلى الرتب العسكرية والوجه الحليق واصدار البيانات التي أربكت وسائل الإعلام كلِّها.

- بصعوبة عثرت عليك ولك.

قال عبد العظيم ثم أكمل:

- أني أحتاجك ولك. . شغلي يتطلب أجيب يمي ناس أثق بيهم.

- وأنت شجاي تسوي هسه يعني؟

- آني الزعيم هسه. . ولك.

- واني شني اللي اسويه مثلاً يا سيادة الزعيم؟

- أنت صديقي الفيلسوف. أنت عندك كلَّ الحلول. أذكى واحد شفته بحياتي.

ظلَّ يثرثر معه لنصف ساعة تقريباً، ثم انتهى الاتصال باتفاق أن تأتي سيارة خاصة نهار الغد لأخذ علي إلى حيث يقيم الزعيم داخل الفوضى الهائلة التي أسهم في صنعها.

تَقَبَّلَ علي هذه الأحداث المفاجئة، لأن كلَّ شيءٍ كان بالوهج نفسه، حتى عادت عيناه لا تريان شيئاً ما بوضوح، بسبب كثرة الأضواء الكاشفة على وجهه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٧ -

أكمل شربه، وصار يستعيد أجزاءً من كلام العجوز واصف. لأنه يريد استيعابه أكثر. وحضرت في ذهنه فوراً صورة عن الحيوانات المجترة، التي تستعيد ما أكلته كي تمضغه بشكل جيد. إنه في مشكلة حقيقيّة. ربما يموت الآن هكذا فجأةً من دون سبب طبي معقول، وهو يرفع الكأس إلى فمه. ربما لن يصحو غداً، وينتقل إلى عالم ثالث أو رابع. كان قد سأل دكتور واصف عن الدفتر المجلد الأسود الذي يحوي التعويذات السبع. ربما بإعادة قراءتها يمكن أن يعثر على حلٍّ. ماذا لو أقنع أحداً ما بقراءة التعويذات ليذهب إلى حياته الأولى ويساعده على الاستيقاظ من الغيبوبة أو أيّ حلٍّ آخر. فاجأه ردُّ الدكتور:

ـ هنا في هذا العالم أنا لم أعطك التعويذات. لا توجد تعويذات أصلاً يا علي. ما زالت الجَرَّة السُّومريَّة من تل أبو صلابيخ على حالها. لم تُسرق ولم تُكسر. الشيفرة طبعاً موجودة في جدارها الداخلي، ولكنها داخل المتحف وراء زجاج سميك الآن.

الفصل السابع

الضَّابِطُ وَالْفَيلَسوف

- ١ -

في ذلك العالم الأول الذي تركه علي، يقف عمّار أمام جسد أخيه المربوط بالأسلاك والموصولة إلى جهاز تنفّس على سريره داخل المستشفى، ويشعرُ بالأسى. لم يكن يفهم هذا الأخُ جيداً. لم يعرف لماذا كان يتقبَّل أن يكون خاسراً، ولا يقاتل في سبيل حياة جيّدة، حياةٌ معقولة ضمن الحدود المتاحة. هو واثقٌ لو أن قرار الحياة والموت عائدٌ لعلي، لقال بنبرة يائسة: افصلوا هذه الأجهزة عنّي. كلّنا سنموت في النهاية. لا أهمية لسنة أو عشر سنين أو عشرين، قياساً بملايين السنين من عمر الكون التي لم نكن ولن نكون موجودين فيها.

لكن عمّار لا يشبه أخاه. إنه يشكر نعمة الحياة، ويحمد اللّه ألف مرّة خلال اليوم، لأن اللّه يساعده، ويُذلِّل العقبات أمامه، ويجعله يحافظ على بيته ورزقه وتلبية مسؤولياته الاجتماعية.

«علينا أن نعيش داخل أثوابنا التي فُصِّلت لنا» هكذا كان يقول أحياناً. كحالةٍ من التكيّف مع الواقع الذي يعيش فيه.

كان قرار الموت والحياة في يد عمّار الآن. لأول مرّة يحدث لعلي أن يكون قرار موته وحياته في يد شخص واحد وبهذه الطريقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يظنُّ سابقاً، على خلفية الآلام التي سبّبتها له ليلى، أنها هي من أطلقت عليه رصاصة أماتت شهوة الحياة عنده. ثم شعر لاحقاً، بعد بضع سنوات، بأنه يبالغ. لا يمكن لامرأةٍ أن تقتل رجلاً إلا بإرادته. وهذا يعني نوعاً من الانتحار الواعي. وليس غريباً بالنسبة لعلي أن يفكِّر بهذه الطريقة في عقد التسعينيات، فهو كان رئيس جمعيّة المنتحرين الذين لم ينتحروا بعد.

الآن، يصرُّ عمّار، وبكلِّ ما أوتيَ من إرادة وإمكانيات مادية على إبقاء أخيه يتنفَّس. يجب ألّا يموت. من هو حتى يقرِّر موت شخص ما. يختار ساعة ودقيقة معينة لإزهاق روح إنسان، فضلاً عن كون هذا الإنسان أخاه الوحيد.

يجب أن يبقى يتنفَّس، فلربما يطرأُ شيءٌ جديدٌ في الأيام القادمة أو الأسابيع أو الأشهر. ليس مهمّاً الزمن، لا بدَّ أن يحدث شيءٌ، كأنْ يجرِّب الأطباء علاجاً جديداً، أو يأتي طبيب عراقي مغترب ليفحص أخاه ويقرِّر عملية جراحيّة مثلاً، أو يتعافى الجسد من تلقاء نفسه ويفتح علي عينيه في نهاية المطاف.

ـ ٢ ـ

يجلس علي الآن، في عالمه الثاني، أمام عمّار ويتناولان الإفطار معاً، ولا يدور في خَلَدِهِ للحظة أن هذا الرجل يملك أن يُميت نُسَخَ حياته السبع كلِّها، إن قرّر ذلك هناك، في العالم الأول الذي غادره.

لو أخبر أخاه الآن بحكاية التعويذات السبع لضحك عليه بكلِّ تأكيد، وإن لَمَسَ أنه جادٌّ في كلامه، فسيظنُّ به السوء. قد يرى أن

أخاه الأكبر أصيب بلوثة في دماغه. ولا يمكن أن يُجسّر الهوّة بالفهم بينهما مهما فعل.

كانت الأحداث تتسارع. فخلال بضعة أيام تولّى ضباط صغار المسؤولية المباشرة عن الوزارات، ليقوموا بوظائف الوزراء، وبالارتباط بوكلاء الوزارات. ويتصل هؤلاء الضباط بمجلس الضباط الأعلى الذي يُمثِّل خليّةَ القرار السياسي، ويرأس هذا المجلس، وبالمصادفة البحتة، العقيد عبد العظيم حامد محمد.

جرى حَلُّ البرلمان ومجلسي الرئاسة والوزراء والهيئات الاستشارية المرتبطة بها، وتمَّ حجز الأملاك والأموال، وأودع الجميع، بما فيهم من رجال معمَّمين ينظر إليهم الناس غالباً بقدسيّة وخشية، في سجن المطار، تحت إشراف وإدارة فرقة عسكرية كاملة، وبحراسات مشدّدة، بانتظار البتّ بمصيرهم لاحقاً.

كان الشيء الواضح بالنسبة لمجلس الضباط هو ما يريدون إزاحته، وهذا ما حصل بسهولة ودون عناء كبير في بضعة أيام، أمّا ما يريدون القيام به كبديل، فلم يكنْ واضحاً بعد، حتى في التصريحات الصحفيّة لم يكنْ الناطق الاعلامي باسم مجلس الضباط يذكر تفاصيل كثيرة. ثم، وبحركة مدروسة بعناية، توارى الضباط لاحقاً عن وسائل الإعلام، وألغوا هذه التقاليد المسرحيّة المتعلِّقة بالمؤتمرات الصحفيّة، وضخّ بيانات وتصريحات تُحرِّك العمل اليومي للصحف والفضائيات وتزيد من تشويش المواطنين ولا تُقدِّم خدمة حقيقيّة.

كانت البيانات الصادرة عن الدول الكبرى وممثلي الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى واضحة ومتوقعة بهذا الشأن: عدم القبول بالواقع الذي فرضه الانقلاب العسكري، وضرورة عودة الحياة الدستوريّة والبرلمانيّة للبلد، وإلا فإن العراق معرّضٌ لعقوبات دوليّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجبر الانقلابيين على الرضوخ للإرادة الدوليّة، ولإرادة الشعب العراقي الذي انتخب عبر صناديق الاقتراع ممثليه الشرعيين في الحكومة والبرلمان.

ولكن هذه البيانات لم تلقَ صدى قويّاً لدى الشارع. فكان الناس وكأنهم ملُّوا منها، أو ملُّوا من الشرعيّات التي حوّلت البلد خلال أكثر من عقد إلى فيلم رعب طويل. وصار جزءٌ من المواطنين يعلن عن فرحه بشكل علني من خلال الرقص بالشوارع كلما مرَّت دبابة أو عجلة عسكرية. هذا الانقلاب كان يرغب به الناس على ما يبدو. وهو بهذا الشكل لم يكنْ انقلاباً، وإنما ذراعٌ لإرادة الشعب الخفيّة؛ كان ثورةً.

هكذا على الأقل يعتقد مجلس الضباط، بل ويؤمنون بشدَّة، ويرون أنهم هم الممثلون الحقيقون للإرادة الشعبية وليس حفنةَ اللصوص هؤلاء الذين خيّروا المواطن ما بين الذئب والضبع، ثم قالوا لهم إنكم اخترتم بحريّة. أيُّ حريّة وضحك على الذقون هذه.

ظلَّ علي في البيت على مدى النهار، منتظراً أن تأتي السيارة الخاصة لنقله إلى مقر عمل «الزعيم» ولكن، لم يأتِ أحد. ومنعته المكابرة من الاتصال على رقم صديقه الذي اتصل به مساء البارحة. سيتركه لشأنه، إن كان يرغب بلقائه فهو موجودٌ ها هنا، ولن يغادر مربع الحركة المعتاد ما بين بيت أخيه وشقته وعمله في الإذاعة.

- ٣ -

عند العصر غيّر ملابسه وخرج، وعند وصوله إلى مسافة قريبة من مبنى الإذاعة المطلِّ على شارع أبي نواس. نزل من سيارة الأجرة بسبب قطع الشارع بمظاهرة على ما يبدو. شاهد جمهرة من الناس

قرب ساحة الفردوس. كانت تظاهرة مؤيدة للانقلابيين. وأثاره أنهم كلهم كانوا يحملون نسخاً بحجم الكفِّ من الدستور العراقي، كانت قد أصدرتها الحكومة قبل بضع سنوات كجزء من التثقيف بالدستور ومواده.

سكب شاب عشريني، يرتدي فانيلة عليها صورة جيفارا، بنزيناً على كومة من صناديق ورقية ممزَّقة. ثم أشعل النيران فيها، وبحركة مسرحيّة رفع نسخة كان يحملها بيده إلى الأعلى، وكأنه يريد من الجميع أن ينتبهوا إلى ما سيفعله. مرَّت لحظات ثم هوى بما في يده إلى النيران وألتهمت ألسنة اللهب سريعاً نسخة الدستور، وبما يشبه إطلاقة البداية في سباق ما، سارع الجميع إلى رمي النسخ التي في أيديهم في دائرة النار، بما يشبه طقساً احتفالياً مثيراً، كان يعني عند علي شيئاً واحداً: الإعلان الرسمي عن الجنون الجماعي.

اذا كان الشعب يفعل بنفسه هكذا، فما الذي سيفعله هؤلاء الضباط الغاضبون يا ترى؟ ظلَّ يفكِّر بهذا المشهد المثير حتى وصل إلى بناية الإذاعة، وهناك في الاستعلامات تفاجأ برؤية شخص لم يتوقَّع رؤيته أبداً.

كانت «بان» عشيقة البنك المركزي جالسةً هناك وهي تضع شالها الطويل الذي تلفُّه على رأسها عدّة مرّات حتى ليبدو وكأنه كُرَةٌ منتفخة حول وجهها. وحالما أبصرته يدخل حتى نهضت من مكانها. كانت تنتظره وتعرف ربما موعد قدومه إلى الإذاعة.

سلَّم عليها، ولم يعرف ما يفعل. هو لم يلتقِ بها في الإذاعة سابقاً. هي تعرف مكان عمله، ولكنهما كانا يتكتَّمان على علاقتهما، ولا يظهران في أماكن عامة معاً. ما الذي جاء بها إلى هنا؟

ـ طلبت رقمك هنا ولم يعطني أيّاه أحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت بانزعاج واضح. وكان على علي، قبل أن يفهم لماذا جاءت وماذا تريد، أن يجد طريقة ما لتأجيل كلّ ذلك حتى يوم آخر. لن يُجري حواراً معها هنا في الاستعلامات، حيث الموظفون من زملائه يدخلون ويخرجون، وموظف الاستعلامات يُنصت. ولن يستطيع أخذها خارجاً. كما أنه يتضايق من اللقاءات من دون مواعيد هكذا.

- وماذا حصل لرقمي عندك؟

عضَّت شفتها السفلى وهي تتملَّى وجهه، ثم أرختها، ورمتْ حسرةً صغيرةً:

- غضبت منك في آخر مرّة. زعلت. كسّرت التلفون والشريحة.

أراد أن يستمرَّ في هذه الحواريّة فيسألها مثلاً: اذا كنت غضبت مني لماذا أنت عائدةٌ الآن. ولكنه شعر بأنه خيار سيئ. سحبها معه إلى خارج البناية وظلَّ يتمشَّى معها قليلاً. تبادلا أرقام الهواتف، وتواعدا في اليوم التالي في شقته. كانت تبدو على شفا البكاء، مع هالةٍ من الشعور بالندم أو الحزن والأسف تحيط بها. لم يفهم تماماً ما يُخالجها من شعور. وأقنع نفسه بأنه سيعرف كلَّ شيءٍ غداً، ومهما كان الذي سيعرفه فهو لا يبدو متعلّقاً بصيغة الحياة الأفضل، التي ادَّعى دكتور واصف أنها موجودة في هذه النسخة من حياة علي.

داخل الإذاعة ظلَّ يتحرَّك بين الغرف، ويجلس بجوار أصدقائه ويتحدّث معهم، حتى جاءه عامل الخدمة ليخبره بأن مدير الإذاعة يطلبه في غرفته.

كانت الإذاعات والصحف والقنوات الفضائيّة العاملة داخل بغداد قد تلقت تعليمات مشدَّدة تتعلَّق بإجراءات الطوارئ المفروضة من قبل مجلس الضباط الأعلى. ويبدو أن مدير الإذاعة يستشعر ضرورة تطبيق

هذه التعليمات بحذافيرها، بل وربما المبالغة في تطبيقها، فإن كانت هذه الرؤوس الكبيرة، حتى من ذوي اللحى والعمائم قد وضعوا في السجن نفسه الذي كان فيه جماعة الخمسة وخمسين من رجالات صدام، فمن السهل على هؤلاء الضباط المجانين تنفيذ إعدام فوري على الرصيف ضد من يخالفهم أو يزعجهم.

لم ينظر علي إلى الموضوع بهذه الصورة. ربما السبب الخفي في عدم شعوره بالتهديد هو الاتصال الهاتفي الذي حصل بينه و«الزعيم». وكون الزعيم أصلاً هو صديقه. لم يخبر مدير الإذاعة بذلك. ولكنه حاول تهدئته وتطمينه أن شيئاً من هذه المخاوف لن يحدث.

- هو يحدث حين يحدث. لا تقل لي لا يحدث. الامر يشبه حين تصدم شخصاً على الرصيف، ثم تنزل وتبقى تَلْطِمُ، وتقول: كيف لم أنتبه له وهو يعبر؟! كان عليك أن تنتبه حبيبي.

لا فائدة. لن يقنع هذا المدير بأيِّ شيء. إنه مجرد أحمق سمين ببدلة فاخرة وضعه مالك الإذاعة المقيم في أميركا بمنصبه هنا بمصادفات غبيّة.

- وما المطلوب مني أستاذ؟

- المطلوب، أن تخفِّف لهجتك في برنامجك الليلي... لا تنتقد أحداً بعد اليوم. كلّ من كنت تنتقدهم في سجن المطار الآن.. بعد شتريد؟!

قال مدير الإذاعة وهو يفرد يديه وكأنه يريد أن يطير.

- اذا لم ننتقد أحداً فلماذا لا نحوّل البرنامج إلى أشعار وغزل وأغاني قديمة؟

- مو لهالدرجة.. بس اللّه استجاب لطلبك. وخلصنا من رؤوس البلاء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وهل هؤلاء الضباط ملائكة؟!

قال علي فنهض مدير الإذاعة في مكانه محتجًّاً.

ـ هذا الكلام بالضبط ما أريد اسمعه من الاذاعة. لا تخليني أزعل عليك علي. أنت صاحب الاذاعة موصيني عليك.

ـ ٤ ـ

خرج من مكتب مدير الإذاعة وهو منزعج. إنه عمله السخيف نفسه الذي تركه في العالم الآخر، لماذا يبدو الآن أكثر سخافة مما كان يشعر به سابقاً!

في غرفة المحرِّرين وجد زملاءه منقسمين في نقاش صاخب. وكانت الطاولة مليئة بأخبار الوكالات:

ـ حكومة إقليم كردستان تطالب المنقلبين على الشرعية بإطلاق سراح الوزراء ونوّاب البرلمان الكرد، وتصرُّ على تطبيق بنود الدستور، وتعتبره نافذاً، وتطالب بحصَّتها من الموازنة العامة.

ـ مرجعيّة النجف تلتزم الصمت، ولم يُعلّق خطيبها المعتمد على حدث الانقلاب العسكري، في خطبة الجمعة الأخيرة، وطالب الناس بالصبر.

ـ إيران ترفض الاعتراف بالتغييرات غير الشرعيّة الحاصلة في العراق.

ـ مجلس التعاون لدول الخليج والجامعة العربية، يطالبون الانقلابيين بموقف حازم ضد التدخلات الايرانية، ويدعون إلى حفظ سلامة أراضي العراق. والعودة إلى «الحضن العربي».

ـ الميليشيات تدير عمليّاً المحافظات الجنوبيّة. بغداد صارت مجرد محافظة الآن بيد الانقلابيين.

كانت النقاشات الحادّة تتصاعد بين الزملاء، مع شايات وأكواب نسكافيه وسجائر، رغم اليافطة التي تُحذِّر من التدخين.

وبعد دقائق دخل مدير الإذاعة إلى الغرفة وعيناه تكادان تَنُطّان من مكانهما. كان قد سمع من الراديو موجز الأنباء، وأصيب بما يشبه الصدمة، فجاء راكضاً.

ـ انقلابيين؟!! على شنو كنا نحكي من الصبح ليهسه؟

قال المدير وكأن فصيل الإعدام ينتظره بباب الإذاعة. ثم سارع إلى جمع قصاصات الأخبار ليطالعها بنفسه. احتجَّ بعض الزملاء بأنه هو الوصف المهني، والذي تستخدمه كلُّ الوكالات الاخبارية المرموقة. لماذا علينا أن نُقَبِّلَ مؤخرةَ الانقلابيين الآن، رغم أن الصورة لم تتضح بعد.

ـ أي صورة هاي؟ خلص.. هذه ثورة شعبية، وأميركا تؤيدها. يعني العم الكبير يؤيدها، يعني باقية وتتمدَّد.

تصاعدت حمى النقاش، وظلَّ علي صامتاً، وتمنَّى ألّا يسأله أحدٌ عن رأيه. لأن رأيه سيبدو فلسفيّاً أكثر من اللازم، وبالتالي غير مباشر أو واضح. سيقول لهم مثلاً؛ إننا فعلنا المستحيل طوال عقود طويلة، من أجل اختيار الخيارات الخاطئة دائماً. كنا منتحرين دائماً، وليس انتحاريين، على الاقل الانتحاري يعرف بأنه ينفِّذ هدفاً بجسده المُلَغَّم. أما نحن فنقتل أنفسنا فداءً لإله غامض لا يفصح لنا عن خططه. إله العدميّة الشاملة.

أذعن الجميع في النهاية إلى الرأي القائل بثورية القادة الجدد. في كلِّ الأحوال لا أحد يعرف كيف ستكون الاوضاع في الفترة المقبلة، ومن العبث خسارة الوظيفة الآن. ربما لن تكون هناك فرصة لتعويضها في ظلِّ الظروف الحالية التي تُخبئ أشياءً أكثر مما تُعلن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٥ -

صباح اليوم التالي استحمَّ بشكلٍ جيدٍ وحلق وتعطّر، وارتدى أفضل ملابسه. وغادر مسرعاً باتجاه شقته. كانت على حالها، متربّة ووسخة، وتحتاج إلى تنظيف مدّة أسبوع. أهمل كلَّ شيء، وركّز جهده على غرفة النوم. أخرج ملاءات جديدة وفرشها على السرير. وضع معطّر جو. نفض التراب عن المزهريات أمام ميز التواليت وكنس الأرضية. صارت الغرفة جاهزة لاستقبال «بان».

تناوم على السرير ليحتفظ بطاقته حتى موعد لقائه مع بان. ثم قبل أن يغفو سمع طرقات على باب الشقة.

كانت بان على هيأتها التي رآها بها عصر يوم أمس. وكأنها قضت الوقت كلّه وهي تتجوّل في الشوارع. ما زالت اللفّة ذاتها على رأسها ووجهها، حقيبتها وملابسها. والملامح التي رآها بها آخر مرّة. كانت فاترةً، ولا تبدو بحماستها المعهودة.

- آني آسفة.. ما ادري بيك انضربت. حمدللّه ع السلامة.

- تسلمين.

- يمكن آني شوّرت بيك. كم كنت أكرهك.

قالت ذلك وهي ترمي إليه بنظرات لوم وحزن. حاول احتضانها وهو يجلس بجوارها، ولكنها لم تبدِ أيَّ استجابة. ظلّت مستغرقة مع نفسها. وشيئاً فشيئاً شعر علي بأن هذه البوادر لا تشير إلى أنهما سيدخلان إلى غرفة النوم. لم يكن مستعدّاً لتقبُّل هذه النتيجة، ولكن انتظر حتى يعرف ما هي ضرورات اللقاء به بالنسبة لبان.

- لقد تطلقنا.

قالت ثم رمت حسرةً مديدةً، وكأنها أزاحت صخرة ما جاثمة على صدرها.

ـ تخلصتُ منه أخيراً. وبما أنكَ خيّرتني خيارات صعبة، فأنا اتخذتُ قراري في النهاية. اخترتكَ أنتَ، وتركتُ هذا الأرْعَن. على الأقل أنا لستُ مضطرة الآن للاعتراف له بأن سيف ليس ولده.

ـ من هو سيف؟

ـ إبننا.

قالت له بأنها اضطرت لترك ولديها الآخرين عند زوجها، ولكنها ليست مستعدّة لترك سيف مع رجل لا يمتّ له بصلة. هي الآن شبه ضائعة، تسكن في بيت أختها الكبرى. لقد وضعت كلَّ أوراقها في سلَّة واحدة، وهذه السلَّة عند علي الآن.

شعر علي بأن جزءاً من جدار الشقة قد سقط عليه. وتذكّر فوراً صديقه العجوز واصف، ورغب بالاتصال به كي يسأله عمّا يقصد بـ «الحياة الأفضل» التي حدّثه عنها سابقاً. أراد أن يخبر بان بأنَّه لا يُصدِّق ما تقول، وأنَّه لا يتذكّر كيف حملتْ منه، وأشياء أخرى ستنتهي طبعاً بالشجار، وربما بمغادرة بان الشقة وهي غاضبة وباكية. ولكنه كان يشعر برغبة قويّة تجاهها. كان يشتهيها، وربما ذلك من آثار استغراقه الطويل مع الغيبوبة والإصابة وأحاديث السياسة والتعويذات السبع وهذه الدوامة من الأشياء المتلاحقة التي أنهكت دماغه.

جذبها إليه وقبّل رقبتها، ولكنها لم تتفاعل معه. نهض وحاول سحبها من يدها. دعاها إلى غرفة النوم، ولكنها تصلَّبت في جلستها أكثر.

ـ شجاي تسوي علي... أريد اسمع منك جواب.

ـ تعالي هسه.. بعدين نسولف.

ـ لا علي.

نفضت ذراعها من يده القابضة. ولم تنظر إليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ انطيني جواب علي. انت خيّرتني بين خيارات واني اتخذت قراري. عفته واجيتك. شراح تسوي هسه؟

ـ سهلة.

قال ذلك ثم جذبها ولما لم تنهض انحنى عليها وقبّل شفتيها. ولم تمنعه ولكنه اكتشف أنها بعيدة تماماً، ولن تمنحه نفسها في هذه اللحظة ما لم يُعطها رأياً بما فعلت. وهو رأيٌ سيقرِّر مصيرها.

خمدت فورة علي فجأةً وجلس بجوارها، وظلَّ صامتاً لعدّة لحظات. حاول العثور على جواب ما لا يُورّطه أكثر مع هذه المرأة، ولكنه فشل. سيقرِّر تجميد هذا الوضع لفترة معينة.

ـ آني هسه ما اكدر اسوي شي. بس اذا تحبين تنتقلين إلى هاي الشقة ما عندي مانع.

ـ باي صفة علي؟

شعر علي بالإرهاق فجأةً، فوعدها بأن ينفِّذ كلَّ طلباتها. إنه يرى نفسه زائراً في هذا العالم، وسيغادره في أيِّ لحظة، ولا موجب للتعامل بجديّة مع أيِّ قرارات يتمُّ اتخاذها هنا. لم تتقبَّل هي تطميناته، ولم ترَ أنه جادٌّ فعلاً فيما يقول. لم يبدُ سعيداً، كما شعرت، بالأخبار التي حملتها له. لم يُعلّق بشيءٍ على حكاية «سيف». لم يبدِ فضولاً لرؤيته.

لم تحصل على طمأنينة واضحة ولكن الثرثرة كانت مفيدة في شيء واحد، فقد هدأت أعصابها قليلاً، ووجودها بجوار علي وشعورها به أسهم في إزاحة جانب من الإرهاق والتعب بسبب الاحداث الشخصية بالغة السوء التي حصلت لها مع طليقها. صار علي يُقَبِّل رقبتها وهي لا تمانع، ثم دفعها برفق على الأريكة وانحنى فوقها ليقبِّلَ شفتيها، وفي هذه اللحظة تجاوبت معه قليلاً.

صدح هاتفه المحمول في جيب سترته الملقاة على كرسي مجاور. أراد تجاهل الرنين، لكنه أزعجه وعكّر مزاجه، كما أن بان دفعته برفق بعيداً عنها وكأنها تذكّرت القضية الجديّة والحسّاسة التي جاءت من أجلها إلى هنا. قام وهو يعتزم غلق الهاتف إلا أنه شاهد اسم المتصل، انه «الزعيم» صديقه.

- وين أنت؟ السيارة أمام باب البيت؟

- يا بيت؟ آه.. لا.. أنا في بيتي، في شقتي.

- اعطني العنوان، سيأتون إليك فوراً. أوكي؟!

ارتبك تماماً، واستحضر دون شعور منه صورة مدير الإذاعة المرعوب من العسكر. ربما صار صديقه القديم مجنوناً تماماً، من يدري، ربما لن يقدّر صداقتهما القديمة؟ لماذا تحدث معه بهذه النبرة الحازمة؟

انتهى كلُّ شيءٍ مع بان. فَقَدَ استرخاءَهُ، وقال لها بأن هذا الاتصال أبلغه بموعد طارئ مع «الحكومة». لم تبدِ بان ردَّة فعل محدَّدة. تناولت الشال الطويل وأعادت لفَّهُ باسترخاء حول وجهها ورأسها حتى صنعت منه عمامة كبيرة، ثم تناولت حقيبتها، وقبل أن يخرجا معاً من الشقة، قالت له بأنها تحبُّهُ، وأنها لم تكنْ مخطئةً بالرهان عليه.

تجاهل النبرة الرومانسيّة في كلامها، وانشغل بقفل باب الشقة، ودفعها بيده برفق كي تنزل من سُلَّم العمارة. كان وكأنه يرغب باختفائها قبل مجيء سيارات الجيش أمام العمارة.

كانت الساعة تشير إلى انتصاف الظهر حين غادرت بان، وبقي علي يدخِّن على الرصيف أمام العمارة، ولم تمضِ سوى نصف ساعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حتى جاءت ثلاث سيارات دفع رباعي، عليها علامات على الجانبين تشير إلى الاستخبارات العسكرية. نزل ضابط صغير برتبة ملازم أول وسَلَّمَ على «الاستاذ» علي بكلِّ احترام، ثم دعاه للركوب في المقعد الخلفي للسيارة. ركب معهم ثم انطلقوا بسرعة هائلة في شوارع بغداد، وعبروا الجسر باتجاه المنطقة الخضراء.

لم تكن هناك حواجز أمنية ولا سيطرات أوقفت رتل السيارات، وتعجَّب علي من سرعة الوصول إلى قلب المنطقة الخضراء، وهو أمر شبه مستحيل بالنسبة للاشخاص العاديين.

دَارَ في ممرّات، وتمّ تفتيشه اكثر من مرّة، وحين طلبوا الاحتفاظ بهاتفه المحمول في الأمانات، أشار لهم الملازم الشاب بالرفض. سيحتفظ بتلفونه. أعطوه هويّة تعريف «زائر» علّقها على رقبته ثم دخل معهم إلى قاعة، سرعان ما اخترقوها بتجاهل للموجودين فيها واتجهوا إلى المصاعد.

كان العقيد عبد العظيم حامد، مع مرافقيه وحماياته وبقية ضباط المجلس، يشغلون المكاتب التي كان يشغلها إلى ما قبل أسبوعين رئيس الوزراء المنتهية ولايته.

وقف علي أمام صديقه القديم، ولم يستطع إخفاء شعوره بالقلق والرهبة. والسبب الأكيد في ذلك هو الأجواء المحيطة بهذا اللقاء، وطبيعة المكان الحسّاس الذي لم يدخله علي سابقاً، وإنما كان يرى تفاصيل منه في التغطيات الإخبارية على القنوات الفضائيّة.

خطا عبد العظيم خطوات واسعة حتى وصل إلى صديقه واحتضنه بقوّة وصار يضحك. وضحك علي معه، ثم أشار إلى مرافقيه بجلب الشاي والماء، وسحب علي من يده للجلوس في صالة استقبال فخمة. وقبل أن يتحدّث علي بأيِّ شيء، ظلَّ عبد العظيم

يستجوبه. ماذا تعمل؟ هل تزوّجت؟ صار عندك أطفال؟ شكد راتبك؟ وين ساكن؟ وغيرها من الأسئلة التي يمكن ان يتبادلها أصدقاء عاديون.

كان الحائط المواجه لمكتب عبد العظيم مملوءاً بالكامل بشاشات فضائيات عديدة، وكلُّها تعمل ولكن من دون صوت. وظلَّ عبد العظيم ينقل عينيه ما بين هذه الشاشات الكثيرة ووجه صديقه القديم «الفيلسوف».

ـ ماذا يقول الناس في الشارع عنّا؟

سأل عبد العظيم، مستمرًّاً باستجوابه، ولكنه نقل الأسئلة إلى دائرة أكثر عموميّة. ولم يعرف علي بماذا يرد، ثم تذكّر فجأةً مشهد حرق الدستور في ساحة الفردوس، فروى الحادثة، وكان عبد العظيم مبتسماً، ثم أشار إلى أنه تابع هذه «الفعاليّة» التي نقلتها إحدى الفضائيات.

ـ ما زلت كما أنت. لن تجيب على أي سؤال بجواب واضح. اسألك فتروي لي حادثة.

علَّقَ عبد العظيم، ثم مدَّ يده إلى المكتب الفخم الذي صار وراءه ليأخذ قداحة معدنيّة ويشعل بها السيجار الفخم الذي كان معلّقا بأصابعه طوال الوقت الماضي. صار يُدخِّن وطلب من علي أن يأخذ سيجاراً مشابهاً من العُلبة الموضوعة على طاولة جانبية بين الارائك الوثيرة. لكن علي فضّل ان يدخِّن سجائره المعتادة.

ـ هناك فوضى في الحقيقة. بالتأكيد أناس كثيرون يؤيدونكم. ولكن ليس كلّهم.

قال علي فابتهجت أسارير عبد العظيم وردَّ عليه بحماس:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ بالتأكيد الناس مؤيدة. وإلا كيف صنعنا «الثورة»؟ هل يجازف أحدٌ ما بسهولة بحياته من أجل نفسه فقط؟

قال عبد العظيم بصيغة سؤال وكأنه ينتظر من علي التعليق أو الإجابة. ولكنه سؤال سيتلقى عبد العظيم إجابة غير مريحة عنه فيما لو فتح علي فمه بكلام صريح.

ظلَّ عبد العظيم يشرح لعلي بالايقاع نفسه الذي كان يتحدّث به عندما كانا زميلين في كليّة الفنون، أو في لقاءاتهما القليلة بعد ترك عبد العظيم للدراسة في الفنون وانتسابه للكليّة العسكريّة. كان يتحدّث بنبرة رجل يحاول الحصول على الاعتراف والموافقة، وكأنّه غير واثق تماماً مما فعل، وكأن دور علي يكمُن هنا، ولربما هو سبب جلبه إلى هذا المكان؛ إعطاء صديقه المغامر نوعاً من المباركة لمغامرته الغامضة، التي تشبه قفزة في الظلام.

ـ كان لدينا مجلس قيادة ثورة، كما هو معتاد في حركات مشابهة، كلّهم ضباط كبار برتب عالية، ولكن في الليلة السابقة للعملية جرى اعتقالهم كلّهم، ثم خلال محاولاتنا تحريرهم جرى قتلهم جميعاً. أنا كنت في الصف الثاني أو الثالث. كنت أتلقى الأوامر وأنفذها. كنا نعمل بصمت منذ سنوات، نحضّر بهدوء وسريّة، وبعد مدّة شعرنا جميعاً بأنه لن تكون هناك إمكانية للتراجع، لقد تورّطنا جميعاً، فإمّا أن تنجح هذه العملية، أو أننا سننال عقاباً قاسياً في كلِّ الأحوال، في حال تراجعنا عن خططنا، أو في حال نفذنا العملية وتمَّ إجهاضها.

ـ ولكن العملية نجحت!

علَّقَ علي متجنِّباً كلمات مثل الانقلاب أو الثورة، وراغباً في

الوقت نفسه بتشجيع صديقه للادلاء بتفاصيل أكثر، ربما لا يعلمها أيُّ شخص آخر ما سوى الدائرة الضيقة لمجلس الضباط ومعاونيهم.

نهض عبد العظيم من مكانه وظلَّ يدور بعدّة خطوات وكأنه يحاول مساعدة نفسه على التركيز في الكلمات التي ستخرج من فمه.

ـ أنا لم أكن أتخيّل يا علي، ولا للحظة واحدة، أنني سأكون في هذا المكان. جُلُّ ما كنت أتصوره، أنني سأكون على رأس آمريّة وحدة عسكريّة تُطوّق بغداد لأغراض الأمن، لا أن أكون «الزعيم» كما يحبُّ حماياتي أن يسموني. أنا لست زعيماً ولا بطّيخ. !

ـ لقد تورّطت إذن.

لم يعرف علي كيف تجرَّأَ لينطقَ هذه العبارة. سشعر بالخطأ حالما خرجت من فمه، وهو عادة لا يرتكب حماقة مماثلة. إنّه «الفيلسوف» الذي يلفُّ ويدور حول المعاني والكلمات ولا يقول شيئاً واضحاً في نهاية المطاف. ولكن النبرة التي تحدّث بها عبد العظيم، أعادت إليه صورة صديقه القديمة. الشاب المرتبك الغاضب، المنزعج من الأحوال والأوضاع العامة، الذي يريد أن يفعل شيئاً، ولكنه لا يعرف ما هو. الذي يشعر بأزمات المحيطين به، ويحاول أن يساعدهم، ويفشل غالباً، بسبب ضيق ذات اليد وندرة الخيارات، فيتحوّل كلُّ ذلك إلى أزمة شخصيّة عنده.

ـ آه.. تورّطت.

ردَّ عبد العظيم بنبرة اعتراف وهو يعود ليجلس على الأريكة الوثيرة أمام علي.

ـ ولهذا أنا استدعيتك.

ـ أنا معك في أيِّ مساعدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عاود عبد العظيم اشعال سيجاره الذي انطفأ، وبعد أن سحب نَفَسَيْنِ بدخان كثيف، حدَّ النظر باتجاه صديقه وقال:

ـ لا أريد مساعدة علي.. أريدك أن تكون بجواري دائماً. سأصدر أمراً بتعيينك مستشاراً في المجلس العسكري. سأجري لك راتباً مجزياً، وتكون معي دائماً في كلِّ القرارات التي يجب علي أن أتخذها خلال الفترة المقبلة.

ذُهِلَ علي من كلام صديقه. آخرُ شيءٍ يرغب به أن يشارك في هذه الحفلة المجنونة، لأنه غير واثق من أنها ستؤدي في كلِّ الاحوال إلى نهاية جيدة. ولكنه صديقه وقد بيَّنَ له بوضوح كيف أنه لم يَسْعَ إلى هذا المنصب ولا إلى أن يكون صاحب قرار يخصُّ مصائر الناس والبلد.

عليه أن يساعد صديقه في محنته. ربما عليه إن تطلب الامر إقناعه بالتخلّي عن هذه المسؤوليات الجسيمة، والتراجع خطوةً إلى الوراء، وليقم شخصٌ آخر، ربما من مجلس الضباط نفسه، بأداء مهام «الزعيم».

تحدّث علي بكلام كثير، ولكنه كالعادة لم يكن واضحاً، غير أن عبد العظيم فَهِمَ منه أن صديقه القديم لا يُمانع بمساعدته. وحين نهضا سويةً، شاهد علي صورته تنعكس على مرآة طوليّة موضوعة كزينة في المكتب. لمح صورته وهي تردُّ عليه برسالة غامضة. كان يرى دهشةً وانتشاءً على ملامحه. هو إذن في العمق لا يمانع هذا التحوّل الذي سيحصل في حياته، من مذيع ومقدم برامج مغمور، إلى مستشار في المجلس العسكري، بمرتبٍ كبيرٍ وربما حمايات وامتيازات كثيرة أخرى.

ربما هذه هي لحظته المنتظرة. هذا ما تحدّث به صديقه العجوز

واصف. كان عليه أن يصبر قليلاً ليرى نتائج التحوّل في حياته نحو الأفضل.

حاول إقناع نفسه بأن «الأفضل» قد فتح أبوابه أخيراً، ولكنَّ غيمةً سوداء غامضة في داخله ظلّت تدور لتُغطي كلَّ هذه الإشارات الواعدة بهالةٍ من الشكِّ.

قال له عبد العظيم، بأن هذا اللقاء من أجل نيل موافقته على الوظيفة فحسب، وأنه سيرتِّب خلال الأيام المقبلة وضعه داخل المنطقة الخضراء، ونادى على أحد مرافقيه كي يُبَلِّغ الدوريّة العسكريّة التي جاءت بعلي أن تعيده إلى حيثُ يشاء.

ـ ٧ ـ

في الطريق ساعد صمت الضباط ومرافقيهم في السيارة على استرساله مع نفسه. ماذا لو أنه أعجب بهذا التغيير الذي يحصل له. كان منذ ساعات يظنّ بأن عليه ألّا يأخذ ما يجري له في هذا العالم على مَحْمَلِ الجدِّ. ماذا لو أعجبته حياته ها هنا، وشعر بأنها الحياة التي يستحق أن يعيشها فعلاً، ثم في هذه الأثناء وبهذه اللحظة تحديداً، يأتي شخصٌ مجهولٌ في عالمه الأول الذي تركه، مثل ذلك الممرِّض المجنون الذي ظلَّ يُثرثر على مسامعه، ليقوم وبحركة حازمة بفصل أجهزة المغذِّي والتنفُّس عن جسده؟!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثامن

خطّافٌ قَبِيْحُ الشَّكل

- ١ -

يستريحُ علي في مكتبه الوثير الذي كان لمستشار الأمن الوطني السابق المعتقل حالياً في سجن المطار. يمسحُ بيده على الخشب الفخم المطلي بشكلٍ جيدٍ وعلى الجلد الناعم للكرسي، ويشعرُ مع نفسه أنه غير مؤهَّلٍ للجلوس في مكتب مثل هذا، يستطيع الجزم أن شاغله السابق، مستشار الأمن الوطني، لا يستحق الجلوس على هذا المكتب أيضاً. لا أحد من الموجودين مناسب للجلوس في كابينة القيادة في هذا البلد المجنون.

يدخل موظفُ خدمةٍ يحمل صينيّة نحاسيّة مزخرفة، يضعُ بهدوءٍ فنجان القهوة مع كأسِ ماءٍ ثم يغادر. يرشفُ علي من الفنجان ويستذكرُ محاولاً ملأ الفراغات في قصّة صديقه عبد العظيم.

كانوا سويةً هو وعبد العظيم مع شلَّة الأصدقاء المقرَّبين في كليّة الفنون حتى السنة الثالثة، وهي السنة التي شهدت فشل الأخ الأصغر لعبد العظيم في الاختبارات الصحيّة لانضمامه إلى الكليّة العسكرية في بغداد. كان هذا حدثاً فاصلاً، فعائلة عبد العظيم لها علاقة طويلة مع السلك العسكري يعود إلى أواخر العهد الملكي، مع جَدٍّ ما كان ضابطاً في قوة الشرطة السيّارة التي كانت تقوم بمهام قتالية عسكرية

ضد العشائر العربية المتمرِّدة وضد الأكراد في الشمال في بعض الأحيان.

استمرَّت وراثةُ العمل العسكري في العائلة، بغض النظر عن النظام السياسي القائم، وكانت السُّلالة كلُّها وفيةً لمبادئ العسكرية حتى مع انسحاب العقيد حامد محمد نعيم والد عبد العظيم بوحدته العسكرية من الكويت مع شعور كبير بالمهانة، وكان يُغالب مع نفسه رغبة قويّة بالانتحار بمسدسه الشخصي، وظلَّ نادماً على عدم انضمامه إلى المنتفضين في الجنوب ضد نظام صدام، ولكنه فكَّر بعائلته في بغداد وحياتها ومصير أبنائه بعده.

كان عبد العظيم، الابن البكر في العائلة، قد أعلن منذ وقت مبكر، خصوصاً مع رؤيته لتداعي المؤسسة العسكرية العراقية وانهيارها العميق، أنه غير مستعدٍّ لوراثة «الدم العسكري»، وأنه يرغب بقوة بالعمل في المسرح. هو مُمثِّل جيد، كما أخبره أساتذته في الإعداديّة. لديه مكتبة سينمائية جيدة، ويحرص على مشاهدة العروض المسرحية العراقية إن كانت في مسرح الرشيد أو الوطني أو حتى في منتدى المسرح بشارع الرشيد، ويفخرُ أنه صديقٌ لبعض الفنانين والمخرجين.

سبَّبت هذه النوايا خيبة شديدة لوالده، ثم مع التقديم لكليّة الفنون الجميلة حدثت معركة صغيرة في البيت، اضطرت عبد العظيم إلى المغادرة إلى بيت أخته لبضعة أسابيع، ثم استسلم الجميع لرغبته، مع إعلان الأخ الأصغر بأنه يرغب فعلاً، حين يحين الوقت، بالدخول إلى الكليّة العسكرية. وهذا ما جعل الأب يهدأ، على الأقل حتى ذلك اليوم من سنة عبد العظيم الثالثة في كليّة الفنون، حين عَلِمَ فيه أن أخاه فشل في الاختبارات الصحيّة، ولم تنفع تدخُّلات الأب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضابط المتقاعد القديم، وشكَّ عبد العظيم لاحقاً بأن أخاه غيّر رأيه من دون أن يبلّغ أحداً بذلك، وأنه أفشل نفسه عن عمد.

في كلِّ الأحوال، كان عبد العظيم يعيشُ في تلك الفترة مزاجاً مختلفاً، ولم يعد بتلك الحماسة السابقة لدراسة التمثيل. لم يتأكَّد من أنه مُمثِّل عظيم، كما أن مصائر الفنانين وأحوالهم، مع تداعي كلِّ شيء في التسعينيات، ليست جذّابة ولا مغرية. ثم اكتشف أن بعض الضباط كانوا يأتون للدراسة المسائية في كليّة الفنون، وبمصاحبة بعضهم عَلِمَ أنهم يرغبون بمصادقة الطالبات لا أكثر.

صار كلُّ ما يراه تافهاً، كما أن والده العقيد حامد محمد صار هَرِمَاً ومريضاً، وبدا يائساً ومُحبطاً، وتخيَّل عبد العظيم أحياناً بأن هذه السلسلة العسكرية التي تبتدئ من جَدٍّ غامضٍ بشاربٍ هتلري وتنتهي عند والده، هي سلسلة عظيمة فعلاً ومن المؤسف أن يكسرها هو، ويجب أن تستمرَّ، على الأقل كنوعٍ من المكافأة لأوهام أبٍّ.

ـ إن اسمك مناسبٌ لضابط وليس فناناً.

قال له علي ذات مرّة معلِّقاً على أزمة صديقه، غير مقدِّر بشكل جيد لأهمية الموضوع.

ـ صديقي أنت لا تفهم. سأترك كليّة الفنون وربما لن نلتقي بعدها.

ـ ٢ ـ

اختفى عبد العظيم بضعة سنوات، الأمر الذي أثار قلق أصدقائه، ليظهر لاحقاً برتبة ملازم، مع شاربين كثّين، ثم صارت فترات غيابه طويلة، بحكم ارتباطه بعملٍ قذفه إلى أماكن بعيدة، فضلاً عن تغيّر المزاج العام لشباب تخرَّجوا وذهبوا إلى الخدمة

العسكرية الإلزامية كجنود مكلَّفين ثم تسرَّحوا إلى شوارع البطالة أو الأعمال المهينة، ثم عاد عبد العظيم ليظهر بشكل منتظم مع «جمعيّة المنتحرين» وحديقة الدكتور واصف، وما سهَّل له التواجد مع أصدقائه القدامى أنه صار يخدم في وحدة عسكرية عند أطراف بغداد، بالقرب من موقع آثاري قديم يُدعى تل أبو صلابيخ، وصار يستطيع النزول بشكل يومي إلى بيته، ويتغيّب أحياناً بالتنسيق مع زملائه الضباط.

أشياء كثيرة تغيّرت في عبد العظيم إلّا مزاجه السلبي، الرافض والمتبرِّم، وهذا ما كان يُميّزه، فلا شيء يرضيه أو يقنعه. كان وضعه المادي سيئاً بسبب التزاماته المالية الكثيرة تجاه والدين مريضين وأخوات ينتظرن الإعالة من عائلة الأب، وبسبب إنفاقه على علاقاته النسائية التي لا يتكتَّم عليها غالباً.

الشيء الذي لم يكن علي يعرفه أن حضور عبد العظيم مع ليلى إلى حديقة بيت الدكتور واصف لم يكنْ مصادفةً، وإنما حلقة جديدة في علاقة معقَّدة بين الاثنين، كانت تحت السطح من أيام الجامعة، واستمرَّت حتى مع ذهاب عبد العظيم إلى العسكرية. كان يُلاحقها، متعلِّقاً بها وغير قادر على الخلاص منها، حتى انتهيا إلى الخطوبة. كانت ليلى خطيبة عبد العظيم السريّة، ولم يكنْ يرغب بالإعلان عن ذلك أمام أصدقائه لسببٍ لا يبدو مفهوماً لعلي.

تزوَّجا وأنجبا ولدين بعد الاحتلال، واستمرَّت علاقتهما بين مدٍّ وجزرٍ حتى وصلا إلى الطلاق في أواخر العام ٢٠١٢. ولم يكنْ ذلك برغبة كاملة منه. ولكن حياتهما معاً صارت سلسلة مستمرَّة من المشاكل.

وعلى الرغم من افتراقهما إلّا أنها ظلَّت حاضرةً في ذهنه، وفي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوقات ما كان يرغب لو أن هناك شيئاً ما ينزعها من رأسه، أو ينزع رأسه. ثم وجد ما يشغله عنها حين دخل في مجموعة من الأصدقاء الضباط برتبٍ عسكرية متقاربة، يثرثرون دائماً عن سوء الوضع وضياع كرامة العراق وخسارة البلد لكلِّ شيء. كانت مجرد أحاديث بين أشخاص محبطين، ولم يتوقَّع أن هذه الأحاديث، وعلى مدى سنة كانت مختبراً لمعرفة اتجاهات التفكير والميول والأمزجة الخاصة بضباط صغار يُراد لهم أن يؤدوا أدواراً أبعد بكثيرٍ مما كانت تخطط له المؤسسة العسكرية في ظلِّ النظام السياسي الجديد.

لم يتغيّر الكثير في الأحاديث المتبرِّمة والمنتقدة في شلّة الضباط الاصدقاء، الذين يلتقون أحياناً في مكاتب وحدات عسكرية، أو في الإجازات في شقق أشبه ما تكون بأماكن استراحة، فيها كلُّ شيء، من المشروبات إلى النساء إلى الثرثرات الخطرة التي صارت تتجاوز الحدود المعقولة لثرثرات المقاهي إلى الاسرار العسكرية، والى اتصالات بعض الضباط بمسؤولين غير عراقيين.

لا يعرف عبد العظيم أين كان الحدُّ الفاصل ما بين اللغو الآمن والكلام عن خطط انقلابيّة يمكن أن تودي بمستقبله العسكري. لكنه وجد نفسه يتجه في هذا الطريق دون تردُّد. حتى تبلور الأمر قبل حدوث الانقلاب فعليّاً بعدّة أشهر. كان عبد العظيم مع مجموعة من الضباط من الصف الثاني، ولم يكونوا مسؤولين عن التفكير والتخطيط أو أيِّ شيء. وفي أعماقه شعر عبد العظيم أنه مجرد عمل انتحاري تأجَّل كثيراً. كان يجب أن يحدث ضد نظام صدام أصلاً. ونظر إلى مجموعة الضباط الصغار والكبار على أنها استعادة عملية لـ «جمعيّة المنتحرين» التسعينية، والفرق الأساسي أن المجموعة الجديدة ستنتحرُ فعلاً.

كان الانقلاب العسكري يتحرَّك بقوّة حين خرجت مجموعةٌ مضادة، قامت بتصفية دائرة الضباط الكبار محدودة العدد، فصار عبد العظيم وزملاؤه من العقداء في الواجهة فجأةً، حتى انتهى بهم المطاف في قلب المنطقة الخضراء، وأمام مايكرفونات القنوات الفضائيّة وهو يقرأ البيان رقم واحد.

حدثت هذه التطوّرات بشكلٍ متسارع، ومنها أنه بات ينام ويصحو على مسمّى «الزعيم» الذي لم يعد يذكره بضباط ١٩٥٨ وإنما بمسرحية كوميديّة قديمة للممثل عادل إمام.

- ٣ -

كان عبد العظيم يسردُ هذه الأحداث ويملأ الفراغات في قصّته أمام علي، خلال لقاءاتهما داخل بناية القصر الجمهوري، على العشاء، أو بعد ذلك، حين يبقيان وحدهما. وأحياناً يدعوه للشرب معه في جناحه الخاص خلف الحمايات والحراسات المشدَّدة. ومن بين كلِّ التفاصيل التي تعرّف عليها علي لأول مرّة كان التفصيل الخاص بليلى قد فاجأه فعلاً.

كانت ليلى إذن خطيبة عبد العظيم حينما ذهب علي ونام معها. لقد نام مع الزوجة المستقبلية لصديقه المقرَّب. لماذا لم تكشف ليلى عن اسم خطيبها في ذلك الوقت؟ لماذا لم تكن باكراً إذن؟ وهل يعلم عبد العظيم بشيءٍ عن هذه العلاقة العابرة بين خطيبته وصديقه الفيلسوف؟ ربما كانت السبب في المشاكل بينهما.

هل استدعاه إلى هنا من أجل الانتقام منه بشكلٍ ما؟ هل عليه أن يخشى صديقه القديم الآن؟ ظلَّت الأسئلة من هذا النوع تتلاحق في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأسه بينما يبدو مظهره الخارجي هادئاً في حالة إنصات عميقة لأحاديث صديقه «الزعيم».

كان علي قد أخبر أخاه بأنه انتقل للعمل مع الحكومة، ولكن من دون تفاصيل كثيرة. وتقبّل عمار هذا الحدث الجديد بترحيب.

ـ أحسن من عملك السخيف بالاذاعة.

قال عمار بحماسة، كاشفاً لأول مرّة أمام أخيه الأكبر عن رأيه الصريح بعمله الاذاعي. ولم يرغب علي بالاسترسال أكثر، إنه عملٌ مع الحكومة، سريٌّ وليس من الجيد كشفه أمام الآخرين. تعهَّد عمّار بإبقاء الأمر سرّاً متمنياً لأخيه النجاح والموفقيّة.

أول نصيحة وجهها علي بصفته مستشاراً لـ«الزعيم» هي أن يحاول الاتصال بالمؤسسات الاجتماعية التقليدية ويطمئنها على أهداف الانقلابيين، وأن الهدف هو محاربة الفساد وليس إلغاء العملية الديمقراطية، وأنهم سيعملون على تأسيس النظام الديمقراطي من جديد.

ـ ولكننا لن نعيد هذه الوجوه القبيحة إلى الواجهة من جديد.

قال عبد العظيم، وأكّد له علي أنه يقصد نظاماً جديداً هو بالتأكيد ليس إعادة تدوير لنفايات النظام السابق.

ولكن هذا الكلام بدا مسترخياً ونظرياً جدّاً قياساً بالأحداث على الأرض. كان المحافظون في الجنوب قد اجتمعوا في الحلّة، وقرَّروا تشكيل هيئة ائتلافية استشارية بين مجالس المحافظات التسع، تقوم بمهام الحكومة المركزية الملغاة، ريثما يعود الوضع إلى ما كان عليه. ويبدو أن المرجعيّات الدينيّة والعشائريّة كانت تؤيد هذا الأمر.

كذلك الأمر شمالي وغرب بغداد، فعلى الرغم من سقوط أغلب مدن هذه المنطقة بأيدي التنظيم الارهابي إلا أن هناك شخصيات

كثيرة في أربيل وعمان كانت تتحدّث بصفتها ممثلةً سياسيةً عن «شعب» هذه المناطق، وهم أيضاً قرَّروا الاجتماع في مدينة تكريت المحرَّرة من أيدي الارهابيين، لإعادة تشكيل واجهتهم السياسية، وصاروا بسرعة يتحدَّثون مع الهيئة الائتلافية الاستشارية للحلّة، بتجاهل تام للضباط الانقلابيين في بغداد. وهو الأمر نفسه الذي عملته حكومة كردستان. فلا حوار مع المنقلبين على العملية السياسية. وقد أبلغوا الأطراف الدولية والاقليمية كلّها بهذا القرار. بل وصدرت عريضة مطالب للامم المتحدة، وللولايات المتحدة التي ترتبط باتفاقية أمنية مع النظام السياسي المنهار، تجبرها على التعامل بحزم مع المنقلبين، وتحرير الطبقة السياسية الحاكمة من سجن المطار فوراً، بعملية كوماندوز وإنزال جوي إن تطلب الأمر.

ـ سأقدِّمهم جميعاً إلى المحاكمة العسكرية ونعدمهم ونتخلص منهم... أليس هذا أفضل؟

قال عبد العظيم بعد ليلة سكر طويلة، وهو يتلقّى الأخبار السيئة تباعاً من مستشاره الاعلامي، وهنا جَفَلَ علي في مكانه وهو يسمع كلمة إعدام. لا شكَّ أن بعض المسجونين في المطار يستحق الاعدام، ولكن علي لا يريد أن يكون شريكاً في أي إعدام. ليس هذا ما كان يفكِّر به.

ـ يجب أن تستخدمهم كورقة مساومة. لا أن تحرقها سريعاً.

ـ وماذا عن الكلام عن فرقة كوماندوز أميركية تحرِّرهم من السجن؟ لن يستطيع جماعتنا صدَّهم. سنتعرض لخسائر كبيرة.

ـ ولماذا تُصدِّق سريعاً هذه الشائعات؟ هل بدر من الادارة الاميركية ما يشير إلى أنهم منزعجون فعلاً من ثورتكم؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ تصريحات سياسية فقط. لا يوجد إجراء حتى الآن.

هدأ عبد العظيم قليلاً، وبدا علي وكأنه يؤدي دوره بشكلٍ جيد. إنه الفيلسوف الخاص بأعلى مسؤول في الدولة الآن، أو هكذا يريد أن يُوهم نفسه، فعبد العظيم، في وجه من الوجوه مجرد محافظ عسكري لبغداد. وليست لديه ولا لمجلسه العسكري أيُّ سلطة فعلية على مناطق العراق الأخرى. ورغم السيطرة الظاهرة على الاوضاع إلا أن أحداً لا يعرف ما سيحدث غداً، وهو وضعٌ قلقٌ ولا يطمئن، غير أن علي كان يُوهم نفسه بأنه ما دام خلف الواجهة، وليس معروفاً بأيِّ أدوار في العملية الانقلابية، فمن الممكن أن يكون آمناً، أو يجد مهرباً في اللحظة المناسبة، حين تسوء الأوضاع أكثر.

ـ ٤ ـ

صباح اليوم التالي، تمَّ استدعاء علي بوقتٍ مبكر، فالزعيم يطلبه. لا شكَّ أن هناك تطوراً ما حصل خلال الليل ويحتاج إلى مشورة. طلب الحرس من علي الذهاب إلى غرفة منام عبد العظيم، وليس مكتبه. فوجده هناك بملابسه الداخلية ويبدو متعب الوجه في غرفة مليئة بضباب دخان سجائر كثيرة. طلب منه أن يجلس. ثم جاء جندي بصينية فطور وضعها على طاولة صغيرة وغادر. قال عبد العظيم لصديقه بأنه لم يستطع النوم خلال الليل، وأنه سيصاب بالجنون.

ـ ما الذي حدث؟

ـ ليلى ترفض الردَّ على اتصالاتي، أنا مشتاقٌ لولديّ، وأريد أن أرجعها وهي ترفض.

لم يكنْ هذا ما توقَّعه علي، ولكنه يعمل كمستشارٍ خاص عنده، وعليه أن يساعده، حتى لو كان في مسألة عائليّة.

ـ أنت قلت إنك طلقتها منذ أكثر من سنة. ألا ترى أنه من المفيد نسيانها والالتفات إلى حياتك الجديدة.

ـ أيّ حياة جديدة؟ أنت تتذكّر جمعيّة المنتحرين التي أسستها. نحن الآن فيها يا صديقي. نحن منتحرون. سيتمُّ القضاء علينا في أيٍّ وقت. أرجو ألّا تمانع بهذه الحقيقة.

ـ لا . . . أنا أفكر بهذا أحياناً. لقد كُتِبَ علينا أن نحيا على حافة الموت دائماً.

ـ أنا أريد إرجاع ليلى. لا أستطيع نزعها من دماغي، أريدها أن ترى ما فعلتُ وما صنعتُ. أريدها بجواري. أخشى أن أموت قبل أن تعود لي. أشعر بضعف رهيب من دونها.

ـ اذهب إليها. إلى بيتها.

ـ لا أستطيع الآن. وضعي لا يسمح. وكأنك لا تعرف هذا التفصيل!

نهض عبد العظيم من حافة السرير وارتدى بنطلونه العسكري الذي كان مرمياً على الأرض ثم جلس أمام صينية الإفطار ودعا مستشاره لمشاركته. وخلال الأكل تفاجأ علي من طلب صديقه. قال له إنها مهمّة غير استشاريّة، ولا علاقة لها بالعمل في الدولة، وإنما هو طلب بين أصدقاء.

ـ عليك أن تذهب إليها وتقنعها بالعودة لي. أنت صديقنا المشترك القديم، وهي تُقَدّرُك كثيراً. انت فيلسوف مجموعتنا في الكليّة، أنسيت هذا؟! الكلُّ يحترمك ويقدّرك. لا أعتقد أنها سترفض طلبك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٥ ـ

ظلَّ علي خلال ساعات النهار يعيدُ تقليب هذه التفاصيل في ذهنه في محاولة لاستيعابها وهظمها واعتبارها واقعية وعادية، وفشل في ذلك. مازال ذكر اسم ليلى أمامه يثيرُ فيه شيئاً من الاضطراب. يتذكّرُ أنه أخبر الدكتور واصف قبل سنوات بعيدة بأن هذه البنت مرسلة من أجل تعذيبه لا أكثر. تظهر في حياته ثم تختفي فجأةً لتظهر لاحقاً وبشكلٍ مفاجئٍ أيضاً.

ـ أتذكّر الوصف الدرامي لحال المنافقين في القصص الدينيّة. يتمُّ الاعلان عن قبولهم كجزءٍ من سكان الجَنَّة، ويعبرون الصراط إليها، ويقتربون من بابها الرئيسي، الذي أتخيّله مُذَهّباً ومزخرفاً وبارتفاع شاهق. يَحثُّون الخُطى مبتهجين وحالما يصيرون في منتصف المسافة يرون الباب وهو يُفتح من تلقاء نفسه، وتنفرج فردتاه نصف انفراجة. وتأتي ريح أشجار ونباتات عطرية فاغمة من داخل الجنّة، وتخترق أنوف المنافقين وتملأ رِئاهم بعبيرها وشذاها، وفي تلك اللحظة.. هووووب يتمُّ سحبهم بسرعةٍ من هذا المكان بوساطة خُطّافٍ قبيح الشكل ليتمَّ رميهم في قعر الجحيم.

هذه كانت القصّة المفضّلة لعلي، والتي رواها أمام الدكتور واصف عدّة مرّات، وأمام أخيه عمّار الذي يتجاوب مع القصص الدينيّة، رغم أنه لا يفهم المغزى من سرد قصّة المنافقين مع الجنّة، فمن المنافق في هذه القصّة يا ترى، وما المقصود رمزيّاً بالجنّة هنا؟

ـ كأنَّ عليَّ أنْ أعيشَ عذابات مشابهة. لماذا أشمُّ رائحة أشجار الجنّة ولا أستطيع لمسها أو النوم بجوارها.

ـ هناك غابات كثيرة في الطريق، وروائح عطرية لنباتات لا تتخيّلها الآن.

كان الدكتور واصف يردُّ بهذه الطريقة كي يصغّر من شأن الأزمة التي يغرق فيها صديقه الشاب. ونجح في ذلك نسبياً، ونسي علي معشوقته فترة طويلة، ثم اكتشف أنه في أوقات قوته المعنويّة لا يعود مهتمّاً لسخافات الفقدان العاطفي، غير أنه يعود، في أوقات ضعفه المعنوي، للسقوط تحت وطأة التذكُّر. تبرزُ فجأةً تلك التفاصيل الصغيرة التي تتوهَّج وتصبح أكثر أهمية من أيِّ شيءٍ آخر. الصبغة المتقشِّرة على ظفر إبهامها الأيسر بسبب أنها تعضُّهُ دائماً خلال استغراقها في التأمُّل أو القراءة، ولا تنتبه أنها تُقَشِّرُ صبغة الظفر وتشوّه منظره. دخول شعرة طويلة في فمها مع حركة الهواء أثناء كلامها، ودفعها لشعرها جانباً، لكنها تفشل في سحب هذه الشعرة من الفم، وتظلُّ تتحدّث لدقائق عديدة من دون أن يضايقها أن هناك شعرة ما في فمها، وقد يتجرَّأ من يجالسها إلى مدِّ يده لسحب هذه الشعرة، وخشي علي في مرّات كثيرة أن يقوم بهذا الأمر حتى لا تظن أنه يريد لمسها بحجة وجود شعرة في فمها، فهذه شعرة من شعرها هي وما شأنه بها.

يتذكَّر الآن وكأنه يشاهد كلَّ شيءٍ على شاشة عرض على الحائط أمام سريره الوثير داخل المنطقة الخضراء، تلك القُبْلَة المديدة المدوِّخة في كابينة اللُعبة الحديدية الدوّارة في مدينة الألعاب. أعظم قُبْلَة حظيَ بها على الإطلاق، ثم الاختفاء الحاسم لليلى بعدها، حتى ظهورها مع عبد العظيم في حديقة بيت الدكتور واصف.

لقد بذل مجهوداً هائلاً لنسيانها، ونجح في ذلك، ثم أنستْهُ أجساد نساء آخريات المزايا الاستثنائية التي كان يفترضها لجسد ليلى. لا يستطيع حتى أن يقارن تلك التجربة اليتيمة بأشكال الألاعيب المجنونة التي قام بها مع زوجته في سنتهما الأولى. لقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تدرّب عميقاً وصار أكثر معرفة، ولم يعد ذلك الشاب الأخرق الذي استخدمته ليلى لتجربة غامضة، كمن يستخدم منشفةً وممسحةً لمرّة واحدة ثم تُرمى في المهملات. لقد حطَّمته وأهانته، ولن تكون مناسبة لذكرى رومانسيّة جميلة أبداً. هكذا انتهت صورتها في ذهنه وهكذا تخلّص منها.

ولكن، ها هي تعود من جديد، بسبب طلب صديقه المقرّب. بالتأكيد، بعد مرور أكثر من عقد وزواج وحمل لمرّتين ستكون مليئة بالبثور، سمينة بهيئة متعبة. سيكون لقاؤه بها أشبه بالإطلاقة الأخيرة على صنمٍ كان معبوداً في يوم ما. إطلاقة ستحطِّمُ هذا الصنم نهائياً وتبعثرُ أجزاءه في الذاكرة.

كان عبد العظيم قد أعطاه رقم هاتفها المحمول، وحين اتصل بها رغب لو أنها لا ترد أو يكون الرقم مغلقاً ولكن الاتصال تحقّق وسمع صوتها في الطرف الثاني تتساءل عن المتصل. أخبرها بهويته، فصمتت لعدّة ثوانٍ قبل أن ترد:

ـ أهلاً علي.. كأني أسمع صوتك في برنامجك الإذاعي. أنا مدمنة منذ فترة على سماعك.

ـ ها.. هذا شيء جميل.

ـ أخذت رقمي من عبد العظيم طبعاً.. لا أحد يعرف هذا الرقم غيره.

ـ أه.. هو من أعطاني إياه.

ـ يريدك أن تتوسَّط لارجاعي.. هذا من سابع المستحيلات طبعاً.

ـ اعطني فرصة فقط ليلى.

ـ لا توجد فرصة علي.. إنسَ هذا الموضوع نهائياً، ولكن تعال لأراك فقط.

شعر علي بالارتباك. أخذ العنوان منها، ثم قبل أن يستعد لهذه المقابلة، شعر بأنه من الضروري إبلاغ عبد العظيم بنتيجة الاتصال. وحين ذهب إلى مكتبه لم يعثر عليه، قال له بعض الضباط المساعدين أن الزعيم غادر بطائرة مروحية إلى قاعدة عسكرية قرب تكريت، لأن هناك معلومات عن انشقاق بعض الفصائل العسكرية بتحريض من الحكومة المحليّة لتكريت وأعضاء سابقين في مجالس المحافظات الخاضعة لتنظيم الدولة الارهابية.

ـ ٦ ـ

وصل إلى بيت ليلى، كان شقة واسعة رَثّة يلعب فيها طفلان مشاكسان في عمر السادسة والخامسة. فتحت له الباب ودعته للجلوس في الصالة ولم تكن مكترثة على ما يبدو لأيٍّ ترتيب مبالغ فيه استعداداً لاستقبال ضيف. كانت متعبةً بمزاج رمادي، ولكنها ما زالت تحافظ على بهائها القديم، حتى من دون مكياج على الوجه أو تسريحة شعر مميّزة.

قالت بأنها تعمل مُدَرِّسةً في إعدادية للبنات قريبة من هذا المكان، ولديها مسؤوليات كثيرة لتربية الطفلين وإدامة حاجياتها ضمن حدود معقولة، كما أنها تشترك أسبوعياً في عمل منظمة نسائية للتوعية ومساعدة العوائل الفقيرة وإقامة بعض الفعاليات والنشاطات الثقافيّة والتعليميّة.

ـ أملأُ كلَّ ذرة وقت تائهة بأيِّ شيء، حتى أمنع نفسي من التفكير بهذه الحياة السخيفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت ذلك وكأنها تستعيرُ جُملاً رنانة من صديقها القديم. كانت أكثر حدَّةً ونزقاً مما كانت عليه سابقاً، ويبدو أنها غذّت عقلها جيداً، وهذا ما يمكن لمسهُ من الكتب المتناثرة على الطاولات الصغيرة أو على رفوف موضوعة بصورة ديكور وتكوينات جمالية متقاطعة على الحائط.

ـ ما الذي تفعله الآن؟ لماذا توقّفت عن البرنامج الاذاعي؟

لم يعرف علي بماذا يجيبها. كان الشقُّ الثاني من سؤالها سهلاً. لقد توقّف بسبب حادثة إطلاق النيران عليه. ثم صمتَ عدّة لحظات وشعر بعدها بأنه من غير السيئ إخبارها بالحقيقة. إنه مستشار زوجها الضابط الانقلابي الذي تحوّل إلى زعيم الآن.

ـ زعيم على نفسه. طول عمره كان يريد هذا الشيء. بس خلي يحط عصا التبختر الخاصة به بطيزه ولا يفكر أرجعله.

استمرَّا بالكلام بايقاع متمهِّل، ورغب علي أن يؤدي الشقَّ الخاص بالواجب في هذا اللقاء فصار يَلُحُّ عليها ويؤكِّد على ضمانات قطعها عبد العظيم على نفسه، ثم تبرّع بمديح صديقه القديم، وأهمية أن يكون في وضع نفسي جيد وهو يقوم بواجباته الخطيرة اليوم. استخدم علي كلَّ ما لديه من أدوات لاقناع ليلى من دون فائدة، ثم أنهت ليلى هذا الشقّ من الكلام بدعوتها علي لتناول الغداء معها.

دخلت إلى المطبخ وظلّت هناك تُقرقعُ بالأواني، بينما علي يراقب الطفلين كيف انْسَدَحَا على الأرض وهما يتابعان الرسوم المتحرِّكة على التلفزيون.

قضي نصف النهار معها وهما يثرثران، وفي داخله كانت تعتمل أسئلة شخصية محرِّجة قد تخرِّب السير المنتظم والمريح لهذا اللقاء.

لم يطلق عليها نيران أسئلته وتركها تمورُ في صدره. ثم أقنع نفسه بأنه من الجميل عيش هذه اللحظات العادية مع ليلى، مهما كانت النتائج. من الجميل أن يترك الأمور تسير بإيقاع متوقّع من دون مفاجآت، وعليه ألّا يبدو مخبولاً ومختلّاً أمامها، فيهجم عليها ليقبّلها مثلاً أو يعترف مثل مراهق بأنه يحبُّها ويعشقها، على الأقل «كان» يحبُّها ويعشقها. من الأفضل ألّا ينسى المهمّة التي جاء بها، وان الأمر كلّه مجرد عمل أو خدمة طلبها منه صديق حميم. عليه ألّا ينسى أنها طليقة صديقه الزعيم الطارئ لبلاد محطَّمة.

ـ إن كان يحبني فعلاً فعليه لا أن يترك هذه اللعبة الانقلابية السخيفة التي أدخل نفسه بها فحسب، وإنما أن يستقيل من العسكرية كلّها.

ـ أنتِ تعرفين أن هذا طلب مستحيل يا ليلى.

ـ نعم، ولهذا أنا أطلبه منه. دعهُ يُفاجئني بالاستجابة إن كان يحبُّني حقاً.

هذا ما خرج به علي من لقائه مع ليلى، وانتظر فرصة للقاء الزعيم لإبلاغه بنتيجة اللقاء شفوياً. انقضى جزءٌ كبيرٌ من الليل من دون أن يعرف مكان صديقه، هل سيعود إلى مقرِّه أم يبيتُ في وحدة عسكرية ما نائية.

ـ ٧ ـ

كان علي مستلقياً على سريره الوثير في غرفته يتأمَّل السقف المشغول بنقوشٍ مغربيّة بعدّة ألوان وبمهارة عالية، حين رَنَّ هاتفه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحمول. فكّر بسرعة أنها ليلى، وأنها تريد أن تضرب معه موعداً جديداً لاستئناف كلامهما، ولكن حين رفع الهاتف شاهد على شاشته الرقم الجديد للدكتور واصف. جاءه صوتٌ نشطٌ وقلقٌ في الآنِ نفسه:

ـ أنت مسترخي جداً يا ولد.. هل نسيت أن نسختك الاولى على شفا الموت. تموت هناك أثناء الغيبوبة فتموت هنا وفي كلِّ مكان.

ـ أنا أفكر بهذا أحياناً يا دكتور. لن أكذب عليك. الأمر لا يشغل ذهني على مدار الوقت. الوقائع اليومية العادية تفرض سطوتها على ذهني وتبعد هذه الخيالات حتى لو كانت حقيقية.

ـ عرفت ذلك.. سيأتي يومٌ وتقول فيه مع نفسك؛ آه.. إنه أمرٌ لم يحدث أبداً. وكلّ ما مررتُ به مجرد أضغاث أحلام وكوابيس.

ـ وما الذي نفعله الآن يا دكتور؟

ـ لا تعجبني نبرتك يا ولد.. علينا أن نستعيد التعويذات السبع. علينا أن نصل إلى جرّة أبو صلابيخ في المتحف العراقي بأيٍّ طريقة، نسرقها إن تطلّب الأمر، وإلا ستموت هنا عمّا قريب يا ولد.

الفصل التاسع

الحَمَاقَةُ الكُبْرَى

- ١ -

إنسَ كلَّ شيءٍ واسترخِ تماماً يا علي. هل تتذكّر الفقاعة الزجاجية للدكتور واصف؟ ليس علينا أن ننتظر الدخول إليها حين تكون الظروف مؤاتية، بإمكاننا بفرقعةِ أصابع هكذا أن ندخل إليها وقتَ ما نشاء. دَعْ رأسك الآن في حجري ودعني أمشّط شعرك بأصابعي، لن تتأثّر أظافري ولن تخدش فروتك، لأنها لم تعدْ مثلما كانت سابقاً. أنا أقصّها الآن بسبب عمل البيت ولأني ما عدتُ أكترث لنفسي كثيراً. أفكّر بهذين الولدين؛ آدم وأيمن. أفكّر أحياناً بأنَّ عليَّ الفرار مثلما فعلتْ أخواتي قبلي. الذهاب إلى تركيا والتقديم هناك على اللجوء الإنساني. لم أعد قويّة مثلما كنت سابقاً. هل تتذكّر أنني قويّة؟ ستقول إنني مرحة وصاخبة وأشرب الحياة بجرعات كبيرة. أحبُّ أن تعتقد هذا عنّي، أمّا أنا فلستُ متأكّدة.

إنسَ هاتفك المحمول رجاءً، كان يرنُّ على مدى اليومين الماضيين. دخلتَ الفقاعة الزجاجية معي وغبنا عن كلٍّ شيء. ضابطك الانقلابي الذي لا يستطيع التفكير بنفسه ويطلب دماغك لخدمته، الدكتور واصف وخططه الغامضة بشأن تعاويذ سحريّة وأشياء مجنونة تناسبُ عقله الخرف، وليست مناسبةً لك يا علي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنسَ كلَّ شيءٍ. بإمكاني أن أغلق باب الشقة ولا نخرج مدّة أسبوع. لا تقلق بشأن الطفلين. تأتي سيارة الروضة لأخذ آدم، وتأتي بنتُ الجيران ذات الحادية عشرة لتأخذ أيمن معها إلى المدرسة القريبة كلَّ صباح. هل رأيتَ الطفلين حين صحوت؟ لن يعودا قبل ثلاث ساعات من الآن.

الأوضاع سيئة، لهذا جئتَ لي منذ أربعة أيام كي تتحدّث. لقد استنفدت كلَّ وسائلك في عمل شيءٍ تراه جيداً، وترى نفسك الآن تغرق، لهذا عليك الآن أن تجد العذر لي حين أصررت على عدم العودة إلى عبد العظيم. إنه يركبُ في سفينة مثقوبة. كان قد رأى الثقوب فيها قبل أن يصعد، ولكنه لم يبالِ ولم يكترثْ. ربما شعر في نفسه أنه قادرٌ على علاج هذه الثقوب. لقد استخدمك أيضاً كصمغٍ في عملية العلاج. ولكنك وصلتَ إلى النهاية، لهذا هربتَ. لم ترجع إلى شقتك ولا إلى بيت أخيك عمّار، لأن عبد العظيم سيعثرُ عليك. جئت إلى هنا وأنت تسألني ما الحلُّ. مضت أربعة أيام هنا وأنت تتناول الحبوب المهدئة وتشرب خلال الليل، عازلاً نفسك في غرفة النوم، حتى لا ينتبه لك الأطفال أو يتساءلوا عن وجودك. أنا لا أملك الحلَّ يا علي. ليس عندي سوى هذه الفقاعة الزجاجيّة، وأحسبُ نفسي أنني أعيش فيها منذ عشر سنوات، أعيش فيها وحدي مع الطفلين، وأنت جئت لتدخل فيها بإرادتك. تقول بأنك لا تعرف، ولكنك مرتاحٌ الآن لانقطاعك عن الزمن، لرائحتي في السرير، ثرثراتنا الطويلة المتشعِّبة عن تفاصيل تافهة لا علاقة لها بمصائر كبيرة. أنت وأصدقاؤك الذكور تهتمُّون كثيراً للمصائر الكبيرة، أنا أهتمُّ بالنجاة فقط. لا أريد أن أضعَ اسمي على شيءٍ عظيم، حتى لو

كان شاهدة قبر فاخرة. أريد من الآخرين أن ينسوني تماماً، أريد الاستغراق في تفاصيلي التافهة والبسيطة، والتي غدت منذ سنوات، تفاصيل تشمل الطفلين أيضاً.

إنسَ كلَّ شيءٍ واسترخِ تماماً. دَعْ رأسك في حجري. كم أحبُّ أن أردّد ذلك ألف مرّة على مسامعك. يعجبني أنك تستسلم الآن لي ولكلماتي، ولكني أخشى أنني أرتكبُ خطيئة جديدة بذلك. ربما عليك أن تخرج لمواجهة مسؤولياتك. لا يمكن لك الفرارُ ببساطة هكذا حينما يتغيّر المزاج أو تفقد الفضول. لقد استمعت لك جيداً خلال الأيام الماضية، ولكني آسفةٌ، لا أستطيع تصديق حكايات الأبواب الطباشيريّة ما بين العوالم. إنها فكرةٌ جميلةٌ للفرار السهل من المسؤوليات. تنفع لإراحة الدماغ قليلاً. لها مفعول مخدر لطيف، ولكنها ليست حلّاً. بل ربما ستجعل مواجهة المشاكل القابعة خلف الأبواب فيما بعد أمراً عسيراً وصعباً بدرجة أكبر.

ـ ٢ ـ

أنت تعرف بأن الاميركان خدعوا عبد العظيم وزملاءه. كان عليك أن تخبره بذلك، لا أن تهرب منه. أنا مستاءةٌ منه لأسبابي الشخصيّة، بينما الأمر مختلفٌ بالنسبة لك. لا معنى لكلامك عن التناقض الذي صرت تعيشه، بسبب قدومك خفيةً إلى بيتي من دون علمه. شعورك بالخيانة لصديقك، أو ربما خوفك من انكشاف الأمر أمامه. لسنا زوجين أنا وهو، ولستَ مطالباً باتخاذ موقف تجاه هذا الموضوع. أنت وحدك من يفترض أن هناك شيئاً ما يمكن أن يستمرَّ بيننا، أنا وأنت.

لقد نثرتَ كيسَ أسئلتكَ أمامي، وأظنُّ أنني أجبت عنها كلّها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لماذا لم تتجرَّأ سابقاً لقول هذا الكلام؟ لماذا انتظرت خمس عشرة عاماً لتكشف لي هذه الأشياء؟ لا تُبَحْلِقْ في وجهي هكذا، أنا لا أنتظر منك جواباً الآن. استرخِ فقط ودعني أمشِّطُ شعرك بأصابعي وأثرثر. استمعْ فقط. برج الجوزاء لا يتيح لأمثالنا الاسترسال هكذا بشكل متصل غالباً. إنها من النوادر.

أنت ترفضُ أن ترى كلَّ ما جرى بيننا على أنه سلسلة أخطاء. تراه قدراً متسلسلاً. أنا لا أعرف بصراحة، ولكني أخبرتك. قبل أن يترك عبد العظيم كليّة الفنون بشهرٍ تقريباً. جلس معي في كافتريا قريبة على الكليّة. كنا خارجين بعد نهاية الدوام، وأعلن أمامي عن نواياه. كان الشخص الوحيد تقريباً الذي لم يُحاول إغوائي. أعرف أنك لم تُحاول هذا أيضاً، ولكنك كنت تبدو لي خارج دائرة هذه الانفعالات التي تُحرِّك الآخرين. كنت نبيَّنا النقي. حتى مع قُبْلَتي في كابينة اللُعبة، كان جزءٌ شيطانيٌّ منّي يريد تخريب هذه الصورة النبويَّة. وكأنني أحببتُ تدنيسك قبل أن يذهب كلٌّ منا في طريقه بعد التخرُّج.

رفضتُ عرض عبد العظيم طبعاً. لا أريد الارتباط بشخص من دون أن أكون بحاجة إليه وأرغب به بشدّة. هناك أشخاص مؤهلون كثر من حولي، ولكني أوهمت نفسي على الأغلب بأن حاجتي ورغبتي الشديدة هي من ستحدِّد الشخص المناسب.

ظلَّ عبد العظيم يُلاحقني، أراه في الأسواق والشوارع، ثم فاجأني ذات مرّة وهو يتجه إليَّ قرب حيّنا السكني وصار يُرافقني حتى المنزل. لم يكن يطلب شيئاً، وحين كنت أخبره بأن هذه المحاولات لا تنفع وعليه أن ينسى الموضوع برمّته، كان يضحك قائلاً بأنها مجرد مصادفات، وعليّ ألّا أحمّلها بتفسيرات مبالغ فيها. لم أصدقه طبعاً. ثم اكتشفت أن والده الضابط المتقاعد يعرف أحد أقاربنا. كان

معه في العسكرية، وبين ليلة وضحاها تشابكت علاقات تمَّ إحياؤها في الخلف من دون علمي. وصار والدي يتحدَّث لي عن اللواء حامد محمد نعيم وأن هناك صلات قرابة بعيدة، ثم باغتني بسؤال عن ابنه الذي كان يدرس معي في الكليّة نفسها.

ما الذي أقوله؛ لقد حاصرني تماماً. ووجدت عبد العظيم يقوم مع والده وبعض أقاربه بزيارة عادية للاطمئنان على صحة والدي، وكأنهم كانوا فعلاً على علاقة تجيز هكذا زيارات.

كنتُ في تلك الفترة أحاول إكمال دراستي العليا، وفشلت في الأمر، ثم اتجهت إلى التوظيف. لم أجد عملاً سريعاً. كرهتُ أن أبقى جالسة في البيت، أو أتلقى مصروفاً من أبي. كرهتُ أن أكون ضعيفة أنتظر معونةً من أحد.

بعد ملاحقة لخمس سنوات زاد ضغطها في السنة الأخيرة مع التطور الذي حصل بتوظيف البُعد العائلي وصلات القرابة والصداقة، ومع رؤيتي لوجه عبد العظيم أينما إلتفتُ، صرت مقتنعةً بأنه الرجل المناسب. على الأقل لم يكن الأمر نزوة عابرة لدى عبد العظيم. إنه مصرٌّ على الارتباط بي اصراراً ثابتاً ومستقرّاً. ما الذي تريده البنت من الرجل أكثر من هذا يا ترى؟!

ما أريده أنا؟! لا تسألني هذا السؤال، لأن جوابي معقَّدٌ غالباً. أحبُّ أن أصعد إلى صفة عامة تربطني بما تريده البنات الأخريات، هكذا أشعر بأمان أكثر. أن أنظر لنفسي ضمن معايير طبيعية عامة.

ـ ٣ ـ

كان عبد العظيم قد غدا ضابطاً يخدم في وحدة عسكرية نائية في منطقة ميخاس شمالي خانقين، وصرت متعودة على لقاءاته الدورية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنتظمة. ولكنّا لم نتفق على إعلان ارتباطنا. كنتُ مذعورةً من الفكرة، وطلبت منه أن يحترم رغبتي، وهي الفترة نفسها التي قادني فيها إلى حديقة الدكتور واصف وشاهدتك هناك بعد افتراق بضع سنوات.

كنت مؤمنةً تماماً أن عبد العظيم نسوانجي ويغرق في علاقات متعددة عابرة، ولست واثقة من كونه سينقطع فعلاً عن عادته هذه. أنها تشكل مزاجه على مدى سنوات، فكيف ستقوم امرأة واحدة بتغيير هذا المزاج بشكل حاسم. إن كانت هذه القصّة تنطلي على أخريات فلا يمكنها أن تخدعني أنا.

صارت أكثر سجالاتنا تتركّز على هذه النقطة تحديداً. مع اتجاهنا المؤكّد إلى الخطبة ثم الزواج. ما الذي يضمن أنه سيبقى وفيّاً لي. لا علاقة لي بما كان يفعله سابقاً. وأعرف بأنه لن يحبّ أيَّ امرأة بمجرد نومه معها، ولكن كيف سأقنع نفسي بأن هذا الأمر لن يخدشني، ولن يؤثر على قيمتي في عين رجل سيكون رجلي الوحيد.

فتحنا دفاتر بعضنا البعض الآخر، وتبادلنا كلاماً قاسياً. تحدّث عن علاقاتي السابقة وأنكرتُ أيَّ علاقة جدية، ما عدا قُبلٍ وأحضان عابرة لا أهمية لها. لم أنم في حضن رجل ما بشكل فعلي، وهو لا يملك دليلاً على ذلك. ثم أجبرته على الاعتراف، وعدد أمامي أسماء نساءٍ ارتبط بهنَّ، كُنّ عشرة على حدِّ زعمه. وبافتراض أنني صدقته، وقفت أمامه وقلت له؛ أنا لا أريد أن أكون الرقم أحد عشر في قائمته.

لم أكنْ جادّة تماماً فيما أقول. كنتُ أشعر وكأنني أمثّل دور بنت عادية في مثل عمري ممن أراهن حولي في الشارع والسيارة والسوق وما إلى ذلك. كرهتُ أن أجلس في الكرسي العميق المخصص لي

في ذاتي، وأن أرى الأشياء من خلال هذا الكرسي. سيكون المنظر مختلفاً تماماً. وربما سأركُلُ عبد العظيم بقوّة وأبعده من أمامي نهائيّاً.

قال بأنه يتقبَّل فكرةَ أن لي علاقات جديّة مع شباب آخرين. إنه شخصٌ متحضرٌ ويؤمن بالمساواة، ليس بفرص الحياة والعمل، وإنما حتى في هذا الجانب المحرج أيضاً. ولا داعي لأن أكذب بهذا الخصوص. عليّ أن أعترف أنا أيضاً.

ضحكتُ وقلتُ له؛ لو أنني مررت بتجارب مماثلة فلن أكذب عليه. لست أنا التي صرفت خمس سنوات في الملاحقة بهذه القصّة. أتذكّر جيداً أن بعض هذه النقاشات كانت تنتهي بنهوضه وشعوره بالانزعاج الشديد وهو يشتم ويصيح بوجهي واصفاً إيايَّ بأنني صعبة جداً ومجنونة وسأخسره في نهاية المطاف.

الغريب أنني لم أكنْ اكترث ولم يكنْ يتحرَّك فيَّ شيءٌ. بل ربما سحبتُ أنفاسي وشهقت بارتياح وأنا أراه يغادر. أعترف بأنني في العمق كنت ألعب به. لا فائدة من الإنكار، هناك جانبٌ شيطانيٌّ فيَّ لا أستطيع ترويضه.

في اللقاء اللاحق شعرتُ بأن شيئاً ما تغيّر فيه. قال بأنه سيتحدث بصراحة. ليست في قائمته عشر بنات سابقات ولا أيّ شيءٍ من هذا الهراء، هُنَّ كثيرات ولا يعرف عددهن أصلاً، وخلال الفترة الماضية كان على علاقة بامرأة مطلّقة، ولم يستطع تركها إلّا بصعوبة، وهو يعرف نفسه جيداً. لن يستطيع مقاومة الإغواء. لم يكنْ بحاجة لأن يشرح لي أن الأمر لا يتعلَّق بالحبِّ والعشق والغرام والرومانسيات، إنها غريزةُ الدِّيْك الذي يَنِطُّ على أسطح الجيران بحثاً عن دجاجات جديدة. إن الحياة كلّها في هذا البلد تافهة حدَّ اللعنة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولا شيء مهم فيها سوى الشعور بدفق الحياة الذي يسوّغ الاستمرار ليوم آخر. مجرد تأجيل فكرة الانتحار يوماً إضافياً لا أكثر. وظلَّ يؤكد أن عليَّ ألّا أنسى أنه عضو في جمعيّة المنتحرين الذين لم ينتحروا بعد. وكأنها جمعيّة حقيقية لها بناية وأوراق انتساب ومنهاج وبرامج وأعضاء كثر.

قال ذلك وكأنه يُعلن تعبه من هذه المبارزة التي استمرّت عدّة أشهر، تنقطع بسبب إلتحاقه إلى وحدته العسكرية ثم تتجدّد بعد ثلاثة أسابيع وهكذا. وضعني أمام موقف حاسم ونهائي يلخص كلَّ الكلام الذي تبادلناه، وشعرتُ لأول مرّة بأنه يُجازف بخسارتي فعلاً. قال بأنه لا يستطيع تغيير أمرين؛ الأول؛ حبّه الكبير لي والذي لن يعوّضه أو يملأ غيابه شيء، الثاني؛ شهوته المفتوحة لأجساد النساء، بما يشبه الحالة المرضية. هل أستطيع التصديق بالشقِّ الأول والتكيّف مع الشقِّ الثاني؟

قلتُ له بأنني سأفكر، ثم حملتُ حقيبتي وغادرتُ غاضبةً، وفي الإجازة التالية، كان ينتظرني على أحرٍّ من الجمر. كنت قد فكّرت طويلاً بكلامه الصريح، وحاولت تفهّمه، ولكني في الأيام الاخيرة ما قبل لقائنا تلبسني شعورٌ هائلٌ بالقرف. وأردت إزعاجه بشدّة. ولم أفكّر بأني أنا من دفعه لأن يكشف عن دواخله بصراحة شديدة. لماذا لم أنتبه أن دواخل كلِّ رجل فيها أشياء عفنة وقبيحة الرائحة، وهي أمر طبيعي، وعلينا أن نحترم محاولات الرجل لإخفاء هذه الرائحة والتغطية على القباحة التي تنزُّ من هذا الجانب أو ذاك. لماذا أجبرته على كشف نفسه وتعريتها أمامي ثم أقوم بردّة فعل سلبية تجاه ذلك؟! لم أكنْ مؤهلة لأن أكون رحيمةً في تلك الأوقات. وحين ألتقيت به بعدها أخبرته بصراحة بموقفي النهائي؛ أنا أتقبَّل هذه الازدواجية التي

تحدث بها. لا توجد امرأة أخرى حسب علمي قادرة على تقبّل ذلك. أقبل أن يكون رجلي وأن أكون محبوبته الوحيدة، وفي الوقت نفسه أن يكون هناك احتمال دائم بأنه يحتضن جسد امرأة مجهولة في مكان لا أعلمه. انفرجت أسارير عبد العظيم من الدهشة، وسارع إلى الشعور بالراحة من دون أن ينتظرني وأنا أوجه له ضربتي الخاصة. رفعتُ يدي مانعةً أيّاه من التعليق على كلامي، فأنا لم أنتهِ بعد. أكملت وقلت له؛ ولكن، في مقابل ذلك عليك أن تترك لي فرصة أن أجرّب أجساد رجال آخرين غيرك. أنت قلت في اعترافك الأول أنهنَّ كُنَّ عشر نساء، اللائي مارست الحبّ معهن. سأعتبر هذا العدد معياراً. أريدك أن تتركني أخوض علاقات عابرة مع عشر رجال، عشرة أجساد رجالية، قبل أن ترتبط بي.

قَلَبَ الطاولة الخشبيّة الصغيرة بيننا وانسكب واحدٌ من كوبي الشاي على ملابسي، وتركني وغادر بسرعة من دون أن ينبس بكلمة واحدة.

ـ ٤ ـ

اختفى لعدّة أيام، وأنا قلت مع نفسي بأنه أخذ ما يكفي من جنون برج الجوزاء ولن يعودَ لي أبداً. صدقني كنت مرتاحة تماماً. لم يكن الزواج بعبد العظيم إنجازاً عظيماً. لم يكن فتحاً لباب الدهشة والعوالم الملوّنة. ما عدت قادرة على تصديق عوالم مشابهة. إنه التفكير فحسب بعقل البنات في مثل عمري. عقلي أنا شخصيّاً ليس نافعاً بشيءٍ. كنت أشعر بالمرارة من اعترافه بأنه يريد النوم مع نساء أخريات حتى بعد زواجنا، شعرت بالغضب، فانتقمت لنفسي وانتهى الأمر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في اليوم الأخير من إجازته الدوريّة. جاءنا إلى البيت واستأذن والدي بخروجي معه. كانت عائلتي مطمئنة، ليس لنوايا شاب غريب، وإنما للأواصر بين عائلتينا التي تمَّ تنشيطها في السنة الأخيرة. وكان الجميع يتصرَّف وكأننا مخطوبان فعلاً.

حين رأيته جالساً في الصالة شعرت بالضعف فجأةً وداهمني شيءٌ من الخجل. وكنت مستعدةً لتحمل الكلام القاسي الذي أجّله بعد قَلْبِهِ للطاولة الخشبية في آخر لقاء بيننا. لقد أزعجته وهذا يكفيني الآن، وعليّ أن أعيد قواعد اللعبة والاتفاق إلى المتعارف عليه بين الفتيات بعمري والشباب بعمره. ولكنه فاجأني. قذف بنفسه بعيداً، أبعد مما كنت أتوقّعه. أخذني بسيارته وظلَّ يدور بي من دون أن نرصف بجوار كافتريا أو مكان ما، وخلال الطريق كان ينظر إلي نظرات غريبة. بعدها انفتح بالكلام وقال بأنه مستعدٌّ، إن كان هذا يساعد على اتفاق نهائي وحاسم، على تقبّل فكرة أنني سأنام مع عشرة رجال قبل زواجنا. ولكن بشرط ألّا يسبب هذا الأمر أيَّ فضيحة. يجب أن أقوم به بعناية، ومرّة واحدة مع كلِّ رجل. يجب أن يكون الرجال مجهولين، ومن خارج دائرة علاقاتنا المعتادة. وهو لن يفاتحني بأيِّ أمر يخصُّ علاقتنا حتى تنتهي قائمة الرجال العشرة. لن يسأل عن هوياتهم، ولن يستجوبني عن مشاعري وكيف قمت بالأمر وانطباعي عن التجربة، أو حتى احصائيات مفترضة عن أفضل الرجال العشرة في السرير. سيتعامل مع الأمر وكأنه لم يحدث أبداً، وعليَّ أن التزم بذلك أيضاً.

لم أصدق كلامه طبعاً. كنت أراه يندفع معي في مضمار الجنون. يدفع فرسَهُ لأن تتقدَّم على فرسي، وكأنه يقول لي؛ أنظري لستِ المجنونة الوحيدة في هذا. أنا أكثر جنوناً منك.

وافقت على كلامه، ثم قادني إلى مطعم وتناولنا الغداء فيه، وظلَّ متوتراً طوال الجلسة، حاول أن يثير مواضيع وقضايا تتعلّق بصحّة والدي وعملي في التدريس الذي باشرتُهُ حديثاً، وأشياء لها علاقة بالدكتور واصف والجلسات الأسبوعية في حديقة بيته. جمعيّة المنتحرين وما إلى ذلك، ولكنه ظلَّ يمثّل أمامي الاسترخاء. بدا وكأنه ينتظر مني كلاماً محدّداً يريحه. كأن أقول له مثلاً؛ يا عبدو.. أنا آسفة، إنسَ كلَّ هذه الخرابيط. أدعُ أهلك كي يخطبوني ولننتهي من هذه الحماقات التي نمارسها.

لم أنطق بشيء يزيح توتره. كنتُ قاسيةً، وشعرت بأني أجلده بسياط خفيّة، وكأنني آخذ سلفاً ثمن النساء اللائي سينام معهن في المستقبل. هذه طريقتي ربما للشعور بالراحة. أزعجه فارتاح أنا. أريحه فانزعج.

فيما بعد أكّد لي بسلوكه وكلامه معي أنه يأخذ على محمل الجَدِّ الاتفاق الذي حصل بيننا. كنت مستغربة، فما الذي فيَّ أنا يميّزني عن غيري. لماذا يقاتل بشدَّة من أجل الحصول عليَّ. لماذا لم يحاول إغوائي مثلما يفعل مع نساء أخريات. ينام معي ويروي ظمأه مرّة ومرّتين، وربما يضعف اهتمامه بي لاحقاً. لم أكنْ منيعةً ضد الإغواء، وفكرتُ أحياناً بأن لعبة الزواج والارتباط مجرد جسر لهذا الهدف ليس إلّا.

لست مجنونة طبعاً لأذهب لاصطياد عشرة رجال مجهولين للنوم معهم. ربما أنام، تحت ظروف معينة، مع عشرة رجال، ولكن سأكتشف لاحقاً أنهم غدوا عشرة رجال. لا توجد امرأة متوازنة نفسيّاً تفعل ذلك في وقت وجيز. إنها تجربة حياة كاملة. يجب أن يكون هناك مبرِّر قوي لخوض تجربة مماثلة ضمن حيِّز زمني محدود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أكن أخطط لذلك بشكل جدّي. أعترف بأنني صرت أنظر في وجوه الرجال من حولي. ثرثرت مع زميل لي في المدرسة. تركته يتلامسُ معي أثناء الخروج أو الدخول من باب غرفة المدرِّسين. جعلته يشعر بالارتباك من سلوكي تجاهه. ولكني شعرت بالارهاق فجأةً من مجرد التخطيط لأن تقود كلٌّ هذه الألاعيب إلى السرير. سيتطلب الأمر وقتاً طويلاً مع هذا الزميل المتحفِّظ والخجول، وتكاليف نفسيّة وكلاماً وتخطيطاً، ثم سأعرض نفسي أمامه إلى إمكانية الاتهام بأنني مجرد عاهرة. سينتشر هذا الأمر سريعاً. لا يحتفظ الرجال بتجاربهم لأنفسهم، إنهم يستثمرونها سريعاً لتكوين سمعة ما بين أصدقائهم. لقد نمت مع هذه الزميلة، فعلت بها كذا وكذا. وهكذا سأتحوّل إلى عاهرة رسميّة، حتى من مجرد علاقة عابرة. وربما سأضطر إلى ترك المدرسة.

أسوقُ هذا كمثال لصعوبات تطبيق فكرة الاتفاق المجنون مع عبد العظيم. يا له من مسكين. عليّ أن أجلس أمامه وأعترف بأن الأمر كلَّه مجرد مزحة خبيثة منِّي. وعلينا أن نطوي هذه الصفحة بسرعة. ولكن الجانب الشيطانيَّ منّي لم يقبل. لماذا عليَّ التراجع مذعورةً من أيِّ خطوة تخصّني أنا، لا تخصّ نمط الفتيات الأخريات من عمري؟!

ـ ٥ ـ

في تلك الفترة كنت أنت أمامي بلسعات عيونك اللامعة والذابلة. أحسستُ بك، وأنت ترمي لي بنظراتك من على كرسيك بجوار الدكتور واصف في ثرثرات الحديقة. ثم انتهى الأمر بيننا إلى ما تعرف.

لم يكنْ البيت الذي جلسنا فيه لأختي، وإنما لصديقة قديمة من أيام الدراسة الثانوية اسمها جيان. بذلت جهداً كبيراً من أجل ألّا تظن بي السوء. ألَّفتُ قصصاً طويلة ومعقَّدة عنك وعنّي حتى تشعر فعلاً بأنني لستُ مبتذلة، وإنما هي علاقة جديّة. وفي مساء اليوم نفسه بعد افتراقنا أحسست بخطأ رهيب. لقد أعجبني ما حصل. أعجبت به بشدّة، إلى درجة أنني فكرت بتكراره مرّة بعد أخرى.

شعرتُ بأن هناك شيئاً لم أستكشفه معك، يحتاج إلى تجربة ثانية لأعرفه، وفي الوقت نفسه كان الجانب الشيطاني منِّي يقول لي: يا بنت.. هذه الثغرة في الشيء غير المكتشف بعد ستزحف منك دائماً، ستنامين مع هذا الشاب مرّتين وثلاثة وعشرة وأنتِ تلاحقين الثغرة في محاولة ملئها ولن تنجحي بذلك. أنت تقعين في حبّ الشاب، نبيٍّ مجموعة الأصدقاء المقرّبين القديم، وسيتخرَّب كلُّ شيء من حولك بسرعة هائلة.

أنا أعتذرُ لك يا علي، ولكني لم أكن واثقةً من أنك تريد شيئاً ثابتاً وواضحاً بالدرجة نفسها التي كان يبدو عليها عبد العظيم. لا يوجد أشخاصٌ من حولي مثل عبد العظيم. كنت قد بدأت أشعر بالجبن، وخشيتُ إنْ فقدته أن أبقى معلّقة به كمعيار للرجال الذين يمكن أن يرغبوا في الارتباط بي. وكنت شبه متأكّدة ألّا أحد سينجح بالاقتراب من هذا المعيار. سأغدو وحيدة بشدّة.

عاد عبد العظيم من إجازته الدورية مع خبر جيّد. لقد انتقل إلى وحدة عسكرية جنوبي بغداد، سيكون في البيت ما بعد الظهر من كل يوم. في ذلك اليوم كان كلُّ شيء واضحاً في ذهني بصورة لم أعهدها سابقاً. وأحسست بأن فتاة برج الجوزاء الجالسة على كرسي الذات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العميقة عقدت هدنة مع فتاة المعيار العام للفتيات بعمري واللائي يحيينَ حولي.

قلت له بأنني لن أتقبّل أبداً فكرة أن ينام مع نساء أخريات بعد زواجنا. وإن كان مضطراً لذلك فعليه إخباري بهذه المرأة. عليَّ أن أكون على اطلاع تام على كلِّ التفاصيل، كما أني متنازلة بدوري عن حقِّي في الاتفاق الأخير بالنوم مع عشرة رجال قبل الزواج.

شعر عبد العظيم بفرحٍ هائل، دفعه لإعلان جديد، شعرت بأنه متعجّل وغير حقيقي تماماً. قال بأنه لن تكون هناك من امرأة غيري في حياته. وأنه يعرف أنه سيلتزم بهذا الاتفاق. صرنا بعد هذا الكلام شخصين عاديين، مثل مئات الشباب والشابات حولنا. متفقين على الوفاء لبعضنا في حياتنا العلنية، مع حقٍّ شخصيٍّ بحياةٍ سريّةٍ مملوءةٍ باحتمالات الخيانة. عدنا إلى المضمار الرئيسي لحياة الآخرين. وهذا السبب، كما يبدو واضحاً لك، في أن تفاصيل حياتنا اللاحقة سارت بالمضمار نفسه، وعلى وفق محطات يعيشها الآخرون أيضاً.

استمرَّت خيانات عبد العظيم. وكان أحمقَ بدرجة سوبر، لأنّه يسكرُ ويعترفُ لي كيف لَثَمَ مؤخرة هذه الفتاة، أو كيف قَذَفَ من دون واقٍ ذكريٍّ في رحم امرأة متزوِّجة. كانت هذه مواد متفجرة يضعها في حجري بسذاجة بالغة.

إنه شخصٌ غير صالح للزواج وتكوين أسرة. والجزء الخاص بي من الحماقة أنني أنجبتُ منه ولدين. وفي كلِّ الأحوال كان لهذه الحماقة عمرٌ معيّن وانتهى.

ثم أنني بمرور الزمن صرت أتيقَّن من نوعٍ أكبر من الحماقة، حماقة واحدة على الأقل، يمكن أن أسمّيها «الحماقة الكبرى». أتعرف ما هي؟ سأخبرك بها الآن يا علي. إنه الوقت المناسب

لذلك. لقد خفتُ من نفسي يا علي. صدقتُ كلام عائلتي وصديقاتي بأنني مجنونة ولن ينفع جنوني في رسم حياة واضحة يمكن أن تتطوّر وتنمو. لذلك جبنتُ وصرتُ أبحث عن معيار حياة البنات في مثل عمري من اللائي يحيين حولي.

الحماقة الكبرى أن زواجي من عبد العظيم كان بوحيٍّ من هذا المعيار، بينما قمعتُ بشدّة نداء صورتي الجالسة على كرسي ذاتي العميقة. لم أُتحْ لها أن تتعرَّف على الأقل على عالمها الذي تريده. لم أثق بهذه الذات، خفتُ منها وحاصرتها وقمعتها.

ـ ٦ ـ

أتدري ماذا كانت تريد هذه الذات؟

كانت تريد العودة في اليوم التالي إلى حديقة الدكتور واصف والجلوس بجوارك. إمساك يدك وضغطها قليلاً، بينما أعينُ الآخرين تلاحظ ذلك. أفعل هذا الشيء عن عمد حتى يلاحظ الآخرون أن هناك شيئاً ما بيننا. ثم أنظر إليك، إلى عينيك، حتى ترى فيهما تلك النشوة الغريبة لتواطئنا، وكأننا كلما تبادلنا النظرات رأينا عُرينا السرّيَّ في عيون بعضنا البعض الآخر.

كانت ذاتي العميقة تريدُ السير في المجهول الذي بدأ منذ أن مرَّ لسانك على صدري وبطني، ثم شعوري بالبرودة الطفيفة لمرور الهواء على خطِّ لعابك. كانت ذاتي قد أعلنت لي في الليلة التي تلت لقاءنا أنها تشتهيك بقوّة، ولكني صفعتها على وجهها وأجبرتها على الانزواء في العتمة.

لم يكن الأمر مصادفة أنني دعوتك للقائي هنا. كنت أتابعك من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعيد على مدى أشهر. علمت بزواجك، وهذا ما صنع حاجزاً نفسياً بيننا، ثم علمت بطلاقك. كنت أسمع ثرثراتك كلٍّ ليلة في برنامجك الاذاعي، وأتذكّر حينها لماذا اخترت الذهاب معك كأول رجل بين العشرة رجال المفترضين. لم تكن تبدو مثل الآخرين، لن تستعمل انكشافي العاري أمامك كقصّة للتسلية بين أصدقائك. هكذا شعرت، والسنوات اللاحقة أكّدت هذا الشيء. لقد دفنت لقاءنا اليتيم عميقاً وكأنه لم يحدث، حتى كشفته أمامي الآن بعد مضي كلٍّ هذه السنوات.

كم تبدو أحمقَ يا علي. كان عليك مطاردتي. العلاقة الناجحة لا تأتي بقتال طرف واحد في سبيلها، لم يكن إختفائي حجّة لتوقف البحث عني. لديك الكليّة وبقية أصدقائنا الذين أكملوا الدراسات العليا. لا بدَّ أنك كنت ستعثر على خيط يدلّك عليَّ. لكنك استسلمت، هذه حماقتك الكبرى، لأنك كما يبدو لي، تشعر بأنك مؤهَّل للألم أكثر من أيِّ شيء آخر. تتقبَّل أن تتجرَّع حصَّة أكبر من الآخرين من الألم، ولا تكافح من أجل دفعه، لأنك تصدِّق بأنه قدرك. ولكن هذه مجرد أكاذيب وأوهام يا علي. لا يوجد ألمٌ كثير إلا بقدر تهاوننا في دفعه وإزاحته جانباً.

- ٧ -

ها.. تقول إنني صرت فيلسوفة الآن وأخذت وظيفتك القديمة؟ يا عزيزي.. ألّا ترى كم نحن متشابهان؟

لا، ليس كلامي هذا تعبيداً لطريق جديد يمكن أن نسير فيه معاً أنا وأنت. لا يمكننا الارتباط بشكل دائم الآن. ليس أمامك سوى أمرين اثنين؛ إمّا أن تبقى في الفقاعة الزجاجيّة إلى وقت غير معلوم.

تختفي من الحياة العامة وتبقى ها هنا في فقاعتي الخاصة وتنسى التفكير بما سيحدث بعدها والترتيب لأيٍّ خطوات لاحقة. تغرق بما تسمّيه الجنّة، وأتعهدُ لك بأن أجعل أوراقي العطريّة متشابكة فوق رأسك وأمنع أيَّ خطّاف أسود قبيح الشكل من العثور عليك. وهذا خيار صورتي الجالسة على كرسي الذات العميقة طبعاً.

أما الخيار الآخر فهو متعلِّق بمعيار البنات اللائي في عمري ويعشن من حولي، والذي يقول لك؛ من الخطأ الهروب من المواجهة مع عالم الرجال المجانين في الخارج، يجب أن تخرج لتواجه عبد العظيم والأخطاء التي شاركت في صناعتها وتتحمَّل مسؤولياتك.

في كلِّ الأحوال يظنُّ عبد العظيم بأننا سنعود لبعضنا في المستقبل، وهذا ما يجعله صبوراً وهادئاً بشكل ما. أمّا إنْ عَلِمَ بأنك تنامُ معي فسيقتلك ويقتلني. ثِقْ بذلك، فأنا أعرف جيداً ذلك الجزء المجنون من عبد العظيم، ولن أنصحك بالتعرُّف عليه أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل العاشر

مَا يَقُولُهُ التَّارِيخ

- ١ -

كان من جديدٍ في سريره الوثير بمنامه داخل القصر الجمهوري. ورغم رفاهية المكان إلّا أنه لا يشعر بالراحة. عاد إلى حفرة النار بخُطّافٍ شيطانيٍّ سحبه من الأحضان الدافئة لليلى. لم يكن القرار سهلاً. شعر بأن عليه أن يعمل شيئاً، وحرّضته ليلى على ذلك. قال لعبد العظيم في اتصال هاتفي بأنه في عُزلة ضرورية للتفكير، ولم يصدِّق عبد العظيم هذا الكلام. أيَّ عزلة تبعده عن صديقه الذي يحتاجه في أحلك أسبوع مرَّ عليه في حياته. وبعد سجال طويل عبر الهاتف رضخ علي لرغبة صديقه بالعودة سريعاً إلى القصر بشرط ألّا يحقّق معه عبد العظيم ولا يسأله أين كان وماذا فعل.

كان الجيش يتفلتُ من بين يدي مجلس الضبّاط. صار واضحاً أن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد ثلّة من الضباط المؤمنين بالتغيير والولاء للعراق. الجيش نفسه في المراتب الدنيا لم يكن مبنيّاً بشكل مهني، وكانت الولاءات الاجتماعية قوية وأثرت على جنود كثيرين، ما جعلهم يهربون، وتناقص عدد الوحدات العسكرية إلى النصف، بل إن بعض الوحدات لم يبقَ فيها سوى الضباط الصغار الذين كانوا

يلحُّون باتصالاتهم بالقيادة العسكرية العليا لإرشادهم إلى التصرُّف الصحيح أزاء هذا الوضع الخطير.

كان المجلس العسكري في بدايات الانقلاب قد أصدر عدّة قرارات سريعة، منها ألّا تقوم الوحدات العسكرية في المحافظات الجنوبية بأيٍّ عمل خارج وحداتها العسكرية وخارج مهامها الامنية الروتينية. لا تذهب إلى مجالس المحافظات ولا تُسقّط الحكومات المحلية. تبقى متحصِّنة في معسكراتها بانتظار التطورات اللاحقة.

أما القتال ضد تنظيم الدولة الارهابية فكان قد تعرَّض إلى هزَّة عنيفة أجبرت الوحدات المقاتلة على التراجع إلى الخلف في بعض الأحيان وتقديم خسائر مؤلمة. بينما لم يتحرَّك الجيش في بغداد إلى المناطق التي تسيطر عليها الميليشيات، توفيراً للطاقة والقدرة القتالية. خلال ذلك كان هناك مشغلٌ سياسيٌّ قويٌّ في مدينة الحلّة، وطلب عبد العظيم من مجلس الضباط تخويلاً بأن يتحرَّك لاسقاط الحكومة البديلة التي يتمُّ تشكيلها هناك، بتفويض من الاحزاب الرئيسة المسيطرة على مجالس محافظات الجنوب. ولكن المجلس تردّد في هذا الأمر. لم تكن مغامرتهم العسكرية تهدف إلى تقتيل المزيد من العراقيين، وإنما لايقاف القتل.

ما حدث في الحلّة تكرَّر في تكريت، فالعشائر في المحافظة التي شاركت في تحريرها كانت مسيطرة على المدينة، وهناك تجمَّع بقايا أعضاء مجالس المحافظات التي ما زالت ساقطة بيد الدولة الارهابية، وأعلنوا تشكيلاً سياسياً يحاول إقناع دول العالم وقواه العظمى بتقديم الدعم العسكري واللوجستي للاستمرار بمقاتلة تنظيم الدولة الارهابية واسترداد الأراضي منها، بمعزل عمّا يقرِّره مجلس الانقلابيين في بغداد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاتصال بين السفارة الاميركية ومجلس الضباط، كان قد أوصل رسالة مطمئنة، بأن العملية السياسية في بغداد قد انتهت وماتت، وكان من الضروري إحداث نقطة بداية جديدة، وصار بالحوار مع السفارة اتفاق على تجميع نخب عراقية من أجل كتابة دستور جديد، وأعلن عبد العظيم في بيان على شاشات التلفزيون أنه سيحدِّد في وقت قريب موعداً لإجراء انتخابات عامة جديدة، وسيتكفَّل النواب الجدد بحقِّ التصرُّف بالمعتقلين في سجن المطار. وكان يظنُّ أن هذه الخطوات ستساعد على كسب ثقة الجانب الاميركي الأمر الذي سيدفعهم لمساعدته عسكريّاً لتثبيت الانقلاب العسكري كحقيقة صلبة وقوية لا يمكن التراجع عنها.

ولكن أيّاً من الامور الايجابية التي كان ينتظرها عبد العظيم ومجلس ضباطه لم تتحقَّق. بل أدى الاتفاق الثلاثي في منتجع كويسنجق بين الكرد وتجمع تكريت ومجلس الادارة المركزية الجديد في الحلّة، وبحضور ممثل من الجانب الاميركي إلى وضع خطّة عمل عسكري مضاد يتقدّم من المحافظات باتجاه بغداد لتحرير المنطقة الخضراء من الانقلابيين.

كانت الخطّة قد تمَّ الاعلان عنها ولم يبدأ تنفيذها بعد، بسبب جديّة المعارك مع تنظيم الدولة الارهابية. وفي يوم الاعلان حدثت مواجهات بين قطعات عسكرية وميليشيات مجهولة في بعض أحياء بغداد، وشعر عبد العظيم بالتوتر وأحسَّ بأن هناك علاقة بين الحدثين، وصار يشتم ويطلق أوامر متسرِّعة ومن دون تفكير، ولم ينصت لنصائح صديقه الفيلسوف، بل تجاهله ودخل في اجتماع مغلق مع خليّة ضباطه المقرَّبين. سادت الفوضى في المدينة وتمَّ قطع بعض الشوارع الرئيسة. شعر علي بالخوف، ووجد نفسه يخرج من المنطقة

الخضراء ويتّجه دون تفكير كثير إلى شقة ليلى من دون أن يعلم أحد بوجهته، ثم هناك قرَّر فجأةً أن هذه الفوضى ستتحوّل إلى جحيم حقيقي وأنه لا يرغب بالعودة اليه.

ـ ٢ ـ

الآن وهو يصحو، كان القرار الذي توصّل إليه أن يعمل على دفع صديقه الضابط المتهوّر إلى الهدوء قدر الإمكان ثم طلب المفاوضات من أجل تسليم المنطقة الخضراء، فهي المكان الوحيد الذي يمكن الادعاء بانه يسيطر عليه فعلاً. عليه ألّا يندفع أكثر ويتراجع. لقد انتهى الانقلاب. وعبد العظيم يعرف الآن، على الأقل، أن حليفه الاميركي المفترض، غَدَرَ به.

ـ لا استطيع تصديق هذا.. لا بدَّ أن حضور الممثل الاميركي في مؤتمر كويسنجق هو من أجل الاطلاع على المجريات وليس للتنسيق مع هذه الاطراف.

ـ أنت تخمّن لا أكثر. على حدِّ علمي لم يحصل شيءٌ يُلزمهم بدعم مجلس الضباط.

ـ لا.. حصل.

قال عبد العظيم وهو يقترب من النافذة العريضة في مكتبه وينظر باتّجاه الحديقة في الخارج. وقف هناك لثوانٍ بدت طويلة، وظلَّ علي ينتظر تفسيراً أكثر. صار عبد العظيم يضع مسدسه في حزامه أغلب الوقت، وكأنه سيتعرَّض لهجوم مفاجئ في أيِّ لحظة. كان متوتراً حتى وهو يبدو مثل تمثال ساكن، لا يُحرِّك رمشاً ولا ينطق بكلمة. ويبدو أن الايام الماضية شهدت مشادات كلاميّة داخل المجلس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العسكري، واضطراباً في اتخاذ القرار المناسب تجاه ما سيحدث في الأيام المقبلة.

- هم من أعطونا قبل سنوات منظومة الاتصال، والشيفرات الخاصة بالتراسُل داخل الانترنت.

- من هم؟

- الامريكان.. هاي شبيك!

ردَّ عبد العظيم وهو يعود بخطوات سريعة إلى مكتبه، ليقوم باستخراج ملفٍّ من أحد الأدراج ويضعه أمام الطاولة.

- إقرأ.. هذه المراسلات. كان هناك ضابط ارتباط باسم حركي اسمه جون ٣٠٠. طبعاً هذه ليست دليلاً قانونياً، ولكن لتعرف وتطّلع على خلفيّة ما جرى.

ظلَّ علي يُقَلِّب في الملف، ويقرأ بعض التفاصيل. ثم أعاد الملف على الطاولة، وشعر بأنه لا يملك وقتاً كثيراً لحضِّ صديقه على الاستسلام. عليه أن يُجازف بالقطيعة معه في سبيل إقناعه:

- انتهى كلُّ شيء يا عبد العظيم. عليك أن تتوصل إلى تسوية تحفظك من المحاكمة أنت وزملاءك الضبّاط. هذا الأمر لن ينجح. أنت لا تحكم شيئاً. لقد دخلت المنطقة الخضراء فحسب.

- مستحيل علي.. ألا ترى الناس المتظاهرين في ساحة التحرير والشوارع. ألا ترى التأييد.. الناس مَلَّت وتريد تغييراً ما. وقد لبينا نداء الناس.

شعر علي بالحزن، فصديقه يخوض في وحلِ رومانسيات ثورية بائدة، ولا يريد من أحد أن يمدَّ له يد العون لانقاذه.

- الناس تتظاهر على أيِّ شيء الآن.. بضعة أشخاص يتظاهرون

لا يعكسون إرادة شعب، وبعدين وين أكو إرادة شعب أصلاً. نحن في ركام هائل صديقي.. أنقذ نفسك.

ظلَّ عبد العظيم صامتاً، ولم يُعطِ ردّة الفعل التي توقّعها علي، لم يغضب أو يرد بحدّة. ما شجع علي للتقدُّم بنقلة أخرى أكثر شخصية.

ـ ألا تريد العودة إلى ليلى؟ كيف تعود إليها إن حصل لك مكروه؟ إن تحوّل الأمر إلى مواجهات ودماء فلن يتوقّفوا حتى يطلبوا رأسك.

نهض عبد العظيم مجدّداً وظلَّ يدور في الغرفة بما بدا وكأنه المهمّة الوحيدة التي كان يقوم بها منذ الصباح. يجلس وينهض، يشعل سيجاراً، يقف أمام النافذة، ثم يعود ليجلس. توقّف فجأةً في منتصف الغرفة وكانت ملامح الحزن والخيبة بادية على وجهه حين قال لعلي:

ـ خلي اشوف.. أفكر وأشاور مجلس الضباط.

غادر علي عائداً إلى مكتبه. ظلَّ هناك نصف ساعة من دون أن يفعل شيئاً، ثم خرج عائداً إلى سكنه الخاص، وخلال الطريق رَنَّ هاتفه. كان الدكتور واصف يتصل به.

ـ وينك يا علي.. لازم نفكر بالمعضلة مالتنا ونلكالها حل.

ـ وشراح نسوي؟

ـ تعال واني افهمك.

ـ ٣ ـ

عاد علي إلى سكنه. اغتسل وبدّل ثيابه، ثم سأل بعض الجنود عن أحوال الطريق في الخارج اليوم، وهل هناك مواجهات، وهل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عادت السيارات إلى الشوارع مجدّداً. لم يمنحوه معلومات وافية، واضطر إلى استكشاف الأمر بنفسه.

كان الموعد مع الدكتور واصف في بيته، وهناك في غرفة مكتبه شاهده بملابس أنيقة وربطة عنق رماديّة. دخلت زوجة الدكتور واصف فجأةً وهي تحمل صينية مشاريب ساخنة. كانت امرأة سمينة بشعر قصير وترتدي ملابس كاملة وكأنها ليست في بيتها. وضعت كوبي الشاي على الطاولة وسط الغرفة وسلّمت على علي وكأنها تعرفه، ثم غادرتْ. ومع تناول الشاي بدأ الدكتور واصف يتحدّث عن المعضلة التي تواجه علي:

ـ هل أعجبك هذا العالم؟

ـ لا أعرف. أشعر أنني في دوّامة.

ـ ألا يوجد شيء معين أعجبك؟

ـ ربما هناك شيء واحد على الأقل جميل، ولكنه مشوب بالخطر مثل كل شيء آخر.

ـ آه.. الأشياء الثمينة تأتي مع الخطر غالباً.

ظلَّ الدكتور واصف يرتشَّف الشاي وينظر إلى البعيد، وكأنه يحاول التركيز على شي ما.

ـ زوجتي تطلب مني أن نغادر بغداد. على الأقل حتى تهدأ الأوضاع، ولكني مشغول بقضيتك كثيراً. يجب أن نحصل على التعاويذ، وللأسف هي ما زالت مسطورة داخل جرّة أبو صلابيخ المحفوظة وراء زجاج المتحف العراقي.

ـ مشكلة فعلاً.

ـ أنت لست متحمّساً بالمرّة، ولا تبدو مهتمّاً يا علي. عليك أن

تتدخل لدى صديقك الضابط هذا. اجعله يمنحني رخصة للتعامل مع الجرّة. اجعله يعيد تعييني في المتحف إن استوجب الأمر. أو يأمر ضباطه بجلب هذه الجرّة لا أكثر.

ذُهِلَ علي من هذا الطلب. أنه أمرٌ لا يناسب الدكتور واصف، لا شخصيته ولا مبادئه، ولكنه لم يرد عليه بشيء يزعجه، لأن هدف الموضوع كلّه هو مساعدة علي، ولا مصلحة للدكتور واصف في أي شيء من هذا.

ـ الأمر صعب يا دكتور. الوضع الآن متفجِّر. ستحدث حربٌ مخيفة داخل بغداد خلال الفترة القادمة. ألا تقرأ الأخبار؟

ـ لهذا أنا أريد منك أن تستعجل.. قبل أن تحدث هذه الأشياء التي تقول عنها.

ـ صعب يا دكتور.. صديقي الضابط لا يسمع لأي شيء الآن، فضلاً عن طلب من هذا النوع لن يفهم مغزاه وهدفه.

بقي علي مع الدكتور واصف لساعة أخرى وهما يثرثران عمّا حصل لعلي خلال الفترة الماضية، ثم رغب بالخروج مع اقتراب الليل لكن الدكتور واصف قال له بأن هناك على ما يبدو حظر تجوال مبكّر. وعليه أن يقضي هذه الليلة ها هنا.

اتصل هاتفياً بليلى وأبلغها بفشل مهمّته. عبد العظيم يتّجه إلى الانتحار الفعلي ولم يسمع له، وهو لا يعرف الآن ماذا يفعل. كلما خرج من المنطقة الخضراء وارتاح على أريكة ما، كما هو الحال الآن في بيت الدكتور واصف، ضعفت دافعيته للعودة، ولكنه لا يريد أن يعمل قطيعة مع عبد العظيم بهذا الشكل. لا يريد أن يظن صديقه بأنه فرَّ مثل فأرٍ من مركبٍ غارقٍ، وأنه جبان وتخلّى عنه ولا يريد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مساعدته. لا يعرف ماذا يفعل. ظلّت ليلى صامتةً على الطرف الثاني من الاتصال عدّة لحظات ثم رمت حسرة وقالت:

ـ تعال. لا تفعل شيئاً. أنا حمقاء تماماً لأني تركتك تذهب. لا يبدو عبد العظيم بحاجتك فعلاً، كم قراراً اتخذه بالاستناد إلى مشروتك؟ أراهنك أنه لم يفعل ذلك. أنا أعرف عبد العظيم جيداً. تعالَ يا علي. من الصباح غادر باتّجاهي. اختفِ في بيتي. لن يسأل عنك عبد العظيم، ولن تحدث مشكلة كبيرة. قلت إنه ذاهب إلى الانتحار. أنت لا تريد أن تنتحر معه. هذه ليست أوقاتاً مناسبة لجمعيّة المنتحرين.

ـ ٤ ـ

ظلَّ علي سهراناً غير قادر على النوم، وتوقّع أن يتصل عبد العظيم لتفقده في أيِّ لحظة، ولكنه لم يفعل، وبدا كلام ليلى صحيحاً. كانت الأخبار في التلفزيون وعلى فيسبوك من على الهاتف المحمول لعلي تشير إلى تحركات عسكرية فعلية. ضربات طيران أميركي فعّالة على قطعات جيش الدولة الارهابية دفعتها إلى التراجع بعيداً، ما سهَّل التفرُّغ لعلاج مشكلة بغداد. لقد استخدم الاميركان قصّة الانقلاب جيداً من أجل إنهاء وضع مختنق في بغداد، والآن صار التقسيم أمراً واقعاً. لا وجود لحكومة مركزيّة في بغداد، وصارت هناك ثلاث حكومات متماسكة نسبياً في ثلاثة أقاليم. وهؤلاء سيجتمعون في بغداد لتقرير الحصص والنفوذ والصلاحيات على وفق خريطة جديدة، أنتجها واقع الانقلاب.

لم يكن مقرَّراً أن ينجح هذا الانقلاب في خلق واقع جديد أفضل. وكلُّ ما كان يصدق به مجلس الضباط مجرد خيالات

تدور في رؤوسهم ورؤوس بعض المحتفين والمتظاهرين في الشوارع.

في الصباح، بدلَ أن يذهب باتّجاه شقة ليلى، شعر علي بأن عليه إجراء محاولة أخيرة. سيجبر صديقه على ارتداء ملابس مدنية والخروج خفية من المنطقة الخضراء. لقد حصلت الفوضى التي يريدها الآخرون، ولا داعي أن يقدِّم عبد العظيم نفسه أضحية على مذبح هذه الفوضى. كانت الشوارع مقطوعة بسيطرات عملتها ميليشيات مجهولة، واستطاع المرور منها بصعوبة بسبب الزحامات الشديدة، ثم وجد أن المنطقة الخضراء نفسها محاصرة بطوقين عسكريين، وحاول بكلِّ جهده إقناع الجنود بأنه يعمل في الداخل من دون فائدة، ثم اتصل بعبد العظيم لكنه لم يرد على اتصالاته. ثم دخلت عجلة عسكرية وتوقّفت، وكان فيها ضابطٌ صغيرٌ تعرّف على علي، فصاح عليه وطلب منه الركوب معه.

دخل باحثاً عن صديقه ووجده في مكتبه، يجلس هادئاً بوجه حليق وقيافة عسكرية كاملة. كان هناك ضباط آخرون يتحدّثون مع «الزعيم»، وبعد دقائق خرجوا وتركوا الزعيم مع مستشاره الفيلسوف.

ـ سنذهب إلى الدجيل. هناك معركة يجب أن تُحسم، ثم ننزل بعدها إلى جماعة الحلّة. لن نجلس هنا مستسلمين مثل خرفان العيد ننتظرهم ليذبحونا.

ـ ما الذي تقوله يا عبد العظيم. الطيران الاميركي معهم. ألم تعرف؟

ـ لا طيران ولا بطيخ. الاميركان ينتظرون من المنتصر كي يصفوا بجانبه. ولم نقطع كل هذه المسافة حتى اللحظة حتى نخسر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن. منذ البداية جازفنا بحياتنا، ولن نبخل بها الآن في سبيل الوطن.

ضحك علي، من دون خشية من ردّة فعل صديقه الذي كان وجهه يكتسي ملامح بالغة الجديّة.

ـ الآن مو وقت العدمية والسخرية من كل شيء. انتهى هذا الزمن، اكو اشياء لازم الواحد يصدق بها ويعمل لاجلها علي.

ـ اللعبة انتهت. عليك التفاوض لانقاذ نفسك. أو انزع هذه البدلة الآن وألبس ملابس أخرى ودعنا نخرج من هنا ونختفي.

ـ وماذا أقول لوالدي؟ وللناس التي صدقت بنا؟

ـ فليقولوا ما يقولون.

ـ لا.. أهم شي ما سيقوله الناس عنك. ما يقوله التاريخ.

نظر علي في وجه صديقه المقرّب وشعر بالأسى، لأنهما في لحظة تاريخية فعلاً، ولكن هذا لم يعد مهماً. ليس الحضور في لحظة تاريخية هو أمر مهم دائماً. شعر بان عليه أن يقول شيئاً اخيراً، رغم عدم إيمانه بمدى تأثيره:

ـ دعني أحدثك عن التاريخ، بما أنني جئت إلى هنا وشغلت هذه الوظيفة لأنني فيلسوف، حسب ما تعتقد.. التاريخ لن يكون شأننا بعد أن نموت، ولن نكون موجودين في التاريخ بأيِّ حال من الأحوال.. أفعالنا وأعمالنا وما قلناه وأنجزناه، كلُّ ذلك سيتعرّض لاعادة تفسير وتأويل وتشكيل، وسيغدو شيئاً مُلكاً للآخرين، ويُمثلهم أكثر مما يُمثلنا. وسنكون معهم مجرد أشباح فيها أشياء عن حقيقتنا، وفيها أشياء أخرى تمثل حقائق الآخرين.. لست مستعدّاً أن أدافع الآن عن مصلحة شبح سيكون أو لا يكون هناك بالمستقبل. فضلاً

عن أنني لن أكون بجوار هذا الشبح. ولن استفيد وقتها من شيء يخصّه، لأنني سأكون ميتاً.

ـ ٥ ـ

ترك علي صديقه وغادر إلى غرفة منامه كي يحزم أغراضه. لم يستجب لنصيحة ليلى. قام بهذا المشوار العبثي من دون طائل.

قبل أن يخرج بحقيبته التي تحوي ملابسه وبعض أغراضه، تلقى اتصالاً هاتفياً من دكتور واصف.

ـ لا.. لا أريد الحديث عن الجرّة وما إلى ذلك. ولكن أخي رافد معتقل منذ ليلة أمس في سجن المطار. صديقك الضابط تعرّف عليه واعتقله من دون أيِّ تُهمة. رافد مؤمن بالانقلابيين فلماذا يعتقلونه؟

ـ عبد العظيم يكرهه. نصيحتي ألّا نفعل شيئاً. ما دام معتقلاً في هذا المكان فهو آمن. الأمن الآن أهم شي دكتور، والقصّة منتهية.

ـ عائلته تسأل عنه.. أريد أن أعرف أخباره.

ـ لا أعرف دكتور. وصدقني لن أتمكن من معرفة أية أخبار من مجلس الضباط. انهم يتجهون إلى معركة ما الآن. دَعْ رافد مرتاحاً في سجنه بعيداً عن الاطلاقات النارية والمواجهات. ربما اللّه يحبه بهذا الاعتقال.

ـ ٦ ـ

وهو يقطع الساحة باتجاه بوابة المنطقة الخضراء المطلَّة على منطقة العلاوي، شاهد جندياً يركض باتجاهه، استوقفه وقال له بأن «الزعيم» يطلبه. كان هناك على رأس رتل من سيارات همر عسكرية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذهب اليه وما أن صار على بعد عدّة خطوات حتى أشار عبد العظيم لصديقه بأن يلتفَّ ويصعد معه.

ـ من حقيبتك هذه أفهم أنك لن تعود. . اصعد، دعني على الأقل أوصلك إلى مكان قريب على بيتك.

ركب مع «الزعيم» واندفع رتل السيارات العسكرية بسرعة، خارجين من المنطقة الخضراء حتى منطقة العلاوي القريبة. وربما يفكِّر علي ان ينزل هناك قبل أن يعبر رتل السيارات العسكرية على الخط السريع متجهين شمالاً إلى خارج بغداد.

ـ أتعرف. . كل هذا بسبب ليلى.

قال عبد العظيم، وهو يسترخي في مقعده خلف الجندي السائق.

ـ لو أنها تجاوبت معي وعادت لشعرت بأن هناك شيئاً يستحق الجبن والخوف من الموت. أنا أشكرها لأنها لم تفعل ذلك.

ـ ماذا لو قلت لك الآن بأنها ترغب بالعودة إليك.

ضحك عبد العظيم وهو يدعك ذقنه وكأنه لا يصدق بكلام صديقه.

ـ لقد زرتها مرّات عديدة وفي كلّ مرّة كنت تعود بالنتيجة نفسها. هل زرتها مؤخّراً؟

شعر علي بالحرج مع مزيج من مشاعر متناقضة وغير مريحة. كان يخونه، وقد يتجرّأ للاعتراف بذلك الآن إن كان هذا ينقذ صديقه. هو مستعدٌّ لفعل أيِّ شيء لجعل هذه السيارة تتوقّف ليسحب صديقه من ذراعه كي يتسكّعا كما كانا يفعلان في عقد التسعينيات. يمشيان على غير هدى، لمجرد خلق جوٍّ للكلام والثرثرة حول كلِّ شيء. عن الاشياء التي لم يستطيعوا الحصول عليها، والاحلام

صعبة المنال، عن الكتب والقراءات الجديدة وأشياء تافهة صغيرة كان لها طعم مميّز وخاص، الثرثرة عن الموت والانتحار بهدف إبعاده عن الذهن. نخرج فكرة الموت من الرأس ونحولها إلى قصّة نتداولها ونرويها لبعضنا حتى نتخلّص من شبح الموت ويغدو بعيداً. ولكن كلّ هذه الاشياء صارت الآن مستحيلة. طلب علي من سائق السيارة الجندي أن يتوقّف كي ينزل. انحنى علي نحو صديقه وصافحه وقَبَّلَهُ على وجنته، وظلّ عبد العظيم يضحك وهو يهزُّ بكتف صديقه وكأنه يقول له؛ هوّن عليك لن يحدث مكروه.

ـ ٧ ـ

لكن المكروه الذي كان يتّجه إليه عبد العظيم هناك، في جبهة المواجهة المفترضة مع جيش قادم من الشمال، كان قريباً بدرجة لم يتوقّعها.

كانت هناك سيارة أوبل بيضاء مركونة على الرصيف في المسافة ما بين بوابة وزارة الخارجية وكراج العلاوي، وما إن مرّت بجوارها الهمر العسكرية التي كان يستقلُّها عبد العظيم مع صديقه الفيلسوف حتى انفجرت.

غابت معالم الأشياء بلمح البصر في ضباب كثيف مختلط من الدخان ونثار أشياء مختلفة. صمّ الصوتُ أسماع باعة الرصيف البعيدين والسابلة والسيارات التي كانت تستدير من منطقة الصالحيّة. كان انفجاراً هائلاً، وتوقّع كلُّ من شهده، بسبب الزحام في الشارع في هذه الساعة، وغيمة الدخان الأسود المتصاعدة، أن خسائره ستكون كبيرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الحادي عشر

عَالَمُ السَّدِيْم

- ١ -

تظنّ أنك متّ يا علي، وأنك الآن في الجنّة أو أيّ تسمية أخرى تحبّها. تتجوّل معي الآن على هذا البساط الأخضر الممتدّ، الذي لا يتغيّر لونه مهما بحثت ببصرك يميناً أو شمالاً، وكأنه ملعب غولف واسع. غير أنك في لحظةٍ أخرى، وبسبب الملل من اللون الأخضر، تغمضُ عينيك وترى نفسك جالساً أمام مُنحدرٍ صخريٍّ يؤدي إلى شلالات مياه زرقاء ولازورديّة تتراكبُ مع بعضها وتمتزجُ مع ألوان السماء شديدة الزرقة.

تتحرَّك في أيِّ مكان يعجبك. تأكل وتشرب من أيِّما موضع تشاء، تستعيد «ليلى» حينما كانت في سنِّ الحادية والعشرين وتأخذها بالأحضان، وهذا حقاً يشبه الجنّة، غير أنه في الحقيقة «عالم السديم»، عالم المنفى الذي تُقذف إليه الأرواح المغتربة، والعالم الذي تُصنع عنده الآلهة، عالم العزلة الشديدة. ومن الجيّد أننا لا نُقيم فيه، إنما هي وَسْنَةُ النوم التي قد تمتدُّ لبضع ساعات خلال الليل، وحالما نصحو نفقد الصلة مع هذا العالم، ويبدو لنا وكأنه مجرد حلُم جميل.

الأشياء الجميلة، مثلما تعرف، تكون زائلة. قوّة تأثيرها في

زوالها، أمّا استمرارها فيؤدي إلى الاعتياد، ثم نفقد الشعور بها، لا تغدو مميّزة ولا مؤثّرة أو موحية. ومن السهل بعدها أن ننظر إليها، في حالات معيّنة، وقد غدت جحيماً وقيداً.

أنا وأنت الآن، ولوقت وجيز، في عالم السديم الذي عبرنا إليه من «الباب السادس»، ومن تراهم يجلسون متوزِّعين تحت الأشجار، أو يُحرِّكون بكسلٍ مويجات المياه بجوارهم، هم منفيّون، لن يتمكّنوا من الهروب من هنا، فضلاً عن أنهم لو سألتهم لما رغبوا بالعودة إلى عوالمهم السابقة.

ـ ٢ ـ

كان صديقك العجوز الدكتور واصف يرى في عينيك، في آخر لقاء بينكما في عالمك الأول، نظرة أسفٍ وحزنٍ، لأنك اعتقدت أنه أصيب بالجنون والخرف، فَعَنْ أيِّ تعاويذ وعوالم سبعة يتحدّث؟!

لدينا ما يكفي من الهمِّ بعالمنا الواقعي، كي يشغلنا عن مصائر أخرى، يمكن أن نعيشها في حَيَوَات غيرها، ولدينا من الأوهام المتشابكة مع الحقائق، ما يكفي لشغلنا لوقت طويل بمهمّة فكِّ غزلها المتداخل، تقول ذلك مع نفسك.

إن عالمنا في الحقيقة كتلة متراصَّة من الأوهام المنسوجة بشكل جيد، والتي تتخلّلها حقائق معينة، غير أننا لا نستطيع فرز هذه الحقائق عن محيط الأوهام بسهولة. والتفكير بهذه المعضلات يكفي لشغل حياتنا عن أيِّ شيء آخر، خصوصاً إن كان هذا الشيء هو خُزَعْبَلات رجل تجاوز السبعين من العمر، يُقَلِّب في الأوراق القديمة واللُقى الآثارية، ويتحدَّث بكلام غير مفهوم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن قبل أن تحكم، أريدك أن تفكّر قليلاً. فما أنت في الحقيقة؟ ما هو الجوهر الذي يشكّل شخصيتك؟ هل هو بدنك؟ هل هي مجموعة الحقائق الواقعيّة التي تشترك بها مع الآخرين؟ هل هي اللغة والعادات والتقاليد والأعراف والقواعد العلمية والعملية التي تسير على ضوئها، وتعرف من خلالها أبعاد عالمك الواقعي؟

إنها أشياء تشتغل عند الجميع، ولا تُعطي خصوصيّة لك عن غيرك. إنها «الروبوت الداخلي» في كل إنسان. والروبوت لا يحدِّد هوية الإنسان.

ما يحدِّد هويتك، هي أوهامك الشخصية. ذلك السائل الخيالي اللزج الذي يتخلّل في كلٍّ ذكرياتك ويعيد سبكها في وعاء الاستذكار وإعادة التخليق والخلط. إحباطاتك ورغباتك، ذكرياتك الحميمة والسيئة. ما فشلتَ في تحقيقه، وما تطمح إليه. إن الغالبية من هذه الأشياء هي أشياء غير واقعية، إمّا لم تحدث بعد، أو فات أوان حدوثها، ولكنها تشتغل وتؤثر فيك، بل وتحدِّد شخصيتك وتفصلك، في المحصلة، عمّن يشابهك في ثلاثة أرباع المادة الحياتية، الفسلجية والاجتماعية والنفسية والتاريخية.

ماذا لو استطعنا وضع هذه الأوهام الشخصية في شريحة ذاكرة. نزعناها من دماغك وحمّلناها على شريحة الذاكرة. هل ستبقى أنت؟ أشكُّ في هذا.

ماذا لو أننا أرسلنا محتويات شريحة الذاكرة، عبر أثير كهرومغناطيسي إلى الفضاء، وفي زاوية ما من الكون، على بعد ملايين السنين الضوئيّة. يجري استقبال الرسالة، ويتمُّ تحميلها في رأس إنسان من كائنات ذلك الجزء القصيِّ من الكون.

برأيي، سيكون الأمر، وكأننا أرسلناك إلى ذلك المكان. ستصحو وتجد نفسك في مكان جديد.

ماذا لو أننا لم نحتجْ إلى أجهزة معقّدة للقيام بهذه الرحلة. ماذا لو أن لدى الانسان، وفي دماغه تحديداً، إمكانيات مقموعة للقيام برحلة مشابهة. جِسْرٌ كهرومغناطيسي ينفتحُ بعد تعطيل سيطرة العقل الواعي، ويمكن أن يحملنا «يحمل شريحة أوهامنا الالكترونية» إلى أماكن أخرى بعيدة عن عالمنا الذي نعرفه؟ العلم نفسه يقول إن الجزء الأكبر من إمكانات الدماغ البشري ما زال غير مستغل.

كون هذه الفرضيّة لم تتحقّق بعد، ولم تتحوّل إلى ممارسة حياتية شائعة، لا يعني أنها مستحيلة أو غريبة. إنها مبكرة بالنسبة للغالبية من الناس، وأوان حدوثها لم يحدث بعد، ولكن يا عزيزي، أتعرف؟ حين يقوم الإنسان باكتشاف هذه الإمكانية فإنه، كما توصّلت وعرفت، لن يقوم باكتشاف شيء جديد، إنه يعيد اكتشاف ما تمّ اكتشافه قبل قرون سحيقة.

لديَّ ما يكفي من الأدلّة التي تساعدني على الإيمان أن البشرية كانت تتقدّم ثم تصل إلى ذروات عالية، لتنهار الحضارة بعدها لسببٍ من الأسباب، نزول نيازك عظمى، أمراض وإبادات بسبب الأسلحة المتطورة، ثم تعود البشرية لتبدأ من الصفر، لهذا هي تمرُّ في كلٍّ مرّة على محطات مرّت بها سابقاً. وكلُّ ما يحدث لنا اليوم هو أمرٌ كان يجري سابقاً. نزول الآلهة وصعودها. كلُّ الاساطير القديمة، التي تعاملنا معها على أنها حكايات خرافية مسلية، هي تدوينٌ بإمكانات اللغة والتعبير المجازي المتاح لأناس يحاولون توثيق ذاكرة أكبر منهم بلغة وعي بسيط كانوا قد بدؤوا معه من جديد. تدوينٌ لحقائق عميقة لم تكن البشرية وهي تستأنف الرحلة من الصفر، مؤهلة لاستيعابها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفهمها. واليوم نستطيع ذلك، بسبب قدراتنا العقلية المتطوّرة. نحتاج فقط إلى إعادة القراءة، والتخفف قليلاً من صنميَّة الحقائق المنطقيّة كي نصل إلى الفهم الجديد.

لقد تمَّ مثلاً ارسال شريحة الذاكرة الخاصة بآدم وحوّاء من البستان الذي كانوا يعيشون فيه إلى نسخهم التي تعيش في أرض بور. تمَّ قذفهم خارج الجنّة بهذه الطريقة. هناك نسخٌ من مصائر مختلفة، وهناك جوهرٌ للأنا التي تحمل ضوءاً أكثر، يمكن أن ينتقل من نسخة إلى أخرى.

هل تحمل كلُّ النسخ وعياً بالدرجة ذاتها؟ هناك نسخة واحدة فقط تحمل ضوءاً أكثر، يمكن أن نسمّيه شُعلة الآلهة، أو لمسة الإلوهيّة، النسخة التي تحوي ثقباً يمرّ من خلاله التيار الكهربائي الإلهي. النسخة التي تعي مشكلة وجودها بدرجة أكبر من النسخ الأخرى. التي تفكّر فوق النسخ كلّها، وتقلق تجاه المصير.

لقد ارتحل كلكامش، كشريحة ذاكرة، إلى نسخته الخالدة، بعد أن غاص في البحر وانتزع عُشبة الخلود، ثم نام على الجرف واستيقظ ووجد أن العُشبة اختفت، أو أكلتها الأفعى كما يُقال. لماذا لم يرجع ليغوص ثانيةً. العُشبة موجودة في أعماق البحر، ويستطيع الغوص ثانيةً للحصول على المزيد، ولكنه لم يفعل. أتعرف لماذا؟ لأن كلكامش الخارج من البحر كان قد انتقل إلى الخلود فعلاً. ذهبت شريحة ذاكرته، خلال النوم، إلى نسخته المادية الموجودة على كرسي بجوار الآلهة. ذهب إلى الخلود، أما النسخة التي بقيت، الخالية من ذلك الإدراك العميق، والتي استفاقت على غياب العُشبة، لم تفكّر بأن تبذل جهداً أكبر. بكتْ، ورضيتْ بما قالته لها لاحقاً صاحبة الحانة؛ عليك ان تمضي أيام حياتك كيفما اتفق، وانسَ همَّ الخلود وغمَّه.

حصل كلكامش على الخلود، وبقيت قصّته، ذات الثغرات، حتى يأتي الأذكياء كي يفسِّروها بشكل صحيح، وليس وفق التفسير الشائع.

ـ ٣ ـ

تقول؛ وما هي قصّة الدكتور واصف عبد المحيي ذات الثغرات؟ إنها أخوه الصغير رافد. بعد أن اعتنى واصف به على مدى سنوات طويلة، صار هو المتسلِّط عليه. عَلِمَ متأخِّراً أن رافد كان مرتاحاً لأنه لم ينشئ أسرة. لم يتزوّج ويُنجب أولاداً، حتى تؤول أملاك العائلة كلّها له. ثم صار واصف في شيخوخته حبيسَ البيت، وجعل رافد الحارس والمرأة العجوز التي تقوم على خدمة أخيه العجوز أشبه بالعملاء والجواسيس له. وكثيراً ما ردّوا زوّاراً يأتون للاطمئنان عليه، زملاء عمل أو جيران. كان سجين بيته في السنوات الأخيرة. أنت نفسك لم تكن معنيّاً بالتعرّف على هذه الحال التي كان صديقك العجوز يعيش فيها. كنت غاطساً في مشاكلك وشؤونك.

الذي خفّف عن واصف، ولكن بعد أن هدَّهُ المرض وأعيته سنوات الشيخوخة، هو حصول رافد على منصب رفيع في الدولة. كان في وقتها أشبه بمن تلقّى جرعة مخدّر قوية، فأهمل أخاه العجوز لفترة، وهي الفترة ذاتها التي عاودتَ بها أنتَ زيارة الدكتور واصف، والتقيتُما لقاءَكما الأخير في حديقة بيته.

ما لا تعرفه أنك تسبَّبت في تعجيل موته. لقد كنت تذكّر رافد في شتائمك وتتهمه باتهامات شنيعة، كانت تثير غضبه. ورافد لم يتعرّف على هويتك في البداية. لم يعرف أنك صديق أخيه القديم الذي كان يراك في حديقة البيت أيام جمعيّة المنتحرين. ولكن حارس البيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نقل له فيما بعد ما جرى من لقاء بينكما. وبعد أن تأكّد من هويتك جاء إلى دكتور واصف غاضباً. واتهمه بأنه من يزوّدك بمعلومات عن صفقاته وتحالفاته السياسية والتجارية، وأن واصف بذلك يريد الانتقام منه وتخريب وضعه الحالي. ثم أنهى هذا اللقاء الصاخب بقرار غريب؛ لقد رتّب أمر نقل أخيه العجوز إلى مصحّة في بيروت.

رفض دكتور واصف طبعاً هذا الأمر ولكن رافد علّق بأن رأيه لم يعد مهمّاً. تركه وهو شبه منهار تحت وطأة مزيج من الغضب والحزن والشعور بالغدر والإهانة، ولم يستطع بعدها العودة إلى وضع صحي مستقر. حتى حين اتصل الحارس بطبيبه الذي يسكن على بعد شارعين من البيت، لم يستطع هذا الطبيب فعلَ شيء. رقد دكتور واصف في فراش، وحين طلب من الحارس أن يتصل برافد لم يرجع له خبراً. لم يكن يرغب بالمجيء، وهذا ما زاد من حزنه. كان رافد ينتظر، كما كان يؤمن واصف، خبر وفاته فحسب.

هل تريد الآن أن يؤمن واصف ويسلّم لهذا العالم الخرب؟! هل تلومه إن فكَّر بالخلاص منه، ليس بالموت، وإنما بحلول أخرى مهما بدت عجيبة وشاذة؟!

- ٤ -

أنت تقول الآن في نفسك، وما شأني، أنا محدّثك، بهذه القصّة، ولماذا أتكلّم لك بوجهٍ معتمٍ ولا تكاد ترى ملامحي الغاطسة تحت ظلال الأشجار الداكنة. من أنا يا ترى؟!

ها أنذا أتقدّم لأخرج من الظلّ إلى النور فترى وجهي. تتفاجأ لأنني الدكتور واصف، أو أنا أشبهه كثيراً. يزداد الأمر عندك غموضاً وتشابكاً، ولكن دعني أوضّح لك.

أنا نسخة الدكتور واصف في العالم الخامس، حسب ترتيب العوالم لديك. ولستُ الدكتور واصف، في عالمك الأول، الذي تعرفه.

قبل أن يلفظُ أنفاسه نجح الدكتور واصف صاحبك، في الفرار من عالمه، وأنت رأيته في «حياته المثاليّة» في العالم الرابع، حسب ترتيب العوالم لديك، متزوّجاً ولديه ولدان، ويعيش بصحة جيدة ما تبقى له من سنوات.

جاء أخوه رافد صباح اليوم التالي ليقف عند جثته الهامدة على السرير في غرفة النوم. لم يذرفْ دمعةً واحدةً كما أخمّن. لا يحتاج الأمر أن تكون شاهداً على ذلك كي تتأكّد.

كيف أعرف ذلك؟ لأننا الآن هنا في عالم السديم، لبضع ساعات حتى شروق الشمس ونهوضنا من السرير، ها هنا تلتقي الأرواح كلّها وتتداخل، أرواحنا في العوالم السبعة، خلال النوم، تمنح روحٌ ما لشقيقتها بعضاً من ذكرياتها كي تغدو بعد الصحو مجرد أحلام غريبة.

تخبر زوجتك على الفطور، أو صديقك الحميم الذي يُوصلك بسيارته صباحاً إلى مكان العمل أنك تجوّلت في مكان غريب، وخُضت تجربة خلال الحلُم، ولا تعرف حينها أنك تبادلت الذكريات مع روحك الشقيقة القادمة بدورها من عالمٍ آخر، وكان اللقاء في عالم السديم هنا، الذي تجتمع فيه أرواح كلِّ العوالم، الأرواح الحيّة التي لم تغادر عوالمها إلى دار الفناء بعد.

هذا ما يجري غالباً للناس جميعاً بشكل عرضي، ولكن، ماذا لو أننا توصّلنا إلى السيطرة على هذه الأبواب التي نعبر من خلالها إلى عالم السديم أو التعلُّق بأرجل الأرواح العائدة إلى عوالمها قبل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصحو؟ فنعبر بشريحة الذاكرة الأصلية العائدة لنا من عالمنا الأصلي إلى عالم آخر؟

هذا ما حصل معي. صلتك بي وما حكيته عن تجربة مؤلمة للدكتور واصف مع أخيه رافد، هي ليست لي. إنها ذاكرة مستعارة. حصلت عليها عرضاً ومن دون قصد.

أنا الذي أتحدّث لك الآن، أقيم في عالم آخر، عالم شاسع الأرجاء من صنعي وتحت سيطرتي. أنفقت وقتاً طويلاً في إنشائه. ومن خلال دراستي المكثّفة مع باحثين آخرين على الرموز المبثوثة في النصوص القديمة التي خلّفتها الحضارات الإنسانية البائدة. استناداً إلى فكرة أن البشرية لا تتقدّم وأنما تعود بما يشبه «العود الأبدي» النيتشوي إلى لحظات البداية في كلّ مرّة تصل فيها إلى أقصى ذروة لها.

توصّلت إلى اكتشاف جرّة التعاويذ، وكنت أول من جرّبها. زرت في ربيع ٢٠٠٧ حياتي في العالم الذي تصفه أنت وحسب ترتيبك الخاص بـ«العالم الأول»، ذلك الذي جئت أنت منه. وحلّت شريحة ذاكرتي الخاصة المرتحلة في روح وجسد الدكتور واصف هناك. وهنا حدثت المشكلة. كنت أتجوّل وأزور العوالم السبعة لأتعرّف أكثر على إمكانيات هذه التعاويذ، وكيف هربت بعض أفضل العقول من الدمار الذي حصل في عوالمها بسبب النيازك أو الحروب النوويّة الشاملة.

كنت مع فريقي الخاص في ديترويت، نتنبّأ بحدوث نهاية العالم عمّا قريب، وشعرنا أننا نتحمّل مسؤولية ايجاد حلول معينة، إن لم تكن لعلاج الأسباب التي ستؤدي إلى الكارثة المقبلة، فعلى الأقل لحماية العقول الأساسية التي ستكون خميرة بناء عالم جديد بعد

الخراب. أعترف أن توقُّعاتي كانت كبيرة ومبالغ فيها، وكنت أعوّل على نفسي ودوري، ولكن هذه التوقُّعات لم تحدث أو على الأقل كانت مؤجّلة وبعيدة بالزمن، غير أن هذا كلّه لم يُعطّل مشاريعي وإنما عَدَّلَ مساراتها باتّجاه آخر. حتى جاءت ورطتي مع دكتور واصف في عالمك الأول.

أنت تعرف ربما، من خلال أحاديث نسختي في عالمك الأول عن باب الطباشير والعوالم السبعة؟ وإن لم يُخبرك بدقّة فسأوضح أنا بدقّة أكبر، وللاختصار والتسهيل سنحكي حكاية افتراضية عن «خالد».

ـ ٥ ـ

خالد يتواجد في العوالم السبعة بالقيمة الوجودية ذاتها. لدينا سبع «خوالد» منفصلين، وفي كلّ عالم يتحرّك خالد بوحيٍّ من عقله الواعي فضلاً عن ذاكرة أوهامه الشخصية التي تجعله مميّزاً ولا يشبه أحداً غير نفسه. يخوض خالد في كلّ عالم حياة متمايزة ومختلفة عن حيوات نسخه الشخصية في العوالم الأخرى. وهذا يعني أن «كلّ خالد» له تجربته الخاصة وحياته المميّزة.

خلال النوم تنفلت شريحة ذاكرة الأوهام الشخصية وترتحل بشكل عشوائي، واختصاراً يمكن أن نسمّي هذه الشريحة باسم «الروح».

يقرأ خالد التعاويذ السبع ويفتح باب الطباشير خلال الحلُم وتنتقل روحه من العالم الأول إلى العالم الثاني. لا تفقد نسخة خالد في العالم الأول شيئاً سوى ما يميّزها عن الآخرين. سيصحو وهو يرى نفسه أكثر إذعاناً ومداهنة واستسلاماً لتأثير القوى الاجتماعية من حوله. ستنمحي شخصيته المميّزة ويغدو مجرد «خروف» في القطيع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين يستيقظ «خالد العالم الثاني» من النوم، سيكون بوعيين متزاحمين؛ وعي وافد وآخر مقيم. إن كان الوعي المقيم أقوى، فإن التشويش في ذهن خالد يستمرّ عدّة لحظات، أو بضع دقائق وسرعان ما ينتصر الوعي المقيم على الوعي الوافد ويدفعه إلى الخلف. يغدو وعياً عبداً. حينها سيقول خالد لأصدقائه أنه مرّ بحلُمٍ غريبٍ. وتبقى الروح الوافدة تُصارع، في كلّ مرّة ينامُ فيها خالد، من أجل الانفلات والتحرُّر، ولكن الروح المقيمة القوية تنتصر عليها حتى تُنهكها وتُقصيها، أو يخبره أناس ما بأنه يعاني من تَلَبُّسٍ ما.

في الحالة الثانية تنتصر الروح الوافدة على الروح المقيمة، حينها يعرف خالد أنه قادم فعلاً من عالم آخر إلى عالم جديد. تستخدم الروح الوافدة البيانات والمعلومات المخزّنة في ديتا الروح المقيمة من أجل ادارة حياتها. يعرف خالد وحده أنه جاء من عالم آخر، ويكون قادراً على السيطرة على ذاكرة العالمين، وقد يقرّر من ذاته أن يرجع، عن طريق تعويذة العوالم السبعة، إلى عالمه الأول، ويحرّر الروح المقيمة من عبوديتها تحته.

في الحالة الثالثة تملك الروح الوافدة والأخرى المقيمة قوّة متكافئة، ولا يؤدي الصراع بينهما إلى سيطرة روح على أخرى، وهنا يبدو خالد أمام الآخرين وقد أصيب بالجنون. وقد تساعده بعض العقاقير او الصدمات الكهربائية على انتصار روح ما على أخرى ويستعيد خالد السيطرة من جديد، بغض النظر عمّن انتصر من هاتين الروحين.

وبشأن التعويذات، إن كان خالد قد حفظ عن ظهر قلب التعويذات السبع قبل أن يستخدمها للسفر بين العوالم، فإنه يستطيع في بحر أربع وعشرين ساعة من وجوده في العالم الثاني أن يستظهرها

ويدوّنها، ولكنه ما إن ينام في العالم الجديد ويصحو في اليوم الثاني فإنه سينساها تماماً.

- ٦ -

ما الذي حصل معي؟

كنت أتجوّل، كما أخبرتك، بين العوالم، ودائماً ما كانت روحي الوافدة تنتصر على الروح المقيمة، وكنت أستذكر التعويذات السبع وأدوّنها بسرعة لاستخدامها لاحقاً من أجل العودة، حتى حللت في نسختي في عالمك الأول، وهنا بدأت المشكلة. كانت روح دكتور واصف في هذا العالم أقوى من روحي. بقينا نخوضُ صراعاً لعدّة ساعات خلال النهار، الأمر الذي أثار المحيطين به في بيته، فهو بدا لهم وكأنه أصيب بالجنون، وجرى استدعاء طبيب من أجل إعطائه مهدئاً ما لدفعه إلى النوم، وحسناً أنه رفض أخذه، وإلا كنت فقدت طريق العودة إلى الأبد.

ظلَّ صراعنا على وتيرته حتى الليل رغم إنهاكه البدني، واستغرق في الشرب، وصار يتصل باصدقائه ومعارفه، وتمّ إخبار أخيه بأنه أصيب بحالة من حالات الفصام، وقبل أن يذهب للنوم، استطعت الانتصار عليه لبُرهة وجيزة، بسبب تراخي وعيه تحت وطأة الشرب، وأجبرته على ترديد التعويذات السبع. وخلال النوم استطعت الفرار والعودة إلى عالمي.

كانت تجربة فظيعة، علَّمتني خطِورة هذه التعويذات، وأنهت بشكل حاسم فضولي للتعرّف على عوالمي الأخرى.

غير أن الحكاية لم تنتهِ عند هذا الحدِّ. فدكتور واصف الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعرفه في عالمك الأول، حين استيقظ صباح اليوم التالي، لم يطمئن إلى أن ما جرى معه مجرد نوبة انهيار عصبي، أو حالة جنون مؤقتة. هلاوس وكوابيس نهاريّة، أو حالة فصام كما أخبره الطبيب.

كان مؤمناً أنه مرّ بتجربة مثيرة ومميّزة. عزّزت بعض شكوكه، التي كان يواجهها في مجال عمله على اللُقى والآثار القديمة. لذلك اندفع بجديّة أكبر في عمل محموم، لم يتعرّف عليه أحد من المقرّبين له، لاستكشاف التعويذات، حتى تمكّن من الوصول إلى ما توصّلت إليه. وأخبرك كاذباً بقصّة الموظف في دائرة الاثار الذي جلب له جرّة ابو صلابيخ المكسورة، غير أن الحقيقة أنه سرقها قبل وقت طويل من أحداث النهب والسلب في نيسان ٢٠٠٣ من خزانات المتحف. وعلى الرغم من كلِّ جهوده الحثيثة إلّا أن الزمن لم يُمهله لاستكشاف كامل الامكانات الموجودة في هذه التعاويذ، ما عدا موضوع الانتقال من باب الطباشير.

وهو أمر ساعده على الفرار من عالمه إلى عالم أفضل، وأنت أتيحت لك الفرصة للتعرّف عليه في عالمه الأفضل. لا أخفيك أنني معجبٌ بشجاعته وإصراره وإيمانه بنفسه. لقد استثمر غزوتي له لصالحه. وربما لهذا السبب أعترف أن روحه أقوى من روحي، والى هذه الحدود فالأمر لا يعنيني كثيراً. لكنه تسبّب، بإعطائك الدفتر الأسود الصغير الذي يضمّ التعويذات، بفتح الباب لشخصين، أحدهما أنت والثاني ممرّض عجوز اسمه محمد سدخان.

استطعت السيطرة على محمد سدخان وصار يعمل في خدمتي الآن، غير أن ارتحالك إلى عالمي أسهم في عرقلة خططي ومشاريعي. لقد جعلتني أخسر «علي ناجي» الذي يخصّني.

- ٧ -

أنت ما زلتَ مسجّى على سريرك في المستشفى في عالمك الأول، تغطس في غيبوبة طويلة. وستبقى عالقاً في دوامة العوالم، تخرج من عالم لتدخل إلى آخر، دون إنذار مسبّق، ودون سيطرة منك، بسبب الأبواب المشرعة والتي لا تستطيع إغلاقها ما بين العوالم، وستظلُّ هكذا ما لم يحدث شيء يجعلك تستيقظ من غيبوبتك.

لقد بعثتُ محمد سدخان كي يساعدك على النهوض في عالمك الأول. لديه تعليمات محدّدة من أجل علاجك. سيفعل المستحيل من أجل هذا الهدف. ولكني آسف لأني سأخبرك بما سيأتي. ها هنا في عالم السديم ليس بإمكاني إلا أن أكون صادقاً، ولا أستطيع توسيع المسافة بين ما أفكّر به وما أنطقه. كلُّ شيء يجري في الوقت ذاته التفكير والكلام. أنا أعتذر منك يا علي. فمن ضمن التعليمات المحدّدة لمنقذك المبعوث إليك؛ أنه في حال فشل محاولاته بإنقاذك، فعليه أن لا يتركك تسبح في المنطقة الرماديّة.

لست متأكّداً تماماً من النتائج، ولكن من مصلحتي أن لا تبقى ما بين الموت والحياة طويلاً. يجب أن تكون في وضع محسوم ونهائي. إمّا حيّاً مثل غيرك من الأحياء فاستعيد علي ناجي خاصّتي، أو ميتاً فتموت نسختك الأولى، ويتحرّر صاحبي منك.

قد أجازف بخسارة كلِّ شيء، ولكن منقذك سيضطر، كحلٍّ أخير، إلى قتلك يا علي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثاني عشر

في المَصَحّة

- ١ -

كانت قاعة الترويح والتريّض واسعة جداً، على شكل مستطيل ممتد، بأرضية تتناثر عليها حشائش متفرقة وذابلة في أكثر من مكان. وكان النزلاء هنا، من دون سبب منطقي، ينحشرون في مربع صغير قريب من باب القاعات الذي يخرجون منه إلى الساحة. ولا يكاد أحدهم يبتعد كثيراً ليذهب، مثلاً، إلى ذلك الحائط البعيد في نهاية المستطيل الممتد، والذي يفصل المركز الصحي هذا عن العالم الخارجي.

هناك ألعاب تشبه الألعاب الحديدية للاطفال في الحدائق العامة. عوارض معدنية للتأرجح منها باستخدام اليدين. لعبة تزلّج بارتفاع متر ونصف، عمود يتدلّى منه حبلٌ ثخينٌ ينتهي بإطار شاحنة. كُرات قدم بلاستيكيّة وأشياء أخرى مبعثرة لم ينتبه لوجودها علي، أو لم يرغب بأن يبحث عنها بعينيه. كان مع الآخرين في المربع الافتراضي الصغير القريب من بوابة القاعات، يراقب فحسب انحدار النهار وتساقط ساعاته من خلال الضوء القادم من صفٍّ النوافذ العليا في الجَمَلُون الزجاجي الذي يشكّل سقف الساحة، وينتظر تفصيلاً صغيراً يطرأ كي يخدش رتابة الحركة والملل من متابعة هذه التفاصيل.

قبل دخول الممرضين لتنبيه النزلاء ودفعهم بالأيادي، إن تطلّب الأمر، للذهاب إلى قاعة الطعام في ساعة الغداء. كان هناك عجوز ضامر بجلد متغضّن وشعر يدين يخالطه الشيب، يبتعد عن حشد المرضى ويذهب بخطوات منتظمة وحماسيّة، وكأنه يتقدّم في صفٍّ عسكري، إلى الطرف البعيد من القاعة، إلى ذلك الحائط في نهاية مستطيل قاعة الترويح. ظلَّ يبتعد حتى بدا بحجم الإبهام، حين رفع علي إبهامه وجعله بجوار صورة جسد العجوز المبتعد.

تتوقّف الخطوات الحماسيّة للعجوز أمام الحائط، يضمّ ساقيه إلى بعضهما في تقليد للوقفة العسكرية ثم يخرج قطعة طباشير حمراء ويبدأ بالرسم على الحائط. يقوم برسم شيء واحد بسيط ولا يحتاج إلى مهارات خاصة. ينزل ليرفع خطاً طبشورياً حاداً إلى الأعلى وكأنه يحفر الحائط به ثم يلتفُّ بالخطِّ يميناً ثم ينزل بزاوية حادة إلى الأسفل حتى ترتطم قطعة الطبشور النافدة بالأرض. يرسم باباً ويضع قفلاً في منتصف الجهة اليسرى من الباب الافتراضي مع مقبض ملتوٍ. يتراجع عدّة خطوات إلى الوراء كي يأخذ نظرة شاملة إلى بابه، ثم يعود إلى المجموعة المحشورة في الزاوية في الطرف الآخر من القاعة، ولكنه يعود بخطوات هادئة متباطئة تفتقد الحماسة الأولى.

ظلَّ العجوز الضامر يكرّر ذلك كلَّ نهار، أثناء ساعة التريّض، وقبل الاعلان عن موعد الغداء. وغالباً ما كان موظفو هذا المركز الطبي النفسي يتركون هذه التخطيطات الطفوليّة على الحائط، فصارت الأبواب تتراكم، بألوان طباشير مختلفة. باب أصفر باهت لا يكاد يُرى من بعيد. باب أزرق داكن، باب أحمر أكبر من الأبواب الأخرى. وحين يتشوّه الحائط البعيد، يتمّ غسله باستخدام خرطوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سقي يقذف ماءً حاداً. إنها أبواب من الطباشير على أيٍّ حال، يمكن إزالتها دائماً بالسرعة نفسها التي رسمت بها.

ـ ٢ ـ

ما عدا الأبواب الداخلية التي توصل قاعة التريّض ذات السقف المقبّب ذي الشبابيك الواسعة الكثيرة بالأقسام الأخرى للمركز الصحي، وقاعات المنام والطعام والمكتبة على الممرّات الداخلية، فإن الأبواب التي تصل المركز بالعالم الخارجي مسيطرٌ عليها بشدّة. وتكاد تبدو أحياناً لعلي، الذي يمرّ بجوارها لصدفة ما، وكأنها أبواب سجن أو كأنها مثل الأبواب الطباشيرية للعجوز الضامر؛ موجودة ولكن لا يمكن فتحها أبداً.

يبدو الانتظام في الحركات والواجبات والاستسلام التام لأوامر الممرضين وكأنه نتيجة لإقامة طويلة جداً بالنسبة لغالبية النزلاء، وما عدا الرجل الضامر صاحب الطباشير، فلم يكن هناك شيء ملفت في الآخرين. هذا على الأقل ما اكتشفه علي خلال أسبوعين من الاقامة هنا اضطراراً ودون إرادته.

لا يعرف بالضبط كيف ولماذا جاء إلى هنا، غير أنهم أخبروه بأنه يعاني من ضرر في الدماغ بسبب إدمانه على عقار الثيلكسود الخطر، وهم هنا يرغبون بمعرفة هل كان علي يستخدم هذا العقار بإفراط بسبب حالته النفسيّة الصعبة، أم لجأ إليه كنوعٍ من المخدر. لقد دخل في غيبوبة لعدّة أيام بسبب آخر جرعة تناولها من هذا العقار. وستكون المرّة المقبلة التي يفعل فيها شيئاً مماثلاً مميتة دون شك.

لماذا يفعل شخصٌ مثل علي هذا بنفسه؟!

الجواب سهل؛ بسبب موت زوجته وولده الرضيع المفاجئ في حادث سيارة، وعدم قدرته على التكيّف وتجاوز الصدمة. هكذا تقول تقارير طبيّة سابقة في ملفِّه الصحي.

غير أنه في استلقائه على سريره المغطّى بشرشف أبيض في غرفته فقيرة المحتوى صار يتذكّر أشياء أخرى بدقّة ووضوح، وفي أوقات الاستحمام اليومية في الحمّام الجماعي يستطيع أن يرى في مرآة كبيرة آثار جروح وتشوّهات على جسده، وكأنه خرج من حريق أو من إصابات بالغة جرّاء معركة أو حرب ما.

ـ ٣ ـ

يتذكّر بوضوح اللهب الذي هجم بأجزاء من الثانية من نوافذ السيارة الهمر وغطّى كلَّ شيء. يتذكّر الأيادي التي حملته بعد أن انقذف من النافذة المهشّمة في السيارة ليسقط على الرصيف، وهذا ما أدى إلى نجاته من فرن الشواء الهائل الذي تحوّلت اليه سيارة الهمر العسكري.

لا بدَّ أن هذه التشوّهات في ذراعه اليمنى وجزءاً من رقبته والثقوب الملتحمة والنتوءات في أرجاء أخرى من جسده، هي بسبب هذا الحادث الرهيب. لكن الأطباء يقولون إنها جروح صنعها هو بنفسه، كنوعٍ من التعذيب الذاتي، أثناء ما كان واقعاً تحت تأثير عقار الثيلكسود.

أعطت العقاقير المضادة على مدى أسبوعين تأثيرها في طرد السموم من جسده وعقله. كان يتحسّن، ولذلك انتبه من يومين إلى تجمع المرضى في زاوية واحدة من قاعة التريّض وشمّ الهواء، والحركات العسكرية الغريبة للعجوز الضامر صاحب الطباشير. انتبه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى أنواع الطعام المقدمة على الغداء وصحن الفواكه المقطّعة على العشاء، وتفاصيل أخرى تتعلّق بحركة الطيور وأنواعها خلف النوافذ العريضة، أو في برامج شاشات التلفزيون.

تواجه مع العجوز الضامر وهو يحاول الخروج من باب قاعة المطعم. أمسكه من كتفه وقال له:

ـ نحن هنا مجرد مجانين، فمن يعرف الحقيقة أو يقولها مجنون.

انتظر للحظات حتى يرى ردّة فعل علي، ثم تركه ودخل قاعة الطعام. وفي المساء كان علي يجلس على كرسي في آخر قاعة التلفزيون ويتابع البرامج على الشاشة حين انتبه أن العجوز ينظر اليه من بعيد، ويقوم بحركة ما إلى رأسه بإصبع يده اليمنى، يلفُّ إصبعه في حركة دورانيّة على الرأس، كإشارة إلى الجنون، ثم يرسم بذات الإصبع علامة أكس كبيرة في الهواء. لم يفهم علي المغزى من هذه الحركات. وأحسّ مع نفسه بشيءٍ من الانزعاج لأنه صار محط انتباه واهتمام هذا العجوز المجنون.

ـ ٤ ـ

في نهار اليوم التالي اكتشف أن ذكريات أخرى بدأت تعود له، وحين خرج إلى ساعة التريّض، جلس على مصطبة خشبيّة عريضة موضوعة بالقرب من مدخل القاعة الواسعة، ووجد نفسه يبحث بعينيه بين الموجودين عن الرجل العجوز، ولم يره. لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى دخل العجوز ووقف وكأنه يستكشف المكان أو يبحث عن شيء معين. لم يتجه كعادته إلى الحائط في نهاية القاعة. كان الحائط نظيفاً هذه المرّة ومهيئاً لأبواب طباشيرية جديدة، ولكن العجوز لم يبدُ مهتمّاً بالقيام بهوايته المفضّلة، وبدلاً من ذلك صار ينظر إلى علي في

جلسته على المصطبة، ثم اقترب وجلس بجواره. أدخل يده في جيب قميصه وأخرج قطعة طبشور حمراء وأعطاها لعلي. ظلَّ علي يتأمَّلها ثم أعادها إلى العجوز. لم يكن لديه ما يكفي من طاقة لمسايرة جنون أحد، وتمنّى لو يتركه هذا العجوز بحاله. لكن العجوز تكلّم:

ـ يبدو أن حالك صارت أحسن، أشعر بهذا، ولكنك لم تتعرّف إليَّ حتى الآن. وهذا من حقّك. لم تلتقِ بي وجهاً لوجه، على الأقل وأنت واعٍ. بالنسبة لي أنا أتذكّر وجهك جيداً.

ـ أين التقينا؟!

ـ في غرفتك بالطابق الثالث في مستشفى الحريري بمدينة الطب، هناك في «العالم الأول».

كانت ذاكرة علي أشبه بلعبة ميكانو مفرّقة الأجزاء، وجاء كلام العجوز الضامر ليعيد قطعة من اللعبة إلى مكانها المناسب. عاد لينظر إلى ملامح العجوز، وبدا له أنه يتذكّر أشياء أخرى ضبابيّة، من دون أن يكون متأكّداً.

ـ لقد بذلتُ جهداً كبيراً. عليك أن تصدّق. لا أحد يقوم بما قمتُ به أنا، وكلُّ ذلك في سبيلك. أردت إنقاذك. حتى أنا نفسي لا أصدّق ما قمت به، ولكني فشلت في مهمّتي. ما زلت أنت هناك في الغيبوبة، ولحسن حظك أنني لم أقتلك، كما كان يُراد منّي. ولهذا أنا أقضي هنا نوعاً من العقوبة.

ـ تقتلني!

ردّ علي مستغرباً، ثم استغرق مع نفسه قليلاً قبل أن يتذكّر شيئاً جديداً ليسأل:

ـ وماذا عن الانفجار؟ كنت أنا وعبد العظيم في سيارة الهمر العسكري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أنت تخلطُ هنا ومشوش الذهن. لحسن الحظ أنا كنت أتجوّل بحرية بين العوالم. ما تتحدّث عنه كان في عالمي المثالي، أعمل طبيباً هناك في المستشفى الذي جئت إليه بعد إصابتك في الحادث الإرهابي.

قال العجوز ذلك ثم رمى حسرةً وهو يُكمل:

ـ كم بودي أن أرجع إلى هناك.

ـ ما الذي حدث لي؟ هل متّ أم ماذا؟

ـ لا . . قُطعتْ ثلاثة أصابع من يدك اليمنى، وأصبت بحروق متعدّدة وتشوّهات بسيطة، يعني صرت أقبح مما كنتَ عليه قبل الحادث، ولكنك حيٌّ.

نهض العجوز، وكأنه تذكّر واجباً ضرورياً، واتجه بخطواته العسكرية الثابتة إلى الحائط البعيد، وقف هناك ورسم باباً طباشيرياً أحمر واسعاً، وظلّ منشغلاً به بينما استمر علي في جلسته مع رأس لا يكفُّ عن الدوران، وصارت الأفكار والصور الجديدة تتلاحق بسرعةٍ لديه.

في صالة الطعام جلسا بجوار بعضهما، واستأنفَ العجوز محمد سدخان أحاديثه. استمرَّ بالكلام حتى في عودتهما مع بقية النزلاء إلى صالة التلفزيون. ثم انقطع الكلام عند الساعة العاشرة، وهو الموعد الإجباري لعودة النزلاء إلى مناماتهم المنفصلة.

ـ ٥ ـ

على سريره، وقبل أن يغفو بصعوبة، استرجع علي مرّة بعد أخرى ودون إرادة منه كلَّ الكلام الذي أدلى به العجوز الضامر.

بحسابات معينة، وحسب كلام العجوز، يمكن أن يكون علي في عالم خامسٍ الآن.

في العالم الأول ما زال في غيبوبته العميقة، وهو هنا، في هذا العالم الذي لا يكاد يعرفه، محبوسٌ في مصحّة للامراض العقليّة، يجهلُ كيف انتهى إليها.

قاله له العجوز سدخان إن فوضى هائلة حدثت بعد مقتل الزعيم والقائد الأعلى لمجلس الضباط الانقلابيين، ووصلت القوات الشماليّة في اليوم نفسه إلى جانب الكرخ من بغداد وسيطرت على معظم أحيائه بالكامل من دون أن تحدث أيّ مواجهات عسكرية فعلية، بينما انتشرت قوات عسكرية جنوبيّة لتأمين معظم أحياء الرصافة، وعبرت مجموعات مسلحة رئيسة لتطوّق المنطقة الخضراء بالكامل. وفي هذه الأثناء أنتخب مجلس الضباط على عجل قائداً جديداً كانت لديه مهمّة واحدة فقط؛ التفاوض مع القوات التي تطوّق المنطقة الخضراء وتهدّد باقتحامها في أيِّ لحظة. ثم انتهى كلُّ شيء بالاستسلام بعد أربعة أيام صعبة. واكتشفوا حدوث مجزرة قام بها العقيد عبد العظيم بكلِّ الطاقم السياسي السابق الذي كان محتجزاً في سجن المطار. اختفت بضربة واحدة كلُّ التشكيلة السياسية التي أدامت النظام السياسي من ٢٠٠٣ إلى اليوم. وانتهى عندها أيُّ وجود لسلطة مركزية في بغداد، وتمَّ توزيع أحياء المدينة، حسب الانتساب الطائفي، ليكون جزءٌ منها تابعاً للمجلس التشاوري للمحافظات الجنوبيّة التسع، وأخرى للإدارة الانتقاليّة المؤقتة لمجالس المحافظات العربيّة، الغربيّة والشماليّة. وجرى إخلاء السفارات والقنصليات من موظفيها، بما فيها السفارة الأميركية. وبعدها ببضعة أسابيع تمَّ القضاء بسهولة، من قبل حكومة تكريت على وجود الدولة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الإرهابية في الموصل والرمادي، ودخلت البلاد في منعطفٍ جديدٍ مليءٍ بالاحتمالات المفتوحة.

بالنسبة لعلي، وحسب معلومات العجوز سدخان، فإنه قضى في المستشفى وقتاً طويلاً قبل أن يكون قادراً على النهوض والعودة إلى إيقاع حياته الطبيعيّة، وكانت هناك امرأة، بدت أوصافها مطابقة لما يعرفه علي عن ليلى، كانت تزوره في المستشفى بشكل منتظم، ثم خرج علي بمعونتها على كرسي متحرِّك، لتأخذه إلى البيت.

خمَّنَ علي بأن انتقاله من بوّابة الطباشير من ذلك العالم، كان أثناء غيبوبته القصيرة ما بعد الانفجار. ليجد نفسه مغيّباً عن الوعي جزئياً ها هنا بسبب تأثيرات عقار الثيلكسود، وكان العجوز سدخان يحاول استشعار عودته إلى الوعي بالكلام معه بين فترة وأخرى، حتى تخلَّص علي من تأثيرات هذا العقار وصار ينتبه لما يجري حوله، وحينما تأكَّد العجوز سدخان من هذا شعر بأنها أوقات مناسبة لبدء الكلام الجدي مع علي.

ـ ٦ ـ

هناك في «العالم الأول» كان العجوز محمد سدخان قد خبّأ دفتر التعاويذ الخاص به في غرفته في مستشفى الحريري بمدينة الطب، وكان قد استخدمها في البداية للعبور إلى العالم الحالي الذي هو فيه الآن، ولكن الدكتور واصف كلَّفهُ بمهمّة العودة إلى العالم الأول لإنقاذ علي ناجي. وخلال ذلك فهم الآليّة التي تتحرَّك بها التعاويذ واستطاع التجوال ما بين العوالم وعرف بأنه يفضل ذلك العالم الذي يعيش فيه حياة جيدة ومحترمة بصفته الدكتور محمد سدخان. وهو عالم الانقلاب العسكري حسب علي ناجي.

وصل سدخان إلى طريقٍ مسدودٍ بشأن علاج علي في «العالم الأول» ورفض أن يقتله، ما أثار غضب الدكتور واصف حين عاد إليه هنا، في هذا العالم.

عاد سدخان إلى هنا، ولكنه أستقبل بالصعقات الكهربائيّة وعقاقير الهلوسة. وجرى حجزه في هذه المصحّة منذ عدّة أسابيع.

ـ ما خلف الأبواب محكمة الإغلاق في هذه المصحَّة يكمنُ الجنون بعينه. ستخرج لاحقاً وترى بعينيك.

قال سدخان، في آخر كلامه لهذه الليلة قبل الموعد الإجباري للنوم الجماعي.

ـ لولا أنني مجنون ما عملت هذه المجازفة الخطرة من أجلك، وها أنذا أجد نفسي مسجوناً أتعرَّضُ لعمليات محو ذاكرة. ولكنني أعرف أن الأبواب الطباشيرية ليست مُلكاً شخصياً لدكتور واصف. هو لا يستطيع حرمان أحد من المرور عبرها إن أراد ذلك. وسأجد طريقتي الخاصة للوصول إليها للرجوع إلى عالمي المثالي، عالم الانقلاب العسكري، وكذلك من أجل تحرير نسختي هنا من ضغطي كي تعود إلى عملها وحياتها.

ـ يا اللّه.. كلامك يُصيبني بالدُّوار.

ـ يجب أن يفعل ذلك... الحقيقة دائماً أكبر من الاستيعاب.

قال سدخان، فرفع علي وجهه من بين يديه:

ـ أنت بهذا الكلام تتحوَّل إلى مجنون رسمي.

ـ لقد قلت لك ذلك قبل قليل!

رَانَ صمتٌ بينهما، وشعر علي بأنه ربما عليه أن يهتمَّ بكلام هذا العجوز، الذي قد يكون صلته الوحيدة المتاحة حالياً بينه وإمكانات فهم هذا العالم الذي وجد نفسه فيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أنا آسف، ولكن لا يمكن لرسوم بالطباشير على حائط قاعة التريُّض أن تكون أكثر من أبواب مرسومة بالطباشير. لا تزعل منّي.

استمرَّ صمتُ العجوز سدخان، ثم بعدها بلحظات تعكَّرت ملامحه دون سبب واضح قبل أن يردَّ بثقة:

ـ نعم، ولكني أحافظ بهذه الطريقة على إصراري. لا أريد أن أيأس.

قال لعلي بأن زوال سموم الثيلكسود من جسده، سيتيح له الخروج خلال أسابيع من هذا المكان، وعليه أن يتكيّف مع حياته الجديدة مهما رآها مجنونة في الخارج. لقد بذل المستحيل من أجل مساعدته وما زال مُصرّاً على الاستمرار بهذه المساعدة، ولكنه محكومٌ بقوانين وظروف جديدة تنتمي إلى هذا العالم الذي يحيون فيه. وعليه أن يشكر المصادفات التي جمعتهما في هذه المصحَّة.

حسب التقارير الطبيّة الخاصة بمحمد سدخان فهو لن يخرج من هذه المصحَّة قريباً. بينما لم يمضِ على دخول علي إلى هنا سوى بضعة أيام.

في الأيام اللاحقة جلس علي مع رفيقه العجوز لأوقات طويلة وعادا بالكلام إلى التفاصيل نفسها مرّة بعد أخرى.

ـ سيتمُّ القضاء عليَّ هنا، أتفهم يا علي. إنهم يُعطوني عقاقير النسيان بالإكراه. أنا الذي كنت أقيم معك في العالم الأول، سيجري محوي من هنا. وعليك أن تستفيد من وجودي قدر ما تستطيع قبل أن أختفي فجأةً.

سيخرج علي بعد شفائه من عقار الثيلكسود، وفي الفحوص الدوريّة على المرضى، سيُعرض محمد سدخان بشكل روتيني على لجنة طبية، وربما يكتشفون أن وعيه وعقله عادا إليه من جديد، ما يعني أن وعيه الزائر قد انتهى وأزيل تماماً، وكلُّ هذا مرهون بتخلِّيه عن قصّة العوالم والبوابات الطباشيرية والانتقال بينها عبر الحلُم، وحينها سيكون مؤهلاً للخروج من المصحّة أيضاً.

ـ أنت ترى. لا يسمحون للنزلاء بمشاهدة الأخبار. مجرد برامج وثائقيّة وأفلام، ولكنني أؤكد لك، هناك، خارج المصحَّة، عالم مختلف تماماً. ستتعرَّف عليه. سأحاول إنقاذ نفسي من هنا، وحين أخرج سأبحث عنك.

ـ حتى نعثر على التعويذات السومريّة من جديد.

ـ آه طبعاً.

ـ ماذا لو حصل كلُّ هذا ثم انتقلنا إلى عالم خامس وسادس وسابع. ماذا لو عدت أنا إلى جثّتي الهامدة في العالم الأول؟ لقد انتقلت اضطراراً بسبب تفجير الهمر العسكري إلى هنا. ولستُ واثقاً أن الحظ الجيد سيرافقني في كلِّ مرّة.

شعر سدخان وهو ينصتُ إلى كلامِ علي بأنها وجهة نظر معقولة.

ـ هذا تفكير سابق لأوانه الآن.

قال سدخان ثم أخرج قطعة طبشور زرقاء وأعطاها لعلي. ظلَّ علي ينظر إلى قطعة الطبشور بيده. بدتْ له وكأنها تلخِّص بهشاشتها كلَّ شيء. شعر بالاختناق فجأةً. فتحرَّك بخطوات بطيئة وكأنه يريد مغادرة الفكرة السيئة التي نطق بها سدخان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ إن وجدت ليلى في هذا العالم، إن كانت قريبة منّي فلن أقوم بأيٍّ شيء. سأبقى ها هنا، حتى لو كان عالماً من الجحيم.

ـ تقصد المرأة التي أخذتك على الكرسي المدولب من المستشفى؟

ـ آه.. لا شكَّ أنها هي من فعلتْ ذلك.

ـ وان لم تكن موجودة هنا؟

ـ لا أعرف.

قال علي وهو يقترب مع صديقه العجوز من الجدار البعيد في آخر قاعة التريُّض.

كانت صورة ليلى في ذهن علي تستعيد وهجها السابق، وهذا ما يدلُّ على التعافي المضطرد من السموم التي كان يتناولها. تذكَّر بوضوح بعض تفاصيل اللقاء الأخير بينهما قبل أن يعود مضطراً إلى عبد العظيم في القصر الجمهوري، وكيف أنها تعاملت بلطفٍ بالغٍ مع كسله وعدم رغبته الواضحة بالعودة، فجلبت ملابسه وصارت تُلبسه أيّاها قطعةً فقطعةً وكأنه مجرد طفل. ألبسته جواربه وربطت أشرطة حذائه. قَبَّلتهُ على ركبته.

«أنت من تسبّب بكل هذا يا ليلى، يا لحماقتك»

قال ذلك مع نفسه وشعر بدفقة حزن عميقة تغزوه، وكأنه خرج للتوّ من شقّة ليلى. التفت إلى سدخان وقال له:

ـ انت قلت انني كنت سليماً ومعافى في ذلك العالم بعد خروجي من المستشفى؟

ـ نعم، قبيح ومعافى.

ـ إذن، هذا شيءٌ يستحق المجازفة. ربما هو العمل الانتحاري الوحيد الذي يستحق أن أقوم به؛ أن أعود إلى ليلى.

وصلا إلى الحائط في آخر قاعة التريُّض، أخرج العجوز سدخان قطعة طبشور زرقاء متعرِّقة من جيبه، وانحنى على الحائط وبدأ برسم بابه المعتاد. نطق علي بكلماته الأخيرة في الوقت الذي أنهى فيه رفيقه العجوز رسم الباب الطباشيري المعتاد. نظر العجوز إليه مليّاً ثم علَّق مختتماً هذه الحوارية:

ـ آه. لا بدَّ من المجازفة، ولكن إن كانت هناك تعاويذٌ سحريَّةٌ في هذا العالم حقاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث عشر

حُفْرَةُ الأَرْنَب

- ١ -

حدثت المذابح الدامية بين أعوام ٢٠٠٢ و ٢٠١٠ بعد بضعة أشهر من الضربة الأميركية المدروسة لقصر الرئيس التي أنهت حياته وكلَّ طاقمه الحكومي. وأدت الأحداث العنيفة التي اندلعت لاحقاً وبالتتابع وعلى مدى ثماني سنوات إلى هجرة ما يقارب العشرين مليون عراقي خارج البلد، ومكوثهم لفترات طويلة كلاجئين في معسكرات أقامتها الأمم المتحدة على عجلٍ عند الحدود المشتركة مع تركيا وايران وسوريا والسعودية، ولم تنفع جهود المنظمات الأممية في إيقاف الحرب الأهلية، أو إقناع الأطراف المشتركة فيها بالجلوس إلى طاولة مفاوضات.

في النهاية استقرَّ المهاجرون في دول المنافي، وسحب هؤلاء عوائلهم وأقاربهم الذين ظلُّوا في العراق، وبَقِيَ نحو سبعة ملايين نسمة، الجزء الأكبر منهم مؤمنون عقائديون، مصرّون على النصر مهما كلّفَ الأمر، ولم تكن المحاججة معهم تؤدي إلى نتيجة، لأن لديهم دائماً أجوبة جاهزة، رومانسيّة الطابع، تتحدّث عن النضال وحيداً والبقاء في الساحة وكثرة المتخاذلين، وأن الحقَّ أنصاره قليلون، ولا يترك الحقُّ لأحدٍ صديقاً ولا قريباً وما إلى ذلك من

مثاليات تُبقيهم صامدين أقوياء في مواجهة مصائرهم التي لا تكون غالباً مصائر سعيدة.

كانت شخصيات من الجالية العراقية في ديترويت بأميركا هي صاحبة الفكرة التي بدت جنونيّةً في بدايتها، ثم سرعان ما تبنَّاها آخرون، خصوصاً من رجال الأعمال والتجار والشخصيات الاجتماعية النافذة.

تتلخَّص الفكرة بالتالي؛ تراجعت صادرات النفط العراقي بدرجة كبيرة، مع تلكؤ عالمي في استحداث مصادر طاقة بديلة، وبقاء الحاجة قوية للوقود الأحفوري «النفط والغاز»، وبسبب بطء الاستثمار في الحقول النفطية العراقية استكشافاً أو انتاجاً فإن العراق صار هو الخزَّان رقم واحد في العالم للوقود الأحفوري. يأتي هذا مع تراجع المخزون في الدول المعروفة بالانتاج المرتفع والتي تعتمد عليها سوق النفط غالباً. كان هناك بالمجمل مأزقٌ يلوحُ في الأفق، وما لم يتمّ وضع اليد بشكل جدي على المخزون النفطي العراقي واستثماره فإن العالم مهدّدٌ بأزمة نقص بالوقود حادة.

هذه القضية المتعلّقة بالنفط كانت مجرد خلفيّة لشيء آخر؛ فالكثير من المهاجرين استقرّوا الآن فضلاً عن نحو خمسة ملايين مهاجر سابقين تدفَّقوا إلى المنافي عبر العقود الماضية. إنهم شعبٌ كامل، أكثر ممن بقي في البلد، يشعرون بإنسانيتهم، وأنهم أحرارٌ في قول وفعل ما يشاؤون، لأول مرّة في حياتهم ربما. وهذا الشعب الحرّ المقيم خارج بلده آنَ له، بعد أن هدأت النفوس واستقرّت أن يعمل شيئاً لصالح بلده الذي تركه.

كانت الفكرة هي تجميع أصوات الجاليات العراقية في مختلف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأصقاع، ودفعها إلى تنظيم نفسها في روابط، تمهيداً لاتحاد هذه الروابط مع بعضها البعض الآخر. ورفعت لواء هذا النشاط جمعيّة «الأمة العراقيّة المتحدة»، وسرعان ما انتشرت مقارُّ الجمعيّة في مختلف أنحاء العالم، وأينما يتواجد عراقيون، وتشكَّلت خلال أربع سنوات قوّة ضغط مهمّة، موَّلت نفسها بأموال تجار ورجال أعمال عراقيين مقيمين في أميركا وأوربا.

في النهاية رفعتْ جمعيّة الامة العراقية طلباً إلى الأمم المتحدة لتمثيلها كمنظمة مراقبة، وتمَّ قبولها، ثم سرعان ما بدأت العمل على خطَّة تتعلَّق بنزع الشرعيّة والأهليّة من السبعة ملايين نسمة المقيمين في العراق والاعتراف بحكومة منفى سيتمُّ تشكيلها من كونفرنس يجتمع أعضاؤه في ديترويت لاختيار المناصب العليا. وهذه الحكومة لن تعود إلى أرض الوطن، وإنما تباشر عملها من هناك، من منافيها. وتضمن للمجتمع الدولي خروج العراق كبلدٍ من دائرة التهديد الاقليمي، وتضمن إنشاء إدارة كفوءة للموارد النفطيّة بما يخدم مصالح المجتمع الدولي، ويتمُّ توزيع العائدات على إعمار البلد وأيضاً على مشاريع تخصُّ الجاليات العراقيّة وقوّة حضورها في بلدان الإقامة، ومساهمتها في الحركة الاقتصادية لهذه البلدان.

كان مشروعاً معقَّداً ويتضمَّن تفاصيل كثيرة، ودخلت فيه صفقات ولوبيات وشركات كبرى، وتمَّ، وسط مفاجأةٍ عقدتْ السنةَ المتحاربين على أرض الوطن، إقرار مشروع حكومة العراق العالميّة.

جرى استحداث قوّة أمنية بقيادة عراقيي المنفى، وفتح باب التطوّع لها بأجورٍ عالية، واستؤجرت لهذا الغرض معسكرات مؤقتة للتدريب ومخازن تسليح في أكثر من بلد، ثم سرعان ما نزلت هذه القوّة العراقيّة الأمنية على أرض العراق وبدأت أعمال تحرير وسيطرة

على الأرض، أمّنت في البداية حقول النفط ثم طوّقت المدن وبدأت حرباً صعبة سرعانَ ما انتهت بالسيطرة على كامل البلاد.

ـ ٢ ـ

كان من ضمن تفاصيل الخطَّة إعطاء شركة النفط الوطنية إلى إدارة تمثِّل اتحاد شركات عالميّة، وكان من الواضح أن اتحاد الشركات هذا هو من سيتولَّى، ليس إدارة القطاع النفطي فحسب، وإنما البلاد بأسرها.

ظاهراً كانت الفكرة الأساسيّة أن أبناء البلد المقيمين فيه غير قادرين على إدارة بلدٍ موحّدٍ لا يُشكِّل تهديداً لجيرانه، وهذا ما يُعطي لفكرة الحكومة البديلة في المنفى شرعيّة وجدوى، خصوصاً حين تكون هذه الحكومة ممثِّلة لغالبية الشعب المنفي، وباطناً كان من الضروري أن تستمرَّ هذه الحُجَّة بالعمل، حتى يستمرَّ المشروع ناجحاً ويدرُّ على الأطراف الراعية له أرباحاً طائلة.

كان من الضروري أن يبقى البلد غير مؤهَّل لشيء، حتى لا يكون هناك مبرِّر منطقي للعودة، أو إنشاء حكومة فعليّة على الأرض الوطنيّة.

لا أحد يعرف بهذه التفاصيل «الباطنيّة»، لأنها غير مُعلنة، ما سوى أقليّة صغيرة، وما سوى تكهُّنات واستنتاجات، يقوم بها أفراد، أثناء جلوسهم مع أصدقائهم في مقهى ما، وعلى الرغم من أنها استنتاجات لا تستند إلى أدلة قويّة، غير أن المتحاورين على طاولة المقهى لا يعرفون أنهم يصيبون، بخيالهم الجامح، كَبِدَ الحقيقة، وإن كانت حقيقةَ عامة من دون تفاصيل.

بعد استيلاء اتحاد الشركات على كلِّ شيء في البلد، كان من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الواضح أن على الأطراف الإقليمية التي كانت تسترزق بالحرب الأهليّة في الداخل ان تتعامل الآن مع ممثلي هذه الشركات، وتهمل الفصائل المسلّحة على الأرض التي تمَّ نزعُ أنيابها بقسوة، ولكن لم يتمّ القضاء عليها بشكل حاسم. ليس من الضروري، بالنسبة للخطة الباطنيّة، أن يتمَّ قتل الوحش، وإنما السيطرة عليه جزئياً واللعب معه.

كانت الأوضاع مستقرّة نوعاً ما، لأول مرّة منذ عقود، مع انتشار فكرة غريبة، مفادها أن الأرض نفسها، تلك التي يسير عليها الناس، ويُقيمون بيوتهم ومنشآتهم. هذه الأرض المليئة برُفَات وأرواح ملايين البشر الفانين على مدى قرون سحيقة، هي من تبثّ، عبر موجات تليباثية، هذه الطاقة السلبيّة. وكأن الأرواح المتقاتلة سابقاً والتي ربحت أو خسرت حروبها وذهبت إلى العدم، تعود في كلٍّ مرّة من جديد لتتلبَّس أجساد الأحياء وتُمارس من خلالهم، من جديد، حربها التي لم تنتهِ سابقاً. فيودُّ المهزوم أن يُصحِّح المعركة الخاطئة، لتعود عجلة العنف والقتل للدوران من جديد، وإن كان ذلك من خلال قصّة جديدة، وأشخاص جدد، ليس لديهم علاقة واضحة بأسلافهم الذين قد لا يعرفون من هم على وجه الدقّة.

لو استحكمت هذه الفكرة بعقول الجميع فإنّها ستدفعهم، على الأرجح، للهروب من هذه الأرض الملعونة المتعطّشة للدماء، ولكن، من حسن الحظّ، أن نسبة كبيرة لا تُصدّق بهذه الخزعبلات، وتُفضّل عليها خزعبلات أخرى مألوفة ومريحة للذهن، لأنها نشأتْ معها وتنفَّستها في أجواء عائليّة حميمة، حتى لو كانت خزعبلات ديناميتية خطرة، فهي خزعبلات العائلة، وفيها جانبٌ حميمٌ ولطيفٌ في كلٍّ الأحوال.

كما إن إدارة الشركات التي بثّت هذه الخرافة المسيئة لأرض

الوطن، كانت تستهدف تبرير الهرب وعدم العودة بالنسبة للملايين العديدة من العراقيين، وليس تشجيع من بقي في أرض الوطن على الهرب. فمن غير النافع إفراغ البلد تماماً من سُكّانه. يجب أن يبقى هناك عددٌ كافٍ للشعور بوجود مجتمع عراقي، وثانياً لإدارة القصّة العراقيّة المتعلِّقة بعدم قدرة العراقيين على العيش المشترك وشهوتهم الغامضة لشرب دماء بعضهم البعض الآخر من دون التدقيق كثيراً بأسباب مُقنعة للقيام بذلك. يجب أن تستمرَّ هذه القصّة حتى نستطيع رؤية العراق الذي نعرفه.

- ٣ -

كان «عمّار» من الذين تحصّنوا فترة طويلة بإحدى الجماعات المسلّحة النافذة واستطاع إدارة عمل تجاري ناجح لوقت طويل، حتى عودة أخيه علي مع الفرق الفنيّة الساندة، التي كانت مع طلائع القوة العراقية الأمنيّة التي أعادت السيطرة على البلاد. وبعد سحق الجماعات المسلّحة، وجد عمار بحسِّهِ التجاري أن هناك فرصة لاستمرار عمله مع السلطة الجديدة، وخمَّنَ بأن هذا الوضع ليس طارئاً، مما يُمهِّد له أن يُجازف بكلِّ ما لديه بالتعويل على السلطة الجديدة وقطع كلِّ خيوط له مع الجماعة المسلّحة السابقة التي كان يعمل تحت حمايتها، ويمنحهم ضريبة شهريّة لقاء ذلك.

كان علي متحمِّساً للعمل في الجهاز الدعائي الجديد لفكرة إعادة خلق البلد، وبثِّ الروح الوطنية، والتحشيد لإعادة الإعمار وما إلى ذلك، حتى تخيّل أنه من الممكن أن يكون فارساً ما، وصانعاً كبيراً للأحداث، إلا انه وجد نفسه في زاوية ضيقة، بحكم تقسيم العمل والتخصص، ولا يكاد يعرف بدقَّة ما يجري في أجزاء وأقسام العمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأخرى، ثم ما هو أهم؛ هو لا يعرف ما هي النتيجة التي يؤدي إليها العمل الجماعي الذي كان يُسهم فيه بقطعة صغيرة.

حين حاول المعرفة، تمَّ قمعه بنعومة وهدوء، من خلال إحالته إلى متاهة من القوانين والأنظمة الصارمة، ولم ينسَ أحدُ رؤسائه في العمل، وهو تايلندي مُسْتَعْرِب، أن يخبره بما بدا أنشودةً عراقيّةً مملّةً:

ـ لا تنسَ أن مشكلة هذا البلد هي عدم احترام القانون. القانون يغدو ضعيفاً ليس بسبب ضعف الهراوة التي خلْفه، وإنما بسبب سقوطه بأعين الناس، وعدم احترامه من قبلهم. أنت لا تريد أن تعطيني مثالاً، من خلال فضولك غير المبرَّر، على الحالة العراقيّة؟!

في النهاية، وبعد شعوره بأن أحداً لا يريد تغيير الأوضاع فعلاً وإنما محاولة الاستفادة منها، أخبر أخاه بأنّه سيترك العمل مع الفرقة الفنيّة الساندة ويعود إلى منفاه في ديترويت بأميركا.

ـ لماذا تعود؟! قَدِّمْ استقالتك من هذه الدائرة وتعالَ معي، تولى إدارة الحسابات في شركتي.

ـ شركتك التي تعمل مع اتحاد الشركات، والتي من أقسامها الفرقة الفنيّة الساندة.

ردَّ علي على عرض أخيه بتهكُم. هو لا يريد الخروج من الباب ليعود من الشبّاك، وإنما مغادرة هذا المشروع الذي صار يبدو غامضاً أكثر فأكثر. ولكن، هل يملك هو حقاً قرار المغادرة؟

رفض رئيسه في العمل طلبه، وقال له بأنه الآن يملك جنسيّة عراقيّة اتحاديّة.

ـ أنت الآن عضوٌ في الكوميونتي النيوعراقي، وأنت تعرف هناك

حسابات رياضيّة دقيقة. أنت حللت الآن هنا بديلاً، من الناحية العددية الصرفة، لشخص قتل في «ميدان التفريغ الطائفي». لا أملك أنا قرار التلاعب بالأعداد، فضبط السستم هو جوهر السستم. لن أكون مخرّباً هنا. كما أنك حسب الجنسيّة التي وقّعت على استلامها، لا يحقُّ لك الخروج من البلد والعودة إلى أميركا إلا بإذن خطّي من الشركة.

ـ سأذهب لأقطع تذكرة وأخرج إلى موزمبيق.

ـ لن يمنحوك أيَّ شيء. كله بإذن الشركة. لماذا صرت تكره العمل هنا؟ الأجر ليس جيداً؟!

ـ أنا أقوم هنا بالشيء الذي هربت من البلد حتى لا أقوم به. أنا أسهم في التخريب الآن، ولكن بطريقة أنيقة.

ـ أنت فقط تمرّ بوضع نفسي خاص، ربما تحتاج إلى إجازة. انتظر أسبوعين حتى يحين موعد الإجازات الدوريّة. لتسترخي في بيتك، تذهب إلى المنتجعات التي أنشأتها الشركة هنا.

ـ لن أنتظر. سأذهب إلى شقّتي ولن أعود إلى هنا أبداً.

كانت هذه نهاية مفضّلة عنده حين يضطر لمواجهة وضع مشابه. الانسحاب والاحتجاج. الاعتصام في حفرة الأرنب الخاصة به، كما يسمّيها. وهو شيءٌ فعله سابقاً أكثر من مرّة، آخرها حين قُتلتْ زوجتُهُ وابنُهُ الرضيع في حادث سيارة قرب ملعب فورد فيلد بديترويت. لم يتمّ العثور على الشاحنة التي صدمت سيارة زوجته وقذفتها على جانب الطريق. لم يحصل على تعويض من شركة التأمين على السيارة التي تحوّلت إلى علبة مكبوسة. لم تقبلْ عائلة زوجته اعتباره بريئاً من المشاركة بالنهاية المؤسفة لابنتهم. أتهمه بعض أصدقائه، بودٍّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومحبَّة، أنه كان يتمنّى هذه النهاية. وأحياناً قوّة التمنّي تكون مخيفةً بحيث تُحرِّك عتلات خفيّة لتحقّق رغبة المتمنّي.

كان كلاماً سخيفاً يُراد منه معاقبته على شيءٍ لم يفعله. وقف في لحظة ما وشاهد بسطوع كبير كامل المشهد. صار يحتقر الجميع، ووجب أن يردّ عليهم. ترك كلّ شيء وانسحب عائداً إلى حفرة الأرنب الخاصة به. أقفل على نفسه في شقّته قُرابة الستّة أشهر، من دون الاتصال بأحد. جعل نفسه خفيّاً بشكل تام. أغلق حساباته على السوشيال ميديا. قطع خطَّ الهاتف والنت وكلَّ شيء. صار غير موجود تماماً، حتى أنه تخيّل أن يحدث له ما حدث لبورخس حين نظر إلى مرآة المغسلة فلم يَرَ أحداً.

كان يديرُ ورشةً للتدريب على الكتابة الفنيّة والخطابة والتحدُّث في الأماكن العامة، وكيفية استخدام الكلام في عرض الشخصيّة، واستثمار إمكانيات النطق بالنبرة الصحيحة للصوت مع كامل المنظومة الإشاريّة لحركات الجسد واليدين وملامح الوجه، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

ـ ٤ ـ

في نهاية أشهر العزلة الستة، اكتشف أنه صار بديناً بشكل ما، وأنه لم يَرَ «لا أحد» في مرآة المغسلة، وإنما شخصاً بملامح يعرفها جيداً ولا يحبّها، شاهد وجهه المناسب لحالة الانسحاب والانهزام وعدم المواجهة. ثم جاءت عينةٌ منتقاةٌ من أصدقائه، ورفسوا الباب في شقّته ودخلوا عليه وأجبروه على الجلوس في الصالة والاستماع إليهم.

كانوا يعرفون، لأنهم أصدقاؤه، بخرافاته الخاصة، واستثمروها

للتأثير عليه، لذلك جاؤوا سبعة أنفار، تتداخل فيهم الهويات الفرعيّة؛ السُّنِّيّة والشيعيّة والعربيّة والكرديّة والتركمانيّة والمسيحيّة الكلدانيّة والآثوريّة والصابئيّة.

نظر إليهم وعرف بهذه الخطة المحكمة لأنه يعرف خلفياتهم الاجتماعية جيداً، وقال لهم باستسلام:

ـ أه.. فهمت.. أنتم جلبتم معكم أجزاء الجنريتر كلّه وركبتموه على أرائك صالتي الآن. ستضربوني بتيار كهربائي قوي وتحرقوني.

ـ لا.. الأمر أشبه بالمقابض اللينة للصدمة الكهربائية لإنعاش القلب. والفرق هنا أنه إنعاش دماغ ناشف ومتحجّر.

قال أحدهم، ثم زحف آخر على الأريكة الجلديّة بضع سنتيمات إلى الأمام كي يختصر الحكاية بسرعة:

ـ أنت ماستر اوف توك. ولدينا حلٌّ لك سيعجبك. أنت تحبّ سوالف وحكايا الوطنية، وهناك مهمّة وطنية جبّارة سيهمّك أن تكون جزءاً منها.

بهذه الطريقة تمَّ عرض العمل في فرقة الإسناد الفني المصاحبة لعمل الوحدات العسكرية العراقية الأممية والتي أشرف على تمويلها وإدارتها اتحاد الشركات. لم يكن علي معنيّاً بمعرفة كلّ هذه التفاصيل في وقتها. كان يريد يداً ما تسحبه من حفرة الأرنب، لأنه لم يكن قادراً على الخروج بنفسه، وحتى لو قيل له أنه سيشارك في فرق تلقيح ضد الكوليرا في غينيا الاستوائية لقبل بالعرض، فما باله وهو يُشارك بعمل «وطني» أخيراً، يُعيد الحياة إلى بلده المنكوب الذي تمَّ نسيانه فترات طويلة، حتى كاد يختفي من الخيال العام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٥ ـ

نهض رئيسه التايلندي المستعرب وتقدّم عدّة خطوات باتجاه أدراج رماديّة اللون وفتح أحدها وأخرج ملفّاً ليُريه لعلي من بعيد ثم يُعيده سريعاً قبل أن يقول له:

ـ أنت تعاني من انتكاسة بسبب حادثة مقتل زوجتك وهذه القضايا القديمة. أنا أعرف كلَّ شيء عنك. حتى عن أخيك صاحب شركة الدجاج المعلَّب، وعلاقاته السابقة مع رئيس عصابة مسلّحة، كانت صاحبة أكبر جرائم عنف طائفي في البلد قبل مجيء اتحاد الشركات للعراق.

ـ هل تهددني هنا؟ ما علاقة أخي بالموضوع؟

ضحك التايلندي المستعرب وصارت عيناه كأنهما خطّان دقيقان مرسومان بالحبر على صفحة وجهه الأملس:

ـ هذه هي الروح العدوانيّة التي كنت أنتظر رؤيتها. هكذا أنت. اذهب وأنظر إلى نفسك في مرآة التواليت. هذا هو الشخص الذي نعرفه، لا المنسحب إلى جحر الجرذ.

ـ حفرة الأرنب.

ـ آه.. الحفرة..

ـ عليك أن تأمر باعتقالي الآن إن أردت إيقافي. لأنّي سأخرج من هنا إلى شقّتي. يعني.. أستخدم الروح العدوانيّة للعودة إلى حفرة الأرنب.

ـ نعم. كما ترغب.

خرج علي وهو يشعر بالقرف من محاولة رئيسه التعامل معه وكأنه تجربة مختبريّة، يستنهض روحه العدوانيّة وما إلى ذلك من هُراءٍ مُزعجٍ يعزز لديه فكرة غير مريحة عن السيطرة. فمن الذي يسيطر في

النهاية، هو أم أخ أورويل الأكبر هو من يضع أمامه ثلاثة خيارات، مؤمناً بأن علي سيختار أحدها، وقد وضع الأخ الاورويلي مسبقاً نوع الاستفادة من كلِّ الخيارات الثلاثة.

عاد علي إلى شقّته، وبما أنها حفرة فكان كلُّ شيء ينسكبُ إليها سريعاً. في تلك الأوقات صار مدمِّناً على عقار الثيلكسود. وفي لحظة من الطريق الهلامي الذي عبَّدَهُ هذا العقار في ذهنه، كان يرى بوضوح أنه لا يريد العودة إلى أميركا، لأنه لا يريد العودة إلى حفرة مماثلة هناك. ما يُريده حقاً هو الموت، ثم شعر لاحقاً بأنه عبر الحاجز الشفاف غير المرئي ما بين الموت والحياة، وصار يتجوَّل في أصقاع جرداء خالية من أيِّ شيء تمثّل نوعاً من الإعلان للزائرين الجدد عن دخولهم إلى أرض الموت فعلاً.

لقد مات، أو هكذا أحس بنفسه. حين صار يرى حائطاً كبيراً، ورجلاً عجوزاً ضامراً يتقدَّم إلى الحائط ويرسم بالطبشور الأحمر أبواباً واسعة، ثم يدعوه بحركة من يده إلى التقدُّم وفتح باب منها إن استطاع. فهناك في الخلف يستطيع أن يرى عالماً أفضل. مع ملاحظة مهمّة لتعريف هذا الوصف العام «عالم أفضل»، فهو بالتحديد؛ ذلك العالم الذي ترى فيه أنك قادرٌ على القيام بشيء، هو العالم الذي تملك فيه دوراً واضحاً ويُقدِّر الآخرون جهدك الذي تبذله، وتشعر أنك تُسهم في الخير وحصيلة الأعمال الجيدة. هو العالم الذي يغدو فيه تقدُّم الزمن وبذل الجهد طريقاً معبَّدَة باتجاه «معنى الحياة». وهذه كلُّها أشياء صار علي يفتقدها أو غير واثق من أنه على صلة بها.

بعدها صار واضحاً أن الجدار وباب الطباشير والرجل العجوز الضامر وأشخاص آخرين يتخطَّفون بسيرهم من حوله، ليسوا جزءاً من عالم آخر وإنما هو مجرد مكان منعزل جنوبي بغداد. مصحَّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقامة بالقرب من آثار أبو صلابيخ، ترعاها وتمولها إدارة الشركات المتحدة، وهي مخصصة لموظفيها تحديداً أو عوائلهم المقيمين في العراق.

- ٦ -

قال علي لأخيه الذي جاء لأخذه من المصحَّة بأنه يحتاج إلى زيارة المتحف العراقي، والسؤال عن الدكتور واصف عبد المحيي.

ظلَّ عمّار صامتاً، وهو يُحاول الانتباه للطريق. أراد أن يتذكَّر شخصاً ما بهذا الاسم، ثم فضَّل أن يُعلّق على قضية المتحف:

- لا يوجد متحف عراقي. أنت تعرف هذا. كلُّ الآثار العراقية التي يتمُّ استخراجها يتمُّ نقلها إلى ديترويت، إلى المتحف العراقي في ديترويت. يفترض أنك تعرف هذا، أنت تُقيم هناك!

لا يعرف علي هذا، أو لا يتذكّر، وأراد أن يُخبر أخاه الصغير عن قضية الأبواب الطباشيرية، وكيف أنه جاء من عالم آخر وما إلى ذلك من قضايا، ولكنه خشي أن يستدير أخوه، إن سمعه يتحدّث بجديّة بمواضيع مماثلة، ليلتفَّ على الطريق العام عائداً به إلى المصحَّة.

تأكّد علي لاحقاً أنه لا يوجد متحف عراقي فعلاً. لقد جرى تدميره خلال الحرب الأهليّة الطاحنة. وما تمَّ استرداده من الآثار المسروقة نقل إلى المتحف البديل الذي أقامه عراقيو المنفى في ديترويت.

- يجب أن تعود إلى عملك. لا ينفع أن تبقى لوحدك في البيت. أو تعالَ واعمل معي في الشركة.

قال عمّار ولم يُعلّق علي بشيء، لأنه شعر أنها حواريّة مكرّرة،

جرتْ سابقاً، وليس لديه دافعيّة لاستئنافها مجدَّداً أو تكرار أجوبته القديمة نفسها.

حين رجع إلى شقّته وجدها نظيفة مرتّبة. كانت زوجة عمّار مع موظفات خدمة يعملن في اتحاد الشركات قد قُمْنَ باللازم، ووجد أن الفريزر وخزانات المطبخ مليئة باللحوم والأطعمة المجفَّفة والماء الصالح للشرب ومعلَّبات وخضراوات.

قال شيطان الثيلكسود الذي انبثق فوق رأسه بمجرد خطوه على كاربت الصالة في شقّته؛ إنها مؤونة كافية لعدم الخروج من الشقّة لأسبوعين. أغلق الباب جيداً وعطَّل جميع أجهزة الاتصال. أغرق من جديد، وهناك، في محطّة من رحلتك نحو الأعماق ستجدني بانتظارك، لآخذك من يدك إلى مناطق أعمق لم ترها سابقاً. ستكون الرحلة ممتعة، خصوصاً وأنَّ لا شيء في هذا العالم يستحق المتابعة والاهتمام. إلا إن كنت مازوشياً تستمتع بمراقبة ما يجري من مصائر كابية لكلِّ الأشياء التي تحبّها في هذا البلد أو في حياتك كلّها.

ظلَّ شبح الثيلكسود يطوف حوله أينما تحرَّكَ في الشقّة. ثم تلقّى اتصالات هاتفية من أصدقاء المعادلة الكيمياوية الوطنية من أميركا، للاطمئنان عليه، وفي الليل اتصل عمّار كي يتأكّد من أنه بحال جيدة:

ـ لقد نظّفنا الشقّة جيداً. لا توجد أيُّ مخدرات من هذي اللي كنت تشربها، فلا تتعب نفسك بالبحث في المخابئ السرية. استرخِ جيداً يوماً أو اثنين، مدراؤك في الشركة يعلمون بهذا، ولكن عليك العودة سريعاً للعمل. أنت نفسك كنت تقول لي عن الفوائد العلاجيّة للعمل والانشغال بشأن من الشؤون.

كان يرى شبح الثيلكسود بجواره، ولكنه ليس ضعيفاً إلى درجة التعرّض للتهديد. ليس هناك طريق عودة إلى الدرب الضبابي للغيبوبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالعقاقير. لقد انتهى هذا الفاصل، ولا يريد إحراج نفسه مع أخيه أو الآخرين أكثر مما حصل. سيحاول الفرار من البلد من جديد. تماماً مثلما فعل ذلك قبل خمس عشرة سنة. الخروج قاطعاً الحدود سيراً على الأقدام. هل لديه طاقة كافية لعملٍ مشابه الآن؟ لا يعرف، ولكنه لن يبقى هنا.

وماذا عن التعاويذ السبع وباب الطباشير، وحيواته في النسخ الست الأخرى، ومحمد سدخان العجوز الضامر؟

إن كان عليه مسايرة هذه القصّة فهي لن تقدم له الشيء الكثير أيضاً. لا يوجد متحف عراقي، ولا يعرف ما مصير جَرَّة أبو صلابيخ، ولا يعرف طريق الدكتور واصف عبد المحيي، وهل هو حيّ أم ميت.

لم يستطع النوم، وظلَّ يتقلَّب في فراشه، شعر بالإنهاك الشديد ورغبة حرَّاقة بالنوم ولكن رأسه ظلَّ يشتغل مثل محرِّك طائرة نفّاثة. نهض وذهب بتصميم إلى غرفة مكتبه. بحث عن سمّاعة أذن بوسادتين مكوّرتين. وجدها في أحد الأدراج، وبلفّة سريعة من أصابعه فتح أحدى الوسادتين، وعثر مثلما توقّع على كيس صغير يحتوي حبوب الثيلكسود. أخذ الكيس معه إلى المطبخ وخبَّأَهُ خلف أكياس مسحوق الكيك في أحد الأدراج العليا. بلع حبّتين وشرب الماء ثم عاد إلى سريره. انتظر بضع دقائق ليشعر بتأثير الحبّتين. ها هو يستردُّ استقراره النفسي، ها هو يهدأُ، ثم يغرق في نوم عميق.

كان من الممكن أن يستمرَّ بعمل ذلك في الأيام اللاحقة، على الأقل حتى ينفد الكيس الصغير، غير أنه صباح اليوم التالي سمع جرس الشقّة يرنُّ. قال في نفسه إنه أخوه عمّار القلق والذي لا يثق بأن أخاه الكبير سيتصرَّف بشكل جيد. وكانت المفاجأة التي لم

يتوقّعها. فتح الباب ووجد «ليلى» بكامل بهائها الذي مازال يتذكّره. شعرها الأسود الفاحم وهو ينزل ناعماً على كتفيها، عيناها الحادتان بكحل زائد، وهندام أنيق يناسب عمرها، فهي الآن في السابعة والثلاثين، إن كانت حساباته دقيقة. لم تكنْ مختلفة كثيراً عن آخر مرّة رآها فيها. ولكن مهلاً. كانت آخر مرّة سيئة جداً. لقد تسبَّبت هذه المرأة، بشكل ما، في المنعطف الذي غيّر علي بشكل كامل والى الأبد. كيف؟

كانتْ حبُّهُ الأول الذي لم يكتمل، بسببها هي. أو ربما لم يكنْ علي مؤهلاً لاقناعها بجدوى الحبِّ. ذهبت لتتزوَّج غيره. وربما لهذا السبب ولبوادر الحرب الأهليّة الطاحنة، وضع حقيبته على كتفه ورافق مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين عبر الحدود إلى سوريا ومن هناك إلى لبنان ومنها عبر قوارب صيد خطرة إلى جزيرة قبرص، وابتدأت رحلة طويلة شاقة لعدّة سنوات انتهت به في ديترويت بأميركا.

ـ ٧ ـ

ها هي تظهر أمام باب شقّته من جديد.

ـ لقد أخذت عنوانك من الشركة. ألم تعرف بأننا نعمل معاً؟

قالت له، وهي تخطو داخل شقّته وتتفحَّصها من دون أن تُفلت حامل حقيبتها الجلدي. ثم تلتفت إليه منتظرةً ردّاً منه. كان مزاجه سيئاً لأنه اكتشف حين استيقظ صباحاً بأنه ليس بالقوّة التي تصوّر بها نفسه، وربما من الأفضل له وللآخرين أن يعود سريعاً إلى المصحَّة. على الأقل هناك رجلٌ عجوزٌ يتعامل معه بصدقٍ على أنه صديقه ويريد مساعدته. ليس لديه هنا أيّ أحد. أوصله أخوه إلى باب الشقّة وتركه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لينشغل بدجاجه المثلَّج. لقد تُرك أعزل أمام كيس حبوب الثيلكسود. إنه شيءٌ سيئٌ تماماً. ثم ها هي كائن من الذاكرة السحيقة ينبثق أمامه. هل تنتظر أن يحتضنها، ويبكي على كتفها، ويقول لها بأنه ما زال يحبّها أو ما شابه من هذا الكلام؟ ما الذي تريده؟

ـ لا أعرف أيَّ شيء، ولا يهمُّني. لماذا جئتِ إلى هنا؟

ردَّ عليها، وهو يشاهدها تجلس على الأريكة في وسط الصالة. رمت حقيبتها جانباً وابتسمت وكأنّها شعرت بأنفاسه العدوانيّة، أو توقَّعت أن يُواجهها بهذه الطريقة.

ـ هناك صلعة خفيفة في مؤخرة رأسك، انتبهت لها أول ما دخلت، ما سوى ذلك لا يبدو أنك تغيّرت كثيراً.

ـ هل تريدين شيئاً يا ليلى؟

ـ إن كان ممكناً فنجان اسبريسو.

قالت ضاحكةً، ولم يتقبَّل علي الأمر كنكتة.

ـ أجلس يا علي، لا تتشنَّج أرجوك. لن أبقى هنا طويلاً.

أخبرته بأنها تعمل في دائرة تابعة لفرقة الدعم المرتبطة بإدارة الشركات المتحدة. هي لم تُغادر العراق أبداً. وخلال مرحلة مبكرة من الحرب الأهليّة الطاحنة قُتل زوجها الضابط، تاركاً لها طفلين صغيرين، وظلَّت تُكافح من أجل إعالة نفسها وأولادها بأيِّ طريقة. وحين دخلت الشركات المتحدة، وجد لها بعض أقاربها عملاً في دائرة سريّة، لا تريدُ أن تكشف عنها. وهي تقبضُ جيداً وتعيش، بعد انتهاء أعمال العنف في الشوارع، بشكلٍ لا بأس به.

ـ لم أعرف بأنك هنا في العراق إلّا منذ يومين. اتصلوا بي من الإدارة العليا وأخبروني عنك وأعطوني عنوانك.

ـ لماذا اتصلوا بك؟

ـ هذا جزءٌ من عملي يا علي. هم علموا بأنّنا أصدقاء وقالوا ربما أكون أنا أفضل شخص للقيام بهذه المهمّة. مهمّة إخراجك من حفرة الأرنب.

ـ أنا فقط من استخدم هذا التعبير. من أين سمعتيه؟

ـ أنتَ لا تستخدمه وحدك، إنه وصف طبّي يستخدم في المصحَّة التي كنت فيها. الأشخاص الذين يتخلّون بإرادتهم عن القتال في هذا العالم. يقفون بانتظار السِّهام التي ربما ستأتي من العدو. ينتظرون الموت.

ـ وكيف ستخرجيني من حفرة الأرنب يا ترى؟

ـ لن أفعل شيئاً. أنا لستُ ملزمة بما يقولون يا علي. مجرد أنني علمت بوجودك كدت أطير من الفرح، واستثمرت الأمر لرؤيتك ليس إلّا.

ذهب علي إلى المطبخ وحاول فعلاً أن يصنع أسبريسو أو أيَّ شيء مشابه. عمل كوبي نسكافيه كبيرين في نهاية المطاف، ووضعهما على الطاولة أمام ليلى.

ظلّا يُثرثران. حدَّثته عن حياتها والمصاعب التي مرَّت بها، وحدَّثها عن رحلته الشاقة إلى أن انتهى به المطاف في أميركا ثم عقد العمل الذي جلبه إلى بلده من جديد.

انتهى كوبا النسكافيه، واكتشف بأنها صارت تدخِّن، ولكنها تقول بأنها سجائر لقطع التدخين. تجربها منذ مدّة للتخفيف من آثار السجائر وتمهِّد لتركها.

عند الباب احتضنته وقبَّلته على خدِّه، وقالت له بأنها ستعود إليه لاحقاً كلّما توفّر لديها وقت، وترجو أن لا يُمانع بذلك. خرجت وعاد علي إلى الصالة مشوَّش الذهن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظلَّت تتردَّد عليه في الأيام اللاحقة، وفي كلٍّ مرَّة لا يستغرق جلوسها في الصالة أكثر من ساعة. ثم شعر علي بأن هناك دماءً تتدفَّق في شرايين يابسة ومنسيّة في صدره. تجاهل كلَّ الأشياء التي كانت تسيطرُ على ذهنه، وأهمل أيَّ روادع من شخصيته التي خبرت هذه العلاقة سابقاً وآثارها ونتائجها. وجد نفسه ينزلقُ بالزمن إلى الوراء، وكأنه ما زال في كليّة الفنون في السنة الأخيرة، وكأنه يُمسك بيد ليلى ويُحاول سحبها إليه ليقبِّلها، قُبْلَة فتح بكارة شفتيه.

قالت له بأنها لا تريد أن تخرِّب أيَّ شيء هو فيه. تعرف تماماً أنها انبثقتْ فجأةً أمامه وكأنها جنيٌّ مصباحٍ سحريٍّ، وتعرف أن هذا غير لائق، ولكنه لم تتحمَّل فكرة أنه موجودٌ معها في المدينة ذاتها من دون أن تراه.

قال لها بأن هذا غير مهم. هو سعيدٌ بأن يثرثر بين وقت وآخر مع صديق قديم.

ـ لا تكذب عليّ يا علي. أيَّ صديق قديم هذا؟ أنا أعرف هذه الالتماعة في عينيك.

ـ إذن أنت تعرفين كلَّ شيء لماذا تسألين إذن؟

ـ عُدْ إلى عملك، عِدْنِي بذلك. هل تتذكّر آخر حوار بيننا قبل أن نفترق؟

ـ أيَّ افتراق تقصدين؟ في الكليّة، أم في بيت صديقتك في أواخر التسعينيات؟

ـ أنت الجالس ها هنا والذي تتعاطى عقار الثيلكسود من جديد كما أخمِّن، هو نفسه علي الذي أعرفه، والذي كنت أعرف ـ ارتبطت به أنني سأكرهه في نهاية المطاف.

ـ إبقي الليلة معي يا ليلى.

ـ لا أستطيع. الأولاد وحدهم مع المربيّة.

ـ هم مع المربيّة إذن. إبقي هذه الليلة.

ـ ليس بهذه الطريقة يا علي. عُدْ غداً إلى عملك وسأكون بجانبك.

قالت ذلك ثم نهضت، وكأنها أتمَّت عملها على وفق جدول معلوم، مع توقّعات محسوبة جيداً تحقّقت على الأرض فعلاً. لقد حرَّضته لمدِّ يده إلى الأعلى، ثم أمسكت به وصارت تسحبه من حفرة الأرنب شيئاً فشيئاً وهو الآن يقف بطوله خارج الحفرة.

ذهبت إلى المطبخ، وفتحت أحد الأدراج العليا، ومن خلف أكياس مسحوق الكيك أخذت الكيس الصغير لحبوب الثيلكسود ووضعته في جيبها. اندهش علي من ذلك. أراد سؤالها؛ كيف علمت بهذا المخبّأ، ولكنها حملت حقيبتها، ومثل كلِّ مرّة احتضنته برفق وطبعت قُبْلَة على خدِّه وغادرت، تاركةً إيّاه مشوّشاً وحائراً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع عشر

مَيْدَانُ التَّفْرِيغ

ـ ١ ـ

حصلتُ على عنوانك من أخيك «عمّار». أنت لا تعرف أنه كان موضوعاً على قائمتي منذ سنوات لجباية الضرائب. وكنت أعلم أنه أخوك، لذلك كنت حريصاً على أن أكون أنا، وليس غيري من مجموعتنا المقاومة، من يكون على صلة به، ولو كانت هذه الصلة، ظاهراً؛ جباية الضرائب.

هو لا يحبّني لهذا السبب، ويتعامل معي بريبة وخشية، ولا يعرف أنني كنت أحميه وأحمي أعماله، حتى حين تركنا وصار يتعامل بصلافةٍ مع مجموعتنا، بعد حصوله على عقد عمل مع اتحاد الشركات.

كان يعتقدُ أن الحماية التي توفّرها قوات شرطة اتحاد الشركات هي من يحميه، ولا يعرف أنني أنا من كنت أمنع زملائي المقاومين من التقرُّب له، أو التعرُّض لمصالحه وأعماله. كلُّ ذلك طبعاً لسبب واحد لا غير؛ أنه أخوك أنت يا علي.

صرتُ ملزماً أن أتعامل معه بشدّة في الفترة الأخيرة. فلْيكرهني، ولكن ليبقَ هو وعائلته بأمان. لا أضمن ما سيحدث له إن حصل لي مكروه، حين يحلُّ في مكاني شخصٌ آخر فلن يتعامل معه بودٍّ أبداً.

فالمسألة هنا لا تتعلَّق بالعلاقات الشخصيّة، وإنّما بإمكانية أن تستمرَّ أعمال المقاومة. واستمرارها لا يكون من خلال تنفُّس الهواء فحسب. يجب الحصول على أموال من مجتمعنا المحلِّي لاستمرار عملنا الذي يهدفُ في نهاية المطاف إلى حماية مصالح مجتمعنا، حتى وإن كان هذا المجتمع متخاذلاً وجباناً ويدخل في عمالة مع المحتلِّ من دون أن يشعر أحياناً، أو تأخذه الحماسة للقيام بهذه الأعمال ظنّاً منه أنها تصبُّ في مصلحته. وأنا وأنت نعرف جيداً ألا مصلحة للعراق اليوم، و«جماعتنا» بالذات مع المشروع الاستعماري الخطر لاتحاد الشركات.

كنت أتجادل معه وأتحمل صلافته حتى يُسلِّمني حصَّته من الضريبة المرسومة على كلِّ أصحاب الأعمال والشركات والمحال التجارية من «جماعتنا»، حين جاء على ذكرك عرضاً، وأنه ينفق أموالاً كثيرة على علاج أخيه، وحين سألته من يقصد بأخيه، ذكر اسمك.

ـ ٢ ـ

فاجأني أنك موجودٌ في بغداد. لا أعرف متى رجعت، وكنت أتوقَّع أنك بمجرد عودتك ستسأل عن أصدقائك القدامى. أنا كنت أظنُّ أننا صديقان مقرَّبان يا علي، أليسَ كذلك؟!

الشيءُ الذي أحزنني أكثر أنك جئت لتعمل مع اتحاد الشركات، مع القوّة المحتلة لبلادنا. كيف رضيت لنفسك القيام بهذا الدور؟!

نعم، أنت تقول بأنك كنت تتوقَّع شيئاً آخر، ولكن يُفترض بك حالما عرفت الحقيقة أن تتركهم على الفوْر. استمرارك وأنت تعرف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحقيقة الآن هو نوعٌ من التواطؤ والاشتراك بدرجة أو بأخرى بكلٍّ ما ترتكبه هذه القوّة المحتلَّة من جرائم وأخطاء وتجاوزات.

أنا لم أتغيّر يا علي. أنا عبد العظيم نفسه الذي تعرفه، ولكنّي نضجتُ مثل طبخةٍ على نار هادئة وقودها هذي الصراعات والحروب على أرضنا منذ عقدين. كيف تتوقَّع منّي أن أبقى ذلك الشاب الساذج في نقاشات «جمعيّة المنتحرين»، أو جلسات الاسترخاء والتفكير بالعدميّة كرفاهيّة وترفٌ في حديقة الدكتور واصف.

هل تعرف أن الدكتور واصف الحقير هو من يقف خلف كلٍّ هذا الخراب الذي نعيش فيه اليوم؟ طبعاً لا تعرف. أنت مهتمٌّ بأفكارك الفلسفيّة والاستغراق مع خيالاتك، من دون فضول كافٍ للتعرُّف على ما يجري في العالم الواقعي فعلاً. لا تزعل مني. أنا كنت أخبرك هذا دائماً. ولا يبدو أنك تغيّرت كثيراً، ما سوى صلعة دائريّة في قمة رأسك.

- ٣ -

تجري ملاحقتي اليوم بشكل حثيث. هم لا يعرفون اسمي ولا وجهي، وإنما فقط اسم رمزي «عبد السيَّاف». أنا متّهمٌ بأنني أحد قادة الحرب الأهليّة ما بين ٢٠٠٢ و ٢٠١٢. ولكني كنت أدافع عن نفسي وأهلي ومدينتي لا أكثر. وإن كان الدفاع عن النفس جريمة فأنا مجرمٌ ولا أخجل من هذه الصفة.

لقد جمعت معلومات كافية عنك وعن تحرُّكاتك، وعلمت بأنك لم تخرج من بيتك منذ أسابيع. ويا ليتك لا تخرج لتذهب إلى عملك في اتحاد الشركات. أن مصيراً أسودَ ينتظر هذا الاتحاد خلال الفترة المقبلة، ولا أريدك أن تكون موجوداً هناك.

ما زلت أتذكّر جيداً الكثير من حواراتنا عن التغيير والمساهمة في الحدث العام وما إلى ذلك. أتذكّر كلماتك أنت بالتحديد، فعلى الرغم من كوننا أصدقاء ولكنك كنتَ فيلسوفنا، وأعجب أحياناً كيف تصوغُ العبارات وتتحدّث عن أفكار بسيطة ولكنها عميقة ومؤثرة. ربما لا تتذكّر ولكنني أتذكّر جيداً، وأجد نفسي أحياناً، وأنا أتحرَّك وأقوم بما أشعر أنه واجبي، وكأنني أطبق وأمتثل لكلماتك الموحية القديمة. لهذا السبب فأنت لم تغادر ذهني أبداً، ولهذا السبب سأقدِّم حياتي دفاعاً عنك، حتى لو بدوتَ بالنسبة للآخرين من مجموعتي اليوم، وكأنك في صفِّ الأعداء.

أنا مؤمنٌ بعمق بأنك لستَ في صفّ الأعداء. لن أجبرك على شيء، ولكني أطلب منك كصديق أن تستجيب لنداء ضميرك الذي ما زال حاضراً كما أعتقد. وتتعهَّد لي بقطع علاقتك نهائياً مع اتحاد الشركات الشريرة.

ـ ٤ ـ

هل تعرف ماذا يفعلون؟

إنهم لا يُريدون بناء شيء ولا تغيير شيء من هذا الواقع المزري، إنهم يُسمِّدون هذا الواقع المزري ويرعونه ويجعلونه قويّاً وثابتاً، ويدفعوننا جميعاً إلى اليأس من تغييره. ولو بقينا مسالمين فسنغدو سماداً مضافاً لحقلهم المسموم.

لقد علمت أن «ليلى» زميلتنا القديمة، تعمل في دائرة سريّة تابعة لاتحاد الشركات، تسمَّى «دائرة إدارة النزاعات الطائفيّة». هل تُصدق هذا؟ إدارة النزاعات الطائفيّة، وليس القضاء عليها.

هذه الدائرة تقوم بعمل دعائي واجتماعي وثقافي سري وغير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مباشر يشبه عمل ممرِّض يُمسك بحقنتين من المصل، يتمُّ استخدامهما عند الحاجة. حين ينخفض منسوب الطائفيّة في الشارع يجري اعتماد الحقنة السمِّيّة الأولى لتأجيجها، وحين ترتفع الطائفيّة إلى درجات خطرة يتمُّ اللجوء إلى حقنة العلاج لتخفيض مستواها.

هذا ما توصّلنا اليه بجهدنا الاستخباري الخاص. كما أنهم يرعون مجموعة من النشاطات التي تبدو في ظاهرها إنسانيّة وتخدم المجتمع، ولكنها في العمق تعمل على زيادة التخريب.

لقد توقّفنا عن العمل المقاوم بضع سنوات، بسبب الضغط الشديد لشرطة اتحاد الشركات. ولكننا أعدنا تجميع أنفسنا من جديد، بعد أن صرنا أكثر وعياً وخبرةً. صرنا اليوم نعمل من داخل السستم الذي فرضه اتحاد الشركات بالقوّة على المجتمع.

صرنا نستثمر كلَّ الإمكانيات المتاحة من خلال مؤسسات اتحاد الشركات، من أجل التدريب واكتساب المهارات العالية، استعداداً للحظة الحاسمة التي سنضرب بها ضربتنا القاصمة. وأستطيع أن أثق بك لأخبرك بأن موعد هذه الضربة بات قريباً.

أنا لن أجازف لأطلب منك الانضمام إلى العمل المقاوم، أعرف مزاجك، ولن يكون من السهل عليك القيام بعمل جريءٍ داخل الدائرة التي تعمل فيها الآن. لذلك فالأسلم أن تغادرها. هذا يُرضيني كثيراً.

كلُّ المعلومات التي أدليت بها أمامي عن دائرتك وعملك وما تعرفه عن اتحاد الشركات لا يُضيف لي الشيء الكثير، ولكن بإمكاني أن أعلّق على شيء واحد ورد في كلامك.

أنت تقول أن مديرك التايلندي المُسْتَعْرب قال لك بأنك، من الناحية العدديّة حللت محل شخص قُتل في «ميدان التفريغ الطائفي».

بإمكاني أن أحكي لك عن هذا، لأني كنتُ على صلةٍ به فترة من الزمن. وسأترك لك أن تحكم على مستوى الجنون الذي يتصرَّف به اتحاد الشركات.

- ٥ -

سيقولون لك، لو صارت فرصة لا أثق بأنها ممكنة، للدفاع عن أفكارهم، بأنهم استحدثوا «ميدان التفريغ الطائفي» كنوعٍ من التسليم بالحقيقة الدمويّة العنيفة للشعب العراقي، وحتى يتمُّ تفريغ شحنات العنف الكامن، وتهدئة الشهوة للدم قليلاً، من دون الحاجة إلى حروب وصراعات مخرِّبة، فلا بأس باستحداث شيء يشبه الألعاب الاولمبيّة. تُذكِّر بميادين القتال الرومانيّة.

لقد بنوا لأجل هذا الأمر ملعباً كبيراً على أرض واسعة في منطقة الزعفرانيّة جنوبي بغداد. كان البناء المُعلن أنه ملعب لكرة القدم، ولكنه الأمر السريّ أنه «ميدان التفريغ الطائفي».

يجري من خلال برامج إذاعية وتلفزيونية متفرِّقة، إذاعة أرقام هاتفية للخدمة العلاجيّة، موجهة إلى أؤلئك الذين لا يستطيعون التخلُّص من الكراهيات العنصريّة، ورغبتهم المرضيّة باستهداف الآخرين. أن المتصلين على هذه الأرقام يرغبون بأخذ علاج لما يرونه مشكلة تمنعهم من العيش بسلام، ثم يجدون أنفسهم لاحقاً مشتركين ببرامج قتالٍ حيٍّ. يُصدِّقون أنها جزءٌ من العلاج.

وبانتشار حقيقة هذا العلاج، ووجود أفراد كثيرين يرغبون ليس بمجرد القتال وإنما القتل، خصوصاً حين يكون مرعِيّاً من الدولة ولا يرتِّب أيَّ تبعات جنائيّة، فإن البرنامج انتشر وصار معروفاً. ثم استقرَّ لاحقاً على صورة محدَّدة. فهناك كثيرون صُدموا من مواجهة الدم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وراح ضحايا كثيرون، تمَّ التغاضي طبعاً أمام ذويهم ومعارفهم عن السبب الحقيقي لمقتلهم.

صار البرنامج يتحرَّك ويستمرُّ بالنشاط من خلال أفراد محدَّدين، هم المستعدون للقتل، أو ممن كانت لهم تجربة سابقة مع القتل. صار برنامجاً للقتلة المحترفين. وكان يسقط تباعاً، في كلِّ جولة مباريات تُقام بشكل سرّيّ، عددٌ جديدٌ من هؤلاء القتلة، لصالح ارتفاع نجم قتلة آخرين.

أثق بذكائك، وسأخمِّن أنك عرفت أنني لا أعرف هذه التفاصيل من خلال الشائعات أو حكايات من اشترك بهذا البرنامج، وإنما لأني أنا كنت بطلاً من أبطاله.

لقد اشتركتُ بأربع وعشرين دورة منه، حتى توقَّفت في لحظة معينة، حين صارت هناك مقاربة بين شخصيتي المعروضة في البرنامج وشخصية «عبد السيَّاف» المطلوب أمنيّاً. ولكني خلال هذه الدورات الأربع والعشرين صرتُ بطلاً حقيقيّاً، وهذا ما كانت قيادات المجموعة المقاومة، التي أنتسب إليها، تريده تحديداً.

لا ينجو شخصٌ ما من نزالات بالأسلحة البيضاء فيغدو خاسراً. الخاسرُ يخسر لأنه مات. وقد قتلتُ أشخاصاً كثيرين لذلك نجوت. وهم بالتأكيد يستحقُّون الموت، إنهم قتلة طائفيون، ساهموا دون شكٍّ في قتل أهلي وناسي خلال السنوات الماضية، وقادهم القدر كي يخرجوا من مخابئهم ويطرحوا أقنعتهم التي تخفّوا خلفها طويلاً، ليقفوا أمامي ثم يسقطوا صرعى تحت سكيني.

كان البرنامج إبن كلب حقيقي. صمَّمه دون شكٍّ شخصٌ ذو خيال إجرامي. يتمُّ عرض كليشة مكرَّرة من التعليمات والإجراءات على المشاركين، ويجري قبل كلِّ نزال التوقيع على رزمة أوراق تمثّل

عقداً ما. ويتلقّى الأحياء بعد كلِّ نزال أجوراً محدَّدة، تُمثِّل حسب رأيي إغراءً للمشاركة مرّة أخرى.

هناك غالباً جمهورٌ من المتفرِّجين، يجري انتقاؤهم بعناية، وسحب كاميراتهم وهواتفهم المحمولة في استعلامات الملعب. وفي الدورات الأولى حين كان يسقط بطل في الحلبة، تثور ثائرة مؤيديه فيستديرون إلى أفراد من جمهور المؤيدين للبطل المنتصر، وتحدث مُشادات تتطوّر إلى عِراك بالأيدي وربما تخريب موجودات الملعب. لذلك تمَّ لاحقاً تقسيم الملعب إلى لونين أحمر وأزرق، يُمثِّل كلٌّ لون جمهوراً طائفيّاً محدَّداً، يعزل بينهما سياجٌ من البي آر سي.

كانت حلبة المجالدة مسرحاً فعلياً، وشعرت حين وقفت فيها أوّل مرّة، بأني وجدت مكاني الذي كنت أنتظره طوال سنين، التمثيل الحيّ أمام جمهور ومتفرِّجين. ولستُ أمثّل هنا قصصاً متخيّلة، وإنما أنا أصنع هذا الحدث كنسخة أصليّة، غير قابلة للتزوير، لأنها ممهورةٌ بالدم، وهي، مثل كلِّ مسرح آخر، لعبٌ بالمصائر، ومراهنات على الموت والحياة. ولكنها مسرحيّة جادة جداً ومخيفة لأنها لا تقلّد شيئاً إلّا نفسها. والممثل الذي يموت على هذه الحلبة يموت فعلياً، ويخرج من مسرح الحياة إلى غير رجعة.

ـ ٦ ـ

كانت المعارك مصمَّمة، بما أنه صراع طائفي مباشر وصريح، على وفق حكايات منتزعة من التاريخ، حكايات ذات طابع طائفي، أو يمكن القول بأنها الحكايات التي تؤجِّج دائماً الصراع الطائفي. واقعة الطفِّ، الشمر أو عمر بن سعد بمواجهة الحسين والعبّاس. المختار الثقفي بمواجهة عمر بن سعد أو عبيد اللّه ابن زياد. معاوية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمواجهة علي بن أبي طالب، وفي نسخة أخرى عمرو بن العاص بمواجهة علي بن أبي طالب، أو مواجهة مع عمّار بن ياسر أو مالك الأشتر. صلاح الدين الأيوبي بمواجهة قائد فاطمي.

كنا نرتدي الأزياء المناسبة للشخصيات التاريخيّة، كما فُرض علينا ارتداء أقنعة خاصة، لاخفاء هوياتنا الأصليّة، وأيضاً للشعور بالاندماج أكثر مع الشخصية التاريخيّة، إن كان بالنسبة لنا أو للجمهور المتفرِّج.

طبعاً كانتْ هناك مشكلات في هذا التقسيم، أهمُّها ألّا أحد يرغب باختيار دور الضحيّة التاريخيّة، الكلُّ يحبُّ أن يمثّل دور المنتصر، على الأقل كنوعٍ من التفاؤل السابق على الدخول إلى حلبة المعركة، التي لن يحدِّد المنتصر والخاسر فيها، بالحقيقة، لا كاركتر الشخصيّة التاريخيّة ولا كلُّ حوادث التاريخ، وإنما من كان أكثر تدريباً ومهارة.

المشكلة الثانية تتعلَّق بالهويّة الطائفيّة الواضحة لشخصيات الأبطال. فالمتقاتلون من كلا الطائفتين يمجِّدون الحسين، ولا أحد يتقبَّل بأن يكون الشمر ممثلاً لطائفته، أو أن يدَّعي أن قتله للحسين كان عملاً مشرِّفاً. كما أن الكثير من المشاركين الشيعة لا يشعرون بتعاطف كبير مع البطل الفاطمي، لأنه لا ينتمي بشكل مباشر إلى المذهب الشيعي العراقي.

حسمتْ إدارة الملعب الأمر من خلال القرعة، وكنت سعيداً أن الدور الذي وقع عليَّ في مباراتي الأولى هو دور العبَّاس. ضربتُ خصمي في نهاية الجولة المتعبة معه ضربتين بالسيف على كتفه ورقبته أردته قتيلاً. قتلت عبيد اللّه ابن زياد وهلَّلَ لي الجمهور فرحاً. وانتابتني مشاعر غريبة، لقد قمتُ، وإن بشكل افتراضي، بتصحيح

التاريخ. خرج العبَّاس من واقعة الطفِّ الجديدة بذراعين وعينين سليمتين، وقضى على عدوه وعدو أخيه الحسين. آه لو كانت هناك إمكانية فعليّة لتصحيح كلِّ مجرى التاريخ بهذه الطريقة، لربما ما انتهينا إلى ما نحن فيه اليوم.

في المباريات اللاحقة اضطررت لقتل الحسين أربع مرّات، والعبَّاس مرّتين. قتلت الإمام عليٍّ مرّة واحدة. وحظيت الشخصيات الأخرى، التي أحبّها أو لا أحبّها، بمصائر مشابهة بغض النظر عن هويتها. ولهذا أنا حيٌّ أمامك الآن وأتحدَّث.

لم يكن يتهيّأ للكثير من المشاركين أن يكونوا حسني الحظِّ مثلي. بعد أربع أو خمس جولات يسقط البطل صريعاً. أنا واثنان آخران ربما استمرِّينا إلى أربع وعشرين جولة. ولكنِّي انقطعتُ كما أخبرتُك، ولا أعرف ربما قُتل الآن هذان البطلان. في كلِّ الأحوال صارتْ لدينا سمعة ممتازة بين جمهور الحاضرين، وسرعان ما انتقلتْ هذه السمعة إلى جمهور الشارع.

كانت مجموعتي المقاومة تعتمد على هذه السمعة في تحشيد المؤيِّدين، ولكن، مثلما صرت معروفاً بين مؤيّدي ومحبِّي، صرتُ معروفاً لأولئك الذين كانوا يبحثون عنّي، لأني قتلت أبناءهم وإخوانهم في حلبة المجالدة.

لم يكنْ من السهل الالتزام بقوانين الحلبة، ولن يتمكَّن شخصٌ ما بسهولة من تقبُّل مقتل أخيه أو ابنه، ثم يترك قاتله حيّاً يتنفَّس. صرتُ ملاحقاً الآن في هذه الفترة الحرجة من قبل جهتين؛ استخبارات شرطة اتحاد الشركات، وأناس يطلبونني بثأر ساحة المجالدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعرَّضتُ لمحاولتي اغتيال جرَّاء ذلك، واضطررتُ في واحدة منها لقتل أحد طالبي الثأر، وتمنَّيتُ أن يفهم أنّها كانت مجردة لعبة، وأن إمكانيات أن أُقتل على يد قريبه كانت مكافِئَةً لإمكانيات موته الذي حصل بمصادفة. كما أن هذا القريب مسؤولٌ عن موته الشخصي. ولم آتِ أنا لأغدره برصاصة في زقاق مظلم مثلاً. ولكن، كيف أتمكّن من الشرح بهذه الطريقة لشخص اكتشف وجوده في اللحظة ذاتها التي يطلق فيها النار عليَّ؟!

هذا الموضوع يُقلقني ولكن ليس إلى درجة كبيرة. لست خائفاً على حياتي الشخصيّة، ولكن بما هي مفيدة لهدفنا القادم. لا أريد الموت الآن بعبث على يد طالب ثأرٍ سخيف، أو أقعُ بيد استخبارات اتحاد الشركات، لأن هذا سيُمثِّل نكسةً لمجموعتنا المقاومة بعد كلِّ هذا الجهد والوقت الطويلين. فمن خلال الأشهر التي قضيتها بالتعامل مع الجهة المنظِّمة لحلبة التفريغ الطائفي، صرت أفهم أشياء كثيرة عن عمل اتحاد الشركات، وما تريده على وجه الدقَّة وكيف تتصرَّف، وقد فعل زملاء لي أشياء مماثلة في أماكن ودوائر أخرى تابعة لاتحاد الشركات.

وهذا كلُّه في إطار الاستعداد لتحرّكنا القادم. ستكون ضربة قاصمة، وإن فشلتْ فستقضي علينا بشكل حاسم. هذا هو العمل الوحيد الذي نستطيعُ القيام به اليوم كي نتجاوز التثبيط ونزع القوّة من أنفس الناس وبثَّ الخيبة والشعور باليأس من خلال جهد منظَّم تقوم به منذ سنوات جهات غامضة تعمل لحساب اتحاد الشركات، كما هي الجهة التي تعمل فيها ليلى، أو الدائرة التي تعمل فيها أنتَ.

أنتَ لا تُصدِّق بأنك تعمل في دائرة تُقدِّم خيراً للناس؟! حتى لو

كنتَ لا تعرف، فأرجو أن تُصدّق أنه لا يوجد خيرٌ يقوم به اتحاد الشركات. حتى لو كان في ظاهره يبدو حسناً أو غير مؤذٍ.

لقد انتصف الليلُ الآن، وأشعرُ بأني أتعبتك بهذه الحواريّة على مدى الساعات الماضيّة. ولكني أحببتُ أن أخرج كلَّ ما في صدري من كلام، تحسُّباً لعدم توفّر فرصة مماثلة في المستقبل. سعيدٌ أنني رأيتك بصحّة جيدة، وشعرتُ خلال الوقت الماضي بأني أيقظتُ جانباً نائماً من ذاتي. جانباً أحبّه. ولا أعرف متى تتاحُ لي فرصة أخرى لتكرار التجربة.

إترك العمل في اتحاد الشركات يا صديقي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس عشر

خَرُوفٌ فِي القَطِيع

ـ ١ ـ

شَعَرَ علي، من دون حاجة لتفكير كثير، بأن هناك كاميرات مراقبة في شقّته. وإلّا كيف تمكّنتْ ليلى من الوصول إلى كيس حبوب الثيلكسود، وكان قد وضعه في مكانه ليلاً من دون وجود أحد. لهذا السبب ربّما صدّتْ ليلى محاولاته في زياراتها الأخيرة للتقرُّب منها. لم ترغب أن تظهر كممثلةٍ في فيلم بورنو مجاني أمام كاميرات المراقبة. لا يوجد تفسيرٌ آخر.

قالت له في زيارتها الأخيرة:

ـ صحيح أنا استثمرت فرصة الواجب الذي كُلِّفتُ به كي ألتقي بك. ولكن إن لم أحقِّق تقدُّماً ما فسيمنعونني من زيارتك. إن تجاوبت معي سأضمن أننا نستطيع اللقاء في أيٍّ وقت نرغب.

دَنَتْ منه ودفعته ليضع رأسه على كتفها. صارت تُداعب شعره الداكن ثم قالت له بنبرة حميمة وكأنّها تُسرّه بشيء:

ـ ألّا تتذكّر التعويذة الثانية؟: «أنتَ محكومٌ بما تراه عن العالم. غيِّر ما تراه يتغيَّر العالم». لا تَبْقَ متشبِّثاً بما تراه أنت فحسب يا علي.

لم يُعلِّق على كلامها بشيء جديد. كرَّر كلاماً سابقاً، وطلب منها بشكل معكوس، أن تتمرَّد هي على أوامرهم وتبقى معه. لم

تتحمَّس كثيراً لذلك بالطبع، ورفعت رأسه من كتفها ثم نهضت. حتى أنها قبل مغادرتها لم تحتضنه وتطبع قُبْلَة على خدِّه. وشعر علي بأن هذه إشارة معينة لنهاية الطريق، ثم جاء عبد العظيم بزيارته المفاجئة ليرمي عليه قنبلة من التفاصيل التي لم يكن يعرفها، ولا يعرف مدى دقَّتها، وهل هي واقعيّة حقاً أم إن عبد العظيم يبالغ، ولكنه من دون شكٍّ لم يكن يبالغ بشأن جماعات المقاومة، والتهديد القادم لمصالح اتحاد الشركات والموظفين العاملين معها.

عَزَّزَتْ زيارة عبد العظيم من رغبة علي بالبقاء في البيت دون أن يعمل شيئاً. ولكن، إلى أيِّ حدٍّ يمثّل هذا سلوكاً قابلاً للاستمرار؟! استجاب لطلب صديقه القديم وأكَّد له بأنه لن يعود إلى عمله في الدائرة، غير أنه لم يعرف ما هو مصدر الرزق البديل؟ هل يتَّجه إلى أخيه الذي يعمل بدوره مع اتحاد الشركات؟ هل يَسْتَدِيْنُ من أحد ما؟ هل هناك فرصة للعمل اليوم في هذا البلد من دون أن يكون العمل على صلة باتحاد الشركات؟

إنهم يحسبون كلَّ شيء بدقَّة. حتى أرواح البشر، ولهذا حلَّ علي، كما قيل له، بديلاً عن شخص قُتل في ميدان التفريغ الطائفي. لهذا لا يوجد شيءٌ يفلت من قبضة اتحاد الشركات. وبما أنه ممنوعٌ من السفر بأيِّ شكل كان، فهم يحصرونه الآن مثل جُرَذٍ في زاوية، سيجعلونه يموت جوعاً ها هنا إن لم يرجع للعمل معهم.

ولكن، ما هي الأهمية لعمل بُرغيٍّ صغير في ماكنة هائلة معقَّدة التفاصيل اسمها اتحاد الشركات؟ يعتقدُ علي بيقين شبه كامل أنه مجرد بُرغيٍّ صغير، بالإمكان استبداله والاستغناء عنه دون مشقّة. لماذا يتعبون أنفسهم في محاولة ترويضه؟ هناك العشرات وربما المئات من عراقيي المهجر الذين يتمنَّون شغل وظيفته بامتنان وشكر،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وربما يكونون أكثر كفاءة منه. لماذا لا يتركونه يغادر جنَّتهم ونعيم العمل معهم؟!

زاره أخوه عمّار بضع مرَّات، ولم يأتِ على ذكر عبد العظيم أبداً، وتلقَّى اتصالات هاتفية من أصدقائه القدامى في أميركا، وظلَّ ينتظرُ عودة ليلى لزيارته من جديد ولكن من دون طائل. لم توافق على إعطائه رقم هاتفها، أو تَدُلُّه على سكنها، أو أين تعمل. كانت تقول إن هذا من أجل حمايته.

ـ ٢ ـ

ها هو وبعد بضعة أحداث مثيرة جرَّاء زيارات ليلى وعبد العظيم، شعر بأنه يعود من جديد إلى حفرة الأرنب، ولكن هذه المرّة من دون حبَّة واحدة من عقار الثيلكسود. واكتشف سريعاً المفارقة في الموقف؛ فهو كان يحصل على هذا العقار بشكل منتظم مع زملائه في العمل من صيدلية الدائرة. باعتباره عقاراً ضرورياً لعمل المدرِّبين، الذي يشغل علي مكانه بينهم. واليوم، عليه من أجل الحصول على عقار الثيلكسود الذي يدفعه بعيداً عن هذا العالم، أن يعود للعمل الذي يريد الهرب منه.

لا توجد وسيلةٌ أخرى للحصول على هذا العقار غير المدوَّن ضمن لوائح الأدوية العالميّة، ولن يعثر عليه في الصيدلية أسفل العمارة التي يُقيم فيها مثلاً. ومع شعوره بالتوتر وفشله بالنوم السريع والمريح، حاول إشغال نفسه بشيء ما. فكَّر بإجراء عملية تفتيش واسعة للعثور على كاميرات المراقبة. انشغل نهاراً كاملاً بهذا الأمر ولم يعثرْ على شيء، وكان من المصادفات الايجابية عثوره على حبَّة بيضاء محزَّزة بين طيّات كاربت الصالة، تشبّه حبوب الثيلكسود.

شربها ليلاً، من دون أن يعرف هل هي الحبَّة المنشودة أم مجرد علاج للصداع. أَوْهَمَ نفسه بأنها فعلتْ فعلها، واستغرق بالنوم أو كاد، حين سمع هاتفه المحمول يرنُّ.

ـ كيفك يا ولد؟

ـ أنا بخير يا دكتور.

ردَّ علي مباشرةً، رغم أنه كان ينزلق ببطء إلى حفرة الأرنب.

ـ كيف أنت وماذا تفعل؟ لماذا لا تخرج من شقّتك؟ هل لديك مؤونة سرداب من سراديب التحصين ضد الحرب النوويّة؟ أم أنت لا تأكل أبداً؟

ـ أنا سألت عنك وبحثت، ولم أحصل على نتيجة.

ـ بما أنك ما زلت تأكل. هل أعزمك على غداء؟ تعرف مطعم التنين بشارع الرشيد؟ ممكن نلتقي هناك غداً عند الثانية عشرة ظهراً.

كان هذا هو الاتصال الاول بين علي ودكتور واصف في هذا العالم. ولم يخلُ ترقُّب علي للقاء صديقه القديم من إثارة معينة. كيف سيكون شكله هنا، ما هي طبيعة مهامه؟ لماذا يريدُ لقاءَهُ؟

ظلَّ علي يسأل بينما الدكتور واصف يتجنَّب الشرح وكأنه على عجلةٍ من أمره، وقال له في النهاية بأنه سيعرف كلَّ الأجوبة غداً. تذكَّر علي فجأةً صديقه العجوز الضامر في المصحَّة. وكلُّ الأحاديث التي تجاذبها معه، ثم حضر الوصف السلبي الذي استخدمه عبد العظيم بشأن الدكتور واصف. وفي اليوم التالي ارتدى ملابسه وخرج من شقّته مبكراً، لأول مرَّة منذ بضعة أسابيع.

ـ ٣ ـ

حين وصل إلى مطعم «التنين» وجد نفسه مُنْهَكَاً، وكأن جسده

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكسول بسبب كثرة الجلوس غير متعوّد على السير والتنقُّل لمسافات طويلة. أو ربما هي آثار متبقية من رحلة العلاج الطويلة.

وجد الدكتور واصف يحجز طاولة عند الشبّاك في هذا المطعم الذي أقامه صينيون منذ بضع سنوات بتمويل من بُوذِيين عراقيين.

شرح له الدكتور واصف شيئاً من مفارقات هذا المكان، وبدا وكأنه يريدُ تأجيل الإجابة عن التفاصيل التي تدور في ذهن علي إلى وقت آخر. كان الدكتور واصف يُهيئُ نفسه لجلسة طويلة مع صديقه الشاب.

تناولا الغداء وهو طعامٌ بحريٌّ مع رُزٍّ مطبوخٍ على الطريقة الصينيَّة. وخلال ذلك كان الدكتور واصف لا يتوقَّف عن التعليق على الأكل ثم الاستطراد إلى قضايا تتعلَّق بالصينيين في العراق اليوم:

ـ أنت لا تعرف ربما أن لدينا مشكلة تتعلَّق بالبوذيين العراقيين. هناك حوالي مليوني عراقي تحوّل إلى البوذيَّة منذ سنوات، كردَّةِ فعلٍ كما أفسِّر على جوِّ المشاحنات الطائفيّة. ولكني لم أكن أتوقّع أن يأخذوا عقيدتهم الجديدة على محمل الجدّ. تصوّر هم الآن بصدد إنشاء معبدٍ بُوذيٍّ في مكان قريب من هنا، في شارع الرشيد، يقولون إنه كان يحوي خاناً لمنام المسافرين في أواخر العصر العباسي، وكان مقرَّاً لزيارات سنويّة قام بها تاجرٌ صينيٌّ يجلب الورق إلى بغداد، وهو في الوقت نفسه عالمٌ ومتصوّفٌ بُوذيٌّ كبيرٌ نسيت اسمه.

انهمك الدكتور واصف بمضغ لقمته قبل أن يُكمل ساخراً:

ـ طبعاً أيّ بوذي في العالم لن يشغل نفسه بأشياء من هذا النوع. إنها الأنفاس العراقيّة والهوس بالمقامات ومحاولة تأصيل الوجود بالأرض. وكأنَّ هذا البوذي العراقي لن يكون بوذيّاً فعلاً من دون أن يكون له في بلده مَعْلَمٌ بوذي وقُبَّة ومقام.

ـ ٤ ـ

انتهى الغداء وصارا يشربان شاياً خفيفاً، ولم ينتبه علي أن عدداً من الطاولات المجاورة كان يشغلها حرّاس شخصيون للدكتور واصف. كان المطعم شبه محجوز لهذا اللقاء.

ظلَّ الدكتور واصف يسأل علي عن وضعه وعمّا يشغله. تكاثرت الأسئلة بما يشبه الاستجواب، وعلي يردُّ عليها تباعاً متحيِّناً الفرصة التي سيسأله فيها عن التعويذات السبع وأبواب الطباشير ومحمد سدخان والطريقة التي جاء بها إلى هذا العالم وما إلى ذلك. لكن الدكتور واصف لم يعطه فرصة، وكأنه أعدَّ أسئلته مسبقاً وتمرَّنَ عليها طويلاً.

ـ هل فقدت الإيمان بقدرتك وإمكانياتك؟

ـ لا أشعر بأن المكان الذي أعمل به يقوم بشيء جيد.

ـ لا تشعر؟

ردَّ دكتور واصف مستنكراً، ثم رمى حسرةً مديدةً وأكمل:

ـ إن استسلمنا لمشاعرنا فنحن في هذه الحياة لا نقوم بشيء جيد يا علي. الشيءُ الجيد الوحيد، إن أردت الحقيقة، هو دفع الموت بعيداً. مقاومة الموت، إلتهام شيء يشبه عُشْبَة خلود جلجامش وعدم الموت بعدها. هل نقوم بهذا؟ هل يُتاح لنا أن نقوم بشيء مستحيل مثل هذا؟ أبداً. ثم ألّا تتذكَّر التعويذة الثالثة؟ «إن لم تكنْ لديك القدرة على إسعاد نفسك، فعلى الأقل في بدنك وروحك ولسانك ما يُسْعِدُ الآخرين» إسعاد الآخرين وسيلةٌ فعّالةٌ للحصول على السعادة الذاتية، وأنت لديك هذه الفرصة هنا.

لم يفهم علي جواب الدكتور واصف. وصار الكلام بعدها ضبابيّاً أكثر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أريد مغادرة هذا العالم يا دكتور.

ردَّ علي وهو يقاطع كلام دكتور واصف، وشعر الأخير بأن صديقه الشاب صار مشوَّشاً ومتضايقاً.

ـ لم أكن أرغب بأن تعيش في محنة. إنها وظيفة مناسبة لك. أنت لا تعرف طبعاً انني أنا من عيّنك فيها. كنت أفترض بأنني لن اكون بحاجة إلى هذه المصارحة.

قال الدكتور واصف بنبرة أسفٍ قبل أن يبدأ مع صديقه الشاب جولةً أخرى من المشاريب الدافئة. نظر الدكتور واصف إلى ساعته اليدويَّة، وكأنه يحدِّد الوقت المناسب لكلٍّ موضوع يتحدَّث به، ثم استرسل في شرح الأشياء التي جاء علي أصلاً من أجل معرفتها.

ـ ٥ ـ

لا يُقيم الدكتور واصف في بغداد، ومنذ أحداث الحرب الطائفيّة الطاحنة صار يُقيم في أميركا، وهو من عمل حثيثاً على إقامة متحف عراقي بديل للآثار هناك. يذهب ثم يعود إلى بغداد بصورة دائمة، تبعاً لمتطلَّبات عمله. ولذلك هو لن يكون متوفِّراً بشكل دائم خلال الفترة القادمة، ومن الضروري أن يضع علي في الصورة المطلوبة منه، فهو من جلبه إلى وظيفته الحالية، وهو مسؤول عن عمله وعن نتائج عمله وعمل زملائه المشابهين، ولكن هناك خصوصيَّة ما لعلي.

لم يكن لمشروع الأمة العراقية الجديدة والإدارة السياسية الدولية لاتحاد الشركات أن يجري من دون موافقات صريحة وثابتة من قبل الغالبية من مواطني الجاليات العراقية في الخارج، الذين يُمثِّلون أكثرية السكان، قياساً بمن بقي في الداخل. وخلال أشهر طويلة ما كان لهذا المشروع أن يرى النور بسبب الاختلافات والتقاطعات التي

شابتْ كلَّ نقاشات رابطة الأمة العراقية مع ممثلي الجاليات في مختلف المدن والدول التي زاروها. كان المشروع على شفا الفشل الذريع. لم يكن العراقيون قادرين على الاتفاق وهم داخل وطنهم، ومن غير المفاجئ أن يبقوا على اختلافهم وهم في الخارج، حتى مع شعورهم بالأمان والاستقرار والتخلُّص من تهديد الخصم الطائفي.

كان الدكتور واصف قد اكتشف حينها جرَّة أبو صلابيخ واستخرج منها التعاويذ السُّومريَّة السبع. وظلَّ يعمل عليها لمدّة حتى فهم أبعادها وتأثيراتها كافة. ولم يكن من السهل إقناع الآخرين بأن هذه التعاويذ التي كتبها أناسٌ بدائيون يمكن أن توفّر حلّاً لمعضلتهم.

ـ السرُّ هو في «الباب السادس». كلُّ الأبواب الأخرى تنقل صاحب النسخة الأصليّة ما بين العوالم، لكن الباب السادس يؤدي إلى الفناء، فناء النسخة الأصليّة، موت الذات المتفرِّدة.

ـ لم تُخبرني بذلك سابقاً.

ـ لا أتذكَّر أننا تحدَّثنا بهذا الموضوع.

ـ اقصد. . الدكتور واصف في نسخة عالم آخر.

ـ هنا المشكلة، وأتذكَّر أنني أخبرتك بها سابقاً.

تجاهل الدكتور واصف اعتراض علي واستمرَّ في حديثه.

ـ كان علينا أن نقرأ تركيبة من هذه التعاويذ على مجاميع الجاليات العراقية، بادِّعاء أننا نُغني أغاني قديمة تُمثِّل روح الأمة العراقية وما إلى ذلك. كانوا يسمعونها ويتفاعلون معها، وخلال النوم تعبر الذات المتفرِّدة للواحد منهم عبر الباب السادس وتفنى. وهكذا صرنا نتخلَّص من التمرُّد وأسباب الخلاف وعدم الاقتناع، ونحصل على خِرَافٍ أليفة تبحث عن الدفء في المجموع. ولم يُصدِّق القائمون على مشروع الأمة العراقية الجديدة النتائج التي توصَّلنا إليها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في البداية. هكذا حصلنا بعد بضعة أشهر صعبةٍ على موافقات جماعيّة على المشروع وصار ممكنَ التحقيق على أرض الواقع.

- ٦ -

كان علي بالطبع، وكما استنتج سريعاً أحد «قُرَّاء التعاويذ» الذين أنتجوا خِرَافَ الموافقة على المشروع. وهو عملٌ كان يُواجه مصاعب معينة، فالكثير من الموظفين بصفة «قُرَّاء تعاويذ» كانوا يتحوّلون إلى ضحيّة للتعاويذ التي يقرؤونها، فينفصلون سريعاً عن مجتمع العمل الخاص بالادارة الفنية الساندة لاتحاد الشركات، ليتحوَّلوا إلى خِرَاف، ويفقدون أصالتهم المطلوبة لعمل قُرَّاء التعاويذ، فلا يعودون جزءاً من مجتمع القيادة الصغير. كانت إدارة المشروع الذي ترأسَهُ الدكتور واصف تفقد موظفيها بشكلٍ متسارعٍ بهذه الطريقة، ما سوى علي. ظلَّ صامداً ولا يخضع لتأثيرات التعاويذ التي يقرؤها. كان مميَّزاً لسبب غامض، ومن هنا جاءت أهميته. هذا على الأقل منذ أن بدأ العمل بشكل فعلي قبل بضعة أشهر.

في الفترة ذاتها تمَّ اكتشاف تأثيرات عقار كان يُستخدم لعلاج بعض الأمراض النفسيّة، وجرى تطويره باتّجاه وغرض محدَّدين؛ لحماية قُرَّاء التعاويذ من الباب السادس. وبعدها بمدّة صار من الممكن الحديث عن دائرة خاصة بالأناشيد السُّومريَّة، التي هي في باطنها تعاويذ الفناء عبر الباب السادس. وكان علي من بينهم من لا يحتاج إلى هذه العقاقير لأداء عمله.

ظلَّ علي يعمل مع هذه الدائرة، ثم انتقل إلى بغداد، وخلال مدّة عمله التي استغرقت ستة أشهر تقريباً، كان يرى الكثير من زملائه ينتكسون بسبب كثرة تناولهم لعقار الثيلكسود، ويتمُّ إيداعهم في

المصحَّة جنوبي بغداد. يجري هناك تخليصهم من السموم بشكل دوري وتأهيلهم للعودة إلى العمل، ما سوى علي، الذي كان يتناول أقراص الشيلكسود كنوعٍ من العادة مع زملائه. ثم بسبب شعوره بالمللِ من عمله الذي قيلَ له أنه نوعٌ من الإدارة الاجتماعية وتحريض الآخرين على كشف شخصياتهم وما إلى ذلك، وحين اكتشف بأنه لا يُسهم في عمل جيد، وأنه كبُرغيٍّ ربما يعمل في تحريك عتلات ومسننَّات في آلة ضخمة تصنع الشرَّ، صار يشعرُ بالمأزق وانتهى به المطاف للادمان على الشيلكسود.

ـ كانت روحك المقيمة هنا قويّة جداً، ولا أفهم لماذا استسلمت لروحك الوافدة. هذه الروح المتشكّكة، والتي تمرَّدت على عملنا، ما اضطرنا لايداعك في المصحَّة من أجل محوٍّ ذاكرة الأسابيع الماضيّة، الذاكرة التي أنتجتها روحُك الوافدة.

قال الدكتور واصف بنبرةٍ حميمةٍ وكأنّه يتحدَّث مع إبن أو أخ له. وضع يده على كتف علي ثم أكمل:

ـ أنت صديقي، ومن أقرب الأشخاص إلى نفسي، ولكن عملنا في خطر. كلُّ قُرَّاء التعاويذ ينهارون بسرعة. أنت الوحيد الذي بقيتْ بجواري وتعمل بكفاءة. أعذرني لأني أرسلت من يُحاول إيقاظك من غيبوبتك في العالم الأول، حتى أسترجع علي ناجي خاصّتي. لقد كلَّفته بقتلك هناك في حال فشله في العلاج. لكن المجنون تردَّد ولم يفعلها.

ـ قتلي؟!

ـ ليس أنت.. وإنما ذاتُك التي في العالم الأول. على أيٍّ حالٍ ما زلت هناك على حالك. أنا أتحدَّث معك بهذه الطريقة لأني أشعر بالفشل والإخفاق. أتمنَّى أن تُقدِّر ما أنا فيه حقاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رَأنَ صمتٌ بين الرجلين، وجاءت عاملة خدمة صينيّة صغيرة ورفعت الأطباق والأقداح من المائدة، فانتهز دكتور واصف الفرصة وطلب منها فنجاني قهوة.

ـ أنت تريدُ قهوة، أليس كذلك؟

سأل فأومأ علي بالإيجاب. ثم لفتت انتباه علي حركةٌ في شارع الرشيد، مجموعة من عشرين إلى ثلاثين شخصاً، من حليقي الرأس، ترتدي ملابس صفراء ويسيرون بهدوءٍ وصمتٍ خلف بعضهم البعض الآخر.

ـ إنهم البوذيون العراقيون. يذهبون كلَّ يومٍ للصلاة في الموقع الذي يطالبون بتحويله إلى مَعْبَد.

ظلَّ علي صامتاً، وهو يشعرُ بالمأزق الذي وجد نفسه فيه من دون إرادة ولا رغبة. واستمرَّ دكتور واصف بالكلام.

ـ من الضروري أن تؤمنَ بأهمية العودة إلى العمل بأسرع وقت. لدينا انتكاساتٌ داخل المجتمع تحصل دون معرفة السبب لأشخاص عبروا سابقاً الباب السادس، فضلاً عن أجيال جديدة، وأشخاص كان من الصعب السيطرة عليهم وإجلاسهم أمام مدرِّبي قراءة التعاويذ. وعمّا قريب ستمتلئُ المصحَّة بكلِّ موظفي دائرتك، ولن يكون لدينا مدرِّبٌ مؤهل. أنت تعرف الآن حَرَاجة الموقف.

ـ ٧ ـ

كان على علي الردّ بجواب مطمئن وإلّا لن يتخلَّص من هذه الجلسة الطويلة مع صديقه العجوز. وهي جلسةٌ صارت تُشعره بالضيق. لم يشعر أنه يحبُّ الدكتور واصف هذا. إنه استناداً إلى كلِّ ما تحدّث به يبدو كائناً شريراً. كان مستعدّاً لقتله. إنه السبب في

ولادة هذا المشروع المجنون. عند هذه النقطة صار يفهم جيداً كلام عبد العظيم، من بعدما كان يظنُّه يبالغ أو تحت تأثير لوثة ما.

وَعَدَهُ بالعودة إلى العمل وافترقا. ظلَّ يتسكَّع في الشوارع من دون رغبة بالعودة سريعاً إلى شقّته. شاهد التغيّرات التي حدثت في المدينة. كانت وعلى خلاف الصور التي اختزنها في ذاكرته، نظيفة وبرّاقة، وهناك اهتمام واضح بواجهات المحال، ومعالم تعكسُ الهويّة العميقة لهذه المدينة. هناك جهدٌ جبَّارٌ لجعل بغداد هذه تبدو للناظر إليها وكأنها مدينة من طبقات، تُحيل إلى كلِّ مراحل تاريخها السحيق. هذا شيءٌ مهمٌّ دون شكٌّ، ويبدو أن دكتور واصف وفريقه عملوا بشكل جيد وقدَّموا حلّاً في وقت انتفاء الحلول. حين عاد إلى شقّته بعد ساعة من التجوال والتنقُّل بالسيارات من مكان إلى آخر دون هدف محدَّد، وحاول خلال هذه الساعة أن يجد أيَّ مبرِّرٍ يُساعد على التصديق بجدوى العمل الذي يقوم به بجوار الدكتور واصف، شعر بإحباطٍ شديدٍ من نتيجة هذا التفكير الطويل. دخل إلى الصيدلية أسفل العمارة التي يُقيم فيها، وطلب حبوباً منوّمة، لكن صاحب الصيدلية قال بأنه لا يمنح علاجات من دون وصفة طبيّة.

عاد إلى شقّته، وأخرج المشروبات التي لديه في الثلاجة. كانت بواقي وأرباعاً، وضعها كلّها على الطاولة، واستغرق في شرب أراده أن يكون مفرِّطاً، يدفعه لنوم عميق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس عشر

المُنْتَحر

ـ ١ ـ

لَمْ يَتَبَقَّ في القسم الذي يعمل فيه علي سوى ثلاثة موظفين، بالاضافة إلى المدير التايلندي المستعرب. أما البقية فقد أودعوا على مراحل في المصحَّة. وقّع علي في سجل المباشرة بالعمل، وكان المدير التايلندي سعيداً برؤية موظفه المميَّز وهو يبدو بصحَّة جيدة. ومثلما توقّع فإن النقص بالموظفين سيفرض عليه عملاً مضاعفاً.

كانت القاعة التي تشبه مسرحاً صغيراً ممتلئة بأناس مختلفين تمَّ جلبُهم بالإكراه لسماع محاضرة علي، التي تتضمَّن قراءة تعاويذ على شكل قصائد قصيرة، يقول لهم عادةً بأنها تتضمَّن علاجاً نفسيّاً غير مباشر، يساعد على التهدئة وتخفيف الضغط النفسي، غير أنه بات يعرف العمل الحقيقي لهذه التعاويذ. أنه، مثل خازن النار، يقذف بخطّافه العريض الأسود هؤلاء الجهلة إلى قعر الجحيم، من دون أن يعرفوا أو يشعروا بذلك. سيُفْنِي ذواتهم المتمرِّدة والتي تُسبِّب القلق وتُثير المشاكل لسلطة اتحاد الشركات.

كان علي يقاوم كلَّ هذه الأفكار السوداء ويحاول التركيز على شيء محدَّد؛ لقد عاد إلى العمل حتى يطمئن الدكتور واصف ويتركه في حاله، وحتى يتمكَّن هو من الوصول إلى عقار الثيلكسود.

شعر بعدم الارتياح وهو يقرأ التعاويذ التي تفتح الباب السادس على العدم، ثم ظلَّ هذا الشعور يُرافقه لما تبقَّى من النهار، وتحوّل إلى شيءٍ يضغط على أمعائه، ومنعه من تناول وجبة الغداء.

خرج الأناس الذين شغَّلوا قاعة المسرح الصغير في أحد طوابق الدائرة، وهم مبتسمين، وأبدى بعضهم ملاحظات عن شعورهم بالارتياح بسبب هذه القصائد القديمة، وهذا ما زاد من حالة الضيق والغمِّ لدى علي. «سيتغيّر كلُّ شيءٍ بعدَ أن تناموا أيُّها المغفَّلون» كان بودِّه أن يقول لهم ذلك، ولكنه سيخرِّب بهذا كلِّ خُططه السريّة. هو يعرف تماماً بأنها خطط أنانية، تستهدف خلاصه الشخصي وعليه ألّا يُفكِّر الآن بمصائر الآخرين. لكن الكلام سهل.

ـ ٢ ـ

قبل نهاية الدوام ظهرت ليلى أمامه. كانت بالغة الأناقة وكأنّها ذاهبةٌ إلى حفلة. قالت له وهي مبتهجة بأنها كانت متأكِّدة من عودته إلى العمل. لا أحد يصمدُ لوقت طويل في عزلته. يجب عليه أن يخرج في النهاية ويُواجه الناس. ظلَّ علي يتجاذب الكلام معها أثناء خروجهما من بناية الدائرة، ولكنه، ولأول مرَّة، ومن بين كلِّ نسخ حيواته التي مرَّ بها، لا يشعرُ بأيِّ تفاعل مع هذه المخلوقة. حتى حين احتضنته على الرصيف، وطبعتْ قُبْلَة مديدة على شفتيه، لم يشعر بشيء محدَّد. قالت له بأنها ستنشغل مع أولادها في الساعات القادمة، وتحاول أن تزوره في الليل.

ـ وكاميرات المراقبة الموجودة في شقّتي؟!

ـ الكاميرات في رأسك يا علي. عمّاذا تتحدَّث!

تركته ملوِّحَةً بيدها وهي تسير مبتعدة على الرصيف، وتحسَّس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هو جيبه كي يتأكَّد من الكيس الصغير لعقار الثيلكسود. كان قد أخذ حصَّته المقرَّرة، ولكنه يحتاج إلى ما هو أكثر.

ـ ٣ ـ

خطا عدّة خطوات قبل أن يرى سيارة مارسيدس سوداء تتوقَّف عند الرصيف على مسافة عدّة أمتار منه، ثم شاهد سائقها المتأنّق ينزل وينادي عليه:

ـ أستاذ بلا زحمة.

تقدَّم علي باتّجاهه، وحالما صار بجوار السيارة حتى شاهد نافذة المقعد الخلفي تنزل ويظهر من خلفها وجه الدكتور واصف. إبتسم ودعاه للركوب.

ـ أخبروني بأنك باشرت العمل. كم أنا سعيد. أرجو أن تكون قد ارتحت بالإجازة وحسمت خلالها كلَّ المشاكل التي كانت تشغلك.

قال الدكتور واصف وظلَّ ينظر إلى صديقه الشاب مبتسماً، ويربت على ركبته بمحبَّة.

ـ أنا سأغادر غداً. أحببتُ الاطمئنان عليك ورؤيتك لمرّة أخيرة.

رمى الدكتور حسرةً مديدةً ثم أكمل.

ـ لا نعرف ما سيجري. هناك جماعات مسلّحة نائمة نعرف بأنه تخططُ لشيءٍ ما. ولكني للأسف لا أستطيع البقاء أكثر لمتابعة هذ الموضوع. وضعي الصحّي لا يسمح، عليَّ استكمال فحوصاتي الطبيّة، وأن أقلل الجهد.

ظلّا يتحدَّثان خلال الطريق، ولم يكن علي يعرف إلى أين هم يتّجهون، ثم اتضحَ فيما بعد أنهم يدورون في شوارع بغداد فقط.

ـ ألّا ترى.. لقد قُمنا بعمل مستحيل. هذه الشوارع والأبنية الحديثة. حالة السلام الاجتماعي.

ـ ومتى يعود المهاجرون إلى بلدهم؟ حالة السلام تسقط حُجَّة من يبقى في الخارج.

ـ نعم. الأمر عائد لهم، هذي حريات شخصية.

ردَّ الدكتور واصف باقتضاب، وشعر علي بأن صديقه لا يريد التطرُّق إلى موضوعات مماثلة. استغرق بالصمت لنصف دقيقة قبل أن يلتفت إلى صديقه الشاب:

ـ المهم أنت لديك اليوم مهمّة ثقيلة. أنا بانتظار استكمال فريق البحث الخاص بي هناك في ديترويت. لا بدَّ أن نعثرَ على أسرار جديدة، أشياء تساعدنا على تحسين عملنا.

ـ لم يبقَ سواي واثنين من العاملين في قسمي.

ـ أعرف. هذي مشكلة كبيرة. ولكني سأجد حلّاً لها عمّا قريب، لهذا عليّ العودة سريعاً.

عبرت السيارة من نفق الباب الشرقي لتدخل إلى شارع السعدون. ظلَّتْ تسير لوقت طويل، ولم يفهم علي ما المغزى من هذه الحركة.

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ سأوصلك إلى بيتك. كان بودي أن نجلس لنثرثر كما في المرَّة السابقة، ولكن وقتي ضيِّق.

استمرَّ الصمت بين الصديقين القديمين، ولم يكن علي يشعر بالارتياح. كان يرغب لو أوقف السائق كيفما اتفق لينزل على الرصيف. لا يجد في نفسه رغبة للبقاء مع صديقه العجوز أكثر،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويخشى إن استمرَّ بالثرثرة معه أن ينسى حَذَرَهُ ويُواجه الرجل المتنفِّذ الآن بكلام لن يعجبه وربما تتخرَّب كلُّ خططه السريّة.

قبل أن ينزل علي ويودع العجوز واصف قال له الأخير:

ـ أنت لست علي الذي أعرفه ووظفته. ولكن أتمنَّى أنك فهمت الآن الوضع الذي تعيش فيه، والمهام الكبيرة التي نتصدى لها. أتمنَّى أن أسمع منك أخباراً جيدة.

ـ إن شاء اللّه.. أكيد.

ردَّ علي وهو يتحسّس جفاف بلعومه وخروج الكلمات بصعوبة. نزل على الرصيف مادّاً جسمه وسحب أنفاسه بارتياح.

ـ ٤ ـ

عاد إلى شقّته، واستغرق في حمام دافئ لوقت طويل. وخلال ذلك ظلَّ يسترجع الجولة التي قام بها مع الدكتور واصف. هل هو شرّيرٌ حقّاً، أم يحسب نفسه يعمل أمراً عظيماً؟ ما الفرق وما المعيار الذي يحدِّد الفرق بين الأمرين في نهاية المطاف؟ هل علي نفسه يُمثّل معياراً ما؟ ربما هناك صورة أشمل وأكبر لا يعيها علي، هو بإمكانه بسهولة أن يتهمَ نفسه بالاستغراق بالخيالات والتصوُّرات المثالية. ربما كان ما حصل هو حَلٌّ عبقريٌّ لكلِّ الأزمات التي ظلَّت تجتاح هذا البلد المنكوب منذ عقود طويلة.

أعد العشاء لنفسه، ثم قضى بعض الوقت بأعمال تنظيف. أغلق الباب بإحكام والشبابيك، واندسَّ في سريره. تناول حبَّتين من العقار وحاول النوم، وتمنَّى ألّا تطرقَ ليلى الباب عليه أبداً.

استغرق في نوم عميق لم يحظَ بمثله منذ أسابيع، وفي الصباح

تذكَّر وعدَ ليلى، وخمَّن أنها ربما جاءت وطرقت الباب عليه ويئست من وجوده وغادرت.

في الدائرة اكتشف أن زميلاً آخر قد غادر إلى المصحَّة. بدا من الواضح أن هناك انهياراً ما يجري، حتى وإن لم يعلن عنه أحد. قال له المدير التايلندي:

ـ ربما يجري الآن العمل على خطط بديلة. أو يتخلَّون عن هذا البرنامج. ربما من المفيد ترك الناس كما هم ومحاولة الحوار معهم وإقناعهم بالحجَّة والرأي والمنطق بدل إخضاعهم بالقوّة.

ـ يجب أن يستمرَّ البرنامج. إنه فعَّالٌ وسريع. وإن لم يرجع موظفونا من المصحَّة، علينا استقدام موظفين غيرهم بأسرع وقت.

ردَّ علي بهذا الكلام رغم عدم قناعته به بالمرّة، كنوعٍ من التمويه والتغطية على احتمالات جسِّ النبض من قبل المدير التايلندي.

ـ ٥ ـ

كانت قاعة المسرح الصغير ممتلئة هذه المرّة أيضاً، وسوى الوجوه المألوفة المتعبة للرجال والنساء فإن هناك شيئاً ما عَقَدَ لسانَ علي، وجعله يصمت لوقت آثار انتباه الجميع. كان ينظر إلى منتصف المقاعد المُدَرَّجَة ويرى عبد العظيم جالساً هناك. هل يعرف عبد العظيم ما الذي يجري؟ هل جاء بإرادته أم تمَّ اعتقاله؟ هل يعرف ما المصير الذي سينتهي إليه؟!

أجبر علي نفسه على الكلام حتى لا يثير شكوك المرافقين الأمنيين الذين كانوا يقفون عند مداخل القاعة، ويتبادلون مع بعضهم إشارات باليد، لأنهم يضعون سدادات أذن.

رغم أن النتيجة واحدة بما يتعلَّق بالأشخاص جميعاً الذين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يجلسون في هذه القاعة، ورغم أنه قام بالعمل الشنيع مضطراً نهار أمس للتمويه على خططه الأصليّة، لكنه اليوم سيدفع بيديه صديقه المقرَّب إلى بوابة العدم.

كان عبد العظيم صامتاً وواجماً، وبدتْ نظراتُه إلى صديقه عند منصَّة المسرح وكأنها تريد أن تقول له أن كلَّ شيءٍ انتهى. لا فائدة تُرتجى من أيِّ عمل الآن.

أراد علي أن يتقدَّم ويخترق صفوف المقاعد ليمسك بعبد العظيم من كتفيه ويقول له؛ أخرج من هنا. أو ربما، في أهون الأمور، يدنو ويوشوش في أذنه طالباً منه أن يسدَّ بإصبعيه مسامعه ولا يسمع أيَّ شيء مما سيقول.

ربّما يُحَرِّف التعاويذ قليلاً، لا يجعلها فاعلة. ولكن، قد ينتبه المشرفون إلى عمله، حين يكتشفون أن تأثير التعاويذ لم يفعل فعله في كلٍّ من حضر داخل القاعة. إنهم ليسوا أغبياء ولا يتركون الأمور دون متابعة.

كانت لحظات عصيبة، ولكن الرغبة العميقة لعلي بالخلاص من هذا العالم كلّه، تغلبت على أيِّ مشاعر أخرى ومنها حسُّ الوفاء لصديقه القديم. وظلَّت مجموعة من الأفكار المتناقضة تتلاحقُ في رأسه بينما لسانه يتحدَّث بموضوع مختلف، كلمات من ضمن المنهاج المعدِّ لعمله كمدرِّب. لم يكن صعباً عليه أن يسترسل بالحديث الذي ظلَّ يردِّده بشكل معتاد في كلِّ مرّة خلال السنتين الماضيتين، بينما الأفكار المتزاحمة تُخبره بشيء آخر؛ يجب أن تهرب. هذه هي الأولويّة القصوى لديك. عبد العظيم شخصٌ انتحاريٌّ، وبالتأكيد وجومه وهدوءه اليوم هو بسبب أنه كان يتوقَّع دائماً كلَّ النتائج المأساويّة لعمله. ربما حين يتحوَّل إلى خروف أليف

فهذا سيكون حالاً أفضل من القتل. على الأقل بالنسبة لعائلته وأهله. هل تزوَّج وأنجب أولاداً؟ هل أبوه وأمه أحياء؟ هو لم يسأله أبداً.

إنتبه علي لاحقاً أنه يقرأ التعاويذ بشكلها المعتاد. انتهى كلُّ شيء سريعاً، ثم بدأ يطوي أوراقه من على طاولة المنصَّة، بينما بدأ الحاضرون بالمغادرة، وعينا علي تُلاحقان عبد العظيم، الذي تسلَّمه اثنان من الحرس بالباب وخرجا به، حتى من دون أن تُتاح لعلي فرصة الاقتراب منه والحديث معه. وحين خرج شعر بأنه من غير الجيد أن يقف مع أحدٍ من الحاضرين ويتحدَّث معه. هم بالتأكيد يعرفون من هو عبد العظيم وما يفعل؟ هل يعرفون حقاً؟

استغرق مع شعوره بالذنب خلال الساعات اللاحقة، حتى حين جاءت ليلى لتسأل عنه وتعتذرُ عن عدم تمكّنها من الحضور ليلة أمس بسبب حُمَّى أصابت أحد ولديها، فهو لم يهتم أبداً. وقال لها إنه متعبٌ أيضاً وربما يذهب للمبيت في بيت أخيه الليلة. وكان من السهل أن تفهم ليلى أن هذه مجرد حجَّة لإبعادها، ولكن علي لم يشغل نفسه بذلك. صار مع نفسه يلومها أيضاً، ويعتبرها جزءاً من المشكلة والمأزق الذي وجد نفسه فيه.

كان يرى تغيُّراً في سلوك الموظفين، ومع تتابع الأيام كان ينتبه لتزايد الإجراءات الأمنية في الشارع. ثم سمع عن عملية اقتحام خطرة جرت في دائرة إدارة الصراعات الطائفيّة. شعر بقلق تجاه ليلى، ولكنه لا يملك رقم هاتفها، كما أن حدْسَهُ الداخلي يخبره بأنه لا يملك وقتاً للقيام بأشياء تخصُّ الآخرين أو ينشغل بمصائرهم. لا يريد الاستمرار أكثر بقذف الناس في بوابة العدم، لذلك تجرَّأ وسرق الحبوب الخاصة بالموظفينِ الآخرينِ اللذينِ بَقِيَا معه. لن يشغل نفسه باكتشاف هذه السرقة، لأنه لن يرجع إلى الدائرة مرّة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شاهد جنوداً من القوّة الأممية العراقية ينزلون في الشوارع، وسمع من راديو سيارة الأجرة عن حوادث إرهابية صارت تحدثُ بالقرب من حقول النفط. وحين عاد إلى شقّته وفتح التلفزيون شاهد في الأخبار مجموعة ترفع صورة عبد العظيم وتتحدَّث عن اختطاف مجموعة من العمال والموظفين في أحد مكاتب اتحاد الشركات، ولن تُطلق سراحهم إلّا إذا أخلوا سبيل «زعيمهم».

تذكَّر وجه عبد العظيم وهو في جلسة محوٌ الذات المتفرِّدة التي كان يُديرها، فأمسك الحزن بأعماقه بقوّة. ربما كان هو السبب في إلقاء القبض عليه. أعاد تشكيل قصَّة افتراضية في ذهنه؛ كاميرات المراقبة رصدتْ دخولَ عبد العظيم إلى شقّته. وانتظروا أن يسمعوا منه كامل قصّته وربما أسماء عصابته الخاصة، وحين نزل من شقّة علي جرى اعتقاله أسفل العمارة، ثم بتخطيط بشع، جعلوا صديقه المقرَّب والحميم يمحوه بشيفرة الباب السادس، ويحوّله إلى حَمَلٍ وديعٍ.

ظلَّت شاشة التلفزيون تبثّ أخبار الاضطرابات المتزايدة، وكان ذهن علي يُركِّز على شيء محدَّد؛ العودة إلى حيث انتهى في المرّة السابقة. سيُغرق نفسه بعقار الثيلكسود، ولكن هذه المرّة لن يسمح للآخرين باقتياده إلى المصحَّة، سيعبر إلى مناطق أعمق، بحيث لن تكون هناك فائدة من علاجه.

- ٦ -

وضع قنينة نبيذٍ أحمر على طاولة الصالة. ظلَّ يأكل ويشرب على مهلٍ وهو يتابع الأخبار على التلفزيون. استغرق بالشرب حتى استنفد القنينة، وخلال ذلك كلِّه كان يبلع حبَّة أو حبَّتين من الثيلكسود.

تجاوز بعدها بساعة الحدود السابقة التي وصل عندها في تناول العقار. ولكنه استمرَّ ببلع الحبوب ولم يعد يعرف كم وصل عددها، ثم انتبه لوجود ليلى معه في الشقّة، قالت له إنه أحمق.

ـ هناك ببسي حجم عائلي. وأنت أحمق من الحجم العائلي. أكبر أحمق عرفته في حياتي.

قالت له ذلك وهي تُمسك برأسه في محاولة أن تجعله يستقرَّ على رقبته ولا يتمايل يميناً وشمالاً.

ـ أَلَمْ تَقُل في المصحَّة لصديقك العجوز أنك ترغب بالعودة إليَّ حتى لو كلَّفكَ هذا حياتك. أنا أمامك يا أحمق. أريدك. العالم أخيراً صار متَّزناً ويضع العقل في رأسه. هناك حياة نعيشها من دون خوف أو قلق، نعيشها سويةً، ما الذي تريد أن تفعله بنفسك. تريد الانتحار بهذه الحبوب. أعطني إيّاها. سأرميها في التواليت.

ـ لا أريد المشاركة بالقتل. أنا لستُ بهذه الصورة؟ أتحبِّينَ العيش مع مجرم؟

ـ المجرم هو من أوصلنا إلى هذه الحالة يا أحمق. الشرُّ اللذيذ عند هؤلاء الناس. نحن لسنا مسؤولين عن كلِّ شيء. علينا أن نعيش. ما الذي تبقّى من عمرنا؟!

وجدها تسحبه إلى الحمّام ثم تسكب الماء البارد على رأسه، ثم صارت تغسل كامل جسمه، وها هو في سريره عارياً، وليلى تُنَشِّفُ رأسَه، ثم تدفعه إلى النوم. فتح عينيه بعد وقت غير معلوم ووجد ليلى عاريةً أيضاً نائمة بجواره وهي تضع ذراعها بهدوء على خصره. كانت تغطّ في نوم عميق. قال صوتٌ ما في رأسه بأن كلَّ شيء يسيرُ حسب الخطّة التي وضعتها يا علي. لا تُصدِّق بكلِّ ما تراه الآن. أغلق عينيه وفتحهما، فشاهد سطوع النهار، وهو يأتي من النافذة العريضة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصالة، ليضرب على باب غرفة نومه، بينما هناك أصوات نشيش وقرقعة أواني تأتي من المطبخ. وقف في منتصف الصالة بروب الحمام، ثم شاهد ليلى تخرج بصينية الإفطار. كانت تفردُ شعرها على شكل حلقات متموّجة مدفوعة إلى الخلف كما هي تسريحات مذيعات التلفزيون العراقي في الثمانينات. وحين لمحته واقفاً انفردتْ ابتسامةٌ عريضةٌ على وجهها.

ـ صباح الخير يا مجنون. كدت تموتَ ليلةَ أمس.

وضعت الصينية على طاولة صغيرة أمام طقم المقاعد الجلديّة العريضة في الصالة، وصارت تأكل معه، وتضحك بين لحظة وأخرى وهي تنظر إليه، وكأنها تتذكّر شيئاً يخصُّهُ ولا تريد إخباره به. ثم سمعا صوت أغنية يأتي من وراء النافذة، ربما هو راديو أو أحد سكان الشقق المجاورة وقد رفع صوت الأغنية؛ فيروز وهي تقول «أنا صار لازم ودعكن».

ظلَّ علي يأكل وصوت ما ثابت وعميق في أعماقه يزاحم فيروز يخبره بأن عليه ألا يُصدِّق أيَّ شيء مما يجري حوله الآن.

ـ هل حدثت الحرب أخيراً؟ ألا تتابعين الأخبار؟

ـ وما شأننا؟ تذكَّر التعويذة السابعة يا علي «إملأ كرشك، وأمتع المرأة التي في حجرك».. إللي هي أنا !

قامت ليلى وبدأتْ ترقصُ على أنغام الأغنيّة الفيروزيّة التي صار صوتها واضحاً ويملأ فضاء الصالة. تبدو سعيدةً، ولم تتحدَّث عن طفليها كلَّ خمس دقائق، كما كانتْ تفعل سابقاً. لا تبدو مهتمَّة لمضيّ الوقت، أو لأيِّ خطط يمكن أن تقيّدها خلال هذا اليوم، أو لاحتراق العالم خارج الشقّة. كانت بالصورة المشتهاة التي لن يتخيّر علي أفضل منها.

- ٧ -

استرخى في جلسته وشيئاً فشيئاً صار يدفع رأسه إلى الخلف، وشعر بوطأة نعاسٍ ثقيلٍ. أغلق عينيه، ثم حين فتحهما ونهض وجد أنه في باحة الاستراحة في المصحَّة، يا اللّه، كان يجلس على المصطبة الخشبية التي اعتاد الجلوس عليها سابقاً. ظلَّ يتلفتُ حوله كي يتأكَّد من أنه المكان نفسه، ثم جذب انتباهه جُرْمُ رجلٍ بعيدٍ بحجم إبهام اليد كان عند الحائط البعيد لباحة الاستراحة. كان الرجل ينظر إليه ويدعوه للمجيء عنده. إندفع علي بخطواته نحوه وحين اقترب أكثر تعرَّف عليه فوراً، إنه العجوز محمد سدخان، ومثلما كان في هذا المشهد الثابت أكثر من مرّة، كان يمسك بأصابعه قطعة طبشور حمراء، وقد أنجز باباً كبيراً بمقبض وفتحة قفل. وصل علي إليه وحالما توقّف أمام الباب قال له سدخان:

- إنظر إلى هذا الباب، هذا ما سيحرِّرك من هذا العالم. إنه ليس مقفلاً. إدفعه بيدك وسينفتح.

ظلَّ علي ينظر إلى وجه العجوز الضامر، ويحاول أن يتبيّن مدى جديَّته بهذا الكلام. أراد أن يخبره بأنها، لو تحقّقتْ، ستكون مجازفة، ثم كأنه سمع ما يدور في ذهنه، ردَّ العجوز سدخان:

- وما هو الشيء الثمين الذي ستخسره هنا.

نظر علي إلى الباب المرسوم بالطبشور الأحمر، ثم مدَّ يده ليدفعه، ومثلما قال العجوز الضامر ها هو يندفع متيحاً فسحةً من ضوء باهر صارت تتسعُ كلما اندفع البابُ إلى الخلف. دخل علي واختفى فيه، ثم تحرَّك الباب من تلقاء نفسه لينغلقَ خلفه بصفقةٍ قويّةٍ وصوتٍ عميقٍ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع عشر

بَابُ اللّه

- ١ -

كان عليّ أن أترك كلّ شيء على حاله. هذه إرادة اللّه وهذه حكمته الأكيدة. لا أخفيك أنا أنظر أحياناً أن هناك خطأ ما حصل، فكان يُفترض أن أكون أنا الأخ الأكبر وأنت الأخ الصغير يا علي وليس العكس. أستطيع التأكيد على أنني كنتُ أنا من يرعاك. لم تكن تفعل لي شيئاً. لا أتذكّر أنك وقفت بجانبي يوماً ما. أتعاركُ في المدرسة، أو أتعرض لجرح أو ضربة بسبب لعبة كرة قدم في الزقاق. كنت تبتسم وكأن هذه الأشياء الجادة التي تحدث لي مجرد توافهِ بشريّة. وكأنك نصفُ إله، لستَ معنيّاً بما نعيشه ونعانيه. ولكن مع مرور الأيام اكتشفت أن الغموض الذي يُحيط بك ما هو إلّا غشاءٌ فارغٌ وتافهٌ لا معنى له. وحينها تيقّنت أنني لم أكن أرغب أن أكبر لأغدو مثلك أبداً.

نعم، ربما أنت ساعدتني من دون أن تقصد ذلك. لقد قررت في أواخر مراهقتي وأنا أراك تتسكع على غير هدىً مع أصدقائك، ولا يحركك هدفٌ واضح، وتأتي غالباً آخر الليل سكراناً وتبدأ بإطلاق الشتائم، أن أكون النسخة المضادة لك. إحتقرت ما تقرأُ من كتب لم تعجبني تحليلاتك الغامضة عن الدين ومعنى وجود الإنسان في

هذه الحياة. لم أرغبْ بتصديق ما تقول، حتى وإن كنتَ تتحدَّث بالحقيقة. فلو كنت تعرف الحقيقة فَلِمَ لَمْ تصنعْ بها حياةً جيّدة؟

كنتُ أعرف، حين أنظر في عينيك، أنك وبعمق، لم تكن تشعر بأيٍّ سعادة. لم أفهم لماذا يُتْعِبُ الإنسان نفسه سنوات طويلة من أجل أن يغدو في النهاية عاطلاً عن إدراك السعادة!.

هربتُ من هذا المصير، ولكني لم أتخلَّص منك أبداً. صرتَ الشبح الذي يرافقني. أعترف بأنني احتجتُ لوجودك أحياناً كي أرى المسافة التي قطعتها بالابتعاد عنك والاختلاف عن خطّك ومسارك. كنت أحتاج النظر إليك لأعرف النجاح الذي حققته. كنتَ معياري المناسب للفشل الإنساني.

تيقّنتُ بمرور الزمن أنك أنت من قرَّر ألا يقوم بشيء، حتى الوظائف والأعمال التي اشتغلت بها خلال التسعينيات كانت بالكاد تأتي بمورد يُغطي مصاريفك. لم تكن تُخطط لشيء أبعد. أما أنا فكنت على الضدِّ تماماً.

لقد درَّبت نفسي طويلاً على تحمّل الإهانات والإذلال. كنتُ على «باب اللّه». صمدت في سوق الأرضروملي الشعبي، خلال التسعينيات، أكثر من أيٍّ شخص آخر. كنت أرى زملائي وجيراني كيف ينهارون بسبب الشمس الحارقة، أو سوء ظروف العمل والواردات الشحيحة. ملاحقة عمَّال البلديّة لنا، وهم يكسّرون ويبعثرون بسطاتنا التي نبيع فيها أشياءً زهيدة الثمن. المساومات والرشاوى وغير ذلك. ثم نجحتُ في حشر نفسي مع باعة السجائر بجَنْبَرٍ خَشَبِيٍّ بسيطٍ وعلى مساحة لا تتجاوز المتر المربع الواحد.

كان وجهي محترقاً من نهارات الصيف اللاهبة وهيأتي متعبة. لم أتمتعْ يوماً بارتداء ملابس أنيقة، لأنها سرعان ما تذوي ويبهُتُ لونها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسبب كثرة الحركة والغبار والأتربة ودخان السيارات والتعرُّق الغزير. لم تكن حياة الأناقة مناسبة لي، ولا أيُّ شيء متربط بالحياة الهانئة. كنت أكافحُ بيديّ وأسناني، حتى انتقلتُ لاحقاً، بمساعدة أحد الأصدقاء لبورصة السجائر في الشورجة وسط بغداد.

توسَّع جنبري وصار بعرض مترين. كنت أصرِّف ثلاث ماركات لسجائر شهيرة، آخذها من باعة الجملة في عمق السوق. ثم استطعت لاحقاً، بسبب تعامُلي الجيد مع التجار والمتبضِّعين والمطاولة في الوقوف في السوق من الفجر وحتى وقت متأخِّر من النهار، أن أحْشُرَ نفسي في محلٍّ صغيرٍ أخذته بالشراكة مع زميل لي في السوق.

أنت تعرف كلَّ هذه التفاصيل، وتعرف أن ضربتي الكبرى كانتْ مع اندلاع الحرب الأهليّة ما بين ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧. وتحوّل منطقة الشورجة إلى ساحة صراع بين المسلّحين من الطائفتين، الأمر الذي أدّى إلى هروب العديد من التجار في السوق، ومنهم تجارٌ يعملون في بورصة السجائر.

كنتُ أجازف بالحضور إلى السوق كلَّ صباح، وتعرَّضت مرَّتين إلى إطلاق ناري من قنّاص مجهول. ضربت إحدى الإطلاقتين على حديد الباب الذي كنت أنحني لفتح قفله، والثانية هشّمت زجاج سيارة واقفة كنت أمرُّ مسرعاً بجوارها. أنت طبعاً لا تعرف بهذه الحوادث، وحتى لو رويتها لك حينها لكنت نسيتها، فأنتَ تفترض أنك وحدَك المعرَّض للخطر والآلام.

في النهاية استسلم شريكي لجوِّ الرعب السائد وباعني حصَّته في المحلِّ وافتتح بالمبلغ الذي أعطيته له محلّاً صغيراً في شارع «الداخل» بمدينة الصدر حيث يسكن.

كان أغلب التجار الذين تركوا السوق قد أهملوا الوكالات

التجاريّة التي كانوا يملكونها، وبسبب ثباتي في ظلِّ الظروف السيئة، صارت شركات السجائر تعتمد عليَّ في توريد بضاعتها، ثم انحصرت العديد من وكالات السجائر في يدي.

أخذتُ محلَّين كبيرين، وتوسَّع عملي، ولكنني بقيتُ على هيأتي التي يعرفها الناس عنّي، بسيطاً ومهذَّباً وخدوماً للجميع بهيئة وملابس لا تختلف عن هيئة وملابس عامل في السوق. ثم حين هدأت الأوضاع العامة وعاد بعض التجار لمزاولة أعمالهم التجاريّة، تفاجؤوا من تحوّلي إلى حوتٍ ابتلع السوق، حسب وصفهم، متغاضين عمداً عن تفصيلٍ مهمٍّ؛ فأنا لم أسرق أو أبتزّ أحداً. لقد جازفت بحياتي من أجل أن أنجح، وهذه مكاسب مجازفتي وجهدي وتعبي.

لاحقاً انفضَّت المساومات مع هؤلاء التجار بأن أورِّد لهم أنا بسعر الجملة ما يحتاجونه من سجائر، ولم يستطيعوا الاعتراض على هذا الإتفاق الذي كان بكرمٍ منِّي، وليس استحقاقاً لهم.

- ٢ -

لم أستطع تقبُّل فكرة الانشغال العاطفي بنساء عابرات وجعل العالم يدور حول هذا الانشغال. الحبُّ بهذه الطريقة أمرٌ مدمِّر يستهلك الوقت والجهد، وعرفت منك، في لحظات الاعتراف النادرة التي كنتَ تمرُّ بها أحياناً، معاناتك مع امرأة معينة. ليست لديَّ طاقة مماثلة. لذلك فقد حسمتُ أمري مبكراً وتزوَّجت امرأة مناسبة، من دون أن يكون لخيالاتي عن النساء دخلٌ بالاختيار.

أقول لك كلَّ هذا كي تعرف، وهو اعترافٌ منِّي، بأني رغم اختلافي الشديد عنك إلّا أنك كنتَ حاضراً في تفاصيل عديدة من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حياتي. لقد ساهمت أنت بتشكيلها وإن كان بطريقة لا تبدو مقنعة بالنسبة لك. لستُ أنموذجاً مثالياً بكلّ تأكيد، ولكني أشبه الغالبية من الناس، وهذا ما يجعلني أعيش بسلام نسبي.

هل أتحدّث الآن أمامك لأني بتُّ أشعر بالذنب تجاهك؟ هل لهذه الثرثرة علاقة بما سأقدم عليه؟ وهل تركت خياراً لم أتبعه في سبيل أن تنهض من غيبوبتك الطويلة؟

لفترة طويلة كنتُ أشعر أنه من الضروري أن تعود إلى الحياة، لأنني حينها سأتمكَّن من معرفة نفسي أكثر. لقد كُنَّا متلازمين لوقت طويل، إلى درجة أنني لن أتعوَّد بسهولة على غيابك. وخلال كلّ الأحداث التي جرت في البلد، كنت أخشى أن أذهب ضحية جراء الأحداث الطائفيّة، ولكني ما فكَّرت يوماً، أنك من الممكن أن تموت. كان وجودك حيّاً وقادراً على التعليق على ما يجري، تشرب شاياً معي حين تزورني في محلّ عملي، أو تأتي لتطلُّب منِّي شيئاً، كان هذا أمراً مفروغاً منه، رغم أنه غير واقعي ولا حقيقي. لا أستطيع أن أخسرك، ولكني تَعِبْتُ يا علي. أتمنَّى لو أن هناك إمكانية لتقدِّر ما سأقوم به.

لقد مضت ثلاثة أشهر وأنتَ في فراشك، مربوطاً على أجهزة عديدة، والأنابيب تخترقُ جسدك، واحد للتنفُّس يمرُّ عبر فتحة الترقوة، وآخر لسكب السوائل والمأكولات اللينة باتّجاه معدتك. أنت لا تستطيع التنفُّس ولا الأكل، وجسدك يتقرَّح بسبب الرقاد الطويل على الفراش. والأطباء يقولون أنك مازلتَ في منطقة الوعي السابعة. وهي منطقة حرجة، تقع في المنتصف ما بين درجات الوعي الآمنة التي تنتهي عند الدرجة ١٥ وهي للوعي الكامل، ودرجة ٣ وهي للموت السريري. لم أفهم هذه التفصيلة طبعاً. ألَا يُفترض أن

الموت يعني منطقة الوعي ١ أو صفر؟ ماذا يفعل الميت بوعي بمستوى ٣ درجات؟!

على أيٍّ حال، صرتُ خبيراً بكلِّ هذه التفاصيل، بسبب إقامتي الطويلة بجوارك خلال النهار. تركت عمالاً ومساعدين يديرون عملي في السوق وتفرّغتُ لك، حتى جاءني محمد سدخان، الممرِّض العجوز الذي تبرَّع بالسهر معك حتى الصباح، ما ترك لي فرصة المبيت في البيت كلَّ ليلة.

أتمنَّى لو أنك تسمعني فعلاً وتحاول أن تصدِّق أنني قاتلتُ من أجلك وخسرت الكثير في سبيل ألّا أفقدك، ولا تنزلق منّي أكثر إلى حافة الموت المؤكد.

كان الممرِّض محمد سدخان مهتمَّاً بك جداً، وساعدني بالتواصل مع مؤسسات طبيّة في الخارج ونجح في الحصول على تقرير دقيق من الأطباء عن حالتك، وقضينا وقتاً بانتظار أيِّ علاجات، حتى لو كانت تجريبيّة. كنت أجازفُ بأن أجرب أيَّ عقاقير غير مستخدمة بعد، ألاحق أيَّ أمل مهما كان.

راسلنا مركزاً طبيّاً نشر خبراً عن استحداث علاج لمرض الزهايمر تحديداً ولكننا لم نحصل على جواب. ثم وصل إيميل متأخِّر لمحمد سدخان عن كون العلاج في طور الاختبار وأنهم لم يستخدموه بعد على حالات إصابة الدماغ بأضرار جرَّاء الحوادث.

لم أكن أعرف سبب الاهتمام الاستثنائي لمحمد سدخان بكَ، ولم أرغب باستجوابه. كنتُ وحيداً وأرحب بأيِّ مساعدة، حتى لو كانت من موظّف عجوز ربما هو صديق قديم لك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد شهر ونصف يئسنا تماماً من أيٍّ مساعدة من خارج العراق، ومضت الأيام رتيبة، وصرت للأسف أشعر بالارهاق والضغط النفسي من رعايتك، خصوصاً وأنك لم تبدِ أيَّ استجابة ولو بسيطة تشعرني بأنك تتحسَّن. سمعت كلاماً كثيراً عن اليأس من حالات مشابهة، وأنها مشيئة اللّه. ولكني لم أتقبَّل فكرةَ أنَّ مشيئة اللّه تتضمَّن قيامي بإرادتي الواعية بنزع الأجهزة عنكَ وتركك تموت. هذه مشيئتي أنا ولن أنسبها إلى اللّه.

ثم حصل شيءٌ جديدٌ. جاءني العجوز محمد سدخان ذات مساء وهو يحمل حافظة بلاستيكيّة من تلك التي يحملون فيها عيِّنات دواء. جلس بجواري في الصالة وأخبرني بأنه إلتقى مع فريق طبي كندي يزور بغداد هذه الأيام واستطاع أن يحصل منهم على حُقْنَة خلايا جذعيّة خاصة بعلاج أضرار الدماغ. كان علينا المجازفة باستخدام هذه الحُقنة معك. وكان من الواضح بالنسبة لي وللعجوز سدخان أنها ستكون الحلِّ الأخير. لن تلومني إن أخبرتك بأني لم أكن أملكُ وقتها طاقة نفسيّة كافية للاستمرار برعاية جسدك المسجَّى دون أيٍّ أمل والى ما لا نهاية.

تركتُ العجوز سدخان يستخدم هذه الحُقنة معك، من دون علم الكادر الطبي في المستشفى. كانت مجازفة أكيدة. لم أكن أصدقُ أن هذه الحُقنة الصغيرة ستصنع نهاية لهذه القصَّة. ولكني صليّتُ مساء اليوم نفسه، ودعوت اللّه بإلحاح شديد أن يجعل هذه الحُقنة، حتى لو كانت مجرد حُقنة ماء مقطّر، أن تكون سبباً في شفائك. إن لم يكن من أجلك، فمن أجلي أنا. موتك سيمثِّل عقوبة لي، وأنا لم أفعل ما يغضب اللّه حتى يعاقبني بهذه الطريقة.

أعرف أن بشراً كثيرين من حولي كانوا يسألون الأسئلة نفسها، بسبب فقدانهم جراء التفجيرات أحبَّة وأخوة وأبناءً؛ لماذا يُعاقبنا اللّه؟ إن كان فقداننا لأحبَّتنا هو نوعٌ من العقاب، ولماذا يختبرنا هذا الاختبار القاسي إن كان اختباراً.

أعرف أن مآسٍ كبيرة حصلت للآخرين، وبعضهم جيراني. ولكن من حقِّي أنا أن أدفع عن نفسي تجربة مماثلة. ولا أملك إلا الدعاء. بقيتُ أدعو إلى ساعة متأخِّرة من كلِّ ليلة، وانتظرت أيَّ اشارة من اللّه أنه أخذ دعائي المنفعل والصادق على محمِّل الجدّ.

- ٤ -

وأنتَ تطوفُ يا اللّه بعينيك، اللتين لا تشبهان أعين أيِّ كائن آخر، على مليارات البشر في هذه اللحظة، أجعل لي حيِّزاً أكثر. أنظر نحوي بخصوصيّة. لستُ أملك شيئاً يُميِّزني عن غيري، ولكني أتمنَّى أن تتوقَّف عيناك عندي للحظات أكثر. أنا عبدك المطيع وأستحقُّ منك التفاتة ما. لا تجعلني مثل رقم في حشود الآخرين. لا تتعامل مع مصيري ضمن صورة شاملة عن مصير الجماعات والشعوب والبلدان. إجعلني مميّزاً في مكان خاص وحدي وتعامل معي بشكل منفرد. أعرف أن هذه أنانيّة مفرطة، ولكنك أنت يا اللّه قلت سابقاً أن كلَّ إنسان يأتي بمفرده مع حصيلة أعماله، فلماذا أفكِّر الآن بالآخرين؟! أني أفكِّر بنفسي ولا أخجلُ من هذا، وتفكيري بأخي في هذه اللحظة لا علاقة له بأخي بشكل دقيق. هو لا يهتمُّ لهذه الأمور وعلى الأغلب لن يدخل الجنَّة أبداً. إنه شخص بعيد تماماً عن المعايير التي يريدها اللّه من الإنسان. ولكن وجود أخي مهمٌّ بالنسبة لي أنا، أفكِّر بأخي بأنانيّة تامة. إنه شأني الخاص

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والتفكير به جزءٌ من أنانيتي، وأتمنَّى أن تأخذ يا اللّه هذا الأمر باهتمام أكثر.

أنا مؤمنٌ أنك لا تدفع الأمور في هذه الحكاية الكبيرة التي نعيش فيها نحو مسارات عبثيّة. لديك حكمة بالغة، وقد لا أفهمها في هذه اللحظة، ولكني أصدِّق بوجودها. أعرف أنك الأكثر حكمة، ولكني أتمنَّى أن تعذر لي جهلي وقصوري، وتمنحني بصيصاً من حكمتك كي أفهم ما يجري. لا تدعني غارقاً في جهلي المطبق، ولا تتركني فريسةً لمشاعر العبث واللا جدوى.

لديَّ طاقة محدودة، فأنا مخلوق عاجز يا إلهي، ومن عجزي أنني قد أفشل في لحظة قادمة، نتيجة الضغوط الموجّهة ضدي، في فهم حكمتك ورحمتك. ولا أعتقد أن هذا أمرٌ يرضيك.

وجِّه مِرْقَابَكَ السماويَّ يا اللّه نحوي. حوِّطني بالدائرة الضيّقة لعدسة هذا المِرْقَاب، وانظر إليَّ وحدي، واسمع دعائي. تجاهل صخب كلِّ الأدعية واسمع صوتي الضعيف والخافت يا اللّه.

ـ ٥ ـ

صرتُ مثل المجنون في الصلاة، ولم تفعل حُقنة الخلايا الجذعيّة شيئاً. ربما كانت مجرد خدعة ومَقْلَب. وكثرة الدعاء قادتني إلى نتيجة محددة؛ ربما أنا لست الشخص المؤهل للدعاء بشكل قوي وفعال بحيث يخترق دعائي حُجُبَ السماء ويصل إلى مسامع الربِّ. اتصلت بأحد الأصدقاء ومن خلاله جلب رجل دين شيعيّاً ذا ملامح وادعة وصوت خفيض. جاء ووقف عند رأسك في غرفتك بالمستشفى وأمسك بيدك اليمنى وصار يقرأ آياتٍ من القرآن وأدعيّة من الصحيفة السجاديَّة. رقَّ قلبي كثيراً وشعرتُ مع صوته المؤثِّر

بأنني متهمٌ بأشياء كثيرة، وأنني لم استغفر ربِّي بما يكفي لمحوٍ ذنوبي العديدة، رغم أني لا أعرف ما هي هذه الذنوب، ولكنني شعرتُ بضآلتي وضعتني. شعرت بأن الحياة كلَّها شأنٌ تافه.

غادر الشيخ البليغ ذو الصوت المؤثِّر، ولم يحدث شيءٌ بعدها. لا يبدو أن اللّه أهتمَّ كثيراً لهذا الشيخ اللطيف. قال لي صديق في العمل بأنه يعرف رجل دين صوفيّاً يُقيم في الحضرة القادريّة، عمل كرامات كما يردِّدُ بعض الأهالي. اتفقت مع هذا الصديق على جلبه للمستشفى بعد مفاوضات شاقة، طلب أن يرافقه عدّة أشخاص من معارفه، خوفاً من أن يكون الأمر عملية اختطاف. لم يخبرني بذلك ولكنني حدست به سريعاً. وافقت على كلِّ طلباته، وجلبته ليقف أمام جسدك الهامد، وظلَّ يقرأ من القرآن ويشعل البخور ولم يحدث أيُّ شيء على الاطلاق.

هل تريد أن ترى الجنون وهو يكتمل؟

جاءني محمد سدخان برجل دين كلداني ظلَّ يقرأ من الإنجيل، ثم صابئي وضع أغصان آسٍ تحت إبطيك وردَّد آيات بالآراميّة من الـ «كنز ربّه» المقدّس. تجاوبت مع ما قام به ولم أعترض. لا بدَّ أن هناك باباً مناسباً للطرق على اللّه كي ينتبهَ لنا. التجربة يجب أن تُثبت لنا أين هو هذا الباب. لا بدَّ أن اللّه يترك لنا آثاراً تقودنا إلى الطريق الصحيح، وبهذه الآثار نتعرَّف على استجابات تؤكد أن هناك صلة بيننا واللّه، وإلّا سننتهي إلى اليأس التام، ولا أعتقد أن اللّه يقبل أن نقطع الأمل به.

جلب لي أحد الجيران قنينة ماء من بئر زمزم، غسلتُ بها وجهك وذراعيك ورجليك، ثم سكبت ما تبقّى على رأسك، فالعلَّةُ فيه. وبعد مدَّة جاءتني امرأة مباركة يمتدحها الناس وأحرقت بخوراً وأعشاباً في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طاسة وظلّت تلفُّ بها حولك. وامتلأ فضاء الغرفة برائحة دخان غير مريحة، ما عمل لنا مشكلة مع كادر الممرِّضين في الردهة. ومع ذلك لا يبدو أن اللّه اكترث لها أيضاً.

ومن أحد النازحين من الموصل جلب صديق تاجر قنينةً صغيرةً قال إنها تحوي الماء المقدَّس عند الإيزيديّة، وهو يُؤخذ من عين ماء تُسمَّى «كاني يسبي» وطلب منِّي أن أستخدمها.

لقد قمت بكلٍّ ما يمكن أن تتخيّله، ليس لأني صرت مجنوناً، وإنما لأبرئ ذمتي أمام اللّه. وكأنني أحرق ما تبقَّى لي من صفحات كتاب الانتظار بسرعة وعلى عجل، كي أخلص من هذه المحنة، فأنت بملامحك الساكنة تبدو مرتاحاً، وأنا الذي أتكبَّد هذه المرارة والشعور بالألم.

قمتُ بكلٍّ الأعمال المعقولة والمفهومة والأخرى المجنونة ولم يبقَ لي شيءٌ سوى أن أجلب فرقة موسيقيّة ما تعزف عند رأسك. أو أعرّضك إلى تجارب غريبة. كأن أسكب عليك الماء المثلّج أو أجعلك تنهض عنوة، أو أنقل سريرك وأجهزتك إلى الشمس. ألا يقولون أن الشمس هي مصدر الحياة على الأرض؟! ألم يعبدوها سابقاً؟ ربما تبثّ أشعتها الحياة في جسدك من جديد، ولكن الطبيب المشرف على حالتك لن يوافقني على هذه الأعمال بكلٍّ تأكيد.

الحلُّ الأخير هو اتهام الأجهزة هذه التي تمنحك الغذاء والأوكسجين بأنها تدفعك إلى النوم المتصل. ربما من الأفضل نزعها لتحفيز جسدك على طلب الهواء بشكل مباشر، والى تحريك أحشائك الساكنة والنائمة مثلك كي تطلب غذاءً أكثر.

عزمت على عمل هذا الشيء أخيراً. قرَّرت ذلك وحدي. سأنزع

الأجهزة ثم حين أتأكَّد من تجربتي أعيدها إليك، ولن يعني لي الكثير حينها إن مُتّ تماماً أو نهضت بمعجزة تجاربي الغريبة.

- ٦ -

في صباح اليوم الذي قرَّرتُ فيه إجراء تجربتي الأخيرة، وقبل أن أفعل أيَّ شيء رأيتُك تتنفَّس. ذهبت راكضاً إلى الممرِّضين فجاؤوا وتحسَّسوا صدرك، ثم اطمأنُّوا إلى عمل رئتيك فرفعوا جهاز التنفُّس عنك. كنت تتنفَّس. لقد حدث شيء جديد. نجحت كلُّ تجاربي في إحداث تغيير وتحسّن ما. أصبت بدهشة بالغة، وبقيت أفكر؛ أي التجارب هي التي طرقت بشكل جيد على باب اللّه حتى سمعني وسمع الطرقات وفتح لي؟ هل هي حُقنة الخلايا الجذعيّة؟ لماذا تأخَّرتْ كلَّ هذا الوقت؟ أيٌّ من الأدعيّة الدينيّة فعل فعله يا ترى؟

سجدت شكراً للّه، ثم شعرت بارتباك بعدها؛ هل كان الأمر كلّه اختباراً لإيماني؟ هل تخليت عن إيماني وصرت أتبع أهواء الأديان والعقائد الأخرى؟ هل يقبل اللّه منِّي أن أنزع جلدي من أجل غرض دنيوي، حتى وإن كان هذا الغرض هو إيقاظ شخص عزيز على قلبي من الغيبوبة؟

إتصلت بمحمد سدخان لأبلِّغه بالحدث الهام. وحين جاء ونظر إليك أكَّد لي بأن هناك تحسّناً، وأن معجزة قد حدثتْ.

جلسنا في كافتريا المستشفى وبقينا نتحدَّث ونراجع كلَّ الخطوات التي قمنا بها، وكان من الغريب أنه منحني تفسيراً لم أفكِّر به أبداً، حيث قال:

- ربما أنت جمعت كلَّ قطع الباب الذي يجب أن تفتحه باتّجاه اللّه. كلُّ هذه الأديان والعقائد التي وقفت عند رأس أخيك، هي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قطعٌ صغيرةٌ من الأحجيّة، شكّلت بمجموعها باب اللّه. طرقت عليه في النهاية وفتح لك.

إستغرقتُ في تأمّل كلامه. ربما يكون صادقاً. ربما نحن نخطئ دائماً في فهم مقاصد اللّه. هو يقطع باتجاهنا جزءاً من الطريق وعلينا أن نقطع الجزء الثاني بصبرٍ حتى يلتقي العبد بخالقه.

أعطاني اللّه دليلاً على الإيمان به. ولهذا يا علي أنا أشكرك. حتى وإن لم تصحُ بشكل كامل من غيبوبتك، فأنت الآن في المنطقة العاشرة من الوعي حسب تقرير الطبيب المشرف. لقد كنت من دون أن تَعْلَمَ، وسيلتي لاختبار إيماني واكتشاف قوّة الإيمان وفائدته. لقد أفردني اللّه بسببك في حيِّز لوحدي، ونظر إليَّ بعينيه اللتين لا تشبهان عيني شيء. خصَّني بنظرته من دون الآخرين، وأشعر الآن بالتميز، وأن اللّه يحبُّني حقاً.

- ٧ -

أرأيتَ كم نحن مترابطان. أرأيتَ كيف أن وجودك بجواري مهمٌّ لحياتي، حتى وإن كنت مجرد جُثَّة هامدة لا حِراك فيها؟

أتمنَّى أنك تحسّنتَ بما يكفي لسماع كلِّ كلامي هذا. وأتمنَّى إن شاء اللّه ونهضت من سريرك أن تقدِّر حقّاً كلَّ ما فعلتُه من أجلك.

لا تستحق أن ترقد ها هنا لفترة أطول يا علي. إن كنت تسمعني فانهض يا أخي.

الفصل الثامن عشر

بَابُ الْحُبِّ

- ١ -

عَلِمَتْ ليلى من عمَّار أن علي استفاقَ من غيبوبته. إتصل بها على هاتفها وأخبرها بهذا النبأ، متوقِّعاً أنها ستحضر بسرعة، لكنها ظلَّت جالسة بصمت، بعد انتهاء المكالمة السريعة، لعشر دقائق مستسلِمة تماماً لأثر المفاجأة في الخبر الذي سمعته. كان جانب من ذاتها يُخبرها بثقّة غامضة خلال الأشهر السبعة الماضية بأن علي لن يستفيقَ أبداً. الأمر متعلِّق بمدى مطاولة عمّار مع جسد مسجًّى في موت سريري، لا رجاء بنهوضه يوماً، والقرار الذي يُمكن أن يتخذه الأخ الأصغر في تحديد يوم وساعة الإعلان الرسمي عن الوفاة.

كانت تنتظرُ خبراً من هذا النوع، لأنها وضعت نفسها في وضع مشابه. فهي معلّقة منذ سبعة أسابيع ما بين عالمين؛ مقامها هنا بجوار أمِّها في بيت عائلتها بالزعفرانية، أو الالتحاق بولديها في ديترويت بأميركا. وعلى الرغم من كون خبر عودة علي إلى الحياة مفاجئاً وصادماً، إلا أنه يحوي أثر النهاية نفسه؛ نهاية هذا الوضع المعلّق له ولها.

لقد أخبرت علي في آخر لقاء بينهما قبل الحادث بأنه من الأفضل له أن تبتعد عنه. تبتعد مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة بعلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منه، وليس اختفاءً مفاجئاً كما كانت تفعل سابقاً. لا تريد أن تعاقبه على شيء لم يفعله. هي في أعماقها ترغب بأن تكون معه في الأربعين سنة القادمة من حياتيهما، تماماً كما في الوصف المرح الذي استخدمه هو أمامها في عدّة مناسبات سابقة، ولكنها إن اتخذت قرار البقاء معه فهذا قد يؤدي إلى مقتله، أو لن يستطيعا العيش بهدوء وسلام في أقل تقدير ما دام طليقها حيّاً. لذلك من الأفضل أن تبتعد الآن. لأنها تريده أن يبقى حيّاً، وترغب بتصديق أن هناك فرصة أخرى لهما، في وضع آخر أفضل قد ينبثق في فترة ما مقبلة.

ولكن، ما كانت تنظر إليه على أنه قرارات «الآن» استمرَّ لأسابيع طويلة. كانت قد قطعت التذكرة وأعدت حقائبها، من دون أن تُخبر أحداً، حين سمعت من الراديو وفي تغطيات نشرات الأخبار في التلفزيون، بخبر محاولة اغتيال المذيع ومقدم البرامج الإذاعيّة علي ناجي. لا شكَّ أنه تعرَّض لمحاولة اغتيال، وهي مع نفسها متيقِّنة تماماً من الجهة التي استهدفته. لقد وقع ما كانت تخشى وقوعه.

ذهبت اليه في المستشفى عدّة مرّات، واطمأنتْ أنَّ مهمَّة الاغتيال لم تنفذ بشكل جيد. ما زال الضحية يتنفَّس، وربما هناك أمل بأنْ يستفيق ويعاوِّد مسير حياته المعتادة. أرادت المضي بجدولها المعتاد، الذهاب إلى موعد الطائرة والسفر ومغادرة البلد. ولكن، ماذا لو أنه استفاق في الأسبوع القادم، وسأل عنها؟

سيكون مؤلماً بالنسبة له أن يعرف أن «حبيبته» تجاهلت الحادث الصادم الذي تعرَّض له وتركته وسافرت. سيكون فاصلاً مؤلماً آخر في سلوك تعوّد عليه من ليلى. لن تضمن أنه بعدها سيبقى متعلِّقاً بخيط الأمل بالعثور عليها مجدَّداً. لن تضمن أنه سيبقى يحبّها، بالوتيرة التي كشفتها السنوات التسع عشرة الماضية. وجدت نفسها

تُعيد ملابسها إلى الخزانة. تُلغي سفرها وتُكيِّف نفسها مع حالة انتظار مفتوحة. وخلال هذا الوقت الطويل كانت تجد نفسها أحياناً في حالة تشبه المحاكمة الذاتية على كلٍّ ما جرى لها خلال السنوات التسع عشرة الماضية، وبالذات ذلك الجزء في ذاكرتها المتعلّق بعلي.

ـ ٢ ـ

لقد قالت له باعتبارها فيلسوفة مثله: إنَّ ما يشعران به الآن كشيء مميِّز هو بسبب الامتناع. لقد راكما ذاكرة لشيء ثمين، ليس لأنه ثمين بذاته، وإنما لأن الزمن جعله كذلك.

ـ تخيّل لو أننا أحببنا بعضنا فعلاً، في تلك السنة الأخيرة من الكليّة. ثم تخرجنا وبقينا على علاقة، هناك احتمال كبير أننا سنتصادم في لحظة ما، بسبب طبيعتنا المتشابهة. سنكتشف أننا متنافران بسبب التشابه، لا يستوعب أحدنا نواقص الآخر لنتكامل.

هناك احتمال أننا سنتجاوز عقبات من هذا النوع ونستمرُّ، ثم نتزوَّج. أذهب إلى الوظيفة وأنت كذلك، وقد تعمل في السوق مع أخيك، ونكافحُ من أجل البقاء حَيَّيْنِ في عراق التسعينيات البائس.

أطفال ومسؤوليات وثرثرات عن أشياء يوميّة ملّحة. تكرار في الكلام والانتقادات حول قضايا نصطدم بها. يتلاشى الشعر شيئاً فشيئاً. تملُّ من جسدي وأملُّ من جسدك بعد عشر سنوات او خمسة عشر عاماً. ندخل في الاعتياد، وفي إكراهات إدامة علاقة نعرف أن تخريبها مكلف.

سنصل في النهاية إلى هذه اللحظة التي أنا وأنت فيها الآن، جالسين وجهاً لوجه، ولكن من دون هذه المشاعر التي تجمعنا الآن معاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان علي يستقبل كلامها هذا على أنه نوعٌ من الاعتذار عن شيء هي رغبت به في أعماقها ولكنها تركته. إنه ليس تفسيراً منطقياً، وإنما مجرد افتراضات. لا أحد منهما يعرف على وجه الحقيقة ما ستكون عليه خياراتهما لو أنهما ظلّا معاً فعلاً كلَّ هذه السنوات.

في كلِّ الأحوال تفسيرات ليلى كانت تُبيّن لعلي أنها تقدّر كثيراً وجوده الآن، رجلٌ من ماضيها الذي كانت فيه أكثر براءة وأكثر إشراقاً ما زال ينظر إليها وكأنها على صورتها القديمة تلك.

إنه، من دون شكٍّ، رجلٌ ثمين. لا تصادف أيُّ امرأة رجلاً مثله كلَّ يوم؛ ظل يحبّها ويريدها على مدى عقدين تقريباً. لا يتعلَّق الأمر هنا بالإعجاب. فقد يجلس رجلٌ مجهول بجوارها في الطائرة، أو على كرسي قريب في مطعم أو كافتريا. قد تُصادف مثل هذا الرجل في مناسبات معتادة ويعجب بها فوراً، وقد يركعُ أمامها مرتجفاً ليعلن دون تحفُّظ أنه واقع في غرامها. هذا الإعجاب زهيد الثمن تواجهه المرأة دائماً، لكن أن يبقى رجلٌ ما متعلِّقاً بامرأة على مدى عقدين وبالوتيرة والحماسة نفسها، هذا هو الشيء الثمين والنادر. المرأة الغبيَّة فقط من تُضحي برجل يَكِنُّ لها مشاعر مثل هذه، خصوصاً حين تكون هي قد تجاوزت سنَّ الأربعين، وتقف على رُكام حياة تخرَّبت ولم تكن كثيرة المباهج، وتبدو في شكل من الأشكال وكأنها حياة مغدورة، ومجرد سير في طريق خاطئ لوقت طويل.

تتذكَّر كلامه بالغ السذاجة حين كانا يتناقشان وهما يشربان العصير في كافتريا كليّة الفنون. كلامٌ حكيمٌ ومنمَّقٌ ولكنه مليءٌ بالهُراء، بسبب أنه غير مبنِّي على تجربة فعليّة. وإنما مجرد دوران في عقل نشط.

- كلُّ هذه البنات جميلات ولكنهن إمّا غبيات، أو يبحثن عن رجل يجعلنه بُرغيّاً في ماكنة حياتهن المقبلة.

كانت تريد منه أن يعترف بأنها تثير انتباهه. هي على الأقل لا تبحث عن براغي ما. كانت ساذجة أيضاً لتعلّقها لوقت طويل بهذه الفكرة؛ كسر قناع الغرور الفارغ الذي يجعل هذا الزميل، من دون الآخرين جميعاً، غير معنيٍّ بإطلاق عبارات إطراء أمامها، أو امتداح ما تلبس. كانت تسمع من أصدقائه سخريتهم على كلامه المنمَّق، وأنه لا يفكِّر بالنساء وإن جاء الوقت المناسب فسيبحث عن امرأة تثير عقله ثم روحه وجسده.

- ٣ -

إنه كذّاب. كيف لا يفكِّر بالنساء؟ إنه معجبٌ بها ومتيّم، ولا يريد الاعتراف بذلك. انتبهت لنفسها لاحقاً بأنها صارت وكأنها في تجربة مختبريّة. وضعته في خانة ما في رأسها، وصارت تشتغل عليه لترى النتائج. كانت تتحرَّش به أحياناً، تملأ أنفه بعطرها. تدعُ شعرها يتناثر على وجهه حين تلتفُّ بجواره. تتعمَّد إمساك يده وسحبه، تتلامس معه. تريد أن تربكه، تجعله يستسلم، ويخرج من القوقعة التي حبس نفسه فيها.

لم تكن مهمَّة سهلة، فهو كان غارقاً في خيالاته من جرَّاء الساعات الطويلة التي ينفقها في قراءة الكتب. ولا يتحرَّج من قول شيء مهما بدا غريباً أو مضحكاً لمجموعة الأصدقاء الزملاء المعتادة. وكأنه يُلقي عليهم وحيّاً من عالم آخر، وكأنه لا يقدِّر وجودهم المادي أمامه كبشر مثله، وإنما مجرد أشباح وخطاطات تشابه ما يجول في خياله. فيتحاور معهم وهو يقوم في الحقيقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمنولوج ذاتي دائماً. أخبرهم ذات مرَّة بأنه في فترة إستغراقه بالطقوس الدينيّة، رأى فجأةً ثلاثة أشباح ورديّة باهتة تقف عند رأسه في الصلاة. وكأنها رسلٌ غامضة، أو إشارات من اللّه. إشارات لم يفهمها.

قالوا له ضاحكين؛ لهذا لم نكذب نحن حين وصفناك بالنبي، لقد نزل عليك الوحي فعلاً. لم يتقبَّل هو النكتة وردَّ عليهم بجديّة «لا.. لم ينزل أيُّ وحي للأسف.. في الحقيقة كنت أنتظره طويلاً ولكنه لم يأتِ» قال ذلك وارتسمت علامات الخيبة على وجهه، وأثار جوابه موجةَ ضحكٍ بين الزملاء.

كانت ليلى متأكِّدة أنه هو من كان يسخرُ منهم، ويستخدمهم لخلق جوٍّ من المرح. وفي بعض الأحيان تنسى ملاحظاتها السابقة وتصدِّق أنه جادٌّ في كلامه فتدخل معه في مبارزة مضحكة. وكأنّهما في برنامج تلفزيوني، يتراشقان بالمعلومات وإظهار من منهما أكثر وعياً ومعرفة من الآخر. والمحرجُ حين يحدث شيءٌ من هذا أمام الآخرين. كان يتراجع أمامها أحياناً حتى لا يحرجها أمام الأصدقاء، بسبب نبرتها العدوانيّة وحساسيتها تجاه من يحاول «الانتصار» عليها. صار يتجنَّب هذا النوع من النقاشات، وما بدا وسيلة لإثارة إعجابه، وتطبيقاً لأحد الأبعاد الثلاثة في المرأة المثاليّة التي يحلُم بها علي، صار مصدراً للنفور من قبله. لم يكن يدرك إنها تريد إثارة إعجابه. ولم تُدرك هي أنها ليست بحاجة إلى هذه الألاعيب. كان بالفعل معجباً بها، ولكنه يخشى تقصير المسافة بينهما، فهي ستقوم باستبداله سريعاً، كما يظن. القلعة مثيرة بالنسبة للقائد العسكري ما دامت لغزاً، ولكن ما أن يتمَّ فتحها سيفكِّر بقلاع منيعة أخرى. إن ليلى تمرُّ على الرجال، كما يتصوّر ويخمِّن، مثل طفل يمرُّ بألعاب في مدينة

ملاوٍ. لن يُقيم هذا الطفل طويلاً مع لعبة واحدة. وعلي لا يرى نفسه مجرد لعبة، ولا يريد علاقة مع امرأة بهذا الشكل.

كان عليه، حتى يختبر أوهامه وافتراضاته عنها، أن يجلس معها ويُصارحها بهذا الكلام. فلربما كان مخطئاً. ولكنه بدلاً من ذلك كان يثق بحدسه الشخصي، يثق بأشباحه الورديّة الثلاث التي في رأسه والتي تخبره بأشياء يتعامل معها كحقائق. وهذا كان يكفيه كنَبِيٍّ وفيلسوف. وبما يتعلّق بليلى، فهي المرأة الأكثر جاذبيّة التي رآها في كليّة الفنون أو حتى في بغداد كلّها، وهي لهذا السبب، لأنها الأكثر جاذبية، فهي المرأة التي يمكن أن تسبِّب له أذى أبلغ من أيِّ شيءٍ سيءٍ تستطيع امرأة أخرى فعله. وليلى تبدو من النوع الذي يمكن أن يدوسَ على قلبه ويغادر دون شعور بالذنب. لذلك من الأفضل تجنُّبها، أو ترك مسافة من الأمان معها.

كان هناك شيء جنوني وطفولي وغير معقول بينهما ليس ظاهراً للعيان. وفي لحظات استرخائها وشعورها بالتعب من هذه المبارزات الخفيّة، تُحاول ليلى إقناع نفسها أن الأمر مجرد لعبة، ستنتهي في لحظة قادمة يخلقها الإيقاع العام وليس قرارها أو قرار علي الشخصي. كأن يكون مجرد انتهاء الدراسة الجامعيّة وتخرُّجهم جميعاً وافتراقهم عن بعضهم البعض الآخر.

ـ ٤ ـ

جاءت الفرصة التي انتظرتها ليلى، ومن دون تخطيط في اليوم الأخير للدراسة وانتهاء الامتحانات. في الاحتفال الارتجالي الذي اقترحه الأصدقاء، بجولة نهاريّة في مدينة الألعاب. ركضت باتّجاه الكابينة التي رَكَبَ فيها علي. المشهد عند علي بالمقلوب طبعاً؛ فهي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من دَعَتْهُ للركوب معها، وليس العكس. في كلِّ الأحوال؛ هناك، وسط حفلة الدورانات المتعدِّدة طَبَعَتْ ليلى قُبْلَة مديدة على شفتي علي، [علي يرى الأمر بالمقلوب] ومن لحظتها تغيّر كلُّ شيء.

ما بعد القُبْلَة ارتفع حجاب ما عن عيني علي. اكتشف بوضوح وهم ينزلون من اللعبة، سائرين بخطوات حذرة على عشب الحديقة بسبب الدُّوار الذي سببته حركة الكابينات في اللعبة لوقت طويل، أنه يحبُّ ليلى. لم يكن الأمر لغزاً ولا يحتاج إلى تفصيل كثير. إنه يحبها، يحب عقلها المتوقِّد، وروحها المرحة والدفق الحيوي الذي فيها، ويحبُّ وجهها وملامحها وشفتيها وجسدها وشعرها وصوتها وكلَّ شيءٍ فيها، حتى تلك الشَّامة الدائريّة الصغيرة بحجم حَبَّة العدس ذات اللون الباهت على الجانب الأيمن من إلتقاء رقبتها مع الكتف، يعرفها جيداً ويحبّها. يحبّ مجنونة برج الجوزاء هذه.

كانت ليلى تركضُ مع بقيّة الأصدقاء للذهاب إلى لعبة أخرى. كانت تشعر بالانتصار. لقد شاهدت في عيني علي انهياره التام. لقد هزمته. ومثلما كانت تفعل في نقاشات كافتريا الكليّة، حين تدفعه للصمت بسبب غياب الحجَّة، ها هو يسير بخطوات بطيئة، تاركاً مسافة بينه وبقيّة المجموعة من الأصدقاء، فاقداً للرغبة بمشاركة الآخرين، حتى أنه لم يلحقْ بهم لركوب دولاب الهواء الكبير. وصار ينظر إليها وهي ترتفع إلى الأعلى وتصيح حين تصل إلى أعلى نقطة في الدولاب. ثم تهبط وهي تضحك.

غافلته من دون أن يعلم، حين خرجوا من مدينة الالعاب عند العصر، لتأخذ سيارة أجرة مودعة صديقاتها.

عاد في اليوم التالي إلى الكليّة ولم يجدها. ظلَّ يبحث عنها طوال الأيام اللاحقة من دون فائدة. من المؤكَّد أنها كانت تتجنَّبه.

كيف تسلَّمت شهادتها؟ حتى إنها لم تحضر إلى حفل التخرُّج الذي أقامته جامعة بغداد لكلياتها ومن ضمنها كليّة الفنون في ملعب الكشّافة. مسح علي بعينيه كلَّ المدرَّجات، وتجرَّأ وسأل عنها بعض صديقاتها، ولكنها لم تكن موجودة. لا بدَّ أنها ستراجع الكليّة لحاجات عملية تتعلّق بالتخرُّج والتعيين وما إلى ذلك. أنكرت الصديقات معرفتهن أين يقع بيت ليلى في الزعفرانية. لم يزرنها سابقاً في البيت. يعرفن المنطقة بشكل عام.

صار يتجوّل في شوارع الزعفرانية. أصيب بالجنون وفقد اتزانه الفلسفي النبوي بشكل كامل. أدرك الآن أنه بحاجة إلى هذا الشيء الذي حدث، من دون الحاجة إلى تفسيره أو وضعه في إطار منطقي مرتبط بالأشياء السابقة واللاحقة. إنه لا يعرف شيئاً ولا يريد شيئاً. إنه ليس حكيماً ولا فيلسوفاً ولا أي بطيخ. إنه جاهل تمام الجهل ها هنا، لا يعرف إلّا شيئاً واحداً؛ إنه يحبُّ ليلى منذ فترة طويلة ويريدها الآن بقوّة.

أراد إخبار عبد العظيم، صديقه المقرَّب، بما حدث، ليساعده في العثور على ليلى، ولكن، ماذا لو كان عبد العظيم نفسه صديقاً سريّاً لليلى. ماذا لو أنه كان ينام معها ويتمتع بمفاتن جسدها. سيضحك عليه مع نفسه ويطيِّب خاطره بأيِّ كلمة. يُطَبْطِبُ على كتفه كأنه طفل فقد لعبته أو سقطت منه في التراب قطعة الحلوى التي كان يلعقها.

عبد العظيم بالذات، لم يكن يُضيِّع فرصة لعلاقة جسديّة مع أيِّ امرأة. لقد نام مع أم سعد الفراشة التي تعمل في الكليّة. امرأة كبيرة لا مفاتن لها. كان يقول له دائماً «أشطب عليها». وكأنه يراكم رصيداً سينفعه لاحقاً. يشطب على النساء، يعمل مع أيِّ امرأة يتعرَّف عليها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علاقة جسديَّة لمرَّة واحدة. «لا يوجد وقت لعلاقات طويلة. مُر واخترق أكبر عدد من النساء مثل خيط في مسبحة طويلة وخلاص». هكذا كان يقول له.

رجلٌ بهذا الشكل لن يقدِّر جيداً كلام علي عن الحبِّ، كما أنه من المؤكَّد لن يفوّت بنتاً جميلة وحيوية ولا تبدو متمنِّعة أمام العلاقات مع الشباب. لذلك هو شخص غير مناسب لاعترافات علي التي تحرق روحه بشواظٍ من نيران مسنَّنة.

ظلَّ يضطرم بناره من دون مواساة من أحد، ومن دون أن يفهم لماذا فعلت ليلى ما فعلت، ولماذا غادرت واختفت بشكل حاسم بهذه الطريقة.

- ٥ -

شاهدت ليلى، بعد يوم القُبْلَة، علي أكثر من مرّة. شاهدته من بعيد، أثناء مرورها السريع لإنجاز شيء في الكليّة. كانت تتهرَّب منه. لأنها لا تريد خرق التصوُّر الذي ظلَّت مؤمنة به بشأن العلاقات داخل الجامعة. كان علي آخر قلعة استطاعت تحطيم أبوابها. الشخص الوحيد الذي لم يبدِ أيَّ أعجاب بها. وجعلته يكشف عن هذا الإعجاب علناً. إنه نصرٌ أخير مناسب لختام الحياة الجامعيّة. ولكنها لا تحبّه. أو، بتعبير أدق، لا تريد أن تتورَّط بحبّه. ليس شخصاً مناسباً لحياة طويلة. ستساعده القُبْلَة في تغيير بعض مفاهيمه الخاطئة عن الحياة. ربما نفعته هي بعملها الجريء هذا. من يدري.

في النهاية الحياة تنقضي، كما كانت تؤمن. الحياة مجموعة لحظات ملصقة مع بعضها البعض الآخر بشكل عشوائي. لا شيء

يستمرُّ. حتى الأشياء التي تستمرُّ معنا اضطراراً، مثل أجسادنا، فأنها تتحوّل وتتغيّر، أي إن محتواها أو شكلها لا يستمرّ.

بهذه النظرة المتطرِّفة، تحرَّكت ليلى إلى خطوات حياتها اللاحقة، ولم تلتفت إلى الوراء أبداً. قبلت شاباً من الأقارب تقدَّم لها، وشجعها أهلها على الزواج به. كان يملك معملاً صغيراً للحلويات. وبعد مرور سنة على زواجها منه، أنجبت ولداً، وقرَّر زوجها أن يسافرا، بسبب تردي الحال وشعوره أن القادم قد يكون أسوأ. حزما أغراضهما في منتصف عام ١٩٩٦ وسافرا إلى عمّان. وهناك أنجبت ابنها الثاني.

ظلَّت على مدى خمس سنوات تعيش ما يشبه العزلة مع ولديها، وتنامت الخلافات بالتدريج بينها وزوجها الذي يتركها لأيام كي يسافر لقضاء أعماله، ولا يكاد يتواجد معها، وتشكُّ في خوضه علاقات نسائيّة عديدة. لم تكن تحبّه، أو أنه شعور تنامى لديها بسبب سلوك زوجها.

كان زوجها على وشك الإفلاس التام في ربيع عام ٢٠٠١ حين قرَّرت أخذ ولديها والعودة إلى بغداد. طلبت الانفصال من زوجها ثم غادرت، ولم يفكِّر باللحاق بها أو منعها.

عادت إلى بيت العائلة في الزعفرانية، مع والديها العجوزين، وقرّرت أن تبدأ من جديد، مصحِّحة أخطاء حياتها السابقة. ستبحث عن عمل لتُعيل نفسها وطفليها. كان موسم العطلة المدرسيّة ما أتاح لها وقتاً للتفكير في ترتيبات الوضع الدراسي لولديها.

خلال ذلك كلّه لم يكنْ علي سوى ذكرى شاحبة بين آلاف الذكريات الغاطسة وشبه المنسيّة. وكان لديها في القابل من الأيام ما يشغل ذهنها أكثر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في صيف ٢٠٠١ إلتقت ليلى صدفةً، عند باب مكتبة النهضة بشارع السعدون بعبد العظيم. كان ملازماً أول في ذلك الوقت، وخلال الأحاديث بينهما، ومع مفاجأة هذا اللقاء غير المتوقَّع، عرفت ليلى أن علي ما زال حيّاً وموجوداً في بغداد، وأنه يلتقي مع عبد العظيم وأصدقاء آخرين من أيام الكليّة في بيت رجل ثري في المنصور، بما يشبه المنتدى الأسبوعي. لم تفكِّر كثيراً وقتها قبل تطلب منه الذهاب إلى هذا المنتدى. كان مجرد فضول لا أكثر، ورغبة بتجديد لحظات إيجابية مع أصدقاء قُدامى.

كان زوجها في تلك الأوقات يتصل ببيت عائلتها، ويحاول إصلاح الموقف الذي حصل بينه وليلى. أخبرهم بأن ملفَّه للجوء الذي قدمه للأمم المتحدة من سنوات قد قُبِلَ، وأنه سجَّل العائلة كلَّها معه، ويفترض أن يسافروا في غضون شهرين، وعلى ليلى العودة إلى عمّان مع الولدين.

سمعت ليلى كلَّ القصّة، ولكنها رفضت استقبال اتصاله الهاتفي والحديث معه، ورفضت فكرة اللجوء وأيَّ شيء يمكن أن يجعلها تعيش حياة مشتركة مع هذا الرجل مرّة أخرى.

شاهدت علي في حديقة الدكتور واصف، وشعرت بوضوح أن هذا الشاب ما زال واقفاً في كابينة اللعبة الحديد، رغم مرور أكثر من سبع سنوات على حادثة القُبلة.

مرّت بضعة أشهر، كان المميِّز فيها هو اللقاءات الأسبوعية في حديقة الدكتور واصف، والتي تنتهي عادة بمسيرها مع علي لوقت طويل في الشارع العام، وقد يتفقان على الاستراحة في مكان ما.

يجلسان ليثرثرا، وخلال ذلك لم يتطرَّق أبداً إلى حادثة القُبْلَة، لم يذكر أمامها شيئاً حميماً، وحافظ، كان في صورته القديمة أيضاً، على كتمانه لمشاعره، أو الحديث عن أيٍّ شيء بشكل واضح ومباشر.

كانت تعرفُ بأنه ممتنٌّ لهذه المصادفات التي جعلتها تظهر أمامه ثانيةً. كان يحبُّها، وكانت مرتاحة لهذا الانعتاق من حياتها الثقيلة، ولم تفكِّر طويلاً بمعنى ما يحدث لها الآن حقاً. كانت مستعدة حتى لنسيان أن لديها ولدين ومسؤوليات، وأن الزمن مرَّ عليها بثقله.

كانت تنزلقُ على زمن أملس لبضعة أشهر. روتْ قصَّة سنواتها الماضية على مسامع علي، وعرفت كلَّ شيء عنه. لكنه لم يخبرها بالأعمال الخرقاء التي قام بها من أجل العثور عليها. كان يخجل أو لا يرغب أن يبدو ساذجاً. وعلى وفق إحساسها بالايقاع الذي انتظمت به مع علي في هذه اللقاءات والأحاديث، كانت تتوقَّع أنها خلال أشهر قادمة ستكون أمام مفترق حاسم. كانت قد بدأت تحبّه.

إلا أن المفاجأة كانت بانتظارها في البيت. لقد جاء زوجها من عمَّان بجواز مزوَّر، مخاطراً بحياته، حتى يقنعها بالعودة معه. كانت عودته بجوازه الأصلي إلى بغداد تعني إبطال ملفِّه في الأمم المتحدة، لذلك جازف بالجواز المزوّر. كان عملاً يستحق التقدير.

ـ الرجل يريد استعادة عائلته، وهو مستعد للاعتذار وعمل أيِّ شيء كي ترضي عنه.

قالت لها أمُّها بلهجة حازمة.

ـ ما البديل عن حياتك مع عائلتك؟ هل تتحملين ذنب حرمان الولدين من أبيهما أو أمِّهما؟ لماذا هذا الجنون والخبال؟ كلُّ الرجال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُخطئون ويرتكبون الأخطاء، لهذا كانت النساء أكثر حكمة، ولولاهن لما عاشت الأسر واستمرَّت.

قال أبوها بلكنة حكيمة، ولكن من دون أن يحاول الضغط عليها، فهو يحترمها وفخور باستقلالها.

حتى حين جلست مع صديقتها من أيام الكليّة «جيان»، قالت لها الشيء نفسه:

ـ ما هو المضمون بعلاقتك مع علي؟ أنت تقولين إنه شبه عاطل عن العمل، إنه غير قادر على الزواج منك. وسأقول لك شيئاً من خبرتي؛ سيعيش معك لحظات مجنونة، ثم تفتر حماسته، ولن يكون ملزماً بعدها تجاهك بشيء. سيختفي ويتركك تغرقين في وضعك البائس. هذا النوع من الرجال يحبون أن يبقوا خفافاً. وإلّا لماذا لم يتزوَّج من أيّ امرأة حتى الآن؟

صارت محاصرةً من كلِّ اتّجاه، وانهارت تماماً مع بكاء زوجها أمامها في صالة بيت العائلة. لن تنكر أنها عاشت معه أوقاتاً جميلة، وأنه كان ينفق عليها دون حساب. وما الذي يضمن أن غيره من الرجال لا يرتكبون ذات الأخطاء التي يرتكبها.

ظلَّ شيءٌ فيها يُمانع، حتى دخل عليها أبوها غرفة نومها ذات ليلة وجلس على الأرض ممدِّداً رجليه بسبب آلام الروماتزم، واعترف لها بأمرٍ فاجأها:

ـ أنا كنت أخون أمك. كان طيش شباب. ولكنها غفرت لي. غفرانها هو العقد الذي يربطني معها، وليس عقد المحكمة. هي التي ربتت على كتفي وطمأنت روحي في كلِّ مصاعب الحياة. يجب أن يتسعَ قلبُك ولا تكوني مجنونة مثلي. كوني حكيمة مثل أمِّك.

استسلمت، وانتهى الزمن الرومانسي سريعاً بارتطام حادٍّ بأرض

الواقع. ولكن ما زال هناك وقت لعمل مجنون وحيد. عملٌ يُرضي المنطقة العميقة في ذاتها، ويترك الخطة الواقعيّة المحكمة التي أجبرها الآخرون على الدخول إليها، مخرومة في جانب منها، وكأنه باب صغير للهروب، حين يحين الوقت لفعل ذلك.

قالت لصديقتها جيان أنها ستغادر مع زوجها وولديها. سيسافر هو أولاً ثم تلحقه مع الولدين ببضعة أيام. ولكنها ستقوم بشيء أخير؛ ستنام مع علي، تُمارس الجنسَ معه.

إن تركت علي الآن فلن يتبقّى منها سوى أشباح القُبْلَةِ القديمة والتلامُسات البسيطة في لقاءاتهما الجديدة، وهذه كلُّها يمكن أن تختفي مع مرور الأيام. قالت لصديقتها أنها تفكّر بأنانية، تعرف هذا جيداً. تريد من هذا الرجل ألّا ينساها. إن صورتها المعكوسة في أعماقه ثمينة جداً، ولا تريدها أن تختفي، والوسيلة الوحيدة لذلك هي أن تنام معه وتلتحم بجسده، لمرّة واحدة على الأقل.

ـ أنت تشتهين أن تنامي معه لا أكثر. لا تخدعي نفسك. قومي بذلك ولكن لا تُعبِّري عن الموضوع بكلمات كبيرة.

قالت جيان. ثم صفنتْ عدّة لحظات وعادت لتعلِّق على كلام صديقتها:

ـ إن كان شخصاً جيداً مثلما تقولين، فليس عليك معاقبته. أن تنامي معه مرّة واحدة ثم تسافرين، فهذه ضربة سوط مؤلمة على ظهره. على ظهر رجل يحبُّك فعلاً، لا يتعلَّق الأمر عنده بالنوم معك مرّة واحدة. ألستِ تقولين أنه يحبُّ عقلك وروحك وجسدك؟

الأمر الذي لم تتوقَّف عنده ليلى طويلاً وقتها، أن الأمر ربما كان في جانب منه لا يتعلَّق بعلي ولا بشيء يربطها بعلي، وإنما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بزوجها. لم تكن تؤمن بالغفران الذي تحدّث عنه والدها. كانت تريد أن تردَّ الاعتبار لنفسها بطريقتها الخاصة. مع قائمة أخطاء قادمة تتوقَّعها من زوجها، ستنظر في عينيه حينها وتعطيه الغفران، لأنها انتقمت منه سلفاً.

جرى ترتيب اللقاء في بيت جيان. أمضيا أربع ساعات معاً، ثم غادرا مثل سكرانين، وعلي يتوقّع تكرار هذه التجربة ويلتقي بليلى في أيام لاحقة. لكنها اختفت. وحين حاول الاتصال بها على هاتف بيت أهلها، كان صوتٌ رجوليٌّ خشنٌ يردُّ عليه دائماً. لم تكن هناك. واضطر في نهاية المطاف للعودة إلى بيت جيان، ولكنه لم يتجرَّأ للطرق عليه. ظلَّ يراقب البيت من بعيد لعدّة أيام، حتى شاهد جيان تخرج، ظلَّ يتابعها وما إن اطمأنَّ إلى ابتعادها عن المنطقة حتى فاجأها بظهوره، وسارع لسؤالها عن ليلى. أين ذهبت؟

ارتبكت جيان من ظهوره المفاجئ، وكانت تتوقّع تبعات مماثلة للعمل المجنون لصديقتها. أخبرته بأن ليلى سافرت مع زوجها وطفليها، وأن عليه ألا يتتبعها، فهي لديها عائلة وأناس يراقبونها. وإن كان إنساناً جيداً مثلما كانت تقول عنه ليلى، فمن الأفضل أن يكتفي بهذا الجواب ولا يبقى يلاحقها في أيام قادمة.

ـ سافرت؟ . . . كيف سافرت؟

ـ سافرت. أجبروها على السفر. هي تحبّك، ولكنه حكم القوي على الضعيف.

حسمت جيان بهذه العبارة كلَّ التأويلات الممكنة في رأس علي للعمل الذي قامت به ليلى تجاهه. إنها تحبّه، وبهذه الطريقة أتمّت جيان عمل صديقتها، وربطت هذا الشاب بليلى بحبل ذاكرة متين.

في منتصف عام ٢٠١١ حصلت على الطلاق من زوجها، الذي كان قد تركها هذه المرّة لفترة طويلة، ليس للسفر إلى هنا أو هناك، وإنما للعودة إلى بغداد للعمل في الكابينة الحكوميّة والإقامة في المنطقة الخضراء.

مضى عليها نصف عقد على هذه الحال، هو هناك في بغداد لا يأتي إلا في الإجازات، وهي هنا في ديترويت تعيش عزلة وشعوراً بالإهمال. وحين إطمأنَّتْ على دراسة ولديها وأنهما قادران على الحياة من دون إشراف أو رعاية مباشرة منها، طلبت الطلاق، ثم حزمت أغراضها عائدة إلى بغداد هي الأخرى.

كان والدها قد توفي خلال السنوات الماضية، وأمُّها صارت عجوزاً هرمة، تأتي إحدى أختيها المقيمتين في الشارع نفسه لرعايتها عدّة ساعات خلال اليوم، أو تتناوبان للإقامة معها.

عادت بحقيبة سفر كبيرة، ولكنها مع نفسها تشعر عملياً إنها عادت من دون شيء، سوى خسارة ثمانية عشر عاماً من عمرها. هكذا هي «حياة الآخرين» إذن، تلك التي أجبرت على عيشها. تمضي حياتك من دون أن تشعر بأنك عشت حياتك التي خُصِّصتْ لك فعلاً. أو أن هذه الفكرة المتطرِّفة تحضر في الذهن بسبب تقدُّم العمر ليس إلّا، فنشعر بالخسران ولا نلتفت إلى ما كسبناه أبداً.

لم يكن لديها من خطط سوى التخلُّص من حياة زوجها المتضخِّمة والتي غدت فيها مجرد بُرغيٍّ صغير. وخلال ذلك لم يكن سلوك زوجها قد تغيّر. لم يعطها حتى فرصة أن تُربت على كتفيه، كما طلب أبوها ذات مرّة، فتحاول منحه الطمأنينة. لم يكن بحاجة إلى الشيء الذي تريد منحه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هل يمكن استعادة أيّ شيء؟ أي أحمق يفكر بهذا؟ لقد جرى نهر الزمن وما عاد من النافع التفكير بإيقاف جريانه أو إعادة خط سيره إلى الخلف.

خلال تلك الفترة، سمعت بالصدفة صوت علي في برنامجه الإذاعي. سمعت شتائمه المقذعة. لم تكن من هواة سماع قنوات الراديو، ولكنها بالخطأ قلبت منظم قنوات التلفزيون إلى القنوات الإذاعية، وجاءت إذاعة «الموقف» أمامها. كان مثل أمر مخطّط له بدقّة، حتى تملك خيط صلة مع علي.

كان زوجها يعرف بوجودها في بغداد، وكلَّف أشخاصاً بمراقبتها سرّاً، وهؤلاء هم من نقلوا له أنها تجلس في كافتريا في شارع ٦٢ مع رجل عدّة ساعات خلال الأسبوع.

لذلك تظنُّ ليلى، وعلى خلاف تكهُّنات عمَّار، أن من أطلق الرصاص على علي في ذلك المساء المشؤوم هم رجال يأتمرون بإمرة زوجها. لأنه وجَّه رسائل تهديد مبطَّنة لعلي في برنامجه الإذاعي. ظاهراً بسبب إيراد اسمه في قائمة المشتومين، وعلي لم يكن يعرف وقتها أن هذا المسؤول الذي يستحقُّ الشتم هو زوج ليلى. أما باطن الأمر فهو بسبب العلاقة مع ليلى، التي تلقتْ هي بدورها تهديداً من زوجها، وحملها مسؤوليّة ما سيقع على علي إن هي استمرَّت بلقائه.

لقد آذتْ هذا الرجل بما يكفي، ولا يوجد ما تستطيع عمله الآن كي تعوّضه. على الأقل هي قادرة على منع خسائر أكثر، خصوصاً حين يتعلَّق الأمر بالحياة والموت.

ها هو يستيقظ من غيبوبته. ستسافر الآن. سيعرف زوجها أنها عادت إلى ديترويت. ستحمي بذلك علي من شرّه. ولكن، بقي هناك أمرٌ أخير.

تركت بضعة أيام تمرُّ واتصلت بعمّار. سألته عن وضع علي. قال لها إنه تحسَّن كثيراً وهناك علاج وأدوية يتناولها، والأطباء مبتهجون بالحالة التي وصل إليها علي. سألته إن كان قادراً على استعمال التلفون وسماع صوتها والردِّ عليها. ففاجأها بأنه جالسٌ بجواره، وها هو معها.

سمعتْ صوت تنفُّسه، وصار قلبها يدقُّ بعنف كأنها بنتٌ مراهقة. كانت قد رتبت كلاماً محدداً. أرادت أن تقول له بثبات وهدوء أنها سعيدة بسلامته وأنها كانت تنتظر كلَّ هذه الفترة حتى تطمئن على حالته الصحيّة. وأنها ستسافر خلال الأيام المقبلة. وكلُّ هذا لصالحه ومن أجله. لكنها حين فتحت فمها وجدت أن صوتها يرتجُّ. أحسَّت بدمعة ساخنة تهبط على خدِّها وهي تقول له:

- حبيبي..

لم تعرف كم كرَّرت هذه المفردة، ولماذا كانت بهذا الوضع. كانت تمسحُ دموعَها بيدها وتسمعُ حَشْرَجَةَ أنفاسه ولا تستطيع إيقافَ نفسها من ترديد ذات المفردة بنغمات متغيِّرة مع صوتِ نشيجها:

- حبيبي.. حبيبي..

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل التاسع عشر

وَقْتٌ طَوِيلٌ لِلتَجوَالِ فِي الحُلُم

- ١ -

خلال أسابيع الغيبوبة السبعة تمَّ إخلاء شقّته وتأجيرها لشخصٍ آخر. تصرَّف عمَّار ببعض الآثاث وباعه، وجلب جزءاً آخر إلى بيته. وحين صار علي قادراً على الانتباه لما يجري حوله، شاهد كتبه تملأُ الغرفة التي كان ينام فيها بالطابق الثاني من بيت أخيه.

ـ أنتَ لم تدفع إيجار الشقَّة لأربعة أشهر، وأنا شخصيّاً لم أكن أعرف ماذا أفعل، خصوصاً وأنني غير واثق من عودتك إلى الحياة. لم تكن الشقّة مفيدة لي بشيء، لهذا سايرتُ صاحب العمارة في طلبه. أرجو ألّا أكون قد فعلتُ أمراً سيئاً؟!

ـ لا . . لم أعد أحبُّ هذه الشقّة على أيِّ حال، ليست لديَّ فيها ذكرياتٌ طيبة.

قال علي، ثم استعرض مع نفسه أشياء كثيرة في ذاكرته عن الشقّة. تذكَّر فجأةً دفتر التعاويذ السبع، فسأل أخاه عن كلِّ الموجودات التي جلبها.

ـ لم أترك شيئاً أعتقد أنه يهمُّك. لم أتصرَّف بأوراقك وكتبك. وهذه هي كلُّها كما تراها مرصوفة هنا في الزاوية.

حين أستطاع الحركة والقيام من مكانه، بحث علي بين هذه الكتب والأوراق والدفاتر، فلم يعثر على دفتر التعاويذ. ربما سقط أثناء نقل الأثاث أو بقي في الشقّة منزوياً وراء سخّان الماء في الحمام أو في البالكون أو أيٍّ مكان آخر. الدفتر موجود بكلٍّ تأكيد، ولكن هل يستطيع علي بوضعه الصحّي الحالي أن يجري بحثاً مكثّفاً؟

كان يشعرُ بأن جسمه مفكَّك، وأنه لن يعود إلى سابق عهده أبداً. تشوَّه قحفُ رأسه، وهناك منخفض واضح لدخول الرصاصة في أعلى جبهته. إنتشر خبرُ صحوته من الموت بين أصدقائه. صاروا يجيئون إلى بيت عمَّار بين حين وآخر. يجلسون إلى علي وهم يضحكون، ويطلبون منه أن يروي لهم مثلاً ما شاهده في «العالم الآخر». لم يكن هنالك عالم آخر يا أصدقائي، هناك ستة عوالم أخرى غير عالمنا هذا. أراد علي أن يخبرهم بذلك. ولما كان عمَّار يجلس إليه ليلاً يتناول الطعام معه ويحدثه عمَّا جرى أثناء غيابه، وما فعله من أجل إعادته إلى الحياة، كان يُخامر علي شعورٌ بأنه يجب أن يخبر عمَّار على الأقل. تحدَّث أمامه بشكلٍ مقتضبٍ في البداية عن العوالم الستة الأخرى، ولم يسترسل بالتفاصيل. ثم في الليالي اللاحقة روى علي كلَّ التفاصيل التي تخيّلها وحلُم بها أو عاشها فعلاً، كان يحتاج للتخلُّص مما يدور في رأسه وأن يثرثر على مسامع أحدٍ ما. وكان عمَّار ينصت باهتمام ولم تبدُ عليه أيُّ إشارات للسخريّة أو التقليل من شأن جديّة كلام أخيه. في نهاية الحكاية الطويلة والمتشعِّبة، صمتَ علي، وتركَ عمَّار يستغرقُ مع نفسه قليلاً قبل أن يردَّ عليه:

ـ نعم، هذا جائزٌ جداً، ألَمْ تسمع كلام الإمام الصادق عن وجود ألف ألف عالمٍ غير عالمنا وألف ألف آدم غير آدمنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعدها بأيّام جاء عمّار يملأه الحماس، وجلس مع أخيه ليكشف له أنه لم ينسَ فكرة العوالم السبعة، واحتماليّة أن علي مرَّ بها أثناء الغيبوبة. روحه تجوّلت في العوالم الستة الأخرى وعاشت ما عاشت.

ـ لقد سألت شيخ تميم يحيى. أنت تعرفه، كان زميلي في الإعدادية، وهو شخص متنوِّر جداً ولديه أفكارٌ غريبةٌ أحياناً ولكنّي أثقُ بعقله. قال بأن تفسير الكلام القرآني والأحاديث القدسيّة عن السماوات السبع والأرضين السبع الشائع هو أنها فوق بعضها البعض الآخر. يعني هذه السماء التي فوقنا تتراكم فوقها ستُ طبقات لستِ سماوات، وكذلك الأمر عن الأرضين. ولكنه يقول بأن الكلام عن «ما بينهما» يشكِّك بهذا التفسير. يعني لدينا سبعُ سماوات وسبعُ أرضين وما بينهما. أي كلُّ سماء وأرض وما بينهما، أي عالم مستقل بذاته، وهذا يعني أن هناك سبع عوالم، كلُّ عالم له أرض وسماء وما بينهما، وما بينهما هي الحياة بكلِّ تفاصيلها.

ـ تفسيرٌ جميلٌ.

ـ سبع عوالم وسبع حيوات. ربما مرَّرت بحلمك الطويل بها. لا أحد يُتاح له أن يستغرق بالحلم لشهرين ونصف. وأكيد هذا وقت طويل للتجوال بين العوالم.

ـ ٢ ـ

أخبره زملاؤه في الإذاعة بأنهم قاموا بجهدهم الشخصي بالتحرِّي ومحاولة التعرُّف على الجهة التي وقفت خلف عملية الاغتيال الفاشلة، وأنهم شكّوا بجماعة معينة بسبب نوع السيارة الحكوميّة التي استخدمها المنفِّذون في يوم الحادث، حسب شهود

عيان إلتقوا بهم. وربطوا كلَّ ذلك بالجهات التي كانت تتصل بمدير الاذاعة وتُهدِّد وتطلب إيقاف برنامج علي الاذاعي.

كان عمَّار يسمع كلَّ هذا الكلام، أثناء جلوسه مع زملاء أخيه في غرفته، من دون أن يكون مقتنعاً. لقد أجرى هو أيضاً تحقيقات خاصة به خلال الأسابيع السبعة الماضية، وتوصل إلى نتيجة محددة؛ هناك ثلاثة أطراف، أولها حسون داغر ماضي المسؤول الكبير في الدولة والذي نال نصيبه من الشتائم في برنامج علي الاذاعي، والثاني هو رافد محيي الدين، الضابط الأمني الكبير، والأخ الأصغر للدكتور واصف، والثالث لا علاقة له بالسياسة وإنما هو زوج «بان» موظّفة البنك المركزي، وعشيقة علي السريّة.

أضافت ليلى، في إتصال لها مع عمَّار، طرفاً رابعاً؛ إنه زوجها الذي هدَّد سابقاً بقتل علي. ليلى مُصرَّة أنه هو المسؤول الفعلي والوحيد عن عملية الاغتيال غير الناجحة.

في كلِّ الأحوال. هناك أطراف عديدة كانت تريد أن ترى علي ميتاً، وبما أن السلطات الرسميّة لم تلقِ القبض على الجاني، ولا يبدو أنها تستطيع فعل ذلك، فمن الممكن أن تتكرَّر محاولة الاغتيال، لهذا حرَّم عمَّار على أخيه الخروج من البيت، حتى يحين الوقت للقيام بتصرُّف مناسب، لا يعرف عمَّار ما هو، بالاضافة إلى أن علي لم يكن في وضع صحِّي جيد يُتيح له الحركة والخروج، ما جعله يرضخ لمطالب أخيه الصغير.

ـ ٣ ـ

لقد عاد إلى الحياة بمعجزة، وبغض النظر عمَّا يدور في ذهنه على مدار الساعة من خيالات وأحداث شارك فيها بالعوالم الأخرى،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فإنه لن يعود إليها أبداً. خصوصاً وأنه لا توجد أيُّ تعاويذ أو أبواب طباشيريّة للعبور من خلالها. تأكّد أن صديقه العجوز دكتور واصف ما زال ميتاً، وكان هو صلته الوحيدة بهذه القصّة كلِّها، إن استثنى محمد سدخان، الممرِّض الذي كان برفقته في الايام الأولى من الإفاقة، ثم اختفى بعدها. ومع اختفاء دفتر التعاويذ، بقيت جرَّة أبو صلابيخ، عليه أن يُراجع المتحف كي يتأكّد من وجودها. هي مكسورة ولا بدَّ أنهم يحتفظون بها على هيأتها هذه.

ولكن، لم هذا العبث؟! حتى لو وجد الجرَّة فكيف سيتمكّن من نسخ التعاويذ التي على جدارها الداخلي؟ لن يسمحوا له بهذا الأمر أبداً. ثم إن تمكّن من نسخ التعاويذ كيف سينقلها إلى العربيّة ويُفسرها، كيف وبأيِّ ترتيب يقرأ التعاويذ وكيف يكشفُ سرَّها؟ ثم إن نجح في اجتياز كلِّ هذه العقبات فما هو الهدف الذي يسعى إليه؟

«العودة إلى ليلى في العالم الذي شهد مقتل صديقه صاحب الانقلاب. العودة إلى جسد مشوَّه بسبب حريق الانفجار، ولكن بروح مطمئنة وجدت من يحبّها، مهما بدت وبأيِّ صورة كانت».

كانت مشاعره السلبيّة تستعيد لياقتها. إنتهى نسبياً حال الابتهاج بالنجاة من الموت، وعبوره موقفاً عجيباً لن يتمكّن كثيرون من عبوره. إنتهى سحر الحالة الغريبة والشاذة لميت سريري يستيقظ من موته فجأةً.

ـ بالتأكيد فترة العلاج الطويلة، والأدوية التي استخدمها الأطباء أسهمت في تنشيط المناطق المتضرِّرة من دماغي.

قال علي وهو يُجادل أخاه، ولكن عمَّار ظلَّ مصرّاً أن هناك معجزة إلهيَّة في الموضوع.

ـ باب اللّه تجمَّعت أجزاؤه من دعاء كلِّ العقائد والأديان.

طرقت أنا على الباب في الوقت المناسب فانفتح.

ـ وبماذا تؤمن الآن؟ هل صرت تؤمن بكلِّ العقائد والأديان؟

ـ لا طبعاً. أخاف أن أغادر إيماني، لكنني صرت أحترم الإيمانات الأخرى بدرجة أكبر. بقاؤها كل هذه القرون والسنين ليس عبثاً. هذه إرادة اللّه، وعليَّ إن أحترمها. ليس العالم لي أنا فحسب ومن يؤمن بعقيدتي. هذا عبث وجنون، وتعالى اللّه سبحانه عن عبثٍ مثل هذا.

ـ جيد. . صرتَ مفتوح العقل الآن يا عمَّار.

ـ آه. ولكن عليك أن تصدِّق ما أقول.

ـ إذا اصرّيت على أن أصدق ما تقول ستعود عمَّار القديم، سيعود العقل المقفل.

ـ ٤ ـ

إستعاد عمَّار لاحقاً شريحة هاتف علي التي توقّفت بسبب عدم الاستعمال. وكان أول ما فكَّر به علي حين أمسك بتلفونه هو رقم ليلى. صار يتّصل بها كلَّ يوم، ويتوسَّل بها أن تأتي إلى بيت عمَّار، وهي تتخوَّف من القيام بشيء مماثل.

كانتْ قد مضت عدّة أسابيع على تحسُّن وضعه الصحِّي، وكان يُفترض بليلى أن تسافر، فهذا ما كانت تخططُ له. لم تعد قادرةً على تحمل محاصرة طليقها، المسؤول المتنفِّذ بالدولة، والذي لا يريدها أن تبدأ هنا أيَّ حياة فعليّة.

كان علي يريد رؤيتها، ولم يُخبرها أنه يريد أن يُطابق بين صورتها الحالية وصورها التي رافقته خلال أشهر الغيبوبة الطويلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت تردُّ أن زوجها يراقبها. لقد ملَّت من زياراته المفاجئة لها في بيتها واستئناف مواجهات من العراك والشكوك وتبادل الاتهامات والكلام عن حريتها الشخصيّة وأنها لم تعد مرتبطة به وما إلى ذلك. وما دام هو هنا في بغداد قويّاً وذا صلاحيات فلن تستطيع الاقتران بعلي أو أيٍّ شخص آخر، وستظلُّ حركتها مقيّدة وسيبقى طليقها يُلاحقها، ليس من باب حرصه عليها أو الغيرة والحبِّ وإنما كنوعٍ من الدفاع عن كرامة رجوليّة متضخِّمة ترفض القبول بأن يعبث الآخرون بالأشياء التي كنَّا نملكها، حتى لو رميناها في النفايات.

لم يكن يريدها أن تستأنف حياتها من دونه، وإنما تبقى «بُرغيّاً» في ماكنة حياته، حتى وإن لم تكن في حياته فعلاً. مجرد بُرغي مهمل على حافة طاولة، وليس كائناً مستقلاً له حياته الخاصة. وكثيراً ما كان يردِّد أمامها حكاية أولادها وأنها أمٌّ ومسؤولة عنهم، فتردُّ عليه بأنهما صارا بالغين ولهما حياة مستقلة، ولن يرغبا بكلِّ تأكيد أيَّ وصاية، ولن يمانعا أصلاً ان تكون لأمِّهما حياتها الخاصة.

ـ هذا صداع شديد يا علي.. لا أضمن أنه سينتهي قريباً. كان قد علم بصعودي معك إلى شقّتك، وبقيت لأسابيع وأنا أدافع عن نفسي أمامه وكأنني متهمة، وكلُّ ذلك خشية أن يتعرَّض لك. وسأقول لك شيئاً؛ إنه هو من قام بمحاولة اغتيالك. أنا متأكِّدة من ذلك. رغم أني واجهته وأنكر، لكنني متأكِّدة تماماً، وأعرف أنه مستعدٌّ لتكرار المحاولة من جديد من دون أن يرفَّ له جفن. إنه مجنون ومجرم، والحلُّ الوحيد للخلاص منه هو أن يموت.

قالت ليلى ذلك بحنجرة مرتجَّة وهي تنظر إلى وجه علي عبر شاشة السكايب، وترى وجهه الشاحب والضامر وكأنه انقلب إلى كائن آخر لا تعرفه تماماً.

ـ على الأقل أراكِ قبل أن تسافري. وبعدها ننتظر ما سيحدث. . أريد أن أراك أمامي وألمسك.

ـ إنه يراقبني بشكل يومي، أخشى أنه سيعرف وربما يقوم بعمل سيئ ضدك.

ـ ليلى. . أريد أن أتأكّد أنك موجودة.

ـ ٥ ـ

كان يتكرَّر أنه يفتح عينيه مع ساعات النهار الأولى، ليبقى مع ذلك في سريره وقتاً طويلاً، يتقلَّب من دون أن يجد طاقة للنهوض والقيام، مع زخم صور تتراكض على شاشة ذهنه وتشوِّش إمكانية اتخاذ قرار سريع. وكأنّ عقله اللا واعي يفشل ليلاً في تصفية مقلب النفايات الهائل الذي يتراكم فيه خلال النهار ويُثقل الذهن والإرادة. أو كأنّ البحيرة اللزجة من الأوهام والصور المتداخلة التي كان فيها على مدى أسابيع من الغيبوبة، ترفض أن تعترف بأنه انفصل عنها، وتطالبه بالعودة إليها، وتجُرُّه بنعومة خلال هذه الساعات ما بين النوم والصحو.

شعر بأن مكوثه في البيت يسهم في جعله قريباً من بحيرة الأوهام اللزجة التي كان فيها. قال لليلى عبر الهاتف باقتضاب إنه سيأتي إلى بيت أهلها في الزعفرانية وليحصل ما يحصل. ظلَّت تتوسَّل به أن يؤجِّل هذه الفكرة، إلا أنه أقفل الهاتف وأخذ مفاتيح سيارة عمَّار وخرج، مستفيداً من عودته ظهراً إلى البيت لينام القيلولة.

اتصلت به ليلى مرّة أخرى خلال الطريق وتوسَّلت به أن يلغي فكرة زيارتها. طليقها سيأتي اليوم بحجَّة رؤية أمِّها العجوز المريضة وسيخوض معها بكلِّ تأكيد جولة أخرى من المشاحنات التي كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تظنُّ أن الطلاق سيحسمها وينهيها، ولا تريد من علي أن يكون طرفاً يزيد وضعها تعقيداً.

كان صوتها مرتجّاً وكأنها تبكي. استسلم علي، وظلَّ يدور بالسيارة حتى الليل. تعشّى في مطعم على نهر دجلة في «العطيفيّة»، وردَّ على اتصالات أخيه القلقة مطمئناً إيّاه. استنفد طاقته في التفكير غير المجدي بوضعه وشعر بتعب سريع، وحين عاد تفاجأ بوجود الممرِّض العجوز محمد سدخان في صالة بيت أخيه.

- ٦ -

قال سدخان إنه جاء للسؤال عنه والاطمئنان عليه، وأيضاً لـ «توديعه». وحسناً أنه يراه يخرج ويقود السيارة ويتجوّل، لقد غادر أزمته الصحيَّة ويبدو بخير.

صعد معه إلى غرفته في الطابق الثاني. وحالما جلس على الكرسي البلاستيكي بجوار النافذة المطلَّة على حديقة الجيران حتى فتح يده المطوية على كُرَّاس صغير ثم ناوله لعلي:

- لقد طبعوا التعويذات السبع في كراريس من هذا النوع، وهناك من يوزّعها بالمجّان في شارع المتنبّي. هذا أخذته من أحدهم الجمعة الفائتة.

- هذا جنون أكيد.

قال علي وهو يُقلّب في الكراس متفاجئاً ويقرأ كلمات صديقه الراحل. وظلَّ سدخان صامتاً ينظر من وراء النافذة يُراقب انعكاس الأضواء على سعفات نخلة تتأرجحُ ببطء، ثم وكأنه تخيَّر كلماته بشكل جيّد ردَّ قائلاً:

ـ نعم، الذي يتعلّق بالأمل يمكن أن يغدو مجنوناً في سبيل ألّا يفقده.

قال ذلك وكأنه يقصد نفسه. مدَّد علي جسده على السرير من دون أن يشعر بالحرج من ضيفه العجوز وأغمض عينيه، كان متعباً بسبب جولة ما بعد الظهيرة، ولا يجد في نفسه طاقة لمتابعة قصّة التعاويذ من جديد. لقد انتهى منها. إنها من أخلاط الغيبوبة، غيبوبته هو، وآخر شيء ينتظره ويتمنَّاه الآن أن يتصرَّف شخصٌ ما كشريك في كوابيسه الشخصية؟!

ـ أريد أن أنسى هذه القصّة يا حاج. . أريد الرجوع إلى حياتي الطبيعيّة.

ـ لن تكون طبيعيّة أبداً.

فتح علي عينيه ثم رفع جسمه بهدوء وصار مستوياً على السرير متكئاً بذراعيه على ركبتيه ونظر إلى سدخان بطريقة تكشف عن إنزعاجه ورغبته، في الوقت ذاته، أن لا يُؤذي مشاعر العجوز. وحين شعر سدخان بأن علي صار منتبهاً له أكثر استأنف كلامه:

ـ لقد مررنا أنا وأنت بالعوالم الست كلّها. لا تستطيع أن تنكر هذا. لو كان الأمر تجربة خاصة لكان لك أن تقول إنها أضغاث أحلام ومن آثار الغيبوبة الطويلة. لكن هل أذكِّرك بكلٍّ ما جرى بيننا، بأحاديثنا المشتركة؟ كيف ترى أنها مجرد أحلام وأنا مررت بها أيضاً؟! فسِّر لي ذلك؟

ـ أنا أتذكَّرها لأنك قضيت وقتاً طويلاً عند رأسي أثناء الغيبوبة تروي هذه الحكايات العجيبة. وأختلط الأمر عندي. إنها قصصك أنت وأنا تمثّلتها داخل ذهني الغاطس في الغيبوبة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضحك سدخان من ردِّ علي ولم يُعلِّق عليه. بدا واضحاً له أن علي لا يريد الانجرار معه لخوض هذا الحوار.

ـ لماذا تضحك؟ أو كي.. هناك عوالم سبعة وقد خُضنا غمارها سويةً، وماذا بعد؟

قال علي فردَّ عليه سدخان مصحِّحاً:

ـ ستة عوالم فحسب.

ثم أكمل وهو يؤشر على أصابع يده:

ـ العالم الذي نحن فيه الآن. عالم قصي صدام حسين، عالم فالح الأكتع، عالم الانقلاب العسكري، عالم اتحاد الشركات، وعالم السديم. وهو العالم السادس. لقد أفلتنا العالم السابع ولم نمر به من دون سبب واضح. وهذا في الحقيقة واحد من أسباب مجيئي إليك اليوم. أريد سؤالك عن العالم السابع. هل لديك فكرة عنه؟

ـ لا أدري، ولكن لا أظن أنه سيكون مختلفاً بشيء عن بقية العوالم، مسارات حزينة أخرى. مصائب أخرى مختلفة.

ردَّ علي، وهو يُساير قناعات الممرِّض العجوز.

ـ لا.. ربما هو العالم المثالي الذي كُنَّا نبحث عنه. لديك خمسة عوالم متماسكة وتكاد تكون متشابهة في محتواها، ولديك عالم السديم، العالم الرخو جداً، وما دام عالماً رخواً فلا بدَّ أن يُناظره عالم معاكس؛ عالم صلد وصلب.

ـ ربما.

قال علي شاعراً مع نفسه أن ما يسمعه يشبه منولوجاً خاضه مع نفسه فيما سبق، ولا جديد تماماً فيما يسمعه سوى تعزيز أكثر لسلطة البحيرة اللزجة التي هرب منها. نهض ليبحث عن سجائره في حقيبته

الجلديّة الصغيرة. وحين وجدها وأشعل واحدة انتبه إلى أن العجوز سدخان كان واقفاً وكأنه يهمُّ بالمغادرة.

ـ لقد صارت التعويذات الآن في أيدي الجميع، وربما نحن مقبلون على فوضى، أو سيهرب الجميع، كما كنت تقول في برنامجك الاذاعي الليلي.

ـ هذه التعويذات في هذا الكُرّاس محرَّفة وفيها اضافات، وهي أطول بكثير من تلك التي كتبها الدكتور واصف، كان يمكن أن تشغل صفحتين في دفتر مدرسي على الأكثر. ثم إنني كنت وقتها أمزح يا صديقي. شبه سكران وأهذر بأيٍّ شيء فقط من حرقة قلبي، أما الآن فما عدت مهتمّاً. ثم ما الذي يؤدي إليه الهروب الجماعي من هذا العالم؟ سيفقدون ذواتهم المتفرِّدة ويتحوَّلون هنا إلى خرفان في قطيع. ولكن، أليس هذا واقعاً نعيشه هنا أصلاً؟!

ـ ٧ ـ

نزل علي مع سدخان إلى الطابق الأرضي ثم رافقه سيراً إلى الخارج. وبعد بضع دقائق توقّف العجوز عند رصيف الشارع ومدَّ يده إلى علي مصافحاً:

ـ أنا كنت أريد الاطمئنان عليك، فلربما لن نلتقي ثانيةً. سأقوم الليلة بمحاولة للبحث عن العالم السابع... أتدري.

قال سدخان وهو يرفع وجهه مبتهجاً بوجه علي وكأنّه إلتقط للتوّ فكرة نادرة:

ـ يُخيّل إليَّ أحياناً.. أن ترتيب العوالم غير صحيح.. لا يبدأ تعداد العوالم منّا. العالم السابع ربما هو العالم الأصلي والواقعي، ربما هو العالم الذي، بغض النظر عن أي شيء، يفترض أن نعود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إليه، عالمنا الحقيقي. ونحن الآن في غيبوبة عالم شبحي، وعلينا أن نستيقظ منه.

ـ الآن تتكلَّم وكأنك الدكتور واصف في أيامه الأخيرة.. إحذر أيّها العجوز!

قال علي ساخراً، قبل أن يغادر سدخان ثم بعد بضعة خطوات إلتفت وقال رافعاً صوته:

ـ تذكّر. لا تمحُ باب الطباشير المرسوم على الحائط. أنت لا تقدّر كيف أنه انقذك من الموت المحقّق أكثر من مرّة، وربما تحتاج هذا الباب في المستقبل.

الفصل العشرون

بَريدُ المَوْت

ـ ١ ـ

كان «أمير» أخي الوحيد. مع خمس أخوات. كنت الأخ الأكبر، وكان ترتيب أمير ما قبل الأخير، مع أخت توأم «ريم» جاءت بعده بدقائق. وظهر بوضوح بعد مدّة أنها تعاني من مشاكل صحيَّة، ورافقتنا العلاجات والأدوية منذ شهورها الأولى.

أمير ساعدها فيما بعد على الاستمرار بالحياة. أو هكذا يحبّ أن يصوّر لنفسه. غالباً ما كان يرافقها في كلِّ تفاصيل حياتها. جعلها تُكمل دراستها. كان يرافقها أينما تذهب. كان مصدر قوّتها، وأيضاً، بشكل من الأشكال، مصدراً للحياة في بيتنا ذي المئة وأربع وأربعين متراً في قطاع ٣٣ في مدينة الثورة.

لن تفهم يا علي أبداً كيف كُنّا نعيش. ما هي الوسائل التي اتبعتها أمّي من أجل أن تضع طعاماً على المائدة ثلاث مرّات في اليوم، في عائلة من ثمانية أنفار، قبل أن يتوفى والدي مبكراً بالسكتة القلبية وهو جالس أمام باب البيت يتابع حركة الناس، كما هي عادته، منذ أن تقاعد من عمله في معمل السكائر الحكومي.

كان يدخِّن بإفراط. ترى السيجارة في يده على الدوام حتى وان لم يسحب منها نَفَسَاً. كلُّ الصور الجماعيّة بالأبيض والأسود التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لدينا في صندوق العائلة يبدو فيها أبي وفي يده سيجارة نصف محترقة. وجدنا ثقباً واسعاً في دشداشته بسبب يده المسترخية في حِجْرِهِ مع عقب سيجارة سقط منها وصنع هذه الحفرة، وحسناً أن النار توقّفت لسبب مجهول ولم تُحرق جسمه كلّه.

أول سؤال غريب أتذكّره من أمير، هو عن ارتباط المهنة بعادات الشخص الذي يمتهنها. فما دام أبي يدخّن بإفراط بسبب عمله السابق في معمل السجائر، فإن المتوقّع أن تُصاب أمّي بمرض السكّري مثلاً لأنها كانت تبيع الحلويات على بسطيتها أمام باب البيت. كذلك فإن الجندي، حين يحينُ وقت موته، حتى بعد انتهاء الحرب، سيموت بإطلاقة من رصاصة ما، بسبب شِجَار، أو ربما عن طريق الخطأ بسبب عدم الانتباه أثناء تنظيف السلاح.

أمّا رجلُ الدين، فإن اللّه يتكفّل بإماتته. يتبع اللّه طريقة إلهية في أخذ روحه، ولا يستخدم الوسائل المعتادة البشريّة جداً في القتل والموت. كأن يرفعه إليه في السماء مباشرةً، كما حصل مع نبي اللّه إدريس.

هكذا أخبرتني أمّي عن مؤذّن «الحُسينيّة» التي في رأس الزقاق. لقد وجدوه مسجّى على سجّادته في صلاة الفجر، بعد انتهائه من الآذان. لم يكن يحضر الكثيرون في تلك الأوقات. شخصٌ واحد دخل ورأى المؤذّن على هذه الهيئة المقدَّسة. ميتاً على سجّادة صلاة الفجر.

كيف سأموتُ أنا؟ لم أكن قد امتهنت عملاً محدَّداً. تركتُ الدراسة مبكراً حتى أعفي أمّي من أعباء المعيشة، مع مرتب تقاعد شحيح، وأبناء يكبرون وتكبر طلباتهم.

لقد طلبت «ريم» ذات يوم، وبإلحاح أن تشتري كماناً لتعزف

عليه. لم نكن نرفض لها طلباً، ويبدو أن منظر عازفات بعمرها على التلفزيون كان قد استفزّها، بالاضافة إلى أنها أصلاً لم تكن تُشارك فتيات بعمرها ألعابهن المعتادة. لذا رغم الطلب الغريب وغير المتوقّع فإنه من الممكن أن تشغل نفسها بهذه الآلة الموسيقيّة.

كان طلبها أمراً مهمّاً، ولكني لم أعثر على كمان للبيع، حتى أخبرني أمير ذات يوم بأن عائلة في القطّاع نفسه الذي نسكن فيه لديها آلة عود قديمة، كان يعزف عليها ربُّ الأسرة قبل استشهاده في الفاو. ولا أحد مُهتمّاً في عائلته بالاستفادة من هذه الآلة.

جرَّبت ريم على مدى أسبوعٍ العزف على العود، وفشلتْ في استخراج شيء ممتع من ضرباتها العشوائيّة على الأوتار. ظلّت تعبثُ بالعود لشهر كامل ثم أهملته. حتى جاء أمير وصار يعزف أمامها بضربتين منتظمتين على الأوتار. كان قد انتبه لعازفين يظهرون على التلفزيون مثل علي الإمام ومنير بشير، وتعلّم منهم طريقة احتضان العود، وما يفعلون بالريشة وكيف يضربون بها على الاوتار، ولكنه لم يكن يعزف بشكل فعلي. في النهاية بدتْ هذه الآلة الموسيقيّة مجرد أداة لشغل جانب من الوقت الكثير الذي يقضيه أمير مع ريم خلال اليوم.

بعد سنوات، كان المشهد ذاته بين ريم وأمير قد تطوّر إلى شيء لم يكن يتوقّعه أحد. كُنَّا في منتصف التسعينيات. أمير طالب في المرحلة الثانية في معهد الدراسات النغميّة، وريم تُكمل سنتها الأولى في كلية الآداب جامعة بغداد.

كانا يجلسان في الصالة مساءً، يُطفئان التلفزيون. أمير يعزفُ وريم تُغنّي. لقد طوّرت خلال سنوات قدراتها، وصارت تغنّي بشكل جيد. كانا يشكّلان ثنائيّاً جميلاً. غير أنهما لم يكونا يُقدمان وصلتهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفنيّة أمام أحد، ما سوى أفراد العائلة، التي تناقص عدد أفرادها بسبب زواج أخواتي، ولم يتبقَ في النهاية سواي وأمّي مع ريم وأمير.

اللحظة الحاسمة جاءت حين قرَّر أمير وريم أن يظهرا للعلن في حفل للتخرُّج بكلية الآداب. رفضت أنا وأمّي هذا الموضوع بشدّة. إنه شيء يشبه الفضيحة. ولكن أمير ظلَّ مُصرّاً على أنهما يُقدّمان فناً راقياً، مجموعة من الأغنيات الخمسينية، وليست هذه الأغنيات الشائعة اليوم بسبب تلفزيون الشباب.

لم أكن معترضاً على الظهور العلني بحدِّ ذاته، وإنما مجازفة أن يكونا تحت أعين الآخرين. والعروض والإغراءات التي يمكن أن تظهر أمامهما. ونحن في بيئة فقيرة. كنتُ أخشى من التحوّلات الممكنة التي قد تغيِّر نمط حياتنا إلى مسارات غير مرغوبة. ولكن، ماذا أفعل مع أخت بجسد ضعيف قضتْ نصف حياتها مُختليَّة بنفسها في البيت. مع بنت ترى نفسها أقل حظَّاً من غيرها. والرفض قد يؤدي إلى انتكاسة كبيرة لديها، أكثر مما يمكن أن يحصل مع بنت بكامل صحتها.

لم تكن التجربة مثلما توقّعت، كان الارتباك واضحاً على ريم، ولم يعزف أمير بشكل جيد، بسبب الخجل والارتباك أمام العيون المبحلقة ووجود خلل في الأوتار كما ادَّعى، ولم يكن الجمهور، وجلُّهم من طلبة الجامعات، مُنشدَّاً إلى الأغنيات التي قدّماها، وطالب بعض أصدقائهم ساخراً أن يرافقهم عازف على الايقاع، ويقدموا أغنيات أحدث.

لم تنجح التجربة ولكنها لم تفشل أيضاً، غير أن الأثر الذي خلَّفته هو شعور أكثر بالعزلة لدى ريم، ولأنها مرتبطة نفسيّاً مع أمير، فكان هو الآخر واقعا تحت تأثير المشاعر السلبية التي كانت تسيطر

على ريم، إلى الحدِّ الذي صارت ترفض فيه أن تشارك أمير في الجلسات المسائيّة المعتادة للتدريب على الأغنيات القديمة. كانت تقول له إنها منشغلة بالقراءة، تريد إكمال هذا الكتاب الجديد. تريد أن تكتب، تتابع فيلماً جديداً على التلفزيون. . إلخ.

- ٢ -

كُنَّا في تلك الفترة نعيش «نسياناً للّه». لم نكن نبحث في أيِّ عمل نقوم به عن الشرعيّة الإلهيَّة. كان لدينا، أنا وآخرون من أمثالي، تصوّرات عامة يختلط فيها الدين مع العرف الاجتماعي مع العادات والأوامر الاخلاقيّة التي نتعلُّمها داخل البيت والأسرة. كان خليطاً مرناً من الثقافة الشعبيّة، الدين جزء منها ولكنه ليس مركزها. وكمثال على ذلك فإن الذنب وارتكاب المعاصي كان ممارسة شعبيّة شائعة، تُغلّف عادةً بوعود تقطعها الذات على نفسها بالتوبة مستقبلاً. هكذا تتمُّ ممارسة الحياة بكلِّ أشكالها، تلك التي تتفق مع الدين أو لا تتفق، مع تأجيل مستمرٍّ للتوبة. يقين بالتوبة وفائدتها وأهميتها، ولكن ليس الآن. . ليس الآن. . ليس الآن. ليس في هذه الحياة ربما. . !

كنتُ قد حصلت على فرصة للعمل في الأردن، حين كنت أرى أمير يخوض نقاشات كثيرة مع شباب من منطقتنا السكنيّة، زملاء الطفولة والدراسة الابتدائية والثانوية، وآخرين غيرهم، يجتمعون على لعبة كرة قدم مثلاً، أو يشربون الشاي في المقاهي، ويطلبون من أمير ألّا يلعب الدومينو أو الطاولي والشطرنج لأنها ألعاب شيطانيّة محرَّمة.

كنت راضياً بأن لا يُضيّع أمير وقته وأن يركِّز على دراسته، ولم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكن أتوقع أشياء أبعد. كان وضع الأسرة مستقراً حين سافرتُ طلباً للعمل. كنت أفكِّر بإنقاذ العائلة من هذا البيت الذي أكلته الرطوبة والقدم وصار آيلاً للسقوط، ولم يكن لدينا من أموال سوى ما يساعدنا على العيش والأكل والشرب وبعض المتطلَّبات الأخرى البسيطة، وليس لترميم بيت أو بنائه من جديد أو الانتقال إلى بيت أفضل.

كان البيت الجديد هو هدفي، ولو كلَّفني هذا سنوات من العمل المرهق والمزعج وتحمّل الإهانات.

حين عدت في أول زيارة لي كان هناك شيئان قد حدثا في غيابي؛ الأول هو تقدُّم شابٍ لخطبة ريم، زميل لها في دراستها، وكانوا ينتظرون عودتي من أجل أن يكون الأمر رسميّاً ومعلناً، والشيء الثاني هو التحوّل الذي حصل عند أمير. كان بِلحْيَةٍ ناميةٍ داكنةٍ وملابس رثّة، وكآبة عميقة تُغطي وجهه، بل وتصدر منه مثل إشعاع وتوتُّر على المحيطين به، فحالما يدخل أو يجلس حتى يتجهَّمُ الجو، وتغيب الابتسامات وتتلاشى روح المرح والدعابة، والتي كان أمير هو مصدرها الأساسي بيننا. لقد «تذكّر اللّه».

كنتُ أفسِّر الأمر في البداية أن هذا من تأثيرات انطلاق ريم إلى حياة كاملة، من دون الحاجة إلى عُكَّاز اسمه أمير. لقد فقد أمير جانباً من حياته التي اعتاد عليها، بكونه مفيداً وضروريّاً لريم. لقد استبدلته ريم الآن بعُكَّاز جديد.

لكني كنتُ مخطئاً. بالتأكيد لغياب ريم المحتمل في المستقبل تأثير بالغُ على أمير، غير أن السبب الرئيس في تحوّله هو نقاشاته المستفيضة على طاولات مقهى من دون دومينو ولا طاولي ولا شطرنج، مع شباب رافقوه طوال حياته، وصاروا الآن فجأةً

متحمِّسين لـ «اللّه» ويريدون من أمير أن يتذكَّره، ليس على وفق الصورة التي نعرفها عن اللّه، وإنما اللّه الرسمي والقانوني المسطور في الكتب.

كان هناك معيار محدَّد لإنجاز التحوّل عند أمير، وهو أن يُكسِّر آلة العود التي عنده، ويترك العزف بشكل نهائي. لن يدخل هؤلاء الأصدقاء إلى قلب أمير ليعرفوا هل حَلَّ اللّه به أم لا، ولن يستطيعوا القيام بشيء مثل هذا، ولكنهم سيرتاحون حين يرون يديّ أمير فارغة من الآلة التي اعتاد ملمسها منذ أن كان مراهقاً.

في الحوارات التي دارت بيننا سمعته يتحدَّث بلغة جديدة، وشعرت أحياناً أنه يُحاصرني في زاوية ضيقة، في محاولة منه لجعلي أتذكَّر اللّه. ولكني لا أشعر أنني نسيتُ اللّه في يوم ما، فإن لم أكن أمضي على أوامره ونواهيه بشكل كامل، فعلى الاقل أنا أشعر بالذنب تجاهه حين أخطئ، ولا أرغب أن يُحاسبني على أخطائي سوى اللّه نفسه. بإمكاني أن ألكُمَ أيَّ شخص يتجرَّأُ لمحاسبتي على أسنانه، حتى لو كان هذا الشاب الأنيق الملتحي ابن مؤذِّن الحسينيّة الذي حلَّ محلّ أبيه منذ أن توفي في ذلك الفجر المقدَّس. وهو على ما يبدو كان يشبه القائد في مجموعة الأصدقاء القدامى لأمير.

لم يكن يهمُّني الأمر كثيراً لو أن أمير كان مرتاحاً وسعيداً. لكني كنت أهجسُ بالصراع الذي كان يعيشه مع نفسه، بدليل أنه كذب على مجموعته وأخبرهم بأنه حطَّم آلة العود القديمة، غير أنه ظلَّ يحتفظُ بها في غرفته، وإن كان بطريقة مهينة، ملفوفةً بكيس طحين فارغ ومرميّة تحت سريره الحديدي.

كنت مستعداًَ وقتها أن أضرب إبن المؤذِّن في الزقاق أمام الجميع وأدميه وربما أجعله معاقاً إن كان هذا يساعد على تخفيف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التأثير السلبي الذي كان يقوم به تجاه أمير. ولكن هذا سيجرُّ مشاكل عائليّة، بالاضافة إلى ان الدولة في تلك الأوقات كانت تُرحِّب وتشجِّع تحول الشباب إلى الدين. كان الأمر سيغدو وكأني أتجاوزُ على رغبات الدولة. وبعد هذا وذاك بدا لي أمير وكأنه أمسك بالمقود بنفسه، ولم يعد ابن المؤذِّن أو غيره مهمّاً، كان يُسرع وحده على الطريق الذي فتحه له هؤلاء الشباب. يُسرع بطريقة لا تجعلني ألحقُ به، أو أحاول التأثير عليه بشيء. لم أكن في الحقيقة أملكُ إجابات مختلفة. كنت أعيش حياة الذنب، وأتمنّى في أعماقي أن تأتي في وقت ما لحظة طهارة وصحو مثل التي يعيشها أمير، ولكن ليس الآن، ليس الآن.. ليس الآن. ليس في هذه الحياة ربما..!

- ٣ -

عدتُ من عمّان بعد ليلة رأس الألفيّة الجديدة ببضعة أيام. كان من الصعب أن أقطع عملي فجأةً للعودة سريعاً إلى بغداد. ولكن الخبر الذي تلقيته أنساني كلَّ شيء. لقد مات أمير بسبب سقطة من أعلى السلّم في البيت المتهالك الذي لم أنجح باستبداله أو ترميمه بعد. لقد قَتَلَ البيتُ العتيق أخي. عدتُ سريعاً، مع شعور بأنني ربما قد أفقد عملي بشكل نهائي بسبب هذه العودة المفاجئة التي تركت ربَّ العمل منزعجاً جداً وغير مصدِّق تماماً بحكاية وفاة أخي الوحيد.

لم ألحق بالجنازة ولم ألقِ نظرة أخيرة على أخي العزيز. كان الجيران وبعض الأقارب قد تكفّلوا بإجراءات الدفن بسرعة. لم يستغرق الأمر إلّا نصف نهار لينجزوا كلَّ شيء تحت وطأة تعليمات ابن المؤذِّن ومجموعته بعدم جواز مبيت جثّة الميت في البيت، وإكرامُ الميت سرعةُ دفنه وما إلى ذلك من كلام. لم تنفِّذ أمِّي رجائي

وطلبي على الهاتف بأن لا يفعلوا أيَّ شيء حتى أصل إليهم. لا بدَّ أن أرى أمير قبل دفنه. كنت سأعرف، بطريقة لا أستطيع تفسيرها، أشياء كثيرة بمجرد إلقاء نظرة أخيرة على وجهه الحبيب.

لقد بكيتُ طوال الطريق، وبقيت أبكي مثل طفل صغير لعدّة أيام لاحقة. قلَّبتُ كلَّ أشيائه حتى استنفد معها الذكريات العاطفية وخزين الدموع المرتبط بها. وجدت أمِّي تحتضن آلة العود التي كانت أكثر أوتارها قد تقطَّعت. ووجدت ريم صامتةً وباردة مثل تمثال وكأنها لا تعي ما حدث.

صافحت ابن المؤذِّن وأصدقاء أمير الآخرين في مجلس العزاء، وصوت في داخلي يخبرني بضرورة أن أقتلهم جميعاً. هم من قتلوه. بشكل أو بآخر هم من تسبَّب في ضعف ووهن أمير وتحوّله إلى كائن هشٍّ قريب من الموت أكثر من قربه من الحياة.

حين رجعتُ بعد سنتين إلى بغداد بشكل نهائي. كشفتْ لي أمِّي السرَّ الذي استطاعت مداراته بصعوبة. لقد شَنَقَ أمير نفسه ولم يسقط من السُّلّم كما ادَّعت أمام الآخرِين. ثم حكت لي عن كلامه ولقاءاته الأخيرة بأصدقاء جدد. كان قد ترك الدراسة في معهد الموسيقى وترك أيضاً مجموعة ابن المؤذِّن.

وفي محاولة للفهم انشغلت كثيراً بهذه القضيّة. عرفتُ اسماً واحداً من الأصدقاء الذين كان أمير يلتقي بهم قبل شنقه لنفسه. إنه سنان فتّاح، زميله عازف الكمان في معهد الدراسات الموسيقيّة، الذي يسكن في حي المنصور. بقيت أبحث وأتتبع هذا الشخص حتى عثرتُ عليه. كان قد تخرَّج منذ زمن ويعمل عازفاً مع فرقة لمطرب شاب جديد، يُغنِّي في الفنادق والمطاعم الفخمة. كان قريباً من أمير فعلاً، وكان هو مع مجموعة أخرى من الأشخاص هم آخر من التقى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بهم قبل أن يقدم على شنق نفسه في البيت. كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها عن شيء اسمه «جمعيّة المنتحرين».

ـ ٤ ـ

لقد أخبرتك سابقاً يا علي بمحاولاتي الانتقام منك. أنت السبب في تصعيد الصراع النفسي لدى أمير إلى الدرجة التي رغب فيها بمغادرة الحياة. لم يكن مؤهلاً لذلك. كان طاقة وشعلة حياة متوهِّجة. كيف لمثله أن يموت؟!

كانت هناك تفاصيل في الصورة العامة، ليست مهمّة كثيراً عندي. كان يحبّ بشكل سرّي بنتاً من زميلاته في المعهد، هي ذاتها البنت التي كان يعشقها سنان فتّاح أيضاً. كانوا زملاء ويعزفون سويّة، يخرجون ويدخلون ويتحدّثون ويأكلون ويشربون، كمان وعود وآلة كلارنيت. كانت هذه البنت تعزف بشكل جيد على الكلارنيت، وأبواها يرغبان أن تنضمَّ في يوم ما إلى الفرقة السيمفونيّة العراقيّة.

التفصيل الوحيد المختلف في هذه المجموعة من الأصدقاء هو الفقر الشديد لأمير. ومع ذلك لم تمنع الحالة الماديّة الجيّدة لسنان من التفكير بالموت وقتل النفس أيضاً. ما الذي يجمع شباباً من خلفيات اجتماعية مختلفة وظروف متباينة على تأييد فكرة واحدة؟ إنه صاحب الفكرة وقدرته على الاقناع. وهذا ما أنت مسؤولٌ عنه يا علي.

علمت لاحقاً أن سنان تزوَّج من عازفة الكلارنيت، ولم يُشارك في حفلة الموت الجماعي التي كنت تدعو إليها. وهذا ربما ما جعل أمير يندفع أكثر باتجاه فكرة الموت. سيرى هذه الفتاة كلما سمع عزفاً للكلارنيت في التلفزيون أو المذياع. ستُلاحقه، ولن يتخلَّص

منها إلّا بتخلُّصه من نفسه. ربما كان الأمر بهذه الطريقة. صرفت وقتاً كثيراً في ترميم القصّة المفترضة لما مرَّ به أمير في الأيام الأخيرة قبل موته. غير أني متأكِّدٌ أن السبب الأبرز هو غسيل الدماغ الذي مارسته على هؤلاء الشباب قليلي التجربة.

الكلُّ كان يُمارس غسيل الدماغ، من ابن المؤذِّن إلى خطابات الحكومة في التلفزيون، وحين نفرُّ منهما لنجلس على مقاعد مقهى ندخِّن الأرجيلة باسترخاء ونشرب الشاي تأتي أنت لتجلس معنا وتُمارس غسيل الدماغ لتقنعنا بفكرتك المدمِّرة.

أنت لا تختلفُ عن السلطة وابن المؤذِّن بشيء. كلُّكم تدعوننا إلى أن «نتذكّر» فكرتكم وننسى أنفسنا. وللأسف لقد نجحتم جميعاً بهذا الهدف.

أعفتني السلطة من عقاب ابن المؤذِّن حين اعتقلته في أواخر عام ٢٠٠١. وأعفاني الاميركان من عقاب السلطة حين جاؤوا واسقطوا النظام كلَّه. ولكنك أنت بقيت عصيّاً على العقاب.

ـ ٥ ـ

من بين كلِّ المفاجآت التي حصلتْ بعد ٢٠٠٣ كنت مندهشاً بدرجة أكبر تجاه الحال التي انتهى إليها ابن المؤذِّن. لقد خرج من السجن، وصار الجميع ينظرون إليه كبطل. يا إلهي. لماذا لم يعدموه؟ كانت السلطة تعدم معارضيها بشكل سريع ومن دون أيِّ رجفة في اليد أو وخزة في الضمير. ما الذي حدث لها؟ ربما أصيبت بالشيخوخة، أو ما كانت مهتمّة كثيراً بهذا التفصيل مع إحساسها بدنوِّ النهاية.

كانت الأجواء في تلك الفترة كما تعلم مجنونة تماماً، وشعرتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأن جزءاً من الجنون العام صار يتسرَّب إليَّ. بقيت أتابع ابن المؤذِّن، ولم أفهم ماذا أريد منه بالضبط. ربما أضربه أمام الآخرين حتى أدمي وجهه واكسر أسنانه. سيكون هذا الأمر مريحاً وكافياً بالنسبة لي، حتى وإن لم يفهم هو السبب وراء قيامي بذلك.

بقيت فترة طويلة أصارع نفسي في محاولة لفهم الدوافع التي تُحرِّضني على إيذاء هذا الشاب. ثم آمنت في النهاية أنني حتى وان لم أفهمْ فعليَّ أن أتصرَّف.

توضَّأتُ في البيت وخرجت فجراً متجهاً إلى الحسينيّة التي كان يؤذِّن بها. وكما توقّعت فإن هرجة الدين والتديُّن في الشارع لم تكن حقيقية جداً. لقد أصبحت السلطة والدين شيئاً واحداً، وبدأ سوق النفاق على أوسع ما يكون. ولكن، في ساعات الفجر الأولى، لا أحد يصدّق تديُّن الناس النيام.

كان ابن المؤذن وحده على سجَّادة الصلاة بعد أن فرغ من الآذان. دنوتُ منه وأنا أركِّب كاتم الصوت على مسدسي، توقَّفت خلفه للحظات متوقِّعاً أن ينتبه لوجودي، لكنه كان مستغرقاً بالصلاة. مددت المسدس باتجاهه وبحركة سريعة أطلقت عليه في قحف رأسه إطلاقة واحدة، ما دفع جسده للارتخاء إلى الامام ثم السجود. عدّلت رأسه المائل إلى اليسار وأرجعت ذراعيه الممدودين بشكل عشوائي، لجعله وكأنه في لحظة استغراق مع سجدة طويلة. تركته على هذه الهيئة وألقيت نظرة أخيرة عليه من باب الحسينية قبل أن أغادر. كانت ميتة مناسبة لرجل دين، كما في التصوّر الأول لأمير عن ارتباط الناس بالأعمال التي يمتهنونها.

ظلَّ المؤذِّن فيما بعد يُلاحقني في أحلامي فترة طويلة وأنا أطلق

عليه الرصاص من دون كاتم صوت ولكنه لا يموت، ويبقى يُلاحقني. شعرت في لحظة ما بأني لن أتخلَّص منه أبداً وأنني أقترب من الجنون. ولكني ما أن دخلت دوامة الأوضاع المضطربة، حتى بدأت أتحرَّر من مطاردته. لقد شرعت بقتل أشخاص كثيرين، لأسباب مختلفة، حتى ما عاد القتل مميّزاً. فقد هذا الأمر بعد عقد كامل من الاضطرابات ومشاركتي بها، أيّ متعة أو إثارة. لم يعد قلبي ينبض بدفق دم متسارع مثلما كان يحدث في البداية.

في تلك الفترة، ومع أجواء الهدنة وتراجع سوق القتل، والشعور بعدم الحاجة لي، كانت أفكار مجنونة تخطر على بالي. صرت أفكر بسنان وزوجته عازفة الكلارنيت. صرفت وقتاً كثيراً، من دون أن يعرف أحد، في البحث عنهما. حتى انتهى هذا البحث بمعرفتي أنهما هاجرا إلى خارج العراق. حصلت البنت الموهوبة على فرصة عمل في الخليج، في فرقة سيمفونيّة أو ما شابه، وأخذت زوجها وأطفالها معها.

كنت أريد، برغبة غير مفهومة، أن أصفّي معهما حساباً متأخّراً يتعلَّق بأمير. وهدّأتُ نفسي لاحقاً بفكرة أنهما لا بدَّ أن يعودا في يوم ما. سأكون بالانتظار إن لم يحدث لي طارئ خلال هذا الوقت.

- ٦ -

في تلك الفترة كنت أستمع لبرنامجك الإذاعي. كنت قد هدأت وبدأت أنسى علاقتي مع السلاح. صرت أهتمُّ بأسرتي وأمّي. نقلتهم إلى بيت فخم في البلديات، وأعيش من مرتّب جيد من وظيفتي التي حصلت عليها كجزء من حصَّة الحزب، الذي كنت أخدمه، من الوظائف الحكوميّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صارت متابعتي لبرنامجك الاذاعي جزءاً من طقس الاستعادة لأمير. ولكني لم أعد أكرهك تماماً. لستَ مسؤولاً بشكل فعلي عن رغبة أحد ما بالموت، ربما أنت ساعدت أمير بطريقة غير مباشرة للوصول إلى الهدف الذي كان يفكِّر به أصلاً. لكنك لم تُطلق النار عليه أو تربط حبل الأنشوطة التي شنق بها نفسه. حتى حصل ذلك اللقاء غير المتوقّع عند مدخل مطعم راوندوز بشارع السعدون. كان لقاءً وديّاً. ولكن تحفُّظك وخوفك والأسئلة التي كانت تتناثر على وجهك بدت واضحة جداً.

حين عدت إلى بيتي في حي البلديات، تنامى في داخلي شعور غريب. كان من الأفضل لو أننا لم نلتقِ وجهاً لوجه. لقد استيقظ كُرهي لك فجأةً.

بقيتُ أتابع برنامجك وشتائمك، ثم شعرت أنك تريد أن تنتحر. أنت تشتم بشكل مقذع كلَّ أؤلئك الذين يملكون جماعات مسلّحة ويستطيعون قتلك في الشارع بسهولة من دون أي محاسبة أو متابعة قانونيّة.

من الذي سيقوم بالمتابعة القانونية والقانون بيدهم والمحاكم والشرطة وكلّ شيء. هم ينطبق عليهم قول الشاعر «فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ». كانت عملية قتلك سهلة جداً. لكنك استغرقت لأشهر طويلة من دون أن يعتدي عليك أحد.

في بعض الليالي كنت أشعر وكأنك تنادي على قاتليك. لكنهم يتجاهلونك. يستخفُّون بك. يضحكون عليك. كنت ترغب أن تكون شهيداً، ولكنهم لا يريدون منحك هذا الشرف. لقد حزنت عليك وكرهتك وكرهت نفسي وكلَّ شيء. بسببك دخلت في دوامة مشاعر مختلطة وغريبة. صرت مدمناً على سماعك، وفي الوقت نفسه، كأني

أربّي بسماعي لك موقفاً غامضاً. لن يستطيع أحد، حتى زوجتي وأطفالي وأمّي العجوز، أن يفهمونه بشكل جيد.

كانت الأسباب التي تدفعني إلى القتل قد تناقصت بشكل كبير. مضت بضع سنوات وأنا لم أضغط على الزناد، حتى من باب تجربة السلاح. ولم يكن الأمر يُعجبني. لم تكن صفة القاتل المتقاعد تناسبني. ولكن لا يوجد سبب يُريح الضمير من أجل القتل.

أهملتُ سماع برنامجك الليلي لفترة ثم حين عدت، وجدتك وكأنك مصاب بالجنون، تقرأ تعاويذ سحريّة وتطالب الآخرين جميعاً بأن يقرؤوها ويرددون كلماتها بإيمان شديد قبل النوم حتى ينتقلوا إلى عالم آخر أفضل، أكثر عدالة ورحمة.

لقد فسَّرتُ موقفك بأنك أنت من كان يريد الانتقال إلى عالم آخر، أكثر رحمة وعدالة، وبالنسبة لي هذه صفات تنطبق على العالم الآخر، عند اللّه فقط. عن نفسي لم أكن واثقاً أن اللّه سيرضى عنِّي في حال انتقلت إليه. كنت أؤجِّل التوبة إليه على مدى سنوات طويلة، ولا أعتقد أنه ساذجٌ بحيث يُصدِّق نيَّتي الفعليّة بالتوبة. من الممكن أن يقول لي؛ سأضعك الآن في الجحيم ومارس هناك على مهلٍ هوايتك بتأجيل التوبة.

ولكن، من الممكن أن تحظى أنت بالعالم الآخر الجيد، شرط ألّا تقتل نفسك وتنتحر مثل أمير. أنا سألحق بأمير إلى الجحيم، وسأكون بجواره هناك. هذا يريحني. لا أريد أن أذهب إلى الجنة الفارغة من أمير.

بالنسبة لك، ولأنك جبانٌ وتخافُ أن تذهب إلى الموت بإرادتك، منذ ١٣ عاماً، فلن أصدّق أنك خلال العقد التالي ستكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شجاعاً. لن تأتيك هذه الشجاعة أبداً. كنتُ واثقاً من ذلك. وعلى أحدهم أن يقرِّر بالنيابة عنك هذه النهاية.

كنت تتعذَّب وراء مايكرفون الإذاعة. وكان من الضروري أن يتصرّف أحد. وهؤلاء الحُقَرَاء من الساسة وجماعاتهم المسلّحة لن يمنحونك الأمنية التي تريدها. إنهم أشدُّ حقارة من أن يقدموا ايَّ خدمة لأيِّ إنسان ما سوى أنفسهم.

لمحتك صدفةً قبل مغيب الشمس بدقائق تسير مع صديق لك في شارع السعدون، أثناء ما كنت مع صديق لي في السيارة الحكومية التي أستقلها. طلبت من الصديق السائق أن يستدير من الفتحة في نهاية الشارع ويعود إلى المدخل الذي كنت تتجهُ إليه مع صديقك. وصلنا بعد دقيقة أو أكثر ووجدناك واقفاً تتحدّث. لو كنت غادرت لما طاردتك. كان مجرد هاجس مرَّ سريعاً في ذهني، وكلُّ ما قمتُ به لاحقاً بدا وكأنه أشبه بالحلُم أو عملاً قمتُ به دون وعي كامل.

كنت هناك واقفاً تنتظرني، وما إن ابتعد صديقك بعشرين متراً. حتى صرتُ بمحاذاتك، فاستللتُ مسدسي ووجهت إطلاقة واحدة إلى رأسك. كنت رامياً ماهراً ولا أخطئ. تفاجأ صديقي السائق من عملي، ولكنه لم يقم بأيِّ ردَّة فعل، لأنه من رفاقي القدماء في السلاح والمهمات الغريبة مثل هذه. ربما توقّع أن لديَّ أمراً ما وها أنذا أنفّذه.

سقطت على الارض سريعاً. كانت إطلاقة قاتلة كما تصوّرتها. وما أن أثار صوت الإطلاقة الناس القليلين في الشارع وبائع السجائر عند الرصيف القريب وفزع صديقك الذي عاد إليك، حتى كبس صديقي على دوَّاسة البانزين وغادرنا مسرعين.

لم أستطع تقديم جواب مقنع لصديقي الذي ظلَّ يعود ويسألني

على مدى أيام عن هوية القتيل ونوع المهمّة التي قمت بتنفيذها، وحين قلت له إنني أوصل بريد الموت الذي كان ينتظره هذا الرجل منذ ١٣ عاماً ليس إلّا. ظلَّ صافناً بوجهي ثم أطلق ضحكة مجلجلة. كنت أستعيد في عينيّ الصديق صورتي التي نسيتها لبضع سنوات. صورة رجل لا يخاف من الموت ويصنعه للآخرين حين الضرورة.

- ٧ -

أنتَ تراني هنا فيما تسمّيه عالم السديم، وربما هذا بسبب أنني سمعتُ زميلةً لك في الاذاعة، بعد غيبوبتك ببضعة أسابيع وهي تردِّد ذات التعاويذ التي كنتَ تقرؤها. كانت تستذكر آخر ما قرأته أمام مايكرفون الإذاعة قبل إصابتك. ويبدو أنني بمعونةٍ منها عبرتُ بابَ السديم.

لو كان أمير أمامي الآن، وكجوابٍ على سؤاله الطفوليّ عن مهنتي ونوع النهاية المرتبطة بهذه المهنة، لكنتُ أخبرته: أنا قاتلٌ يا أخي، وقد انتظرني أخوة لإبن المؤذِّن ذات ليلة وأردوني قتيلاً في الزقاق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الحادي والعشرون

عَالَمٌ سَابعٌ

ـ ١ ـ

كانتْ ليلى قد حجزت منذ أيام تذكرةً من مكتب الخطوط الجويّة التركيّة في شارع السعدون. ستكون رحلة طويلة ومرهقة حتى بيتها في ديترويت. ولداها عادا منذ مدّة من دراستهما الجامعيّة، وهي تتواصل معهما كلَّ يوم عبر الانترنت. أما طليقها فعَلِمَ بخطّتها للعودة، واطمأنَّ أنها بذلك ستبقى بُرغيّاً في حياته. وجدت نفسها، وهي في سيارة التكسي أثناء ذهابها للقاء الأخير مع علي، ملزمةً بالاتصال بطليقها. لم ترغب بسماع صوته، لذا بعثت له برسالة نصيَّة «ارتح الآن. سأسافر غداً الساعة ١١ صباحاً. دَعْ رجالك يأخذون استراحة من مراقبتي». ذهبت الرسالة ولم تتلقَّ ردّاً منه.

ظلَّت جالسةً لنصف ساعة على واحد من المقاعد الخارجيّة في كافتريا «جايخانة» حتى جاءها علي بسيارة أخيه عمَّار. نزل من السيارة وجالَ بعينيه سريعاً ومن بعيد على المقاعد وشاهد هيأتها وهي منحنيّة على هاتفها المحمول تعبثُ به. خفق قلبه مثلما في كلِّ مرّة يشاهدها، وحين إلتفتت إليه بوجهها، زادتْ ضرباتُ قلبه؛ إنها بهيأتها نفسها كما داخل أحلامه المعقّدة. غمره فرحٌ طريٌّ كأنه لمس

بيده فاكهةً مقطوفةً للتوِّ من الشجرة، واستشعر نبضاً غامضاً مدفوناً في أعماقه، هو مزيجٌ من الدهشة واكتشاف شيء مفقود.

كان الجوُّ يلسعُ الوجه ببرودة خفيفة تخمدها أشعة نهارٍ صافٍ. صافحها وودَّ لو طبع قُبْلَةً على خدِّها أو احتضنها. كان بحاجة لذلك. لكنه سايرَ حذر ليلى وكبح نفسه. طلب منها أن يدخلا إلى صالة الكافتريا، سيشعر معها هناك خلف الأرائك وزجاج واجهة المقهى، بحريَّةٍ أكبر، لكن ليلى أصرّت أن يبقيا في الخارج.

ـ دعنا نتنفَّس الهواء هنا.

ـ ويراقبنا رجال زوجك بحريَّة أيضاً.

ـ أنت تحتاج إلى الشمس. . بشرتك شاحبة.

ابتسمت باقتضاب. وظلت تتملّى وجهه وترى فيه علامات المكوث الطويل في السرير. كان ضامراً بوجنتين غائرتين. أخبرها بأنه صار يُعاني من جملة عوارض غير معهودة لديه سابقاً. ضعف مفاجئ في السمع أو البصر، مشاكل في الجهاز الهضمي، ربما بسبب الخمول في معدته التي لم يدخلها طعام حقيقي طوال أسابيع. وأحياناً تُغطي الظلمة نصف المشهد الذي أمامه، وكأنَّ أحداً ما وضع حاجباً على عينيه. لا يشعر بالإجمال أنه بخير، رغم أن الطبيب الذي يُراجعه يخبره بأن حالته تتحسَّن. ولكن، ما هو معيار التحسُّن الفعلي؟ إنه لا يرى نفسه بخير، ها هنا داخل روحه على الأقل.

ـ هل كنتِ جادةً بنوايا الموت لزوجك؟ شعرت وكأنك تُقدمين لي عرضاً.

سألها مغيِّراً دفَّة الكلام عن نفسه، فردَّت:

ـ أنا مجنونة نعم، ولكن ليس إلى هذا الحدِّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت ذلك ثم سرحتْ بذهنها وكأنها لم ترغب باستذكار زوجها. تأمل علي هيأتها، بدا جسدها مشدوداً مع امتلاء بسيط، وشعرها ما زال ناعماً وأسود كما هو شعر هند كامل في الثمانينيات. ما زالت تعتني به جيداً. ورغم الآثار التي خلّفها الزمن على وجهها ويديها، إلّا أنها ظلَّت قريبة من صورتها القديمة لزميلة الدراسة الجامعيّة، بعينيها المبلَّلتين وابتسامتها التي تكشفُ عن أسنان دقيقة. هكذا كانت وما زالت، أو ربما هي رؤية علي التي تريدها على هذه الهيأة، أما علي نفسه فتغيَّر كثيراً، خصوصاً مع تجربته القاسية الأخيرة. ولم يقنعه كلام ليلى بأنه ما زال على صورته القديمة.

قال لها إنه يتفهَّمُ وضعها، وهو معها في أيِّ قرار تتخذه. ويأسفُ لأنه أجبرها على هذا اللقاء، ولكن عليها أن تُصدِّق أنه، بالإضافة إلى رغبته القويَّة بأن يكون بجوارها على مدار الوقت، فهو أيضاً لا يريدها أن تغادر من دون لقاء أخير، يساعد على إزاحة كلِّ الخيالات والأشباح المرتبطة بها والتي رافقته خلال سبعة أشهر ماضية. هذه الصور الشبحيَّة التي تحدّث عنها، بكلِّ ما فيها من تفاصيل غريبة وعجيبة، خلال اتصالات هاتفيّة سابقة مع ليلى.

طلبا كوبي نسكافيه ساخنة، واستمرَّا يثرثران. سحبتْ سيجارة من علبته على الطاولة وصارت تدخِّن من دون أن تبلعَ الدخان، ومع نفثِّ الدخان صفنتْ قليلاً ثم نظرت إلى علي قائلةً:

ـ أتعرف.. عندما كنتُ أسمع برنامجك الإذاعي أثارتني التعويذات السبع. كانت قصائد جميلة، وكنت أعتقد أنك أنت من ألَّفها.

ـ هل جرَّبتِ استخدامها؟

ضحكت ليلى وهي تضرب سيجارتها على حافَّة المنفضة:

ـ أنت فعلاً بحاجة إلى فترة نقاهة أطول يا علي. ليس من إصابة رأسك، وإنما من كمية الأوهام التي غطست فيها.

إنحنت باتّجاهه وصارت عيناها أمام عينيه وقالت:

ـ أنا كنتُ أعرف دكتور واصف جيداً مثلما كنت تعرفه أنت. صحيح إن علاقتك به أقوى، ولكني عرفته. الرجل كان يريد ضخَّ طاقة إيجابية فيك. أعطاك هذه التعاويذ كي يرفع من معنوياتك. إنها نصائح وليست تعاويذ سحريَّة. من المؤكَّد هو من ألَّفها.

ـ آه.. ممكن طبعاً.

قال علي وهو يريح جسمه على الكرسي ويرسل نظره إلى البعيد. وكأنه يسترجع في ذهنه صوراً بعيدة. فما مرَّ به من الصعب أن يُشاركه فيه أحد حتى لو كانت ليلى: شيءٌ يشبه تجارب المتصوِّفة في الشهود، يمرُّ بها صاحب التجربة وحده، ولا يستطيعُ نقل تجربته إلى الآخرين. عملية نقل التجربة ستكون عملية تشويه وتخريب للتجربة نفسها. ورغم أن علي قادرٌ على تصديق ما قالته ليلى بشأن اختلاقات دكتور واصف، إلّا أن جانباً صغيراً في نفسه لا يريد أن يغلق كلَّ الأبواب. يريد لباب الخرافة والوهم أن يظلَّ مفتوحاً أيضاً، فمن دون هذا الباب كيف يُصدِّق أنه سينجو من طحن هذا العالم العنيف.

ـ إنه شيء يشبه كلام الأشباح الورديّة الثلاثة التي كانت تقف عند رأسي في الصلاة.

ـ أيُّ أشباح؟

سألتْ ليلى.

ـ لا عليك.. ألّا ترين؟.. أن نستمرَّ بهذه العلاقة، وأن نلتقي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في محطّات صنعتها المصادفات على مدى عشرين عاماً.. هو أمر خيالي أيضاً ويشبه الوهم، أليس كذلك؟

رمتْ ليلى حسرة مديدة، وصمتت وكأنها تبحث عن ردٍّ تاهَ منها. كانا متجاورين فمدتْ يدها لتعبث بشعر لحيته الداكن الذي خالطه الشيب، متجاهلةً أيَّ أعين فضولية للندل في الكافتريا أو العابرين على الرصيف بجوار المقاعد الخارجيّة والطاولات الخشبيّة الدائريّة الصغيرة التي كان يجلس عندها زبائن آخرون.

ثم وكأنها تذكَّرت شيئاً، سحبتْ يدها ثم تنفَّست بارتياح، قبل أن ترفع حقيبتها الكبيرة المركونة بجوار أرجل الكرسي. أخرجت دفتراً أسود صغيراً، وفتحته، ثم نظرت إلى علي مبتسمة.

ـ لقد أعطيتني إيّاه في آخر لقاء بيننا قبل أن تتعرَّض للحادث. ومنذ ذلك الوقت، أحياناً أرجع لأقرأ فيه.

ـ آه.. كنت أتساءل أين أضعتُ هذا الدفتر.. إقرئي.. ربما نعبر الليلة سويةً من باب التعاويذ.

قال علي ذلك بأسى، ولكن ليلى ابتسمت. ففي ظنّها ما زال هناك وقت حتى مجيء نهايات تراجيديّة مماثلة.

قبل أن تأتي إلى هذه المقهى كانت ليلى تفكِّر بأن الوقت الوجيز الذي سيستغرقه لقاؤها مع علي، هو وقتٌ مخصَّصٌ لعلي فقط، وستمنع ذهنها من الشرود. مجرد وقت تنفقه في الانصات لعلي والشعور به، وتدفع عنها أيَّ شيء آخر، مثل فكرة أن هناك من يراقبهما وهما جالسان هنا. وهي أصلاً أرادت البقاء أمام الأعين المراقبة في مكان مكشوف، حتى لا ينقل المخبرون تفاصيل غير موجودة أو تخمينات تُعظِّم من شكوك طليقها. ورغم إصرارها على القطع مع أيِّ شيء خارج جلوسها هنا فإنها أدركت بمضي الوقت

أنها لم تكن مع علي مئة في المئة. وأثناء ما كانت ترشفُ من كوب النسكافيه، أو حين تسمع لعلي يروي تفصيلاً مرَّ في أحلامه، أو عمّا يُخطط له في الأيام المقبلة، كان تحضر في ذهنها بثقل مزعج صورةُ مسلّحين ينزلون من سيارة تقف بجوار الرصيف أمام الكافتريا فجأة، ليوجِّهوا إطلاقات مباشرة نحوها وعلي، بناءً على أوامر زوجها المجنون. تكرَّرت الصورة ذاتها عدّة مرّات بأشكال مختلفة، وذهب بصرها سريعاً، مرّتين أو ثلاث، إلى سيارات أجرة كانت تتوقّف على الرصيف المقابل للكافتريا للحظات ثم تغادر بعد أن ينزل راكبٌ منها. فقدت التواصل مع كلام علي أكثر من مرّة، وربما أحسَّ علي بذلك فصمت مكتفياً بالنظر اليها، راضياً بذلك رغم أيِّ شيء، حتى من دون الحاجة لسؤالها عمّا يشغل ذهنها، فهو يكاد يعرف كل شيء.

كانت ترغب أن يستمرَّ لقاؤها مع علي إلى وقت غير معلوم. أن تبقى تعبث بأصابع حبيبها المرتاحة على ركبته. تمدُّ يدها لتمسحَ على شعر ساعده، تستعيد بهذه الحركة ذكريات ما من لقاءاتهما الأخيرة في شقّة علي، قبل حادثة إطلاق النار وفاصل الغيبوبة الطويل. جزءٌ منها يشتاق لهذه الأوقات، ولكنها لا تريد أن تثير انتباه علي لهذا الأمر. ليس لأنها لا ترغب بذلك، وإنما لإدراكها أن أيَّ تواصل جسدي بينها وعلي في هذه الأوقات سيجعل رحلتها بالعودة إلى ديترويت صعبة ومؤلمة، خصوصاً وأنها، رغم الأمل بأن ترى علي مرّة أخرى، إلّا أنها تعرف أنها تبتعد الآن. تبتعد مرّة أخرى، ولن تستطيع الجزم مع نفسها بأنه لن يكون ابتعاداً تامّاً هذه المرّة.

صار الجوُّ أكثر برودة، وشعرت بحزن أن الوقت كان يمضي بسرعة. كان من الواضح لديها أن علي ليس بصحَّة جيدة، وصارت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفكر بطريق عودته هو إلى البيت. ظلَّت الأشياء التي تخرِّب عليها عزلتها الجميلة عن العالم داخل «الفقاعة الزجاجية» مع علي تتراكم أمام عينيها. سحبت سيجارة نحيفة من علبة سجائر علي وأشعلتها، رغم أنها لم تسحبْ أنفاساً منها وتركتها تشتعل في يدها، ولكنها رغبت بعمل شيء يُفرّغ الانفعالات التي تجمَّعتْ في صدرها في تلك اللحظة.

- إقرئي يا ليلى.

قال علي، منبّهاً إيَّاها إلى الدفتر الصغير الذي كان يسترخي في يدها الأخرى. وضعت السيجارة على حافّة المنفضة، ورفعت مجلد الدفتر الصغير وصارت تقرأُ في صفحة منه بنبرة متمهِّلة، وكأنها تتذوَّق الكلمات التي تنطقها، مصدقةً للحظة واحدة تعرف أنها لن تتكرَّر لاحقاً، بما تقوله هذه الكلمات.

- ٢ -

* لقد أخبرتني يا «آنو» يا إله السماء وكبير كلِّ الآلهة:

«شاگن هول سا دوگ پوساگ دول، إيگن أيجيجال أبا شاگ داب سودگال، أون شوب.»

أن المحظوظ فقط من يصل للهوَّة السحيقة في ذاته،

ولكن الحكيم من يُطيل النظر إليها، لا أن يسقط فيها.

ها أنذا

أسقطُ في هوَّتي، مصدِّقاً كلامك،

وأدَّعي أنني أطيلُ النظر إليها.

* في ليلة منيرة قال لي «نان- سين» إله القمر:

«منزن كيشِر شو آنا إيجي گوب شارگاد، شو بالا آنا إيجي گوب كور شارگاد.»

أنت محكومٌ بما تراه عن العالم. غيِّر ما تراه يتغيَّرُ العالم.

وها أنذا أغيِّرُ العالمَ كلَّ ليلة، وكأنني «نان» نفسه وهو يستمرُّ بعجن قرص ضوئه المنير على سطح بحيرة هادئة.

* سطع «شماش» إله الشمس في عيني حتى أعماني بكلماته:

«توكُم منزن أك نو أتيكو بالا ني منزن شاگ هول، شودو منزن سوبار ألاد أمَ بار ساگ أوميا»

إن لم تكنْ لديك القدرة على إسعاد نفسك، فعلى الأقل في بدنك وروحك ولسانك ما يسعدُ الآخرين.

أشرقْ عليهم كلَّ يوم.. ولا تبخلْ بحياتك على حياتهم.

* لقد فهمت ما تحرَّك به لسانك الرقراق يا «آنكي» يا إله الماء، ولكني حين أخبرتهم قالوا إنهم سمعوا ما يشبه هذا الكلام منذُ زمانٍ بعيد:

«كيندو آ. أك هال نياگ. ساگ كال آ بار زال أك شو گي»

إسبحْ مع الزمن. لا تتعلَّقْ بالأشياء. قدِّر الزمن لأنَّه ينقضي ولا يُمكن استرداده.

* يا «إنليل» يا إله الهواء، إنهم يطلبون شخصاً عظيماً أو ملكاً ينطقُ بكلامكِ حتى يُصدِّقوه.

إنَّهم يرونني رجلاً وضيعاً. لقد مللتُ وتعبتُ من الكلام.

فأخبرهم بنفسك ما أخبرتني به وحفظته وصدّقته:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«زال نامتال ناموش، ناموش نامتال، كيودبا زيا زو كاب زِد دو»
ذوِّب الموت في الحياة، والحياة في الموت. حينها ستعرفُ الطعم الحقيقي لكليهما.

* لقد أطعتُ كلامكِ أيَّتُها الربَّةُ الأمُّ العظيمةُ «كي»:
«أك نو أك بار دنگر»
لا تصنعْ للمجهول إلهاً.
ولكنَّهم يقولون؛ إنَّ المجهول يهجمُ علينا من كلِّ مكان،
وإن لم يكنْ له وثنٌ فكيفَ سنراه.
أطعتُ كلامَكِ أيَّتُها الإلهة «كي»، وحطَّمتُ حتى أوثانك العزيزة.

* حاضرٌ في ذهني ولساني كلامُكِ يا «عشتار»:
«سي مونتونا، بار ساگ مونوس أبا منزن ديرگ»
إملأْ كرشَكَ، وأمتعِ المرأة التي في حجرك.
ولكنِّي لن أستطيع فعلَ شيءٍ إذا لم يسمعوا هُمْ أيضاً كلامَكِ.
لا أستطيعُ كسرَ رغيفِ خبزٍ دون أن أكونَ على مائدةٍ يجلسُ إليها الجميع.
لا طعمَ لقضمِ الرغيفِ وحدي في الظلام يا «عشتار».

- ٣ -

بعد أسبوعين من سفر ليلى، سمع علي خبراً صادماً؛ لقد قُتل زميلٌ له يعمل في التلفزيون. أكتشفتْ جثّته بعد ثلاثة أيام متعفِّنة في مطبخ شقّته بإطلاقة في الرأس من الخلف. لم يعرف أحدٌ، كما هو

متوقّع، من الذي استهدفه، الأمر الذي فاقمَ من جوٍّ الرهبة والفزع لدى كثيرين.

في وقت مقارب هرب «سلوان الصالح» طليق ليلى، إلى أميركا، ملاحقاً بتُهم بالفساد. وأشار بعض المعلِّقين أن سلوان تمت التضحية به في صفقة سياسيّة بين الأحزاب الكبرى، وإن إدانته العلنيّة جاءت لترضية الشارع المطالب بتقديم الفاسدين للقضاء، غير أن الحيتان الكبرى بقيتْ في مأمن. ثم عرضت إحدى القنوات التلفزيونيّة تقريراً يظهر متهمين بجرائم إرهاب، واعترف أحدهم بأنه كان على صلة بسلوان الصالح، وأنه نفَّذ بإمرته مهمّات تصفيةٍ لمعارضين للنظام السياسي.

بسبب هذه التطورات منع عمَّار أخاه من الخروج من البيت. هناك فوضى في الخارج، ولا يريد أن يرى أخاه الأكبر في تقرير تلفزيوني ممدَّداً على الرصيف.

ـ لا أريدك أن تُصدِّق أنك محظوظٌ وغير قابل للموت. أجلس هنا ولا تفعلْ شيئاً. إقرأ ودخِّن وحتى إذا أردت أجلب لك المشروب بنفسي وأعمل لك المزَّة بيديَّ، ولكن لا تخرج من باب البيت اللّه يرضى عليك.

رغم مبالغات عمَّار إلّا أن علي لم يكن يفكِّر بالخروج من البيت أصلاً. كان مشغولاً بمحاولة الاتصال بليلى للاطمئنان عليها. حسب مع نفسه ساعات الرحلة بالطيران، ثم خمَّن أنها وصلت إلى بيتها في ديترويت حين جرَّب أول اتصال بها عبر النت. كانت غير موجودة. ظلَّ مشغولاً بأمرها بعض الوقت ثم هدّأ نفسه بالقول؛ إنها ستتصل به بكلِّ تأكيد حين تجد فرصة لذلك، غير أنها لم تفعل. وحين سمع عرضاً باسم سلوان الصالح وخبر عودته إلى أميركا، زاد قلقه تجاه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليلى. لم تكن موجودة على الفايبر ولا الواتساب، ولا على أيٍّ من وسائل التواصل الأخرى عبر النت. ثم تفاجأ أنها حذفت صفحتها على الفيسبوك. اختفت أيضاً من تويتر. رَنَّ على رقم هاتفها في أميركا فكان خارج التغطية. لن يكون شيء من هذا مجرد صدفة. لقد غطست ليلى، وبقرار حاسم منها، في الظلام مرّة أخرى. اختفت دون توضيح أو تفسير، وتركته من جديد وكما هي عادتها، في دوامة من الشكوك والظنون.

ـ ٤ ـ

زاره زميل في الإذاعة وجلس معه في غرفته بالطابق الثاني. ظلَّ يتجاذب معه أخبار التطورات الأخيرة وتظاهرة التشييع للصحفي القتيل التي منعتْ وزارة الداخليّة إجراءها، وما جرى بعدها من تداعيات. ظلّا يرتشفان الشاي ويدخّنان، ثم صمت الزميل للحظات قبل أن يخبر علي بالنبأ الذي جاء من أجله:

ـ لقد وجدنا اسمك في قائمة التصفيات التي كُلِّف بها هذا الإرهابي، حسب إدّعائه، من قبل سلوان الصالح.

تفاجأ علي، لكنه ظلَّ صامتاً يُقَلِّب الكلام في رأسه، ثم أطفأ سيجارته في المنفضة على الطاولة الصغيرة بينه وصديقه، وردَّ بعد أن حضر في ذهنه أول تفسير مقنع بالنسبة له:

ـ ربما الموضوع كلّه مجرد فيلم. لقد تمَّ ترتيب هذا الأمر. لا يمكن الوثوق بما تقوله الحكومة.

ـ ممكن جداً. ولكن هذا الدخان خلفه نار.. اذا كان اسمي موجوداً في قائمة تصفيات حتى لو كذباً، سأهربُ بجلدي من البلد في اليوم التالي.

قال الصديق، ثم قبل مغادرته صافح علي بحرارة، وكرَّر أمامه نصيحة سمعها من أصدقاء آخرين خلال الفترة الماضية:

ـ أنت لم تتحسَّن منذ آخر مرّة رأيتك فيها. عليك أن تستريح وتستنشق هواءً خالياً من التوتر خارج بغداد. ولو لبضعة أيام.

كان علي يتحسّس هذا الإرهاق في نفسه. إنخفض وزنه، وزادت كآبته بسبب اختفاء ليلى، وفي المرّات القليلة التي خرج بها من البيت، على خلاف رغبة أخيه عمَّار، شعر بأنه لا يستطيع الخطو والمسير لمسافات كان يقطعها سابقاً بشكل معتاد. ثم صار يرى في كلِّ زاوية وشارع، وفي وجوه من ينظرون إليه من بلكونات العمارات أو من وراء زجاج السيارات، ملامح متهمين محتملين، أشخاصاً يمكن أن يرفعوا أيديهم فجأةً بسلاح يوجهونه نحوه، من دون الحاجة لسبب منطقي، لا بمسار الأحداث نفسها، ولا في الفكرة التي تدور برؤوس الناس.

حتى عامل الأسواق الشاب الذي يشتري منه السجائر وبعض المواد على مبعدة مئة متر من البيت، ظلَّ علي ينظر إلى وجهه ويرى فيه احتمالات قاتل مختبئ لم يستيقظ بعد. يمكن أن يجري حدثٌ معيّن فيتحوّل هذا الشاب الوديع بسببه إلى مجرم بطريقة أو بأخرى.

دخل إلى البيت ذات ليلة، ورأى عمَّار يُزيِّت بندقية كلاشينكوف، وحين سأله عنها، ردَّ بأنه مع هذه «الحديدة» فحسب يستطيع النوم براحة.

ـ هناك مسدس كلوك إذا أحببت خذه معك إلى الغرفة. نصف القلق الذي يبدو عليك سيختفي بمجرد أن تتحسّس برودة هذا المعدن بجوارك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رفض علي هذا الفكرة طبعاً. ورفض أيضاً فكرة أن يحمل سلاحاً معه حينما يخرج. ثم أنه لا يرى من معنىً لخروجه أصلاً. الفائدة شحيحة من تجواله من دون رغبة أو حماسة لهدف واضح، وستغدو الفائدة المشكوك بأمرها كارثة عظمى بالنسبة لعلي، حين تضعه أمام احتمال لتبادل إطلاق نيران بينه وشخص قد يستهدفه، وقد تنتهي هذه المواجهة، استناداً إلى الخيال المفرط لعلي، إلى مقتل الشخص المعتدي، وتحوّل علي إلى قاتل رغماً عنه.

يعرف علي أن جزءاً من هذه الأفكار هي هلوسات وكوابيس، وأنه، أكثر من أيٍّ شخص آخر، مؤهل للانقياد مع الكوابيس، فهي تستدعيه على مدار الساعة وتنادي عليه.

ظلَّ قابعاً في غرفته أغلب الوقت. لم يعد يتابع التلفزيون. يقرأ ويتناول وجبات خفيفة، ثم ينام. ينام لوقت طويل. ثم من دون اعتراض واضح من عمَّار، صار يجلب مشروباً إلى غرفته. ساعده الشرب على الاستغراق الطويل بالنوم. كان وكأنه يريد الدخول في الغيبوبة من جديد. لم يعد يكترث لمرور الوقت. ثم ذات مساء استيقظ نشطاً، ورأى أنها الساعة الرابعة فجراً. لم يتذكّر في أي وقت نام بالضبط، هل نام مبكراً أم أنه استغرق يوماً وليلة كاملين في النوم؟ لماذا لم يتدخَّل عمَّار ويحاول إيقاظه؟

أخرج قنينة ويسكي في قعرها القليل. سكب في كأس موجودة على الطاولة من دون أن يرى إن كانت نظيفة أم لا، فهو أحياناً يطفئ أعقاب سجائره في أيِّ شيء يكون قريباً من يده؛ استكان الشاي أو كأس فيها بقايا ماء أو مشروب.

ظلَّ يشرب ويدخِّن، ولم يشعل الضوء في الغرفة، وكأنه بذلك يريد تخدير نفسه للعودة إلى النوم من جديد، وخلال الظلام شعر

بوضوح برائحة وأجواء غرفة العزل الانفرادي في خريف ٢٠٠٢ التي يتذكَّر تفاصيلها جيداً. وكأنَّ السنوات التي مرَّت لم تكن سوى مجرد حُلم، وأنه ما زال في مكانه نفسه، داخل الزنزانة، وبعد نصف ساعة من الشرب الصامت صار يرى، تأكيداً لشكوكه، باباً مرسوماً بالطباشير على الحائط المقابل له. كان واضحاً بخطوطه الجبسيَّة البيضاء المتعرِّجة، التي رسمتها يدٌ متوترةٌ ومجنونةٌ تريد فتح باب نحو المستحيل.

- ٥ -

في اليوم التالي أخبره عمَّار بأن الباب الذي يريد أن يفتحه جاء إليه الآن، وليس عليه بذل جهد كبير لفتحه. إنه ليس باباً طبشورياً، وإنما بابٌ واقعي تماماً، لكن من النادر أن يظهر أمام الكثيرين، وهذا ما يستدعي أن نقدّر جيداً الفرص التي تعرض أمامنا ونغادر سلبيتنا قليلاً. قال عمَّار ذلك بانفعال وحماسة.

- لقد اتصلت «شاناز» بي أكثر من مرّة. تقول أنت لا تردُّ على اتصالاتها.

- ما الذي تريده منِّي؟

- إنها «الباب» الذي أتحدَّثُ لك عنه.

قال عمَّار بأنه تجاهل اتصالاتها سابقاً لأنه رأى علي مندفعاً بعلاقته مع ليلى. لم يرغب بتعكير الأجواء من حوله، هو يرغب أن يراهُ سعيداً بأيِّ صيغة كانت. لكن ما الذي يجري الآن؟ لقد اختفتْ هذه المرأة التي كان علي يتصل بها كلَّ يوم على مدى ساعات. يبدو علي تعيساً الآن. وليس هناك وقت كثير في هذا العمر من أجل قضائه في العزلة والشعور بالتعاسة. علينا أن نتحرَّك مع الحياة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالايقاع نفسه لحركتها، وإلّا ستركلنا بقدميها وتعبر فوقنا ولا تكترث لنا أبداً.

ـ هذه حياة بنت كلب.

كرَّر عمَّار هذا الوصف أكثر من مرّة، وهو يحاول إقناع أخيه بالفكرة التي صار مقتنعاً بها تماماً؛ لم تعد شاناز بالصورة نفسها قبل إفتراقها عن علي. إنها تريد الحديث معه لإبلاغه أنها غفرت له كل ذنوبه تجاهها، وخيانته لها أكثر من مرّة. قالت إنها بكت لليالي كثيرة بسبب الحادث الذي تعرّض له، وفرحت كثيراً حين علمتْ بسلامته، هي تعرف أكثر من أيِّ وقت مضى أنها تحبُّه بشدَّة، ومستعدة الآن لبدء صفحة جديدة، ولن تطالبه بعد اليوم بأيِّ شيء، لن تذكر أمامه موضوع الإنجاب. لقد شاهدت معاناة أختها مع أولاد ذوي قصور عقلي. لم تخترْ هذه الأخت هؤلاء الأولاد، ولكنها أخذت حصّتها من الحياة استناداً إلى خياراتها الخاصة. والحياة لعبة قِمَار كبيرة. شاناز لا تريد تجربة من هذا النوع، تريد علي فقط وهو كافٍ لها بأولاد أو من دون أولاد.

ـ قالت إنها أمّنت لك وظيفة صغيرة في مؤسسة إعلامية بأربيل، وستقيمان معاً في شقّة أجّرتها من مرتبها هناك. أهلها متفهمون لما تقوم به. البنت تحبك يا رجل.. هذا باب واقعي للهروب من بغداد والضغط النفسي هنا، كما إني بصراحة لا أعرف ماذا أفعل. أنا أيضاً لدي مليون قضية تشغل ذهني يا أخي، ولكني أتجاهل عادة كل مشاغلي من أجل قضية واحدة؛ سلامتك والاطمئنان عليك.

ـ ولكنها ستظهر مرّة أخرى. هذه هي خطّة القدر بيني وبيلى.. تختفي فأندمج بحياة مختلفة ثم تظهر لتخرّبها.

صفن عمَّار للحظات حتى يستوعب ردَّ علي، ثم فهم القصّة:

ـ تظهر أو ما تظهر. ليس لديك وقت لألاعيب المراهقين هذه. أنت تتقدّم بالعمر. عليك أن تتجاهلها تماماً.

قال عمّار ذلك منفعلاً، ثم همد قليلاً في محاولة لايجاد كلمات أخرى، وبعد لحظات خمَّن أنه يمكن أن يؤثر على أخيه أكثر لو اعترف أمامه:

ـ هل تتذكّر كوثر؟ ربما لا تتذكّرها. كانت تجلس في دكان أهلها في حيّنا. ربما لا تعرف بأني أحببتها، وصارت بيننا علاقة انتهت بزواجها المفاجئ من أحد أقاربها. كانت صغيرة حين زوّجوها. لم تبلغ السابعة عشرة بعد. كنت أدخل رأسي من الشبّاك الصغير في الدكان، ويبقى وجهي مسوَّراً ومحجوزاً بحديد الشبّاك، وهي من تأتي لتقبّلني. فعلنا ذلك ربما مئات المرّات. هل ترى؟! أنا أملك رومانسيات أيضاً. حزنت عليها وبكيت مع نفسي دون علم أحد. لكن كل شيء له نهاية.

ـ ٦ ـ

كانت التظاهرات قد اندلعت في بغداد منذ بضعة أسابيع، وصارت تتصاعد بشكل مخيف، حتى انتهت بتطويق المنطقة الخضراء. نجح علي مع شاناز باجتياز السيطرات الكثيرة التي قطّعت شوارع بغداد، ووصلوا أخيراً إلى الصالة الداخليّة لمطار بغداد، وهما يشعران بتهديد الوقت الوجيز المتبقّي قبل انطلاق طائرتهما إلى أربيل.

كانت آخر الأنباء التي تلقاها على تحديثات الفيسبوك تتحدّث عن القوة العسكرية بإمرة العقيد عبد العظيم حامد والتي تمَّ استدعاؤها من خارج بغداد لمزيد من الحماية للمنطقة الخضراء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن تطوراً مفاجئاً حدث مساء أمس مع تزايد الهتافات أمام إحدى بوابات المنطقة الخضراء. لم يستطع عبد العظيم إعطاء أيِّ أوامر لضرب المتظاهرين أو الاعتداء عليهم لمنعهم من التقدّم أكثر. بكى فجأةً أمام كاميرات المحمول التي يحملها بعض المتظاهرين. ثم إلتفت إلى الرجال بإمرته وأعلن بصوتٍ عالٍ أنه انضمَّ إلى المتظاهرين، ومن يريد الالتحاق به فأهلاً وسهلاً وإلّا فهو غير مسؤول عنهم وعمَّا يفعلونه بعد الآن.

كانت لحظة عاطفيّة متأجِّجة، ومثل سريان النار في الهشيم صارت صور عبد العظيم تتكرَّر على صفحات الفيسبوك مشبّهين إيّاه بالحرِّ الرياحي. تحوّل وبظرف ليلة واحدة إلى «زعيم» وطني، يؤدي بكلام وحركات مسرحيّة في مقاطع الفيديو على النت أشياءَ مؤثرة ألهبت مشاعر الجميع. ربما هي اللحظة التي تمنَّاها عبد العظيم. هذه خشبة المسرح التي انتظرها طويلاً وها هو يقف عليها الآن ويمثّل أفضل أدواره.

شدَّ علي على يد شاناز وهما يتقدَّمان في طابور التفتيش، فاستدارت بوجهها نحوه وابتسمت. شعر بالطمأنينة، وأنه كلّما نظر إلى عينيها العسليتين يبتعد خطوة أكثر عن كوابيسه المظلمة. وها هما يبتعدان كلاهما عن بغداد المقبلة على مغامرة رومانسيّة مفتوحة على الاحتمالات.

أمام شريط فحص الحقائب، وضعت شاناز حقيبتها الكبيرة ثم هاتفها المحمول وساعتها اليدويّة وخواتمها وأغراض معدنيّة أخرى في وعاء بلاستيكي. ومن خلفها كان علي ينزع حزامه ويستعد لوضع حقيبته على الشريط المتحرِّك حين سمع صوت تنبيه الرسائل في هاتفه.

أخرج هاتفه من جيبه ونظر إلى شاشته. كانت رسالة من رقم غريب. رقم دولي طويل. فتح الرسالة بسرعة وقرأها. كانت قصيرة وحاسمة مثل رصاصة:

«بيبي.. لقد دخل سلوان ليلة أمس إلى مستشفى فيبرا بسبب مضاعفات إصابته بسرطان الكبد.»

شعر علي فجاةً أن كلَّ شيء اختفى من حوله للحظات وظلَّ متسمِّراً أمام شاشة المحمول. حتى نبَّهه عجوز يسير خلفه بضرورة التحرّك. لاحظ أن شاناز عبرت إلى الجهة الثانية من حاجز التفتيش، ورفعت حقيبتها الكبيرة من شريط الفحص. وضع هاتفه المحمول مع أشياء أخرى في وعاء بلاستيكي. ودفعه بعد حقيبته على الشريط.

فتّشه الحرس يدويّاً بعد السونار، ثم رفع الوعاء البلاستيكي وحقيبته وصار يربط حزامه، وحين حمل أغراضه من الوعاء انتبه أن هاتفه غير موجود. عاد وسأل عنه الموظف أمام شاشة جهاز الفحص، فقال له بأنه سينظر، ربما وقع من الشريط المتحرِّك.

اقتربت شاناز وأخبرت علي بأن موعد الطائرة أَزِفَ، وأن الأخبار مقلقة. عليهما ألّا يفوِّتا هذه الطائرة، فلربما لن يتمكَّنا من الخروج من هذا المطار أبداً، حتى ولو من أجل العودة إلى بيت عمَّار.

زوج ليلى في المستشفى بسبب السرطان. سيموت إذن. لم ترسل له هذه الرسالة إلّا لأنَّها متأكِّدة تماماً من زوال الحواجز بينها وعلي أخيراً. هذه هي اللحظة التي كانا ينتظرانها. أليس كذلك؟!

كانت الأفكار تزدحم في رأسه وهو يبحث عن هاتفه، ثم عثر عليه محطَّماً قبل حاجز التفتيش. لم ينتبه، مع انشغاله بمفاجأة رسالة ليلى، أنه رماه بجوار السلَّة البلاستيكيّة وليس فيها، فهوى إلى الأرض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حمل هاتفه الذي غدا أربع قطع ووضعه في جيب سترته، ثم تقدم مع شاناز داخل صالة المسافرين. أمسكت هي بيده، وكأنها شعرت غريزيّاً بالتهديد الذي دخل بينهما منذ دقائق. ظلّت ممسكة بيد علي وبدت وكأنَّها تجرُّهُ وهو يسير بخطوات مرتخية مع إعصار يدور في رأسه. ثم، حتى يكتمل مشهد الجنون تماماً، خيِّل إليه أنه شاهد رجلاً عجوزاً يعبر من حاجز المغادرة وختم الجوازات. ابتسم بوجهه من بعيد دون سبب واضح ورفع يده محيياً. كان يشبه الدكتور واصف عبد المحيي.

قالت شاناز بأن كاونتر الطائرة سيُغلق بعد قليل، حين طلب منها علي أن يتوقَّف ويجلس على كرسي معدني مجاور. إنه بحاجة للحظة صمت حتى يستجمع ذاته.

ـ لا وقت لذلك. سنجلس في الصالة الداخلية بعد انتهاء الاجراءات.

ربما هو الآن في العالم السابع، حسب كلام سدخان. العالم المثالي جداً الذي تتدخل فيه يدُ القدر حسب مزاج علي فيصيب زوج ليلى بسرطان الكبد، أو ربما هو يستدعي هلاوس العجوز سدخان بسبب وقوفه الآن أمام مفترق طرق بين عالمين؛ ويشعر أن دماغه تعطّل ولم يعد قادراً على إتخاذ قرار سريع.

ـ ٧ ـ

تذكَّر، مع وجه دكتور واصف الذي ظهر أمامه منذ دقيقتين، التعويذة الرابعة «إسبح مع الزمن. لا تتعلَّق بالأشياء. قدِّر الزمن لأنه ينقضي ولا يمكن استرداده».

«إسبح مع الزمن إذن، ثم فكِّر لاحقاً بما جرى لك الآن» قال

لنفسه وكأنه يشرع في اختراع تعويذاته الخاصة، متحرِّكاً لاتمام الاجراءات على عجل. بعدها بربع ساعة كانا هو وشاناز آخر راكبين صعدا إلى الطائرة. وحين جلس على كرسيه واستراح فيه تحسَّس الهاتف المحطّم في جيبه، وصوتٌ في رأسه يطالبه أن يبقي هذا الهاتف على حالته هذه أطول فترة ممكنة.

سيفكِّر على مهلٍ خلال الأربعين دقيقة التي يستغرقها تحليق الطائرة حتى مطار أربيل، أو خلال الأيام أو الأسابيع أو الأشهر القادمة قبل اتخاذ قرار يراه مناسباً. أو يدع يد القدر، كما فعلت ذلك كثيراً في حياته، هي من تضغط على زرِّ القرارات نيابةً عنه.

ـ أتعرفين.. لقد عرفت الآن أين هو هذا «العالم السابع».

كانت شاناز مشغولة بالنظر من شباك الطائرة حين سمعت كلامه، افترضت أنه يتحدّث عبر الهاتف، أو يخاطب شخصاً خفيّاً أمامه. نظرت إليه لترى إن كانت هي المقصودة بالكلام:

ـ أي عالم سابع؟!

كان همودٌ عجيبٌ يخدِّر حواسَّه في تلك اللحظات، وشعر بأن ذهنه صار أصفى من السماء التي ستنطلق الطائرة اليها عابرة الغيوم المتقطِّعة. نظر إلى شاناز وتحدَّث من دون أن يكترث لتواصلها معه:

ـ العالم السابع هو ذلك العالم الذي نتخذ فيه نحن القرارات ولا نتركها للآخرين. هو العالم الذي نصنعه بأيدينا ونتحمَّل مسؤولية صناعته. إنه العالم الموجود دائماً في كلِّ العوالم، لا نراه غالباً بوضوح أو لا نعترف بوجوده.

أرادتْ شاناز فتح فمها بسؤال آخر لكنه كانت على حافّة قلق بالغ يتعلّق بإقلاع الطائرة، فمن الممكن أن يحدث خلال الدقائق القادمة ما يُعطّل رحلتهما. إنها تعي جيداً هذه الإمكانيات شبه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستحيلة وكيف يمكن أن تحدث هنا في بغداد من دون مقدمات، وهذا عندها شاغلٌ أقوى من هلاوس زوجها العائد إليها حديثاً من رحلتين؛ طلاق وغيبوبة أتلفت خلايا مخِّه. لقد أخبرها عمَّار، عبر الهاتف، خلال محادثاتها الاولى معه، والتي انتهت بعودتها إلى علي، بكلِّ التفاصيل الطبيّة المتعلِّقة بحالة علي. كان عمَّار يرغب أن يكون صادقاً ويضعها أمام صورة واضحة؛

ـ خلايا المخ لا تتجدّد ولا تنمو من جديد كما تعلمين، وهذه الطلقة الناريّة العجيبة لم تمزِّق شرياناً رئيساً في دماغ علي لحسن الحظ، ولكنها أحرقت بعض الخلايا على طول مسار الإطلاقة داخل الرأس. ومن هو في مثل حالته الطبيّة النادرة لن يعود إلى وضعه السابق أبداً، وترافقه مثل ظلّه مجموعة من علاجات وأدويّة مرضى الصرع والفصام.

ما هو الشيء الذي يضطرّها بقوّة للعودة إلى شخص في مثل حالته؟ قد لا يقدّر علي ذلك حق قدره أبداً. إنّه الحبُّ. هي تحبّه، ومستعدة للقبول به مهما كانت حالته الصحيّة. مستعدة أن تتعايش مع تفاصيل قصّة عجيبة رواها لها على مدى الأيام الثلاث الماضية، بدافع من الصراحة الشديدة مع زوجته، ورغبته ببدء صفحة جديدة من دون أسرار أو أشياء خفيّة. وجدت نفسها تدخل في عقد غريب معه، غير عقد الزواج الذي جدَّداه في محكمة الكرخ، عليها أن تتفاعل بجديّة مع العالم الذي يعيش فيه زوجها، ولا يريد العودة منه إلى عالمها الواقعي.

ها هي ترى نفسها، بسبب القلق الفائض ربما وتأخُّر إقلاع الطائرة، تخرِّب هذا العقد الخفي جزئياً. نظرت اليه وقالت:

ـ ربما أنت من صنع كلَّ هذه العوالم يا علي، وهذه

الشخصيات. . دكتور واصف، سدخان، حتى إنك لم تريني صورة شخصية لليلى. ولو على النت أو الفيسبوك. !

- لقد قلت لك إنها أغلقت حساباتها.

- لو إلتزمت بالأدويّة والعلاج ستتبخّر كلُّ هذه العوالم التي تحكي عنها.

- نعم، وربما ما زال جسدي هناك في الغيبوبة ولم أصحُ منها. كيف يصحو من الغيبوبة من تخترق إطلاقة رأسه؟! هل تصدِّقين بذلك؟

- سيكون كل شيء على ما يرام. تأكّد من ذلك. إرتح يا علي.

قالت شاناز وهي تضغط على يده بعد أن تأكّدت أن الطائرة بدأت بالحركة على المدرج، فأغمض علي عينيه مستسلماً لاختلال الضغط، متحسِّساً الإقلاع المرتجّ للطائرة. تناوم وهو يتخيَّل كيف أن الطائرة صارت تمرُّ عبر بوابة هائلة في السماء مرسومة بأعمدة من الغيوم البيضاء لتعبر إلى عالم آخر.

دخل سريعاً بعدها في نوم يشبه الغيبوبة لم يحظَ بمثله من قبل.

* إنتهت في بغداد، أيلول/ سبتمبر ٢٠١٦

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إشارات

ـ أغلب الشخصيات والأحداث الأساسية في الرواية من نسج الخيال، وأي تشابهات بينها وأحداث وشخصيات واقعية هو أمر غير مقصود.

ـ النصوص المكتوبة باللغة السومرية وبالحروف العربية، مختلقة وغير حقيقية وقام بترجمتها، مشكوراً، من العربية إلى السومرية عالم الآثار والسومريات الدكتور عبد الأمير الحمداني.

ـ الشكر موصول لعدد كبير من الأساتذة والأصدقاء ممن ساعدوا في جمع المعلومات أو أفادوا، على مدى عامين ونصف، في النقاشات حول مسوّدات الرواية ومراجعتها، وتأشير الملاحظات، والتشجيع والدعم المعنوي، ولكل من ساهم ولو بجهد بسيط بإخراج هذه الرواية بصورتها الحالية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الكتاب

لقد مات، أو هكذا أحسّ بنفسه، حين صار يرى حائطاً كبيراً، ورجلاً عجوزاً ضامراً يتقدّم الى الحائط ويرسم بالطبشور الأحمر أبواباً واسعة، ثم يدعوه بحركة من يده إلى التقدّم وفتح باب منها إن استطاع. فهناك في الخلف يستطيع أن يرى عالماً أفضل. مع ملاحظة هامة لتعريف هذا الوصف «عالم أفضل»، فهو بالتحديد؛ ذلك العالم الذي ترى فيه أنك قادرٌ على القيام بشيء، هو العالم الذي تملك فيه دوراً واضحاً ويقدّر الآخرون جهدك الذي تبذله، وتشعر أنك تساهم في الخير وحصيلة الأعمال الجيدة. هو العالم الذي يغدو فيه تقدُّم الزمن وبذل الجهد طريقاً معبّدة باتجاه «معنى الحياة». وهذه كلّها أشياء صار «علي» يفتقدها أو غير واثق من أنه على صلة بها.

لوحة الغلاف: الفنان علي آل تاجر

مكتبة بغداد





https://telegram.me/maktabatbaghdad